

القطعة الاولى من تفسير الامام ابى القسم
الراغب الاصفهانى
رحمه الله تعالى

قيد شد

عدد اوراق ۲۷۶

عدد سطر ۲۵

[illegible]
مقدم [illegible]

٢١٧

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

قد وقف هذه النسخة المستطابة حضرة سلطاننا الأعظم والخاقان الأكرم
غياث الإسلام والمسلمين السلطان ابن السلطان السلطان الغازي
محمود خان لا زالت أوراق حسناته مرفوعة إلى آخر الأيام وأنا الفقير
إلى الله ربه المستعان نعمة الله المفتش
بأوقاف الحرمين الشريفين المحترمين
عفي عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على الائه وصلى الله على النبى محمد واوليائه ونساله ان يجعلنا
ممن ابتداه بفضله ونعمته واعقبه برافته ورحمته وان يجعلنا ممن اسبل
عليه نور عصمة الانبياء وحصن قلوبهم بطهارة النقاء انه لطيف
لما يشاء قال الشيخ ابو القسم الراغب رحمه الله تعالى القصد
فى هذا الاملاء ان نفس الله فى العمر ووقانا من نوب الدهر وهو مرجو
ان يسعفنا بالامرين ان نبين من تفسير القران وتاويله نكتا بارعة
تنطوى على تفصيل ما اشار اليه اعيان الصحابة والتابعين ومن دونهم
من السلف المتقدمين رحمهم الله بجملة ونبين من ذلك ماينكشف
عنه السر ويثلج به الصدر وفقنا الله لمرضاته برحمته وجعل سعينا مسعودا
وفعلنا فى الدارين محمودا فمنه يستجلب مبدا التوفيق ومنتهاه
فصول لابد من بيانها فى مبدا الكتاب فصل فى بيان ما وقع فيه الاشتباه
من الكلام المفرد والمركب الكلام ضربان مفرد ومركب فالمفرد المسمى
بالاسم والفعل والحرف وذلك بالوضع الاصطلاحى سمى بذلك
فاما بالوضع الاول فكله يسمى اسما ويحق ان صار ثلثة اقسام فان
الكلام اما ان يكون مخبرا عنه وهو الملقب بالاسم واما خبرا
وهو الملقب بالفعل واما رابطا بينهما وهو الملقب بالحرف والقسمة
لا يقتضى غير ذلك وما كان من الخبر نحو فاعل ومُفعِل والبصريون
يسمونه اسما اعتبارا باحكام لفظية لانه يدخله ما يدخل الاسماء
من التنوين والجر وحروفه والالف واللام ويخبر عنه والكوفيون

يسمونه

يسمونه الفعل الدائم اما الفعل فاعتبارا بالمعنى وهو ان قائما فيه
معنى يقوم واما الدائم فلانه يصلح للازمنة الثلثة وان كان
الحال اولى به فى اكثر المواضع والاصل فى الالفاظ ان تكون
مختلفة بحسب اختلاف المعانى لكن ذلك لم يكن فى الامكان اذ
كانت المعانى بلا نهاية والالفاظ مع اختلاف تركيبها ذات نهاية
وغير المتناهى لا يحويه المتناهى فلم يكن بد من وقوع اشتراك فى
الالفاظ ويجب ان يعلم ان للفظ مع المعنى خمس احوال الاول ان
يتفقا فى اللفظ والمعنى فيسمى اللفظ المتواطئ نحو الانسان اذا استعمل
فى زيد وعمرو والثانى ان يختلفا فى اللفظ والمعنى ويسمى المتباين
نحو رجل وفرس الثالث ان يتفقا فى المعنى دون اللفظ ويسمى
المترادف نحو الحسام والصمصام الرابع ان يتفقا فى اللفظ ويختلفا
فى المعنى ويسمى المشترك والمتفق نحو العين المستعملة فى الجارحة
ومنبع الماء والذهب بان وغير ذلك والخامس ان يتفقا فى بعض اللفظ
وبعض المعنى ويسمى المشتق نحو ضارب وضرب والذى يقع فيه الاشتباه
من هذه الخمسة الالفاظ المشتركة والالفاظ المتواطئة هل هى عامة او خاصة
والمشتقة ثم اشتق كقولهم النبى والبرية منهم من قال من انبأ وبرأ فترك
الهمز ومنهم من النبوة وهى الربوة ومن البرا وهو التراب فصل فى اوصاف
اللفظ المشترك اللفظ انما يحصل فيه التشارك بان يستوى اللفظان
فى ترتيب الحروف وعددها وحركاتها ويختلفا فى المعنى نحو عين
وكلب فاما اذا اختلف نحو حلم وحمل او العدد نحو الفنا والفناء وقدر
وقدرا والحركة نحو قدم وقدم او لم يختلفا فى المعنى نحو الانسان
اذا استعمل فى زيد وعمرو فليس شئ من ذلك من الاسماء المشتركة
فان الذى اختلف فى العدد ربما كان من المشترك نحو ضارب
وضرب وربما كان من المتباينة نحو الفنا والفناء وربما كانت الكلمة
صورتها صورة المشترك فى اللفظ ويكون من المشتقة لاختلاف تقديرهما

نحو المختار اذا كان فاعلا فان تقديره مفتعِل واذا كان مفعولا
فان تقديره مفتعَل وكذا فلان منحل وامر منحل فيه والفلك اذا كان
واحداً كقُفل واذا كان جمعا فانه كوُثُنٍ وناقة هجان وامراة ضنال
فانها كحمار ونوق هجان كقوم كرامٍ وعلى ذلك هم يغزون نحو يخرجون
وهن يغزون نحو يخرجن وانت تقصين نحو تشتمين وانتن تقصين
نحو تشتمين ونحو دبرٍ مصدر دَبَرَ وجمع الدابر نحو ركب وكثيرا ما يلتبق فرعان
بوضعنا اللفظين متفقين في الصيغة وهما مختلفان في المعنى نحو المصبح
لما يشرب منه الصبوح ولما يشتق من صبحت اي اسرجت واشكى
لاظهار الشكوى ولاتخاذ شكوة اللبن **فصل الاشتراك في اللفظ**
يقع لاحد وجوه اما ان يكون في لغتين نحو الصقر للبن اذا بلغ غاية
الحموضة في لغة اكثر العرب والصقر الدبس في لغة اكثر اهل المدينة
واما ان يكون احدهما منقولا عن الاخر او مستعارا والفرق بينهما
ان المنقول هو الذي ينقله اهل صناعة ما عن المعنى المصطلح عليه
اولاً الى معنى اخر فقد تفردوا بمعرفته فيبقى من بعد مشتركا بين
المعنيين على ذلك الالفاظ الشرعية نحو الصلوة والزكوة والالفاظ
التي يستعملها الفقها والمتكلمون والنحويون واما المستعار فالاسم
الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى اخر له اسم وضع غيره فتستعمله فيه
لمواصلة توجد بين المعنيين كتسمية الشجاع بالاسد والبليد
بالحمار والفرق بين حكم المنقول والمستعار ان المنقول شرطه ان تتبع
فيه اهل تلك الصناعة والمستعار لكل احد ان يستعيره فيستعمل اذا
قصد معنى صحيحاً فيكون متضمنا لمعنى التشبيه نحو ان تقول ركبت
برقا فتعني به فرسا كالبرق سرعة ورايت بحرا اي سخيا كالبحر **واما المشتق**
فشرطه ان يشارك المشتق منه في حروفه الاصلية ويوجد فيه بعض
معناه ويخالفه اما في الحركات نحو ضرب وضرب او في الزوايد من
الحروف نحو ضرب وضارب واستضرب او في التقدير نحو المختار

اذا كان

اذا كان فاعلا او مفعولا وساير ما تقدم فقد بان بهذه الجملة انواع
مفردات الفاظ وما يقع فيه الاشتباه **واما المركب** من اللفظ فما ركب
من هذه الثلثة والتركيب على ضربين تركيب يحصل به جملة مفيدة وذلك
اما في اسمين او في اسم وفعل او تقدير ذلك وتركيب لا يحصل به ذلك
ويكون اما من اسمين يجعلان اسما واحدا نحو خمسة عشر وبعلبك او
اسم مضاف الى اسم نحو عبد الملك او اسم وفعل نحو تابط شرا او اسم
وصوت نحو سيبويه او فعل وحرف نحو هلم او حرفين نحو انما او من جمل
من الكلام وذلك لا يكون الا بحذف بعضها نحو بسملة وحيعلة وحوقلة
في قولهم بسم الله وحي على الصلوة ولا حول ولا قوة الا بالله وجميع ما يقع
فيه الشبهة من الكلام المركب لا يخ اما ان يكون لشئ يرجع الى مفردات
الكلام وذلك على التفصيل المتقدم واما لشئ لا يرجع الى ذلك وذلك
لا يخ اما ان يكون من جهة المعنى او من جهة اللفظ فاما ما كان من جهة
المعنى فلا سبيل الى ازالته بتعيين العبارات وذلك ان المعاني
ضربان جلي وغامض فالجلي ما يمكن ادراكه بادنى تامل كقوله تعالى
اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وقوله تعالى قل تعالوا
اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً الى قوله ذلكم وصيكم به
لعلكم تتقون **واما الغامض** فعلى ثلثة اضرب الاول ان يكون
المعنى في نفسه خفيا نحو الكلام في صفات الباري سبحانه ونفي التشبيه
عنه والثاني ان يكون الكلام اصلا يشتمل على فروع يتشعب منه
كالايات الدالة على الاحكام الثالث ان يكون مثلا او ايماء كقولهم
في الصيف ضيعت اللبن وذلك لان ظاهره ينبئ عن شئ والمقصود
غيره وذلك في القران كقصة موسى مع الخضر في كسر السفينة وقتل
النفس الزكية بغير نفس واقامة جدار من غير نفع ظاهر وكقصة
الخصمين اذ دخلوا على داود ففزع منهم وكقوله واذا وقع القول
عليهم اخرجنا لهم دابة الارض تكلمهم واللفظ ايضا ضربان لفظ جلي

وهو ان يقع كيفيات اللفظ وكمياته على حسب ما يجب نحو الحمد لله رب
العالمين ولفظ غامض وذلك من ثلثة اوجه اما من جهة الكيفية
وذلك بتقديم ما يقدر تاخيره او تاخير ما يقدر تقديمه نحو قول الشاعر
وما مثله فى الناس الا مملكا ابو امه حى ابوه يقاربه وعلى ذلك قوله
تعالى لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم
منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا
الذين كفروا واما من جهة الكمية وذلك اما من جهة البسط فى الكلام
او من جهة الحذف والايجاز فما كان من جهة البسط فكقوله تعالى
ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق الاية وكقوله ضرب لكم مثلا
من انفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم
فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم وما كان من جهة
الايجاز والحذف فكقوله ولكم فى القصاص حيوة واما من جهة
الاضافة وذلك بحسب اعتبار حال المخاطب نحو قولك افعل فى الطلب
والشفاعة والامر **فصل** فى الافات المانعة من فهم المخاطب مراد
المخاطب الافات المانعة من ذلك ثلثة الاولى راجعة الى الخطاب
اما من جهة اللفظ او من جهة المعنى وقد تقدم ذلك والثانية
راجعة الى المخاطب وذلك لضعف تصوره لما قصد الابناء عنه وخطاب
الله عز وجل منزه عنها والثالثة راجعة الى المخاطب وذلك اما لبلادة
فهمه عن تصور امثال ذلك من المخاطبة واما لشغل خاطره بغيره
وذلك وان كان موجودا فى بعض المخاطبين بالقران فغير جائز
ان يشمل كافة المخاطبين اذ من المستبعد ان يكون الناس قاطبة
لا يفهمونه **فصل** فى عامة ما يوقع الاختلاف ويكثر الشبه وذلك
ثلثة اشياء حق العالم ان يعنى بتهذيبها وسد الثلم المتشعبة عنها احدها
وقوع الشبه من الالفاظ المشتركة وقد تقدم والثانى اختلاف النظرين
من جهة الناظرين وذلك كنظر فرقتى اهل الجبر والقدر الى الجبر والقدر فقالوا

فقالوا

فقالوا الافعال كلها من جهة البارى سبحانه اذ لولاه لم يوجد شئ
منها وقال اهل القدر ان الممكنات من جهتنا حيث اعتبروا السبب الاخير
وهو المباشر للفعل دون السبب الاول والثالث اختلاف نظر الناظرين
من اللفظ الى المعنى او من المعنى الى اللفظ وذلك كنظر الخطابى الى اللفظ
فى اثبات ذوات الاشياء ونظر الحكماء من ذوات الاشياء الى الالفاظ
وذلك نحو الكلام فى صفات البارى عز وجل فان الناظر من اللفظ وقع
عليه الشبهة العظيمة فى نحو قوله تعالى بل يداه مبسوطتان وقوله
تجرى باعيننا وما يجرى مجراه واهل الحقايق لما بينوا بالبراهين ان
الله تعالى واحد منزه عن التكثير فكيف عن الجوارح بنوا الالفاظ
على ذلك وحملوها على مجاز اللغة ومساغ الالفاظ فيمنوا عما وقع فيه
الفرقة الاولى **فصل** فى اقسام ما ينطوى عليه القران من انواع الكلام
وقد تقرر ان انواع الكلام المركب الخبر والاستخبار والامر والنهى والطلب
والشفاعة والوارد فى كلام الله تعالى من ذلك الخبر والامر والنهى
وذلك ان علام الغيوب لا يحتاج الى الاستخبار الا على الحكاية او على
الانكار والتوبيخ والمولى لا يطلب من عبده ولا يتشفع اليه فاذن
هذه الثلثة ساقطة فى القران والخبر ما ينطلق عليه الصدق والكذب
وخاصيته ان يتعلق بالازمان الثلث والامر والنهى لا ينطلق عليهما ذلك
ولا يتعلقان الا بالمستقبل وفائدة الخبر ضربان احدهما القاء ما ليس عند
المخاطب اليه ليتصوره نحو امور الاخرة من الثواب والعقاب والثانى
القاء ما قد تصوره ليتاكد عنده وعلى ذلك جميع ما ورد فى القران
مما قد علم بالعقل مثل الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد وفائدة
الامر والنهى شيئان احدهما حث المخاطب على اكتساب محمود واجتناب
مذموم والثانى حثه على الوجه الذى به يكتسب المحمود ويجتنب المذموم
المقرران عند المخاطب والغرض الاقصى من الخطاب الخبرى ايصال
المخاطب الى الفرق بين الحق والباطل ليعتقد الحق دون الباطل

وكل ما ورد من الفاظ الاستخبار م

ومن الامر والنهى ان يفرق بين الجميل والقبيح ليتحرى الجميل ويجتنب
القبيح وكل خبر فاما ان يكون معربا عما يلزم اعتقاده فيسمى الخبر
الاعتقادى وذلك نحو ما ينطوى عليه قوله ومن يكفر بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الاخر الآية واما ان يكون مبينا عما يقتضى الاعتبار
به فيسمى الخبر الاعتبارى كاخبار الانبياء واممهم والقرون الماضية
والاخبار عن خلق السموات والارض وكل امر ونهى فاما ان يكون امرا
بما يقتضى العقل حسنه ونهيا عما يقتضى العقل قبحه فيسمى الاوامر
والنواهى الشرعية والفرق بين العقلى منها والشرعى ان العقلى لا يتغير
على مرور الايام ولا ينسخ فى شئ من الازمان والشرعى ما يتسلط عليه
النسخ والتبديل بحسب ما يتعلق به من المنافع **فصل فى كيفية بيان القران**
اعترض بعض الناس فقال كيف وصف القران بالبيان فقال تعالى
هذا بيان للناس وقال يبين الله لكم ان تضلوا وقال بلسان عربى
مبين وقال لقد انزلنا اليكم ايات مبينات وقد علم ما فيه من الاشكال
والمتشابه وما يجرى مجرى الرموز نحو قوله تعالى وما انزل على الملكين
ببابل هاروت وماروت وقوله حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم
من كل حدب ينسلون وقد وصفه تعالى بالمتشابه وبانه لا يعلم
تأويله الا هو فالجواب ان البيان المشروط فيه انما هو بالاضافة الى
اعيان ارباب اهل الكتاب لا الى كل من يستمعه ممن دب ودرج فقد
علمنا ان ذلك ليس ببيان لمن ليس من اهل العربية ثم احوال اهل
العربية مختلفة فى معرفته ولو كان البيان لا يكون بيانا حتى يعرفه
العامة لادى الى ان يكون البيان فى كلام السوقى العامى والى ان لا يكون
بيان بوجه اذ كل كلام بالاضافة الى قوم بيان وبالاضافة الى
اخرين ليس ببيان وقد علم ان قوله تعالى واما تثقفنهم فى الحرب
فشرد بهم من خلفهم وقوله واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم
على سواء ومن اشرف كلام ولا حظ فى معرفته لمن لم يتوفر نصيبه

العقلية او امرا بما يقصر عقولنا عن معرفة حسنه ونهيا عما تقصر عقولنا عن معرفة قبحه فيسمى الاوامر والنواهى صح

من

من البلاغة وكذلك قول الشاعر فاقطع لبانة من تعرض وصله
وقول الاخر وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك اطراف الخطوب
ولا آل من افصح الكلام ولا يعرفه جميع الانام ثم ان القران وان كان
فى الحقيقة هداية للبرية فانهم لن يتساووا فى معرفته وانما يحظون به
بحسب درجاتهم واختلاف احوالهم فالبلغاء تعرف من فصاحته
والفقهاء من احكامه والمتكلمون من براهينه العقلية واهل الاثار
من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه وقد علم ان الانسان بقدر
ما يكتسبه من قوته فى العلم يتزايد معرفته بغوامض معانيه وعلى ذلك
اخبار النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه السلام نضر الله امرءا
سمع مقالتى فوعاها كما سمعها حتى يؤديها الى من لم يسمعها فرب مبلغ اوعى
من سامع **فصل فى الفرق بين التفسير والتاويل** الفسر والسفر يتقارب
معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل الفسر لاظهار المعنى المعقول ومنه
قيل لما ينبئ عنه البول تفسرة وتسمى بها قارورة الماء وجعل السفر
لابراز الاعيان للابصار فقيل سفرت المرأة عن وجهها واسفر
الصبح وسفرت البيت اذا كنسته والتاويل من آل يؤول اذا
رجع والتفسير اعم من التاويل واكثر ما يستعمل التفسير فى الالفاظ
والتاويل فى المعانى كتاويل الرؤيا والتاويل يستعمل اكثره فى الكتب
الالهية والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها والتفسير اكثره يستعمل فى
مفردات الالفاظ والتاويل اكثره يستعمل فى الجمل فالتفسير اما ان يستعمل
فى غريب الالفاظ نحو البحيرة والسائبة والوصيلة او فى وجيز يبين
ويشرح كقوله اقيموا الصلوة واتوا الزكوة واما فى كلام مضمن بقصة
لا يمكن تصوره الا بمعرفتها نحو قوله انما النسئ زيادة فى الكفر وقوله
ليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها الآية واما التاويل فانه يستعمل
مرة عاما ومرة خاصا نحو الكفر المستعمل تارة فى الجحود المطلق وتارة فى جحود
البارى خاصة والايمان المستعمل فى التصديق المطلق تارة وفى تصديق

دين الحق تارة واما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة نحو لفظة
وجد المستعمل فى الجدة والوجد والوجود والتاويل نوعان مستكره
ومنقاد فالمستكره ما يستبشع اذا سبر بالحجة ويستقبح بالتدليسات
المزخرفة وذلك على اربعة اضرب الاول ان يكون لفظ عام فيخصص فى
بعض ما يدخل تحته نحو قوله تعالى وان تظاهرا عليه فان الله هو
مولاه وجبريل وصالح المؤمنين حمله بعض الناس على على بن ابى
طالب رضى الله عنه فقط والثانى ان تلفق بين اثنين نحو قول
من زعم ان الحيوانات كلها مكلفة محتجا بقوله وان من امة الا خلا فيها نذير
وقد قال وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم
انهم مكلفون كما نحن مكلفون والثالث ما استعين فيه بخبر مزور
او كالمزور كقوله تعالى يوم يكشف عن ساق قال بعضهم عنى به
الجارحة مستدلا بحديث موضوع والرابع ما يستعان فيه باستعارات
واشتقاقات بعيدة كما قال بعض الناس فى البقر انه انسان يبقر
عن اسرار العلوم وفى الهدهد انه انسان موصوف بجودة البحث والتنقير
فالاول اكثر ما يروج على المتفقهة الذين لم يتقووا فى معرفة الخاص
والعام والثانى على المتكلم الذى لم يتقو فى معرفة شرايط النظم
والثالث على صاحب الحديث الذى لم يتهذب فى شرايط قبول
الاخبار والرابع على الاديب الذى لم يتهذب بشرايط الاستعارات
والاشتقاقات والمنقاد من التاويل ما لا يعرض فيه البشاعة
المتقدمة وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين فى العلم لاحدى
جهات ثلث اما لاشتراك فى اللفظ نحو قوله تعالى لا تدركه
الابصار هل هو من بصر العين او من بصر القلب واما لامر راجع
الى النظم نحو قوله واولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا هل هذا
الاستثناء مقصور على المعطوف او مردود اليه والى المعطوف
عليه معا واما لغموض المعنى ووجازة اللفظ نحو قوله وان عزموا الطلاق

فان الله سميع عليم والوجوه التى يعتبر فيها تحقيق امثالها
ان ينظر فان كان ما ورد فيه ذلك امرا او نهيا عقليا فزع
فى كشفه الى الادلة العقلية فقد حث تعالى على ذلك فى قوله كتاب
انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب
وان كان امرا شرعيا فزع فى كشفه الى اية محكمة او سنة مبينة
وان كان من الاخبار الاعتقادية فزع الى الحجج العقلية وان كان
من الاخبارية فزع الى الاخبار الصحيحة المشروحة فى القصص

فصل فى الوجوه التى بها يعبر عن المعنى ويتبين بها ما كان المعنى
الواحد يقرب من الافهام بعبارات مختلفة لاغراض متفاوتة
وجب ان يتبين الوجوه التى منها يختلف العبارات عن المعنى الواحد
فالمعنى الواحد قد يدل عليه باشياء كثيرة اما باسمه نحو انسان
او نسبة نحو آدمى وولد حوا او باحد خصايصه اللازمة له نحو
المنتصب القامة او الماشى برجليه او العريض الاظفار واما بفعل له
اللازم كقولك الناطق المائت وكما يبين الشئ باوصاف كثيرة كذلك
قد تبين باسماء كثيرة متضمنة لاوصاف مختلفة كقولك فى اجرام
العلوى السماء لما اعتبر ارتفاعها بالاضافة الى الارض والجرباء
لما اعتبر نجومها وانها كجرب فى الجلد والخلقاء والملساء لما
اعتبر بجمالها عند فقدان نجومها بالنهار والرقيع تشبيها بالثوب
المرقوع لظهور نجومها ظهور الرقاع فى المرقع والخضراء لما اعتبر
لونها وعلى ذلك قولهم الزوج لما اعتبرت بازدواجها بالرجل
والظعينة لما اعتبر ظعنها معه والقعيدة لما اعتبرت بقعودها
فى البيت او بكونها مطية له كالقعود من الجمال والعقدة من الافراس
الا ترى انها سميت مطية فى قول الشاعر مطيات السرور فويق عشر
الى عشرين ثم قف المطايا وحليلة اذا اعتبر حلولها معه او حل
الازار له وذلك يفعل لاحد امرين اما لان الشئ فى نفسه لا يمكن

ابرازه الا بالعبارات الدالة على اوصافه كمعرفة الله عز وجل لما
صعبت لم يكن لنا سبيل اليها الا بصفاته وكان الله تعالى جعل لنا
ان نصفه بهذه الاوصاف لتكون لنا ذريعة الى معرفته اذ لا سبيل لنا
اليها الا استدلالا باوصافه وافعاله ولذلك قال موسى عليه السلام
لما سأله فرعون يا رب العالمين قال رب السموات والارض
وما بينهما ولما قال له فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى
كل شيء خلقه ثم هدى فلم يجبه عن الماهية لما كان البارى تعالى
منزها عنها واحاله على صفاته الكثيرة واما الانسان فالشيء له تركيبات
واحوال فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم كما تقدم في اسماء السماء
وبحسب ذلك قال عليه السلام سميت محمدا واحمد وخاتما وحاشرا
وعاقبا وماحيا لانه محمود وحامد وخاتم الانبياء وحاشر لانه
بعث مع الساعة نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد وعاقب
لانه عقب الانبياء وماحي لانه محي به سيئات من اتبعه

فصل في الحقيقة والمجاز

الحقيقة مشتقة من الحق والحق يستعمل على وجهين
احدهما في الموجود الذي وجوده بحسب مقتضى الحكمة نحو قولنا الموت
حق والبعث حق والحساب حق والثاني للاعتقاد المطابق لوجود الشيء
في نفسه او في القول المطابق لمعنى الشيء الذي هو عليه نحو ان يقال
ان اعتقاد وفلان في البعث حق وقوله في الثواب والعقاب حق
وبضاد الحق الباطل واذا فهم الحق فهم الباطل لان العلم بالمتضادين
واحد واما الحقيقة فانها تستعمل في المعنى تارة وفي اللفظ تارة
فاما استعماله في المعنى فعبارة عما ينبئ عن الحق ويدل عليه
ولذلك قال عليه السلام لحارثة لما قال اصبحت مؤمنا حقا قال
لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك اي ما الذي ينبئ عن ذلك
ويستعمل في العمل والاعتقاد والخبر فيقال هذا فعل وخبر وقول
لها حقيقة ويستعمل في ضدها المجاز والتسمح والتوسع فيقال هذا

فعل

فعل واعتقاد وخبر فيها تجوز وتسمح وتوسع ولا فرق بين ان يكون
مثل هذا الخبر بلفظ مجازا ولفظ حقيقة في انه يقال هو حقيقة
اذا كان مطابقا لما عليه الشيء في نفسه واذا استعملت في اللفظ
فالمراد به اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصل اللغة من غير نقل ولا زيادة
ولا نقصان والمجاز على العكس من ذلك وكلاهما ضربان احدهما في
مفردات الالفاظ والثاني في الجمل فالمجاز في المفردات اما ان يكون
بنقل نحو فلان عظيم الحافر يراد به القدم او بزيادة نحو انظر في انظر
وارايت لو كان على ابيك دين فقضيته او بنقصان نحو ودرس المنا
بمتالع فابان اي المنازل وربما يكون اللفظ الواحد من وجه
حقيقة ومن وجه مجازا نحو قولهم فلان عظيم الاقدام فمن
حيث استعمل القدم حقيقة ومن حيث اتى بلفظ الجمع مجازا واما
المجاز في الجمل فمن حيث هي جملة لا يكون الا بحذف او زيادة اما
الحذف فما كان المحذوف منه شيئا مستغنى عنه لدلالة عليه
فذلك من الايجاز نحو حذف المخبر عنه تارة والخبر تارة والمضاف
تارة والمضاف اليه تارة والمفعول تارة والفاعل تارة وامثلتها
مشهورة يستغنى عن ذكرها واما الزيادة فلا شبهة ان كل
زيادة يقتضي زيادة معنى او بسط مختصر او شرح مبهم فانه مستحسن
متى حصل فيه شرائط البلاغة نحو ذكر جبرئيل وميكائيل بعد
ذكر الملائكة وذكر النخل والرمان بعد ذكر الفاكهة وكذلك
ما كان من نحو زيادة اللام في شكرته وشكرت له واما المستكره
عند اكثر المحصلين فكل زيادة ادعى فيها ان وجودها وعدمها
سواء كما زعم بعضهم ان ذلك كالكاف في قوله تعالى ليس
كمثله شيء والوجه في قوله فاينما تولوا فثم وجه الله اي الله
وقوله بسم الله اي بالله وقوله ما منعك الا تسجد اي ان تسجد
وكل ذلك يجيء الكلام عليه في موضعه في انها ليست بزائدة

وان لها معانى صحيحة وبعض الناس تحرّوا فى ايات ذكرها
الله تعالى على سبيل المثل تطلب الحقايق ورأوا ان ذلك المعنى
اذا لم يكن له وجود على الحقيقة كان كذبا وذلك فى نحو قوله تعالى
خصمان بغى بعضنا على بعض وقول ابراهيم عليه السلام بل فعله
كبيرهم هذا حتى ان بعضنا حمل قول النبى عليه السلام ان ابراهيم
لم يكذب الا ثلث كذبات كلها يماحك بها عن دينه قال انى
سقيم وهذه اختى وبل فعله كبيرهم على الحقيقة وخفى عليه
ان المذكور على وجه المثل اذا تحرى به معنى صحيح لم يكن كذبا
نحو قولنا لمن تحثه على عمل اطرى فانك فاعله ولمن تعاتبه فى
تضييع امر الصيف ضيعت اللبن وانكر بعضهم قول المفسرين
ان هذا كذا مضمر وقال الاضمار انما يستعمل فيمن له قلب وخاطر
والله تعالى منزه عن ذلك وليس يراد بالاضمار هذا المعنى
وانما يعنى ان بنية الكلام تودى معنى ذلك من غير نطق
به نحو قولهم احشفا وسوء كيله فان هذا الكلام يقتضى التحج على
وذلك معلوم للسامع فصل فى العموم والخصوص من جهة
المعنى وذلك ثلثة اضرب عام مطلق وهو الجنس نحو قولنا الحيوان
او المحبوب وخاص مطلق مثل زيد وعمرو وهذا الرجل وعام
من وجه خاص من وجه كالانسان فانه بالاضافة الى الحيوان
خاص وبالاضافة الى زيد وعمرو عام والعام اذا حمل على الخاص
صدق القول نحو زيد انسان وحيوان والانسان حيوان
والخاص اذا حمل على العام كذب نحو الحيوان انسان والانسان
زيد الا اذا قيد لفظا او تقديرا فيقال هذا الانسان زيد
او الانسان زيد ويجعل الالف واللام للعهد لا للجنس او يراد
ان معنى الانسانية كملا موجود فى زيد فاذا ثبت ذلك فالمفسر
اذا فسر العام بالخاص فقصده ان يتبين تخصيصه ويذكر مثاله

لانه لم يرد انه هو هو لا غير وكثير ممن لم يتدرب بالقوانين البرهانية
اذا راى عاما مستعملا فى خاصين قدر ان ذلك جار مجرى الاسماء
المشتركة فيجعله من بابها وعلى ذلك كثيرا ممن صنفوا فى نظاير القران
فقالوا الاثم ارتكاب الذنب والاثم الكذب احتجاجا بقوله
لا يسمعون فيها لغوا ولا تاثيما والاثم عام فى المقال والفعال
وانما خص فى هذا الموضع لان السماع ليس الا فى المقال وعلى ذلك
قال الحيا فى الخوف القتال لقوله فاذا ذهب الخوف سلقوكم
والقتل لقوله واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به
والعلم لقوله لمن خاف من موص جنفا او اثما اى علم وذلك
من ظهور سوء التصور بحيث لا يحتاج الى تبيين واما الخاص
فتفسيره بالعام فجائز اذا قصد تبيين جنسه نحو الحرباء دويبة
والحرباء الحيوان فصل فى تبيين الوجوه التى يجعل لاجلها الاسم
فاعلا فى اللفظ وهو فصل يكثر الشبه لاجله ويتعلق به الفريقان
المنسوبان الى الجبر والقدر كل فعل من افعال غير الله تعالى
نحو التجارة والكتابة يحتاج فى حصوله الى اشياء الى فاعل يصدر عنه
الفعل كالنجار والى عنصر يعمل فيه كالخشب والى عمل كالنجر والى
مكان وزمان يعمل فيهما والى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت والى
مثال يعمل عليه ويحتذى نحوه والى غرض يعمل لاجله ما يعمل ثم الفاعل
قد يحتاج الى من يسدده ويرشده والغرض قد يكون على نحوين
قريب وبعيد فالقريب اتخاذ النجار الباب ليحصل به نفعا والبعيد
ليحصن به البيت وكل ذلك قد ينسب اليه الفعل فيقال اعطانى
زيد اذا باشر العطاء واعطانى الله لما كان هو الميسر له وربما جمع بين
السبب القريب والبعيد فيقال اعطانى الله وزيد قال الشاعر
حيانا به جدنا والاله وضرب لنا خذم صايب فنسب الى المسبب
الاول وهو الله تعالى والى السبب الاخير وهو الضرب والى المتوسط

وهو الجد وقال تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها وقال قل يتوفيكم
ملك الموت الذي وكل بكم فاسند الفعل في الاول الى الآمر به وفي الثاني
الى المباشر له وقال الشاعر في صفة درع والبسنيه الهالكي وقال آخر
كساهم محرق فنسب في الاول الى عاملها وفي الثاني الى مستعملها
وفي صفة نبال كستها ريشها مضرجيه فنسب كسوتها الى الطير
التي اتخذ منها ريشها وقيل يداك اوكتا وفوك نفخ فنسبه الى الآله
المتصله ويقال سيف قاطع فنسب الى الآله المنفصله وقيل ضرب
فيصلٌ وفاصلٌ وطعنٌ جايفٌ فنسب الى الحدث وقيل سرٌّ كاتمٌ
وعيشةٌ راضيةٌ فنسب الى المفعول وقال حرمًا امنًا فنسبه الى المكان
وقيل يومٌ صائمٌ وليلٌ ساهرٌ وقال وما ليلُ المطي بنائم فنسبه الى
الزمان فلما كانت افعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد ان يثبت
لاحد الاسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين على ذلك
قول الشاعر اعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حرمت
من لم يحرم فاثبت له الفعل ونفاه عنه معًا بنظرين مختلفين
ويقال هذا الخشب قطعته لم يقطعه السكين بمعنى ان جل تاثيره
لك لا للسكين ويقال قطعه السكين لم يقطعه وبتصور هذا الفصل
تزول الشبهة فيما يرى من الافعال منسوبا الى الله تعالى منفيًا عن
العبد ومنسوبا الى العبد تارة منفيًا عن الله تعالى نحو قوله فلم تقتلوهم
ولكن الله قتلهم وقوله وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وقوله
ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك
وبيان ذلك ان الافعال التي نباشرها يعتبر على وجهين احدهما
بالاضافة الى مباشره فيقال فعل فلان كذا ولم يفعل كذا والثاني
الاعتبار بميسره والمقدر له والموفق لسبيله وانه لولا سوابق نعمه
لما وجد ذلك بل ما وجد شيء من افعالنا وذواتنا وانه تعالى
السبب الاول الذي يصح ارتفاع ما سواه ولا يصح ارتفاعه

تعالى

تعالى علوا كبيرا فاذًا النظر الى افعالنا والى من يسرها لنا نظران
نظر من افعالنا الى فعل الباري فيتوصل بها الى معرفته ونظر من
انعامه علينا بقوانا وتسهيل سبيلنا الى ايجاد افعالنا وهذا
الثاني لا سبيل الى تصوره لمن لم ينقو في الاول ولم يجعله ذريعة
الى الوصول الى هذا وبهذا السبيل دعى الناس الى الايمان فقال
امنوا بالله ومن آمن وعمل صالحا وان ليس للانسان الا ما سعى
فلما نبههم عرفهم ان ذلك كله بتوفيقه فقال قل لا تمنوا على
اسلامكم بل الله يمنّ عليكم ان هديكم وقال ومن لم يجعل الله
نورًا فما له من نور فلما علم تعالى ان قد صار لهم قوة يمكنهم
ان ينظروا من الآلة الى افعالهم قال فلم تقتلوهم ولكن الله
قتلهم وقال وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فاضاف
افعالهم الى نفسه عند تناهي معارفهم بخلاف ما فعل في الاول
فاذا تقررت هذه الجملة علم انه لا فاعل في الحقيقة منفردا غير الله
تعالى اذ كل فاعل يحتاج الى معاون على ما تقدم البيان فيها والله
تعالى فافعاله ابداع لا في مادة ولا من شيء ولا على مثال ولا في
زمان ولا في مكان ولا بالة ولا بمرشد ومعين فهو الفاعل الحقيقي
وما سواه فاعل على ضرب من التوسع وبهذا النظر ورد الشرع واجمع
الصدر الاول من المؤمنين ان الافعال كلها بمشية الله وارادته
ومن جهته واطلقوا على الله لفظ الشيء كما يطلق على غيره بنظرين
مختلفين فان بعض الناس قد ذكر ان الشيء في الاصل مصدر شاء
فاذا استعمل فيه تعالى فبمعنى الشائي
واذا استعمل في غيره فبمعنى المشيء وذلك في اللغة مستمر لان المصدر
يطلق على الفاعل والمفعول جميعًا قال وتصور هذه الحقيقة
من لفظ الشيء مما ينبهنا ان هذه اللغة من جهة الله تعالى

فصل في بيان الالفاظ التي يجي متنافية في الظاهر كثيرا ما يجيء

الالفاظ في الظاهر كالمتنافي عند من لم يتدرب بالبراهين العقلية

والعلوم الحقيقية وربما يغالط الملحد بالفاظ القرآن في نحو ذلك العجزة
فيشككهم مثل ان يقول قد ثبت من بداية العقول ان النفي والاثبات
في الخبر الواحد اذا اجتمعا لابد من صدق احدهما وكذب الاخر نحو
ان يقال زيدٌ خارج زيدٌ ليس بخارج وقد رأينا في القران اخبارًا
متنافية فلابد من ان يكون احدهما صدقًا والاخر كذبًا وذلك
مثل قوله واقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله اخبارا عن
الكفار انهم يقولون والله ربنا ما كنا مشركين مع قوله ولا يكتمون
الله حديثا وقوله هذا يوم لا ينطقون مع قوله واقبل بعضهم
على بعض يتساءلون وقوله نحشرهم يوم القيمة على وجوههم
عميًا وبكمًا وصمًّا مع قوله دعوا هنالك ثبورا مع قوله سمعوا لها تغيظًا
وزفيرًا وقوله فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون مع قوله
فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انسٌ ولا جان وقوله وان منكم
الا واردها مع قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها
مبعدون وقيل الجواب عن ذلك يجب ان يقدم مقدمة تزول
الشبهة بها عن ذلك وعن امثالها ويكتفى بتصورها عن احاد
هذه الاسئلة ونظايرها وهو ان الخبرين الذين احدهما نفي
والاخر اثبات انما يتناقضان اذا استويا في الخبر والمخبر عنه
وفي المتعلق بهما وفي الزمان والمكان وفي الحقيقة والمجاز اما
اذا اختلفا في واحد من ذلك فليسا بمتناقضين نحو ان يقال
زيد مالك زيد ليس بمالك وتريد باحد الزيدين غير الاخر
او تريد باحد المالكين المبني من الملك وبالاخر المبني من الملك
الذي هو الشد او تريد باحدهما المالك في الحال وبالاخر انه
ممن يصح ملكه كالعبد او تعني باحدهما باصبهان وبالاخر ببغداد
او تعني باحدهما في زمان اخر غير الزمان الاول فكل هذا لا تناقض
بينهما فان المراد باحد الخبرين غير المراد الاخر وعلى ذلك كل ما يوصف

مع قوله فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

اى المجرمون النار

فى زمان وبالاخر

بوصفين متضادين على نظرين مختلفين نحو من يقول في الرحى والبكرة
الدايرة على مركزها انها سائرة او غير متنقلة لاعتبار بعض اجزائها بعض
ويقول اخر انها غير سائرة او غير متنقلة اعتبارا بجملة اجزائها وانها لا تتبدل
عن المركز فان ذلك لا تضاد بينهما وكذلك اذا قيل فلان لين العود ويراد به
في السخا قول اخر ليس بلين العود ويراد به في الشجاعة وعلى ذلك ما يختلف به
الحال في الاضافة الى حالين او الى نفسين نحو ان يقال المال صالح اعتبارًا
بحال ما او بذات ما ويقول الاخر ان المال ليس بصالح اعتبارا بحال
اخرى او بذات اخرى وعلى ذلك الحكم في ما له مبدأ وغاية مثل الايمان
والشرك والتوكل وذلك ان الايمان لما كان مبداه اظهار الشهادتين
كما قال عليه السلام في الجارية التي اشارت الى السماء انها مؤمنة وكان
غايته ما قال تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم
الاية صح ان يقال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق
حين يسرق وهو مؤمن وان يقال يزني الزاني وهو مؤمن وعلى ذلك
كل ما هو مركب من شيئين او كان له مبدا وغاية كما تقدم صدق فيه
اربعة اخبار باربع نظرات نحو ان يقال السكنجبين حلو السكنجبين
حامض السكنجبين حلو حامض السكنجبين لا حلو ولا حامض ومتى
تصورت هذه المقدمة سهل الجواب عن هذه الايات اذ كل ذلك راجع
الى احد الاسباب المذكورات من المخالفات **فصل في بيان انطواء كلام
الله تعالى على الحكم كلها** علميها وعمليها كتاب الله تعالى منطوٍ على كل ذلك
بدلالة قوله تعالى وكل شيء احصيناه في امام مبين وقوله ما كان
حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وقوله
ما فرطنا في الكتاب من شيء وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء
لكن ليس يظهر ذلك الا للراسخين في العلم ولكونه منطويا على الحكم كلها
قيل في تفسير قوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا
انه عني به تفسير القران ثم منازل العلماء تتفاوت في تفهمه

ولذلك قال تعالى ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم
لعلمه الذين يستنبطونه منهم واعظم ما يقصر بفهم الاكثرين عن
ادراك حقايقه شيان احدهما راجع الى اللفظ والاخر الى المعنى
فالراجع الى اللفظ شيآن احدهما ما اختص به اللغة العربية من الايجاز
والحذف والاستعارات والاشارات اللطيفة واللمحات الغامضة
مما ليس في سوى هذه اللغة والاخر ما يوجد في القران خاصة من
الايجازات والحذف مما ليس في غيره من الكلام ولما فيه من اللفظ اليسير
المنطوى على المعنى الكثير قال عليه السلام اوتيت جوامع الكلم فمن مثال
الايجاز قوله تعالى في وصف ارتفاع الاسباب المكروهة عن
اوليائه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فنفى بذلك كل تنغيص
اذا كان جميعه في حصول مكروه وفوت محبوب وقد نفاهما
بذلك وقال في فاكهة اهل الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة
فنفى بذلك جميع الافات العارضة لمطاعم الدنيا وقال في صفة
خمرهم لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون فنفى بذلك كل مكروه
يعرض فيها واخبر بكل ما كان من امر فرعون وآله بالفاظ يسيرة
وذلك في قوله كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم
ونعمة كانوا فيها فاكهين فذكر فيه ما قيل انه ينطوى عليه
اوراق وجلود من السفر ومن عجيب ما فيه ان كل ما علم
بالسامع استغناءه عنه من الفاظ ترك ذكره وتخطى الى ما بعده
نحو قوله تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فترك ما كان
من موسى ثم ترك ما كان منه ومن اصحابه في دخولهم البحر وتخطى
الى ذكر ما صنع بهم واما الراجع الى المعنى فذكره تعالى اصولا منطوية
على فروع بعضها فوض استنباطه الى الراسخين في العلم تشريفا
لهم وتعظيما لمحلهم لكن يقرب منزلة علماء هذه الامة منزلة الانبيا
في استنباطهم بعض الاحكام ولاختصاص هذه الامة منزلة

بينه النبي عليه السلام وبعضها صح

بهذه

الانبياء في استنباطهم بعض الاحكام ولاختصاص هذه الامة
بهذه المنزلة الشريفة قال عليه السلام كادت امتى تكونوا انبيا وعلى
ذلك قال تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا الاية وقال كنتم خير
امة اخرجت للناس فجعلهم في ذلك بمنزلة الانبياء **فصل في
انطواء القران على البراهين والادلة** ما من برهان ودلالة وتقسيم
وتحديد مبنى على كليات المعلومات العقلية والسمعية الا وكتاب
الله تعالى قد نطق به لكن اورده تعالى على عادة العرب دون
دقايق طريق الحكماء والمتكلمين لامرين احدهما بسبب ما قال وما ارسلنا
من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم الاية والثاني ان المائل
الى دقيق المحاجة هو العاجز عن اقامة الحجة بالجليل من الكلام
فان من استطاع ان يفهم بالاوضح الذي يفهمه الاكثرون لم ينحط
الى الاغمض الذي لا يعرفه الا الاقلون ما لم يكن ملغزا فاخرج تعالى
مخاطباته في محاجة خلقه في اجل صورة تشتمل على ادق دقيق
لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة وتفهم الخواص
من اثنائها ما يوفى على ما ادركه فهم الحكما وعلى هذا النحو ان لكل
آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حدا ومطلعا لا على ما ذهب اليه الباطنية
ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم اوفر كان نصيبه من
علم القران اكثر ولذلك اذا ذكر تعالى حجة الى ربوبيته ووحدانيته
اتبعها مرة باضافته الى اولى العقل ومرة الى اولى العلم ومرة الى
السامعين ومرة الى المفكرين ومرة الى المتذكرين تنبيها ان بكل قوة
من هذه القوى يمكن ادراك حقيقة منها وذلك نحو قوله تعالى
ان في ذلك لايات لقوم يعقلون وغيرها من الايات **فصل في
الاحكام التي عليها مدار الاديان** وما لا يجوز فيه من الاحكام التي
تشتمل عليها الشرايع ستة الاعتقادات والعبادات والمستهات
والمعاملات والمزاجرات والاداب الخلقية فالاعتقادات خمسة

الى الهنا

قال عليه السلام صح

وما يجوز فيه النسخ صح

اثبات وجود البارى جل ثناؤه بصفاته واثبات الملائكة الذين هم
السفراء بين الله وبين خلقه والكتاب والرسل والمعاد وقد انطوى
على ذلك قوله تعالى ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الاخر الآية واما العبادات فثمنية الصلوة والزكوة والصوم والحج
والجهاد والاعتكاف والقرابين والكفارات والمشتهيات اربع
المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمعاملات
اربع المعاوضات كالبيع والاجارة وما يجرى مجراهما والمخاصمات
كالدعاوى والبينات والامانات كالودايع والعوارى والتركات
كالوصايا والمواريث والمزاجر خمس مزجرة عن فوات الارواح حفظاً
للنفوس كالقصاص والدية ومزجرة لحفظ الاعراض كحد القذف
والتفسق ومزجرة لحفظ الانسان كالجلد والرجم ومزجرة الاموال
كالقطع والصلب ومزجرة لحماية البيضة كالقتل المرتدة وقتال
البغاة واما اداب الخلقية فثلثة ما يختص به الانسان فى نفسه
واصلاح اخلاقه كالعلم والحلم والسخاء والعفة والشجاعة والوفاء
والتواضع وما يختص به فى معاشرة ذويه وتخصيصه كبر الوالدين وصلة
الارحام وحفظ الجار ورعاية الحقوق ومواساة اهل الفقر
ونصرة المظلوم واغاثة الملهوف وما يختص به اولوا الامر من سياسة
الرعية والفرق بين الشرعيات محدودة الكميات والكيفيات ولتارك
عامتها عقوبة محدودة واما الآداب الخلقية فغير محدود الكميات والكيفيات
وليس لتاركها عقوبة بل هى موكولة الى ذوى الانفس الزكية وما يعقلها
الا العالمون وعلى جمهور ذلك دل قوله تعالى وقضى ربك الا تعبدوا
الا اياه الى قوله ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة واشرف هذه الانواع
الخمسة الاعتقادات لانه فى خير العلم والباقيات فى خير العمل والعلم
هو المبداء والعمل تمام ولا يكون تمام بلا مبداء وقد يكون مبداء بلا تمام
ولان العلم اصل والعمل فرع ولا اثبات للفرع الا بالاصل كما لا ذكا

والآداب الخلقية ان الشرعيات م

الاصل

للاصل الا بالفرع ومتفق عند كل احد ان الاعتقاد مقدم على العمل
حتى انهم يتباينون بما ينفع ممن الاختلاف فى الاعتقادات دون
الاعمال ويصير بفساد الاعتقاد المحاسن كلها مقابح ثم يتبعه
امر العبادة فان المخل بالصلوة والصيام والاغتسال من الجنابة عند
المسلمين اعظم من مرتكب الظلم وكذا ترك السبت عند اليهود وترك
العبادة عند النصارى وترك الزمزمة عند المجوس اعظم من ظلم العباد
فان العبادة هى المحافظة على حق الله والورع عن ظلم الناس المحافظة
على احكامه والعابد اعلى من الورع وبعد ذلك يجب ان نبين
ما يجوز فيه النسخ وما لا يجوز فقد علم ان النسخ لا يصح الا فى التعبد
الذى هو الامر والنهى دون الاخبار فلا يصح ذلك فى الاعتقادات
اذ كان ذلك اشياء امرنا ان نعرفها على ما هى بها فنعتقدها بحسب ما هى
عليه وذلك لا يتغير وما كان من الاداب الخلقية فانما هى عقليات
ظاهرة لا يأتى شرع بخلاف مقتضاها واما العبادات والمعاملات
والمزاجر فلا يصح فى اصولها النسخ وانما يصح فى فروعها وذلك انه
محال ان ينفك شريعة من الشرايع عن عبادة الله تعالى واقعة فى
حيز البدن وهى مثل الصلوة وعبادة فى خير المال وهى كالزكوة
وعبادة فى امساك الشهوة كالصوم وان ينفك من معاملات
تحثهم على العدالة وتمنعهم عن التهارج ومن مزاجر تزجرهم عن استباحة
نفوس الغير واعراضهم واموالهم وانسابهم واما هيئاتها وامكنتها واز
منتها واعدادها فهى فروعها التى لم تزل بعرض النسخ على حسب ما عرف
الله تعالى من مصلحة كل قوم ومما يدل على انه لا نسخ فى عامة اصول
هذه الاشياء ما ورد من النصوص على ذلك فى القران نحو قوله تعالى
شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى اوحينا اليك وما وصينا به
ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وقوله وما امروا
الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين الآية وقال حكاية عن عيسى

واشكالها م

واوصانى بالصلوة والزكوة ما دمت حيا وقال فى الزكوة وويل
للمشركين الذين لا يؤتون الزكوة وقال فى القبلة ولكل امة جعلنا منسكا هم
ناسكوه وقال فى الصوم كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم
وقال فى الاعتكاف وطهر بيتى للطائفين والعاكفين وقال فى القرابين
واتل عليهم نبا ابنى ادم بالحق اذ قربا قربانا وحكى عن اليهود الذين قالوا ان
الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تاكله النار وفى الجهاد
وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير وقال فى القصاص وكتبنا عليهم
فيها ان النفس بالنفس وقال فى المطاعم والمشارب كل الطعام كان
حلا لبنى اسرائيل الاية وقال فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات
وقال فى المزاجر ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض
وقال فى اخرى لهدمت صوامع وبيع وقال ولا تقربوا الزنا انه كان
فاحشة وذكر فى الاداب وصايا لقمن لابنه وهو يعظه ولا تصعر
خدك للناس ولا تمش فى الارض مرحا الى غير ذلك من الايات
واكد من ذلك كله قد افلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى الى قوله ان
هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى وقال فى الفروع لكل جعلنا
منكم شرعة ومنهاجا فان قيل ان المزاجر ليست فى كل شريعة الا ترى
انه قيل لم يكن فى النصرانية لما روى عن عيسى عليه السلم اذا لطم
احدكم على احد جانبيه فليعرض عليه الجانب الاخر وقال ادع الناس
الى الدين بالمقال دون القتال قيل ان المزاجر كما يكون بالقتال قد يكون
بالمقال فلا بد ان يكون لهم مزاجر ثم ان مزاجرهم قد ورد به التورية
فاستغنى بها عيسى عليه السلم عن نسخها وما ذكر من تمكين الجانب
الاخر من اللطم فحث منه على العفو واحتمال المكروه فصل فيما يحتاج
اليه فى التفسير من الفرق بين النسخ والتخصيص النسخ والمسخ يتقاربان
كذا قال الخليل الا ان المسخ فى نقل الاعيان والنسخ فى نقل الصور
نحو نسخ الكتاب وهو نقل صورة الكتابة الى غيره من غير ابطال الرسم

حتى ص

يا بنى لا تشرك بالله الى قوله ص

الاول ونسخ الظل الشمس اذا ازالها وحقيقة النسخ ازالة مثل الحكم الثابت بالشرع بشرع
اخر مع التراخى والفرق بينه وبين التخصيص ان التخصيص قد يكون فى الخبر والنسخ
لا يكون فيه والتخصيص اخراج ما لم يرد باللفظ من الاعيان والمعانى والامكنة
والنسخ اخراج ما لم يرد من الحكم فى بعض الازمنة والتخصيص فى الاكثر مقرون
بالمخصوص لفظا او تقديرا والنسخ لا يكون الا متاخرا عن المنسوخ ومتى اقترن به
سمى تخصيصا وكان النسخ فى الحقيقة ضرب من التخصيص الا انهما فى التعارف
مختلفان وقد تصور عدة ممن صنفوا فى النسخ بعض ما هو بيان للمجمل او تخصيص
لعام بصورة الناسخ وذلك نحو قوله تعالى ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما
انما ياكلون فى بطونهم نارا قال بعضهم نسخ ذلك بقوله من كان غنيا فليستعفف ومن كان
فقيرا فلياكل بالمعروف وهذا بيان ما ليس بظلم من اكل مالهم ونحو قوله يسئلونك عن
الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس قال فلم تحرم ثم قال انما الخمر والميسر
والانصاب الاية وهذا ايضا بيان للاول وذلك ان ما كان مضرته اكثر من منفعته
فالعقل بالجملة يقتضى تجنبه لكن لما كان ذلك غير صريح اكده بالاية الاخرى ومن التخصيص
الذى يعد نسخا قوله ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن مع قوله والمحصنات من الذين اوتوا
الكتاب وعلى هذا ما حكى انه لما نزل قوله تعالى لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون
فى سبيل الله من ذلك على بعض اولى الضرر فنزل قوله غير اولى الضرر مع ما بعد قوله
القاعدون من المؤمنين وهذا القدر يدل على كثير مما ذكروه من امثال ذلك فصل
فى انه هل فى القران ما لا يعلم الا الله تاويله اختلفوا فى ذلك فذهب عامة المتكلمين الى ان كل
القران يجب ان يكون معلوما والا ادى الى بطلان فائدة الانتفاع به وان لا معنى لانزاله
وحملوا قوله تعالى والراسخون فى العلم على انه عطف على قوله لا يعلم تاويله الا الله والراسخون
فى العلم وجعلوا قوله يقولون امنا به فى موضع الحال كما قال الريح يبكى شجوها والبرق
يلمع فى غمامه اى البرق يبكى لامعا وقوى ذلك بقراءة ابن مسعود فيما قيل ويقولون
امنا به بالواو وعامة اعيان الصحابة وكثير من المفسرين بعدهم ذهبوا الى انه يصح
ان يكون فى القران بعض ما لا يعلم تاويله الا الله قال ابن عباس انزل القران على
اربعة اوجه وجه حلال وحرام لا يسع احدا جهالته ووجه يعرف العرب

مطلب

ووجه تأويله يعلمه العالمون ووجه تأويله لا يعلم تأويله الا الله ومن انتحل فيه علما
فقد كذب وحمل الآية على احد وجوه ثلثة احدها ان جعل التاويل بمعنى ما يؤول اليه
حقايق الاشياء من كيفياته وازمانه وكثير من احواله وقد علمنا ان كثيرا من العبادات
والاخبار الاعتقادية كالقيامة والبعث ودابة الارض لا سبيل لنا الى الوقوف
على حقايقها وازمانها وهذا هو المراد بقوله تعالى هل ينظرون الى تاويله يوم ياتي
تاويله الاية والثاني ان من الفاظ ما امرنا بان نتلوه تلاوته وبها نتعبد ناد ون
معرفة تاويلها كما تعبدنا بحركات يحصل في كثير من العبادات في الصلوة والحج وعلى ذلك
حمل قوله تعالى وقولوا حطة انهم امروا بالتفوه بهذه اللفظة والثالث ان كثيرا من الايات
مما اختلف المفسرون فيه ففسروه على اوجه كثيرة يحتملها الاية ولا نقطع على واحد
من الاقوال وان مراد الله تعالى منها غير معلوم لنا مفصلا بحيث نقطع به والذين
ذهبوا المذهب الثاني قالوا قد علم ان الاية نزلت انكارا على قوم طمعوا في الهجوم
على ما لا سبيل لهم اليه فاراد تعالى حسم اسباب الخوض فيه ومتى كان فيه تشاركهم سقط الشغب
اذ كل يدعي معرفته فان قيل ان هذا الاقوام مستحسن رجع القول الى ما يقوله الامامية ان
ايات من القران لا يعرف تاويلها الا الامام ويشهد لهذا قوله تعالى لكن الراسخون في العلم
منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك فصل في
بيان حكمة الله تعالى في جعله بعض الايات متشابها سأل بعض الجاحدين فقال
ما بال القران جعل بعضه محكما وبعضه متشابها وهلا جعل كله على نمط المحكم حتى كان يكفي
الانسان مؤونة النظر الذي قل ما سفك متعاطيه من زلة وهذه مسئلة نسئل عنها
في الاحكام ايضا فيقال هلا من كلها حتى نستغني عن جهد الراي الذي لا يؤمن
خطاؤه بل يسئل عنها ايضا في اصل التكليف فيقال هلا خولنا الله انعامه بلا مشقة
ولا مؤونة حتى كان عطاؤه اهناء مسالا والجواب عن جميع ذلك واحد وهو ان الله تعالى
خص الانسان بالفكر والتميز وشرفه بهما حتى قال وفضلناهم على كثير ممن خلقنا
تفضيلا وجعله بذلك خليفة في الارض فقال للملائكة اني جاعل في الارض خليفة
وقال تعالى ليستخلفنهم في الارض وقال يستخلفكم في الارض الاية وقال واستعمركم فيها
وكفاه شرفا بما اعطاه من هذه المنزلة انه قد يصير لاجلها شريفا موصوفا بالعلم والحلم

والحكم

والحكم وكثير من الصفات التي هي من صفاته تعالى وان لم يكن على حدها وحقيقتها ولما خصه تعالى بهذه
الفضيلة اعني بالفكر والروية اعطاه كل ما اعطاه من المعاون قاصرة عن درجة الكمال ليكمله
الانسان بفكرته لئلا يتعطل فائدتها والا كان موجدا لما لا فائدة فيه وذلك شنيع ينزه عنه
الباري سبحانه وعلى ذلك احوال كل ما اوجد لنا من الماكولات والمشروبات اذا وجدنا اصول
الاغذية ثم هدانا بما خولنا من التميز تركيبها وتناول ما يحتاج اليه على الوجه الذي يحتاج وفي
الوقت الذي يحتاج فاذا ثبت ذلك فنقول كتاب الله تعالى واحكامه شرايعه وسائر معاونه قسمان جلي وخفي
فالجلي ما ادركناه اما بالحاسة واما ببديهة العقل والخفي ما يتوصل اليه بوساطة احد هذين
فسبحان الذي شرف الانسان بهذه المنزلة السنية لتكون ذريعة له الى ادراك الحيوة الابدية
وتحصيل ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال تعالى فلا تعلم نفس ما
اخفي لهم من قرة اعين فصل في شرف علم التفسير اشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القران
وتأويله وذلك ان الصناعات الحقيقية انما تشرف باحد ثلثة اشياء اما بشرف موضوعاتها وهي المعمول
فيها نحو ان يقال الصياغة اشرف من الدباغة لان موضوعها وهو الذهب والفضة اشرف من جلد
الميتة الذي هو موضوع الدباغة واما بشرف صورها نحو ان يقال طبع السيوف اشرف من طبع القيود
واما بشرف اعراضها وكمالها كصناعة الطب التي غرضها افادة الصحة فانها اشرف من الكناسة التي
غرضها تنظيف المستراح فاذا ثبت ذلك فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات
الثلث وهو ان موضوع المفسر كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة وصورة
فعله اظهار خفيات ما اودعه منزله من اسراره ليدبروا اياته وليتذكر اولوا الالباب وغرضه التمسك
بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والوصول الى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها ولهذا عظم
الله محله بقوله ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا قيل هو تفسير القران فصل في
بيان الالات التي يحتاج اليها المفسر اختلف الناس في تفسير القران هل يجوز لكل ذي علم
الخوض فيه فبعض يشدد في ذلك وقال لا يجوز لاحد تفسير شيء من القران وان كان عالما اديبا
متسعا في معرفة الادلة والفقه والنحو والاخبار والاثار وانما له ان ينتهي الى ما روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم وعن الذين اخذوا
عنهم من التابعين واحتجوا في ذلك بما روي عنه عليه السلام من فسر القران برأيه فليتبوء
مقعده من النار وقوله عليه السلام من فسر القران برأيه فاصاب فقد اخطاء وفي خبر من قال في

الى ص

مطلب

القرآن برأيه فقد كفر وعما روى عن ابى بكر رضى الله عنه اى سماء تظلنى واى ارض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله برأى وذكر آخرون
ان من كان ذا ادب وسيع فموسع له ان يفسره فالعقلاء والادباء فوضى فوضا فى معرفة الاغراض واحتجوا فى ذلك بقوله تع كتاب انزلناه
اليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر اولوا الالباب وذكر بعض المحققين ان المذهبين هما الغلو والتقصير فمن اقتصر على المنقول اليه
فقد ترك كثيرا مما يحتاج اليه ومن اجاز لكل احد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ولم يعتبر حقيقة قوله تع ليدبروا
اياته وليتذكر اولوا الالباب والواجب ان يبين ولا ما ينطوى عليه القران وما يحتاج اليه المفسر من العلوم فنقول وبالله التوفيق
ان جميع شرائط الايمان والاسلام التى دعينا اليها واشتمل القران عليها ضربان علم غايته الاعتقاد وهو الايمان
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وعلم غايته العمل وهو معرفة الاحكام الدين والعمل به والعلم مبدأ والعمل
تمام ولا يتم العلم من دون العمل ولا يخلص العمل من دون العلم ولذلك لم يفرد تع احدهما من الاخر فى عامة القران نحو
قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا وقوله من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن وقوله الذين امنوا وعملوا الصالحات
طوبى لهم وحسن مآب ولا يمكن تحصيل هذين الا بعلوم لفظية وعقلية وموهبية فالاول معرفة الالفاظ وهو علم اللغة
والثانى مناسبة بعض الالفاظ الى بعض وهو الاشتقاق والثالث معرفة احكام ما يعرض الالفاظ من الابنية والتصاريف والاعراب
وهو النحو والرابع ما يتعلق بذات التنزيل وهو معرفة القراآت والخامس ما يتعلق بالاسباب التى نزلت عندها
الايات وشرح الاقاصيص التى ينطوى عليها السور من ذكر الانبياء عليهم السلام والقرون الماضية
وهو علم الاثار والاخبار والسادس ذكر السنن المنقولة عن النبى عليه السلام وعمن شهد الوحى مما
اتفقوا فيه وما اختلفوا فيه مما هو بيان لمجمل او تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تع وانزلنا اليك الذكر
لتبين للناس ما نزل اليهم وبقوله تع اولئك الذين هدى الله فبهديهم اقتده وذلك علم السنن
والسابع معرفة الناسخ والمنسوخ والعموم والخصوص والاجماع والاختلاف والمجمل والمفسر والقياسات
الشرعية والمواضع التى تصح فيها القياس والتى لا تصح وهو علم اصول الفقه والثامن احكام الدين
وادابه واداب السياسات الثلث التى هى سياسة النفس والاقارب والرعية مع التمسك بالعدالة
فيها وهو علم الفقه والزهد والتاسع معرفة الادلة العقلية والبراهين الحقيقية والتقسيم والتحديد
والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك وهو علم الكلام والعاشر علم الموهبة وذلك علم يورثه
الله من عمل بما علم ما لم يعلم وقال امير المؤمنين رضى الله عنه قالت الحكمة من ارادنى
فليعمل باحسن ما علم ثم تلا الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه
وما روى عنه حيث سئل هل عندك علم عن النبى عليه السلام لم يقع
الى غيرك قال لا الا كتاب الله وما فى صحيفتى وفهم يؤتيه
الله من يشاء وهذا هو التذكر الذى رجانا تعالى ادراكه بفعل الصالحات

حيث

حيث قال ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى الى قوله
لعلكم تذكرون وهو الهداية المزيدة للمهتدى فى قوله والذين اهتدوا
زادهم هدى الاية وهو الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد
فجملة العلوم التى هى كالالة للمفسر ولا يتم صناعته الا بها هذه
العشرة علم اللغة والاشتقاق والنحو والقراآت والسير والحديث
واصول الفقه وعلم الاحكام وعلم الكلام وعلم الموهبة فمن تكاملت فيه هذه
العشرة واستعملها خرج عن كونه مفسرا للقران برأيه ومن نقص
عن بعض ذلك مما ليس بواجب معرفته فى تفسير القران واحس
من نفسه فى ذلك بنقصه واستعان بأربابه واقتبس منهم واستضاء
باقوالهم لم يكن انشاء الله من المفسرين برأيه فان القائل بالرأى
ههنا من لم يجتمع عنده الالات التى يستعان فيها بذلك فنفسه
وقال فيه تخمينا وظنا وانما جعله النبى عليه السلام مخطأ وان اصاب
فانه مخبر بما لم يعلمه وان كان قوله مطابقا لما عليه الامر فى نفسه
الا ترى ان الله تعالى قال الا من شهد بالحق وهم يعلمون فشرط مع
الشهادة العلم وكذب المنافقين فى قولهم نشهد انك لرسول
الله فقال والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ومن حق من تصدى
للتفسير ان يكون مستشعرا لتقوى الله مستعيذا من شرور نفسه
والاعجاب بها فالاعجاب بالنفس اس كل فساد وان يكون اتهامه
لفهمه اكثر من اتهامه لفهم اسلافه الذين عاشروا الرسول وشاهدوا
التنزيل وبالله التوفيق فصل فى جواز ارادة المعنيين المختلفين بعبارة
واحدة العبارة الموضوعة لمعنيين على سبيل الاشتراك حقيقة
فيهما او مجازا فى احدهما متى تنافى معناهما فى المراد لم يصح ان يرادا
معا بعبارة واحدة نحو ان يقال صل صلوة واحدة على سبيل الوجوب
والندب والتى لم تتنافيا صح ذلك نحو اللمس المراد به المسيس والمس
والى ذلك ذهب الشافعى رحمه الله وهو مقتضى مذهب سيبويه

المذكور فى قوله وهدوا الى الطيب من القول
نخ

لانه قال فى قولهم الويل له انه دعا عليه واخبار عن حاله فجعله
للامرين فى حالة واحدة الى غير ذلك مما دل من كلامه عليه والدلالة
على جواز ذلك قولهم افعلوا كذا فى مخاطبة الرجال والنساء وقولهم الرجال
والنساء فعلوا وهذه العبارة للمذكر حقيقة وللمؤنث مجاز وقوله
تعالى يا ايها النبى اذا طلقتم النساء وعناه والمؤمنين فهو حقيقة
فيه ومجاز فيهم وقال الشاعر ثقال الجفان والحلوم رحاهم
رحى الماء يكتالون كيلا عذمذما فوصف الجفان بالثقل حقيقة
فوصف الحلوم به مجازا وقد نظمهما بلفظ واحد وقال اخر وماء اجن
الجمات قفر فذكر الماء واراده به ومكانه فقد يسمى مكان الماء
ماء والدلالة على ارادتهما انه قد وصفه باجن الجمات وذلك من صفة
الماء نفسه ويقفر وهو من صفة المكان وقال ابن هرمة والحوت
يسبح فى السماء كسبحه فى الماء وهو بكل سبح ماهر والحوت السابح فى السما
غير السابح فى الماء وقالوا القمران للشمس والقمر وذلك فى الشمس مجاز
لا محالة فان قيل ان ذلك لا يصح من حيث ان المتكلم به يكون مريدا
استعمال اللفظ فيما وضع له والعدول به عن الموضوع له فى حالة واحدة
وذلك امران متنافيان فى المراد وهذه عمدة من منع من جواز ذلك
قيل ان ذلك انما يتنافى اذا وضع لفظ فاستعمل فى معنى واحد
على انه منقول اليه عن غيره ومستعمل فى موضعه لا على النقل بل على
الوضع له وفى الاخر على النقل اليه صح ارادتهما معا فانه ليس من شرط
المتكلم ان يخطر بباله كيفية وضع اللفظ من حقيقة ومجاز وايضا فمما
من لفظ مستعمل فى شيئين حقيقة فيهما او مجاز فى احدهما الا ويجمعهما
معنى عام لهما على طريقة من يراعى مناسبة الالفاظ كما ان يقول الق
الاسد والحمار يعنى بالاسد الحيوان الجرى وبالحمار الحيوان البليد وذلك
متناول للبهيمة والانسان معا فصح ان يراد كما لو قال الحيوان الجرى
والحيوان البليد ومما يحمل من القران على ذلك قوله تعالى يسبح له السموات السبع

والارض

والارض ومن فيهن وذلك عام فى الانسان وغيره وقد علم ان
الانسان يسبح بلسانه وفعاله والجمادات ليست يسبح كذلك وقد
قرنهما بلفظ واحد وعلى ذلك قوله تعالى ووجدك عائلا فاغنى
قيل عنى بذلك الغنى بالكفاية والغنى بالقناعة معا وامثال ذلك
فى القران اكثر من ان يحصى ههنا ولمثل هذه المعانى المجتمعة فيه
قال تعالى ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة
ابحر ما نفدت كلمات الله وعلى ذلك روى فى الخبر لكل ظهر وبطن ولكل
حرف حد ومطلع تنبيها على كثرة معانيه المجتمعة تحت اللفظة بعد
اللفظة **فصل فى اعجاز القران** المعجزات التى اتى بها الانبيا عليهم السلام
ضربان حسى وعقلى فالحسى ما يدرك بالبصر كناقة صالح وطوفان
نوح ونار ابراهيم وعصى موسى عليهم السلام والعقلى ما يدرك
بالبصيرة كالاخبار عن الغيب تعريضا وتصريحا والاتيان بحقايق
العلوم التى حصلت عن غير تعلم فاما الحسى فيشترك فى ادراكه العامة
والخاصة وهو اوقع عند طبقات العامة واخذ بمجامع قلوبهم واسرع
لادراكهم الا انه لا يكاد يفرق بين ما يكون معجزة فى الحقيقة وبين
ما يكون كهانة او شعبذة او سحرا او سببا اتفاقيا او مواطاة او احتيالا
هندسيا او تمويها وافتعالا الا لذو سعة فى العلوم التى يعرف بها هذه
الاشياء واما العقلى فيختص بادراكه كمله الخواص من ذوى العقول الراجحة
والافهام الثاقبة والروية المتناهية الذين يغنيهم ادراك الحق
وجعل تعالى اكثر معجزات بنى اسرائيل حسيا لبلادتهم وقلة بصيرتهم
واكثر معجزات هذه الامة عقليا لذكائهم وكمال افهامهم التى صاروا بها
كالانبيا ولذلك قال عليه السلام كادت امتى يكون انبياء ولان هذه
الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ وكانت العقليات باقية صح غير مبتذله جعل اكثر معجزاتها
مثلها باقية وما اتى به النبى صلى الله عليه وسلم من معجزاته الحسية
كتسبيح الحصا فى يده ومكالمة الذئب له ومجى الشجرة اليه فقد حواها

واحصاها اصحاب الحديث واما العقليات فمن تفكر فيما اورده
عليه السلام من الحكم التى قصرت عن بعضها افهام حكماء الامم باوجز
عبارة اطلع على اشياء عجيبة ومما خصه الله به من المعجزات القران
وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبثوثة
فى الارض ولذلك قال تعالى وقالوا لولا انزل عليه آية من ربه
قل انما الايات عند الله وانما انا نذير مبين اولم يكفهم انا انزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم اولى بسطه
فى البيان الى معارضة بنحو قوله وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا
فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله وفى موضع اخر
وادعوا من استطعتم من دون الله وفى موضع آخر وادعوا من
استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين وقال قل لئن اجتمعت
الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القران لا ياتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً فجعل عجزهم علماً للرسالة فلو قدروا ما اقصروا
اذ قد بذلوا ارواحهم فى اطفاء نوره وتوهين امره فلما رايناهم
تارة يقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا وتارة يصفونه بانه اساطير
الاولين وتارة يقولون لولا نزل عليه القران جملة واحدة وتارة
يقولون ائت بقران غير هذا او بدله كل ذلك عجزاً عن الاتيان
بمثله علمنا قصورهم عنه ومحال ان يقال انه عورض فلم ينقل فالنفوس
مهتزة لنقل ما دق وجل وقد راينا كتباً كثيرة صنف فى الطعن على
الاسلام قد نقلت وتداولت وهذه الجملة المذكورة وان كانت دالة
على كون القران معجزاً فليس بمقنع الا بتبيين فصلين احدهما ان يبين
ما الذى هو معجز هو اللفظ ام المعنى ام النظم ام ثلثتها فان كل كلام منظوم
مشتمل على هذه الثلثة والثانى ان المعجز هو ما كان نوعه غير داخل
تحت الامكان كاحياء الموتى وابداع الاجسام فاما ما كان نوعه مقدوراً
لمحله محل الافضل وما كان من باب الافضل فى النوع فانه لا يحسم نسبة

او تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وتارة يقولون
صح

مادونه اليه وان تباعدت النسبة حتى صار جزأ من الف فان النجار
الحاذق وان لم يبلغ شاؤه لا يكون معجزاً اذا استطاع غيره جنس فعله
فنقول وبالله التوفيق ان الاعجاز قد ذكر فى القران على وجهين
احدهما اعجاز متعلق بفصاحته والثانى بصرف الناس عن معارضته
فاما الاعجاز المتعلق بالفصاحة فليس يتعلق ذلك بعنصره الذى هو
اللفظ والمعنى وذلك ان الفاظه الفاظهم ولذلك قال تعالى قرآناً
عربياً وقال الم ذلك الكتاب تنبيهاً ان هذا الكتاب مركب من هذه
الحروف التى هى مادة الكلام ولا يتعلق ايضاً بمعانيه فان كثيراً منها
موجود فى كتب المتقدمين ولذلك قال تعالى فانه لفى زبر الاولين
وقال اولم ياتهم بينة ما فى الصحف الاولى وما هو معجز فيه من جهة
المعنى كالاخبار بالغيب فاعجازه ليس يرجع الى القران بما هو قران
بل هو لكونه خبراً بالغيب وذلك سواء كونه بهذا النظم او بغيره
وسواء كان مورداً بالفارسية او بالعربية او بلغة اخرى او باشارة
او بعبارة فاذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً كما انه بالنظم
المخصوص صار الشعر شعراً والخطبة خطبة فالنظم صورة القرآن
واللفظ والمعنى عنصره وباختلاف الصور يختلف حكم الشئ
واسمه لا بعنصره كالخاتم والقرط والخلخال اختلف احكامها واسماؤها
باختلاف صورها لا بعنصرها الذى هو الذهب والفضة فاذا
ثبت هذا ثبت ان الاعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص
وبيان كونه معجزاً هو ان نبين نظم الكلام ثم نبين ان هذا النظم
مخالف لنظم سائره فنقول لتاليف الكلام خمس مراتب الاولى نظم
حروف التهجى بعضها الى بعض حتى يتركب منها الكلمات الثلث الاسم
والفعل والحرف والثانية ان يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى
يتركب منها الجمل المفيدة وهى النوع التى يتداوله الناس جميعاً فى
مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ويقال له المنثور من الكلام والثالثة

ان يضم بعض ذلك الى بعض ضمًّا له مبادئ ومقاطع ومداخل ومخارج ويقال
له المنظوم والرابعه ان يجعل في اواخر الكلام مع ذلك تسجيع ويقال له
المسجع والخامسة ان يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ويقال له الشعر وقد انتهى
وبالحق صار كذلك فان الكلام اما منثور فقط او مع النثر نظم او مع النظم
سجع او مع السجع وزن والمنظوم اما محاورة ويقال لها الخطابة واما مكاتبة
ويقال لها الرسالة وانواع الكلام لا يخرج من هذه الجملة ولكل من ذلك
نظم مخصوص والقران حاو لمحاسن جميعه بنظم ليس هو شيء منها بدلالة انه
لا يصح ان يقال هو كلام ومن قرع سمعه فصل بينه وبين ساير النظم
ولهذا قال تعالى وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه تنبيهًا ان تاليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن ان يراد
فيه كحال الكتب الاخر فان قيل ولم لم تبلغ بنظم القرأن الوزن الذي
هو الشعر وقد علم ان للموزون من الكلام مرتبة المنظوم غير الموزون
اذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزونًا قيل انما جنب القران
نظم الشعر ووزنه لخاصية في الشعر منافية للحكمة الالهية وهو ان القران
مقر الصدق ومعدن الحق وقصوى الشاعر تصوير الباطل في صورة الحق
وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحري الصدق حتى
ان الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق الا بالعرض ولهذا يقال
من كانت قوته الخيالية فيه اكثر كان على قرض الشعر اقدر ومن كانت
قوته العاقلة فيه اكثر كان في قرضه اقصر ولاجل كون الشعر مقر الكذب
نزه الله نبيه عليه السلام عنه لما كان مرشحا لصدق المقال وواسطة
بين الله وبين العباد فقال وما علمناه الشعر وما ينبغي له فنفى ابتغاء له
وقال وما هو بقول شاعر اي ليس بقول كاذب ولم يعن ان ذلك ليس بشعر
فان وزن الشعر اظهر من ان يشتبه عليهم حتى يحتاج الى ان ينفى عنه ولاجل
شهرة الشعر بالكذب سمى اصحاب البراهين الاقيسة المؤدية في اكثر الامر
الى البطلان والكذب شعرية وما وقع في القران من الالفاظ متزنة

القرآن رسالة او خطابه او شعرا كما يصح ان يقال صح

مرتبة اعلا من صح

فذلك

فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس
فيه واما الاعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر ايضا
اذا اعتبر وذلك انه ما من صناعة ولا فعلة من الافعال محمودة كانت
او مذمومة الا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات الهية
بدلالة ان الواحد فالواحد يؤثر حرفة من الحرف فينشرح صدره
بملابستها وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ويتعاطاها
بانشراح صدره وقد تضمن ذلك قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا
وقول النبي صلى الله عليه وسلم اعملوا فكل ميسر لما خلق له فلما روى اهل
البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة
السنتهم وقد دعا الله جماعتهم الى معارضة القران وعجزهم عن الاتيان
بمثله وليس يهتز غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي
لب ان صارفًا الهيًّا يصرفهم عن ذلك واي اعجاز اعظم من ان يكون
كافة البلغاء مخيرة في الظاهر ان يعارضوه ومجبورة في الباطن عن
ذلك وما اليقهم بانشاد ما قال ابو تمام فان يك اهملنا فاضعف
بسعينا وان تك اخبرنا ففيم نتعتع والله ولي التوفيق والعصمة

القول

بسم الله الرحمن الرحيم قال بعض العلماء انما قال بسم الله
ولم يقل بالله لانه لما استحب الاستعانة بالله تعالى في كل امر يفتتح به من
قراءة وغيرها فبعضهم يذكرهم بقلبه وبعضهم يزيد عليه ويقوله بلسانه
ويكون ابلغ والفاظ الاستعانة نحو استعين بالله واللهم اعني ونحو ذلك
كثير وذكر الله مستعمل في كل ذلك فصار لفظة بسم الله مستغنى به عن جميعها
وقائمًا مقامها فكان يقتضي الاستعانة ولو قال بالله فقط بهذه اللفظة
واسم ههنا موضوع موضع المصدر اي التسمية نحو قوله وبعض
عطائك المائة الرغاما اي اعطائك ذلك وكما وضع السلام موضع التسليم
وذكر ابو عبيدة ان قوله بسم الله معناه بالله والاسم زيادة واحتج
بقول الشاعر الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولًا كاملًا

فقد اعتذر وانما المعنى ان القائل اذا قال بالله ابتدى فمعناه بهذا
الاسم واذا قال بسم الله فان المقصود به المسمى فصار قول القائل
افتتح باسم الله يفيد فائدة افتتح بالله وما ذكر من الخلاف في ان الاسم
هل هو المسمى او غيره فنقول ان قائلوهما بنظرين مختلفين وكلاهما صحيح
بنظر ونظر وذلك ان من قال الاسم الذى هو زيد وعمرو هو المسمى
فانما نظر الى نحو قولهم رايت زيدا وزيد رجل فاضل فان زيدا ههنا عبارة
عن المسمى والرؤية تعلقت به ومن قال غير المسمى فانه نظر الى قولهم
سميت ابنى زيدا وزيد اسم حسن وانما عنى اى سميت بهذا اللفظ الذى
هو زى د وان هذا محكوم عليه بالحسن فاذا قولك زيد حسن لفظ مشترك
يصح ان يعنى به ان هذا اللفظ حسن وان يعنى به ان المسمى به حسن
ونحو هذا الاشتباه فى قولك هذا انسان فانه يستعمل على ضربين احدهما
ان يختلف او شك فى اسمه فيقال هذا انسان اى اسمه انسان والثانى
ان يختلف او شك فى جوهره فيقال هذا انسان اى جوهره الانسانية
وكثير من المواضع مثل هذا يقع فيه المغالطة واما تصور من قال
لو كان الاسم هو المسمى لكان من قال النار احترقت فمه فهذا تصور
بعيد فان عاقلا لا يقول ان هذه الحروف التى هى زى د هو الشخص
واشتقاق اسم قيل هو من وسمت لان الاسم علامة للمسمى وهذا
وان كان من حيث المعنى يصح فتصريف الكلمة يبطله نحو سميت واسميته
او سمى لان الف الوصل لا يدخل فيما حذف فاؤه نحو عدة وزنة والصحيح ان
اصله من السمو لان الاسم شعار للمسمى ورفعة له واصله سمو كعضو وحنو
او سمو كجبل وجمل لقولهم فى الجمع اسماء وقد كثر افعال فى جميع هذين البنائين
ولا يجعل فعلا كترس واتراس لان باب فعل لم يكثر فيما آخره واو واستقلالا
واما قول الشاعر باسم الذى فى كل سورة سمه فقد قيل انما ضم اتباعا لما
بعده ولو كان الميم مكسورا لم يجز فى السين الضمة فاما لفظة الله فيجب ان يعلم
ان اسماء الله تعالى مشتقة باتفاق اهل اللغة الا لفظة الله فانها مختلف فيها

فبعضهم

فبعضهم جعلها كالعلم مستدلا بانه يوصف ولا يوصف به كالاسماء
الاعلام ويقوى ذلك انه يقال بالستويه الاها ولانه قال تعالى هل
تعلم له سميا ويعنى به الله وآخرون قالوا هو مشتق ثم اختلف بعد ذلك
فيه فقيل اصل اله مصدر من أله يأله اى عبد فسمى به كقولهم فى صفاته
تعالى السلام وهو فى الاصل مصدر وسموا الشمس الاهة لعبادتهم لها
ولذلك نهاهم الله تعالى بقوله لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله
الذى خلقهن وسموا الاصنام آلهة لذلك واصله الاه فحذفوا همزته
وجعلوا الالف واللام عوضا منها ولكونها عوضا استجيز قطع الهمزة
الموصولة وادخال حرف النداء عليه فى قولهم يا الله وقال سيبويه فى
موضع اصله لاه على فعل كجبل بدلالة قولهم لهى ابوك فقلب نحو جبذ وجذب
وقيل هو من اله اليه اى فزع والهه اى اجاره وآمنه والالاه اسم للمفزوع
اليه كالامام لمن يؤتم به وقيل هو أله يأله اذا تحير وكانه عنى ذلك امير
المؤمنين رضى الله عنه بقوله كل دون صفاته تحبير اللغات وضل هنا
هنالك تصاريف الصفات ومنه قيل فى صفة المفازة وبهما يته تأله
العين وسطها وقيل اصله ولاه من وله يوله فقلب الواو همزة فيكون
الاله اسما لما يوله نحوه لمن الناس من قال ان ذلك موئل لان الاشياء
تأله نحوه اما تسخيرا واما ارادة وقصدا كما انه يسبح له كذلك وعلى هذا
قال يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وذلك اما تسخيرا
واما ارادة ومنهم من قال ذلك مختص بالعقول التى فطرها الله تعالى
واشار اليها بقوله فطرة الله التى فطر الناس عليها لان العقول بفطرتها
دالة على وحدانيته ومنبئة عن وجوب شكره ما لم يدسها صاحبها كما
قال تعالى وقد خاب من دسيها ومنهم من قال ذلك مختص بالاحوال التى ينقطع
الانسان عن غيره فيقصده بفكره واليه اشار بقوله ثم اذا مسكم الضر
فاليه تجأرون ومنهم من قال مختص بالعباد المخلصين والعبارة عنه
بذلك كالعبارة عنه بالمحبوب والمراد المشار اليهما بقوله تعالى سوف

يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه وبقوله الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى
يريدون وجهه وقد اطلق بعض الاولياء وبعض القدماء عليه تعالى
لفظ المعشوق والمتشوق الا ان ذلك كرهه اهل العلم لامرين عدم
التوقيف فيه وكون العشق فى هذه اللغة متعارفا فى اللذات البدنية
الرحمن الرحيم الرحمة فى اللغة رقة مقتضية للتعطف والتفضل فمبدأها
الرقة التى هى انفعال ومنتهاها العطف والتفضل الذى هو فعل
فالانسان اذا وصف بالرحمة فتارة يراد به حصول المبدأ الذى هو
الرقة وتارة يراد به المنتهى الذى هو التفضل والعطف وتارة يراد الا
ان معًا واذا وصف بها البارى فليس يراد به الا المنتهى الذى هو الفعل
دون المبدأ الذى هو الانفعال اذ هو منزه عن الانفعالات وعن كل
نقص تعالى الله عن ذلك الروف فان الرأفة انعصار القلب عن مشاهدة
شدة مقتضية للاغاثة فمتى وصف به الانسان صح ان يراد به المبدأ
الذى هو انعصار القلب واذا وصف به البارى فليس يراد به الا الغاية
التى هى الاغاثة وعلى ذلك الجود فانه اختصاص لان لا يدخر عن المحتاج
ماينتفع به على مايجب ومتى وصف البارى تعالى فالمراد به النهاية
التى هى ترك الادخار دون الاختصاص بالخلق وهذا التفسير اعنى فى
الرحمة هو على ما روى عن التابعين حيث قالوا الرحمة من الله انعام
وافضال ومن الادميين رقة وتعطف وهذه الطريقة اظهر وابين واشبه
بنظر السلف من نظر من يخبط فى تفسير ذلك زاعما ان الوصف لا يختلف
معانيه باختلاف الموصوفين وذلك ان قائل ذلك لم يتصور انه قد
يكون بين مبدأ المعنى ومنتهاه بون بعيد فان قولنا العالم وان كان
موضوعة للمدح فان مبدأه ان يتخصص الموصوف به بمعلوم ما يخرج
بها عن حد الجهالة ووسطه ان يحصل له معلومات كثيرة تفوق بها اكثر
العلماء وغايته ان يحيط بجميع المعلومات بحيث لا يخفى عليه شئ ولا يدركه
سهو ولا غفلة ولا نسيان ومعلوم ان المبدأ يصح لاكثر الخلائق ووسطه

وعلى ذلك صح

بخلوق مقتضى صح

ليس

٢٠

ليس الا للخصايص من الانبياء والحكماء وغايته ليس الا الله تعالى
وذلك ظاهر لمن القى السمع وهو شهيد فاما لفظه الرحمن فليس يطلق
الا لله كلفظه الله فانهما اسمان اختص بهما البارى جل وعز باتفاق
ولاجل ذلك قال تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله
الاسماء الحسنى فالرحمن هو كثرت رحمته وتكررت ووسعت كل شئ ولذلك
فسرت بانه الذى يكون منه تعطف بعد تعطف وتفضل واما الرحيم فقد
يوصف به غيره اذا كان معناه الذى كثرت رحمته وعلى ذلك نديم وندمان
فان النديم هو الذى كثرت منادمته والندمان مع كثرة ذلك منه
تكررت عنه ولذلك قال اهل اللغة ندمان ابلغ من نديم ولفظهما
يدل على ذلك فان العرب اذا ارادوا زيادة معنى زادوا فى اللفظ فى
الامر العام كانما يحاكى باللفظ المعنى نحو قطع وقطّع وكبار وكبّار واحمر
واحمارّ وذلك فصل قد احكم فى غير هذا الموضع فان قيل ما الفائدة فى
الجمع بينهما مع ان الرحمن يقتضى معنى الرحيم اذ هو ابلغ منه قيل انه تعالى
لما خلق الدارين وكان فى دار الدنيا منعما على المؤمن والكافر واختص
رحمته فى الاخرة ولذلك قيل رحمن الدنيا ورحيم الاخرة وقال تعالى
وكان بالمؤمنين رحيما جمع بين الوصفين فاما ذكر الرحيم بعد الرحمن
فذكر خصوص بعد عموم وروى عن عطا انه قال كان الله اختص
بالرحمن فلما تسمى بذلك بعض الكفار قال الرحمن الرحيم اذا كان الاسمان
معا لم يوصف غير الله به بوجه وقدم ذكر الله اذ هو اخص الاسماء
والرحيم والرحمن مشتق بعضها من بعض وقد دل على ذلك قوله عليه السلام
لما خلق الله الرحم قال انا الرحمن وانت الرحم شققت لك اسما من اسمى
فوعزتى وجلالى لاصلن من وصلك ولاقطعن من قطعك ومعنى ذلك
ان الله تعالى لما جعل بين نفسه وبين عباده سببا نهو كما انه كتب
على نفسه الرحمة لعباده واوجب عليهم فى مقابلتها شكر نعمته
لما كان هو السبب الاول فى وجودهم وخلق قواهم وقدرهم وساير

الذى صح

هو الذى صح

بالمؤمنين صح

خيرا تم كذا ايضا بين ذوى اللحمة بعضهم مع بعض سببا اوجب به
على الاعلى التوقر على الادون وعلى الادون توقير الاعلى بين الرحم
والرحمة مناسبة معنوية كما ان بينهما نسبة لفظية ولهذا عظم شكر
الوالدين فقرنه بشكره فى قوله تعالى اشكرلى ولوالديك تنبيها
انهما السبب الاخير فى وجود الولد كما ان الله تعالى السبب الاول فى وجود كل موجود

قصارم

سورة الفاتحة

قوله عز وجل الحمد لله الحمد هو الثناء بالفضيلة والشكر مقابلة النعمة
قولا وعملا ولما كانت النعمة لا يخرج من كونها فضيلة صار الحمد منطويا على
معنى الشكر فكل شكر حمد وليس كل حمد شكرا ولكون الحمد اعم قال ابن عباس رضى
الله تعالى عنهما الحمد هو الشكر لله والاستخذا والاقرار بنعمه وقال عليه السلام
الحمد رأس الشكر وما شكر الله عبد لم يحمده ولذلك قيل الحمد لله شكر ولم يقل
شكر الله حمد ولكون الشكر بالفعل كما يكون بالقول قيل دابة شكور اذا
ظهر سمنه بادنى علف له وقال تعالى اعملوا آل داود شكرا وقليل من
عبادى الشكور واما الفرق بين الحمد والمدح فالحمد اخص اذ لا يستحق
الا بالفعل الاختيارى والمدح قد يستحق بما يكون من قبل الله تعالى
يقال فلان ممدوح على جوده ومحمود وممدوح على حسنه ولا يقال محمود
واكثر ما يقال انما يقال فى الاشياء النافعة التى لم يبلغ الغاية كالثروة
والجلاوة والجود والحمد يقال فى ذلك وفيما فوقه فيقال الجود محمود والله
تعالى محمود وقل ما يقال الله ممدوح ودخول الالف واللام فى الحمد للجنس
تنبيها ان الحمد كله فى الحقيقة لا يستحقه سواه وان كل حمد لغيره فهو عارية له
اذ هو سبب كل نعمة وخير ولذلك قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله
ان قيل لم لم يقل الحمد لى لان ذلك تعليم منه لعباده كانه قال
قولوا الحمد لله بدلالة قوله قل الحمد لله وسلام على عباده وقيل
ان ذلك كقول الرجل لابنه الحمد فى كذا لابيك فيأتى بلفظ الغائب
ليكون ابلغ وقيل ان قل غير مقدر فى هذا الموضع لان الله حمد

قيل صح

نفسه

نفسه ليقتدى به بدلالة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ليس شئ
احب الى الله من الحمد اثنى على نفسه فقال الحمد لله ولان ارفع حمد
ما كان من ارفع حامد واعرفهم بالمحمود واقدرهم على ايفا حقه فى
الحمد وما حامد ارفع منه واعرف بذاته واقدر على حمده منه تعالى
كما لا محمود ارفع منه واعلا وقال بعضهم كل ثناء اثنى الله على نفسه
فهو فى الحقيقة اظهاره بفعله فحمده لنفسه هو بث الآية واظهار نعمائه
بمحكمات افعاله المقتضية لحمده فكان قوله الحمد لله تقديره الحمد لله ظاهر
بالآية وعلى ذلك قوله شهد الله انه لا اله الا هو فان شهادته لنفسه
ايجاد الاشياء دالة على وحدانيته ناطقة بالشهادة له وعلى هذا قال
ذو النون لما شهد لنفسه انطق كل شئ بشهادته ففى كل شئ له شاهد
يدل على انه واحد وعلى ذلك قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده
وقوله يسبح له ما فى السموات والارض ان قيل استحسن حمده لنفسه
وقد علم فى الشاهد استقباح حمد الانسان نفسه حتى قيل الحكيم
ما الذى لا يحسن وان كان حقا فقال مدح الرجل نفسه قيل انما
قبح ذلك من الانسان لانه ما من احد الا والنقص فيه ظاهر
ولو لم يكن الا فى كون اثر الصنعة عليه وحاجته الى الكمال ومن خفى
عليه نقصه فقد خدع عنه عقله ثم مدح الانسان نفسه
ليس بقبيح على الاطلاق فان ذلك مستحسن عند تنبيه المخاطب
على ما خفى عليه كقول عالم يحث المتعلم على الاخذ عنه اسمع منى فانك
لا تجد مثلى وعلى ذلك قول يوسف عليه السلام اجعلنى على خزائن
الارض انى حفيظ عليم ان قيل الحمد لله خبر ويقتضى مخبرا فما الفائدة
فى ايراده فى الخلوات قيل اما فى القران فلما ندب الله تعالى الى
تلاوته واما فى غيره فلئلا ينفك من حمده فى شئ من الاحوال
كما لا ينفك من نعمه اعترافا له بها فكانه هو المخبر رب العالمين
الرب فى الاصل التربية يقال ربه ورباه فسمى الرب ربا لزيادة

من حال المخاطب صح

قوله عز وجل صح

وتمنه ص

معنى تصور منه قيل لابي تميى رجل من قريش احب الى من ان يربني رجل
من هوازن فرب العالمين هو المتكفل بمصلحتهم ولا يقال الرب
مطلقا باللام الا لله تعالى وتسميتهم اياه بذلك للنظر الى الاية قال
بعض المحققين في الفرق بين قوله يا ايها الناس اتقوا ربكم وقوله يا ايها
الذين امنوا اتقوا الله حيث خاطب الناس كافة حثهم على انقائه
برؤية الاية لاشتراكهم كلهم في معرفتها وتصورهم اياها وحيث خاطب
المؤمنين حثهم على انقائه بلا واسطة والعالم اسم للفلك وما يحويه
وجميع ما فيه من الجواهر والاعراض وهو في الاصل اسم لما يعلم به
وفاعل كثيرا ما يجيء في اسم الالة التي يفعل بها الشيء كالطابع والخاتم
والقالب فجعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالالة في الدلالة له
على صانعه واما جمعه فقد قيل لان لله تعالى بضعة وعشر عالما ولما
كان في جملتها الناس جمع جمعهم اذ من شان الانسان اذا اشارك
غيره في اللفظ ان يكون الحكم في اللفظ له وقيل لانه عنى به اصناف
الخلائق من الملائكة والجن والانس دون غيرها واليه ذهب ابن عباس
رضي الله عنهما ومجاهد وقيل عنى به الناس وجعل كل واحد منهم عالما
قال ذلك جعفر بن محمد وقال العالم عالمان عالم كبير وهو الفلك بما فيه وعالم
صغير وهو الانسان وقال سمى كل انسان عالما لان فيه جواهر العالم
الاكبر من الاخلاط الاربعة ولان لحمه كالارض الرخوة وعظامه كالجبال
ودمه الجاري في العروق كالمياه في الانهار ونفسه كالريح وشعره كالنبات
وفيه من الملك العقل ومن البهايم الشهوة ومن النبات النمو والتغذي قال
فصار عالما يعلم به وحدانية صانعه كما يعلم بالعالم الكبير ولذلك قال تعالى
وفي انفسكم افلا تبصرون وقال عليه السلام اعلمكم بنفسه اعلمكم بربه
وقيل فيما انزل الله في السفر الاول من عرف نفسه فقد عرف ربه والى
نحو ذلك اشار بقوله عز وجل ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم
تنبيها انهم لو تفكروا في انفسهم لما اخفى معرفته عليهم وقال المفضل

بنو سلمه

بنو سلمة العرب تقول العالمين بالياء في موضع النصب والرفع والجر الا قوما
من كنانة يقولون اللذون قال ويدل على ذلك ان فاعل لم يجمع جمع السلامة
قال وعلى ذلك الاقورين والفتكرين والبرحين وذكر ان من جعل العالمين
فقد وقع عليه السهو حيث لم يجد ذلك في موضع الرفع كما وجد الذين في موضع
رفع وذكر المبرد ان هذا سهو من قائله لانه راى ذلك في القران اما خفضا
او نصبا قوله عز وجل مالك يوم الدين قيل الملك الذي يملك الامر والنهي
في الجمهور وانما شرط الجمهور لان كل انسان يملك ذلك في نفسه وما يختص به
ثم لا يقال له ملك وهذا انما قاله بالنظر العامي واما بالنظر الخاصي فهو في الحقيقة
اسم لمن يملك السياسة من نفسه او منها ومن غيرها ومالك من ذلك
نفسه اجل ملك واكبر سلطان ولذلك قيل لحكيم ما الملك الاعظم فقال
ان يغلب الانسان شهواته بل لهذا قال عليه السلام لمن ساله اي الاعمال
اشد فقال جهادك هواك وقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد
الاكبر وحجة من قرا ملك قوله تعالى لمن الملك اليوم وقوله الملك يومئذ لله
والملك مصدر الملك لا المالك واما المالك فهو الضابط للشيء المتصرف
فيه بالحكم ومنه ملكت العجين والوكيل وان كان ضابطا للشيء متصرفا
فيه فانه لا يقال له مالك لما كانت يده يد غيره ويقال للصبي والمعتوه
مالك لما كان ذلك لهما حكما وان لم يكن لهما فعلا وحجة قاريه قوله
عز وجل قل اللهم مالك الملك فجعل الملك مملوكا وقال والامر يومئذ لله
وقوله يوم لا تملك نفس لنفس شيئا فان قيل ايهما ابلغ قيل قال بعضهم
مالك ابلغ لانه يقال مالك الدراهم والحيوانات والريح ولا يقال ملكها
وقيل الملك ابلغ لانه لا يكون الا مع تعظيم وهما مختلفان في الحقيقة
فان الملك هو المتصرف بالامر والنهي في المامورين والمالك هو المتصرف
في الاعيان المملوكة على اي وجه كان فان قيل على اي وجه اضيف الى
اليوم قيل اما ملك فعلى حد يا سارق الليلة اهل الدار في انه اتسع في
الظرف فجعله مفعولا به واما مالك فمضاف الى المفعول به لانه تعالى

هو موجده وضابطه واذا اضيف الى الوقت غير الله فيقال فلان
مالك يوم كذا فانما هو على تجوز اذ كان حقيقة اليوم والوقت ليس
يملك لغيره واما اختصاص ذلك اليوم مع كونه فى الحقيقة مالكا لجميع
الاشياء وفى جميع الازمنة لامرين احدهما انه قد ملك فى الدنيا
قوما اشياء يبطل عنها ملكهم لها يوم القيمة ولذلك قال لمن الملك اليوم
وقال نرث الارض ومن عليها وقال والامر يومئذ لله والثانى على وجه
التعظيم لانهم يجعلون ما يستعظمونه ملكا له نحو بيت الله وناقة الله وتعظيمه
اياه على وجه ان اليوم الاخر لا انقضاء له ولا فناء وجميع ما فى الدنيا
فان وقد علم ان الباقى اشرف من الفانى فاما الدين فالجزاء كقوله وان
الدين لواقع وقيل الدين عبارة عن الشريعة كقوله ان الدين عند الله الاسلام
ومعناه يوم جزاء الدين وقيل الدين الطاعة اى يوم جزاء الطاعة وخص
الطاعة وان كانت المجازاة عنها وعن المعصية لامرين احدهما ان كل
احد يطيعه فى ذلك اليوم ولذلك قال ان كل من فى السموات والارض
الا آتى الرحمن عبدا والثانى ان الطاعة هى المقصودة بالجزاء ولاجلها خلقنا
وعلى ذلك دل قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقرئ مالك
بالنصب فقيل هو نداء فعلى هذا يقع فى اللفظ عدول عن الخبر الى الخطاب به
وقيل نصبه على المدح والعدول عن الخبر الى الخطاب حينئذ يكون فى قوله
اياك نعبد قوله عز وجل اياك نعبد واياك نستعين قال بعض النحويين
اياك كله اسم واحد وقال بعضهم الكاف هو الاسم وايا وصلة له
وهذان لا تنافى بينهما فى الحقيقة لان ذلك بنظرين مختلفين وذلك
ان الضمير المتصل اذا قدم او فصل بينه وبين المتصل به لا يحسن النطق به
مفردا فضم اليه ايا ليصير بذلك كلاما مستقلا فمن قال الضمير هو
الكاف فانما اعتبر بذلك بعد انضمام ايا الى الضمير والعرب كما انهم
يتحرون بالحروف المركبة افادة المعنى فقد ياتون ببعضها تهذيبا
للفظ وتحسينا له بدلالة ادخال الحرف بين الحرفين المتنافرين فى التركيب

لئلا يقبح النفوه بهما وذلك قد اشبع الكلام فيه فى غير هذا الكتاب
فايا جعل وصلة لتحسين اللفظ بالضمير اذا قدم لما لم يحسن ان يقال
ك الزمت وه ضربت كما اتوا بذى لما ارادوا الوصف باسم الجنس فى
نحو قولهم مررت برجل ذى مال واتى بالذى لما اريد ان يوصف بالمعرفة
بالجملة وعلى ذلك اتى بمثل مع الكاف فى نحو ليس كمثله شئ لما لم يحسن
ادخال الكاف على الضمير فيقال كك وكه والعبادة التذلل ومنه
طريق معبد وفى التعارف الاشتغال بالخدمة قال تعالى اذ قال لبنيه
ما تعبدون من بعدى والعبد على ضربين عبد بالايجاد والتسخير وذلك
يطلق على كل احد واياه عنى بقوله تعالى ان كل من فى السموات والارض
الا آتى الرحمن عبدا وعبد على طريق التخصيص وذلك قوله ان عبادى
ليس لك عليهم سلطان واستثناهم ابليس بقوله الا عبادك منهم المخلصين
وقوله وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا فعلى الثانى يصح ان
يقال فلان ليس عبد الله وعلى هذا قيل فلان عبد الهوى وعبد الشهوة
وعبد الطاغوت وقال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله
وعلى ذلك قال عليه السلام تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم
والاستعانة طلب المعونة وهى ضربان ضرورى فى الامر وغير ضرورى
فالضرورى ما لا يتم ايجاد الفعل من دونه وبوجوده يوصف الانسان
بالاستطاعة للفعل وبعدمه يوصف بالعجز عنه وهى بالفعل المجمل اربعة
بنية صحيحة للفاعل وتصوره للفعل وتاتى مادة له وآلة يعمل بها
وذلك لها وهو المعرفة والى الآت كالدوات والقلم والى مادة توجد
الفعل فيها وهو الكاغد وغير ضرورى وهو ما يصح ايجاد الفعل
من دونه لكن ربما يكون فيه الصعوبة كمن يقصد مكانا بعيدا فيعيره
صديق له مركوبا فيسهل عليه طريقه فغير الضرورى لا يمكن حصره ويصح
التكليف من دون وجوده وهو المعبر عنه بالتوفيق والتسهيل ويسميه
العامة بسعادة الجد وجودة البخت وفى تيسيره ودفع ضرره يستعمل

متصور فى الكاتب فانه يحتاج الى بنية صحيحة وسلامة العضو والى تصور صح

كثير من الادعية فاذا ثبت هذه الجملة فالاستعانة بالله طلب الامرين فتحصول
الضروريات من المعاون يتوصل الى اكتساب الثواب وتحصيل غير الضروريات منها
يتسهل علينا السلوك اليها ان قيل كيف قال اياك نعبد ولو قال نعبدك
كان اوجز منه لفظا قيل ان عادتهم ان يقدموا من الفاعل والمفعول ما القصد
الاول اليه والاهتمام متوجه نحوه وان كان في ذكر الجملة جميعا تقول الامير
استخف الجند اذا كان القصد الاول ذكر من وقع به استخفاف الجند والامير
استخف بالجند اذا كان القصد الاول الى من اقدم الى الاستخفاف بهم
ولما كان القصد الاول في هذا الموضع ذكر المعبود دون الاخبار عن انجاز
عباداتهم كان تقديم ذكره اولى وعلى هذا قوله تعالى افغير الله تأمروني
اعبد ايها الجاهلون وايضا ففي ذكر المفعول اشارة الى اثبات الحكم المذكور
ونفيه عن غيره تقول اليك افزع تقديم تنبيها انى لا افزع الا اليك واذا قال
افزع اليك فليس فيه هذا المعنى وعلى هذا فسر ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما فقال معناه لا نوحد غيرك وقال بعضهم انما نبه تعالى بتقديم ذكره ان تكون
نظر العباد من المعبود الى عباداتهم له لا من العبادة الى المعبود وعلى
ذلك فضل ما حكى الله عن نبينا عليه السلام اذ قال لا تحزن ان الله
معنا فنظر من الله تعالى الى نفسه على ما حكى عن موسى عليه السلام حين
قال ان معي ربي فقدم ذكر نفسه ونظر منها الى ربه ان قيل لم كرر اياك
قيل لانه لو قال اياك نعبد ونستعين لكان يصح ان يعتقد ان الاستعانة
بغيره فكان اعادته ابلغ ان قيل لم قدم العبادة على الاستعانة وحق
الاستعانة ان يكون مقدمة اذ لا سبيل الى عبادته الا بمعونته قيل
قد قالوا هو على التقديم والتأخير وقيل الواو لا يقتضي الترتيب
والوجه في ذلك ان الله تعالى علم خلقه بذلك ان يقدموا حقه ثم
يسئلوه ليكونوا مستحقين للاجابة ويجوز ان يكون قوله واياك
نستعين في موضع الحال نحو قول الشاعر ؛ بايدي رجال لم يشيموا سيوفهم
ولم يكثر القتلى بها حين سلت ؛ فقوله ولم يكثر القتلى بها في موضع الحال

القصد ان

قوله

قوله عز وجل اهدنا الصراط المستقيم الهداية دلالة بلطف ومنه الهدية
وهوادي الوحش انما هو متقدماتها لكونها هادية لسائرها وخص ما كان
دلالة بفعلت نحو هديته الطريق وما كان من الاعطاء بافعلت نحو
اهديت الهدية واهديت الى البيت ولما تصور العروس على وجهين
قيل فيه هديت واهديت فان قيل كيف جعلت الهدى دلالة بلطف
وقد قال الله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقال تعالى كتب عليه انه
من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير قيل ان ذلك على حسب
استعمالهم اللفظ على التهكم كما قال ؛ وخيل قد دلفت له بخيل ؛ تحية
بينهم ضرب وجيع ؛ والهداية هي الارشاد الى الخيرات قولا وفعلا وهي
من الله تعالى على منازل بعضها يترتب على بعض لا يصح حصول الثاني
الا بعد الاول ولا الثالث الا بعد الثاني فاول المنازل اعطاؤه العبد القوى
التي بها يهتدى الى مصالحه اما تسخيرا واما طوعا كالمشاعر الخمسة
والقوة الفكرية وبعض ذلك قد اعطاه الحيوانات وبعضه حص به
الانسان وعلى ذلك دل قوله تعالى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله
تعالى الذي قدر فهدى وهذه الهداية اما تسخير واما تعليم والى نحوه
اشار بقوله تعالى واوحى ربك الى النحل وقوله تعالى بان ربك اوحى لها
وقال في الانسان بما اعطاه من العقل وعرفه من الرشد انا هديناه
السبيل وقال وهديناه النجدين وقال في ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى
على الهدى وثانيها الهداية بالدعاء وبعثة الانبياء عليهم السلام واياها
عنى بقوله تعالى وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا وبقوله ولكل قوم
هاد وهذه الهداية ينسب تارة الى الله تعالى عز وجل وتارة الى النبي
عليه السلام وتارة الى القران يهدى للتي هي اقوم وثالثها هداية
توليها صالحي عباده بما اكتسبوه من الخيرات وهي الهداية المذكورة
في قوله عز وجل وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط
الحميد وقوله اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وقوله

قال الله تعالى ان هذا القران صح

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهذه الهداية هي المعنية
بقوله ويجعل لكم نوراً تمشون به ويصح ان ننسب هذه الهداية الى الله
عزوجل فيقال هو اثرهم بها من حيث انه هو السبب في وصولهم اليها ويصح
ان يقال اكتسبوها من حيث انهم توصلوا اليها باجتهادهم فمن قصد
سلطاناً مسترفداً فاعطاه يصح ان يقال ان السلطان خوله ويصح ان يقال
فلان اكتسبه بسعيه ولانطوا، ذلك على الامرين قال تعالى والذين اهتدوا
زادهم هدى واتاهم تقويهم وقال ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم
بايمانهم فنبه ان ذلك بجهدهم وبفضله جميعاً وهذه الهداية يصح ان
يقال هي مباحه للعقلاء كلهم ويصح ان يقال هي محظورة الا على اوليائه
لما كان في امكان جميع العقلاء ان يترشحوا لتناولها ومن قبل انها
لا يسهل تناولها قبل ان يتشكل الانسان بشكل مخصوص يتقدمه عبادات
وقد قال بعض المحققين الهدى من الله كثير ولا يبصره الا البصير ولا يعمل به
الا اليسير الا ترى الى نجوم السماء ما اكثرها ولا يهتدى بها الا العلماء
وقال بعض الاولياء ان مثل هداية الله مع الناس كمثل سيل مر على قلات
وغدران فيتناول كل قلة منها بقدر وسعته ثم تلا قوله انزل من السماء
ماء فسالت اودية بقدرها وقال بعضهم هي كمطر اتى على ارضين
فينتفع كل ارض بقدر ترشيحها للانتفاع به والمنزلة الرابعة من الهداية
التمكين من مجاورته في دار الخلد واياها عنى الله تعالى بقوله ونزعنا
ما في صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار وقال الحمد لله الذى
هدانا لهذا فاذا ثبت ذلك فمن الهداية ما لا ينفى عن احد بوجه ومنها
ما ينفى عن بعض ويثبت لبعض ومن هذا الوجه قال تعالى لنبيه
صلى الله عليه انك لا تهدى من احببت وقال ليس عليك هداهم
ولكن الله يهدى من يشاء وقال وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم
فانه عنى الهداية التى هي التوفيق وادخال الجنة دون التى هي الدعاء
لقوله تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم وقال في الانبياء وجعلناهم

ائمة

ائمة يهدون بامرنا فقوله اهدنا الصراط المستقيم فسر على وجوه بحسب
انظار مختلفة الى الوجوه المذكورة الاول انه عنى الهداية العامة والمعنى
ندعو بذلك وان كان هو قد فعله لا محالة ليزيدنا ثواباً بالدعاء
كما امرنا ان نقول اللهم صل على محمد الثانى قيل وفقنا لطريقة الشرع
الثالث احرسنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات واعصمنا
من الشبهات الرابع زدنا هدى استنجاحاً لما وعدت بقولك ومن يؤمن
بالله يهد قلبه وقولك والذين اهتدوا زادهم هدى الخامس قيل
علمنا العلم الحقيقى فذلك سبب الخلاص وهو المعبر عنه بالنور في قوله
تعالى يهدى الله لنوره من يشاء السادس قيل سؤال الجنة لقوله تعالى
والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم
وقال ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم الاية
فهذه الاقاويل اختلفت باختلاف انظارهم الى ابعاض الهداية وجزئياتها
والجميع يصح ان يكون مراداً بالاية اذ لا تنافى بينها وبالله التوفيق
وقوله الصراط يقال الصراط والسراط والزراط والاصل من سرطت
الطعام وزردته اذا ابتلعته وسمى الطريق بذلك تصوراً انه اما
ان يبتلعه سالكه او يبتلع هو سالكه ذلك الا ترى انه قيل فلان اكلته
المفازة اذا اضمرته او اهلكته واكل المفازة اذا قطعها وعلى هذا النحو
قال رعته الفيافى بعد ما كان حقبه، رعاها وما الروض ينهل
ساكنه، ويقال قتل ارضا عالمها وقتلت ارض جاهلها وسمى الطريق
اللقم والملتقم على هذا النحو وذلك في معنى الملقوم كالنقض والرفض في
معنى المنقوض والمرفوض والمستقيم القائم بالقسط قال امير المؤمنين
على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم وذلك قد تصور على وجهين احدهما
انه اشارة الى ان الطريق المستقيم باضافتها الى طرق الضلال واحد وطرق
الضلال كثيرة وعلى هذا النحو قال تعالى وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل فتفرق بكم عن سبيله وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب الله مثلاً

صراطاً مستقيماً وعلى جنبتى الصراط ستور مرخاة وعلى راس الصراط داع يقول
ادخلوا الصراط ولا تعوجوا ثم قال الصراط الاسلام والستور المرخاة محارم
الله وذلك الداعى القرآن وعلى هذا فسر الآية فقيل الصراط المستقيم القرآن
وقيل الاسلام وقيل سنة النبى صلى الله عليه وسلم وهذا كله اشارة الى شئ
واحد وان اختلف العبارات والثانى ان طريق النجاة باضافة بعضها الى
بعض كثيرة لكن بعضها اقصد وبعضها ابعد واقصد الطرق الطريق
المستقيم الذى هو طريق السابقين دون طريق المقتصدين والظالمين
وان كانا مؤديين الى النجاة ايض لكنهما ابعد الا ترى انه قال تعالى ثم
اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية
فجعل ثلثهم مصطفين ولكون بعض الطرق اقرب من بعض قال النبى
عليه السلام فى قوم انهم يدخلون الجنة قبل اخرين بكذا سنة قوله عز وجل
صراط الذين انعمت عليهم الانعام ايصال الاحسان الى الغير
والنعمة يقال فيما يرتضيه العقل وان كان كريه المحتمل والنعمة قد يقال
فيما يستلذه الهوا وان كان كريه العاقبة هذا هو الحقيقة وان كان قد
يعد الانسان بسوء تصوره بعض ما يستلذه هواه نعمة وان كان
وخيم العقبى ونعمة الله وان كانت لا تحصى كما قال تعالى وان تعدوا
نعمة الله لا تحصوها فهى بالقول المجمل ضربان موهبى ومكتسبى فالموهبى
ثلثة اشرفها العقل وقواه من الفهم والحفظ والفكر والنطق ثم البدنى
وقواه من الصحة والقوة والجمال والكمال ثم ما يكتنفه من خارج كالمال والجاه
والاقارب والاصدقاء واما المكتسب فاربعة الحكمة والعفة وعنها يصدر
الجود والنجدة وعنها يصدر الصبر والعدالة وهى ثلث عدالة فى نفس الانسان
وذلك بان يجعل هواه تابعاً لعقله وعدالة بين العبد وخالقه
وذلك فى توفية حق العبادات وعدالة بين كل انسان وبين غيره
فى المعاملات وهذه الاربعة ينطوى عليها العبادة المامور بها
فى قوله وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين واما الاخروى

مكلفتهم

ضربان دنيوى واخروى
فالدنيوى صح

ورضاء

ورضاء الخالق ومعاشرة الملائكة وبقاء الابد والغنى عن كل حاجة
الا اليه تعالى وعلى ذلك دل قوله تعالى اعد الله لهم جنات تجرى من
تحتها الانهار خالدين فيها ابداً ذلك الفوز العظيم وقوله تعالى ان
الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية جزاؤهم
عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ابداً
رضى الله عنهم ورضوا عنه فالنعمة الحقيقية التى لا غناء عنها ويقال
له الخير المطلق هى الاخروية فاما الدنيوية فضربان ضرب هو نافع
ضرورى فى الايصال الى الخير المطلق وهى المكتسبات فانها ضرورية
فيه اذ لا يمكن الوصول الى نعيم الاخرة الا بها او ببعضها ولذلك قال
تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وضرب غير ضرورى وقد يكون
تارة نافعاً فى بلوغ المقصود وتارة ضاراً فيه نحو المال والجاه والقوة
والجمال ولذلك لا يقال فى المال انه نعمة على الاطلاق لانه قد يكون
نعمة لزيد ونقمة على عمرو ولهذا قيل رب مغبوط بامر هو داؤه ومرحوم
بامر هو شفاؤه ولذلك قال بعض الصالحين يا من منعه عطاء
وقال اخر يا من لا يستحق بمنعه الشكر سواه وعماد ذلك كله فى ايصالنا
الى المقصود من نعيم الاخرة توفيق الله عز وجل فقد قيل لبعض الحكماء
ما الذى لا يستغنى عنه فى كل حال فقال التوفيق اذا ثبت معرفة انواع النعم
علم ان قوله تعالى الذين انعمت عليهم يعنى به من سهلت عليهم طريق الفوز
باعطائهم ما يمكنهم منه ومنهم ما يثبطهم عنه ومن المفسرين
من قال اراد به ان عرفهم مكايد الشيطان وخيانة النفس ومنهم من
قال عنى الانعام عليهم بالعلم والفهم وكل هذا ابعاض للحكمة فالوجه
ان يجرى ذلك على العموم فى كل ما صح ان يكون نعمة بدلالة قوله تعالى
واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وهؤلاء المنعم المعنيون بقوله تعالى
الذين انعمت عليهم هم المذكورون بقوله تعالى اولئك الذين انعم الله
عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح الآية وقوله عز وجل

عليهم صح

ومبدا الغضب

غير المغضوب عليهم ولا الضالين اصل الغضب غليان دم القلب
ارادة الانتقام انفعال مكروه بدلالة قوله عليه السلام ان الغضب
من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وقال عليه السلام اتقوا
الغضب فانها جمرة توقد فى قلب ابن ادم الم تروا الى انتفاخ اوداجه وحمرة
عينيه فمن وجد من ذلك شيئا فليلزم الارض والغضب والغم ثوران النفس
وهما من اصل واحد الا انه متى كان معه الطمع فى الوصول الى الانتقام
كان غضبا واذا لم يكن معه الطمع كان غما فاذا الغم والحزن هما ماينال
الانسان ممن فوقه والغضب ماينا له ممن هو دونه فيختلفان بالاضافة
لا بالذات ولهذا قال بعض المحدثين الحزن كل اخى حزن اخو الغضب فاذا
ثبت ذلك فالغضب من الصفات التى لو خلينا وتجرد العقل لم يجز وصف
البارى عز وجل بها لكن اطلقنا عليه ذلك لما حسنا السمع وفسح لنا
الشرع على معنى صحيح هو انه قد تقدم ان الصفات التى مبداؤها
انفعالات ومنتهاها فعل متى وصف البارى تعالى به اريد به المنتهى دون
المبدا فان المراد بالغضب فى صفته تعالى ارادة الانتقام وعلى هذا فسر المتكلمون وقال بعضهم
هو ذم العصاة وقال بعضهم هو جنس من العقاب وعلى هذا اكثر المتكلمين وقال بعضهم هو
يضاد الرضا وقال بعضهم استجارة البطش لاستنكار امر وقال بعضهم
هو الانتقام وهذه التفاسير عنهم متقاربة وكلها لنظرهم منه الى
منتهى الغضب دون مبدأه واما الضلال والخطا فالعدول عن الصراط
المستقيم وعن الصواب سواء كان العدول عن ذلك عمدا او سهوا وسواء
كان يسيرا او كثيرا والصواب من الشئ يجرى مجرى القرطاس من المرمى
فى انه هو الصواب وباقيه ضلال وخطأ ولهذا قال الحكماء كوننا اخيارا
من وجه واحد وكوننا اشرارا من وجوه كثيرة ولهذا روى عن بعض
الصالحين انه راى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال له يا الذى شيبك
يا رسول الله حيث قلت شيبتنى سورة هود واخواتها فقال مثل قوله فاستقم
كما امرت ومن تاب معك و لصعوبة الصواب وكونه واحدا قال عليه

السلام

السلام استقيموا ولن تحصوا وعلى هذا النظر قال من اجتهد فاصاب
فله اجران ومن اجتهد فاخطا فله اجر فاذا ثبت ان كل عدول عن
الغرض المقصود يقال له خطا وضلال وان الصواب فى نهاية الصعوبة
علم انه ليس كل ضلال وخطا يستحق به العقاب الدائم بل كما قد يسمى اكبر
الكبائر نحو الكفر ضلالا وباطلا وخطا فقد يسمى بذلك اصغر الصغائر
فلا يجب ان يشككنا متشكك اذا راينا بعض اولياء موصوفا بضلال
وخطا كما راينا الكافر موصوفا بهما فقد يتقارب الوصفان حتى موصوفاهما متباعدان فغرض الضلال والخطا عريض والتفاوت بين
ادناه واقصاه كثير ولذلك قال تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ووجدك
ضالا فهدى اى وجدك غير مهتد الى ما سبق اليك من النبوة والعلم
ونحو قوله وان كان من قبل لفى ضلال مبين وقد يعبر عن سوء الاختيار
بالضلال نحو قوله فعلتها اذا وانا من الضالين ويعبر عن الخيبة بالضلال
والغى والخطا كما قال فى الكفار ان المجرمين فى ضلال وسعر فاذا ثبت ذلك
فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المغضوب عليهم ههنا
اليهود والضالين النصارى ودل على ذلك قوله فى اليهود من لعنه الله
وغضب عليه وقوله فى النصارى ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من
قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ان قيل كيف قسم على ذلك وكلا
الفريقين ضال ومغضوب عليه قيل هو كذلك لكن خص تعالى كل
فريق منهم بصفة كانت اغلب عليهم وان شاركوا غيرهم فى صفات
ذام ان قيل ما الفائدة فى ترادف الوصفين واحدهما يقتضى الاخر
قيل اقتضاء احدهما الاخر من حيث المعنى وليس من شرط الخطاب
ان يقتصر فى الاوصاف على ما يقتضى وصفا اخر دون ذلك الاخر الا ترى
انك تقول حى سميع بصير والسميع البصير يقتضى الحيوة ثم ليس من
شرط ذلك ان يكون ذكره لغوا وانما ذكر غير المغضوب عليهم لان
الكفار قد شاركوا المؤمنين فى انعام كثير عليهم فبين بالوصف

ان المراد بالدعاء ليس هو النعم العامة بل ذلك نعمة مخصوصة
وقوله غير اذا احفض فصفة ويصح ان يوصف ما فيه الالف واللام
ويدل على الجنس بغير ومثل واخواتها لكونه قريبا من النكرة ولا يصح
ان يوصف به ما فيه الالف واللام ودل على العهد ولا سائر المعارف
ويجوز حفضه على البدل واذا نصب فحال اما من الضمير في عليهم
او من الذين قال الاحفش ويصح ان يكون استثناء ولم يجوز ذلك
الفراء لان الاستثناء لا يعطف عليه بلا لا تقول رايت القوم الا زيدا
ولا عمرو قال ابو علي الفسوي من جعله استثناء فانه يقول ادخل عليه
لا حملا على المعنى لان معنى قولهم اتاني القوم الا زيدا اتوني لا زيدا
وتجعل لا زائدة وزل ابو علي الجبائي في قوله غير المغضوب عليهم زلة عظيمة
في النحو وقال ذكر المغضوب بلفظ المفرد وهو بمعنى الجماعة قال الا ان
هذا يجوز في سعة الكلام وخفي عليه ان المتعدي بالجار يدخل
التثنية والجمع على الضمير المتصل به دون لفظ المفعول وقوله آمين قيل هو
اسم الفعل كصه ومه ومعناه استجب وذلك عن الحسن واليه ذهب
الاحفش ويدل على كونه اسم فعل ما روي ان موسى كان يدعو وهرون
عليهما السلام كان يؤمن فقال تعالى قد اجيبت دعوتكما فاستقيما فكما ان
قول موسى عليه السلام ربنا اطمس على اموالهم جملة فكذلك قول
هرون آمين جملة من حيث المعنى وقال مجاهد وابن جبير وجعفر بن
محمد هو اسم من اسماء الله عز وجل وقال ابو علي الفسوي تاويل ما قالوه
ان هذا الاسم لما تضمن الضمير المرفوع وهو ذكر الله قالوا هو اسم الله
لا ان الكلمة كما هي اسمه وما روي عن امير المؤمنين رضي الله عنه
قال آمين خاتم رب العالمين ختم به دعاء عبده فقد قيل ان ذلك
ليس بتفسير لامير المؤمنين وانما هو وصف له من قال آمين بالمد فقال
الاخفش هو اسم اعجمي نحو حاميم وقال محمد بن يزيد هو على مثال عاصين
وليس يعني انه جميع ولا ان النون فتحت كما فتح في عاصين وانما يريد

ان لفظه كلفظه وقيل الالف فيه زيادة للمد نحو ينباع وانطور في ينبع وانظر

سورة البقرة قوله عز وجل

الم اختلف الناس في الحروف التي في اوايل السورة فقال قوم انها الا
جل تهامر اد بالالفاظ وغير منناف على السبر لكن بعضها مفهوم بلا واسطة
فنقول وبالله التوفيق ان المفهوم من هذه الحروف الاظهر بلا واسطة
ما ذهب اليه المحققون من اهل اللغة كالفراء وقطرب وهو قول ابن
عباس رضي الله عنهما وكثير من التابعين على ما بين من بعد وهو
ان هذه الحروف لما كانت هي عنصر الكلام ومادته التي تركب منها
بين تعالى ان هذا الكتاب من هذه الحروف التي اصلها عندكم
تنبيها لهم على اعجازهم وانه لو كان من عند البشر لما عجزتم مع تظاهركم
على معارضته واما اختصاص هذه الحروف وهذا العدد المخصوص
وكونها في سور معدودة وجعل بعضها مفردا وبعضها ثنائيا وثلاثيا
ورباعيا وخماسيا ثم لم يتجاوز ذلك واختصاصها ببعض ففيها عجائب
وبدايع اذا اطلع عليها علم انه كما وصفه تعالى بقوله لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه والقول في ذلك ان حروف التهجي قد
قيل ثمنية وعشرون وقيل تسعة وعشرون وهذا الخلاف من حيث
ان الالف حرف لا صورة له في اللفظ حتى قال بعض الناس الالف في
حروف التهجي حرف لا ساكن ولا متحرك وانما هو مدة لا اعتماد له وقيل
ان الله تعالى جعل هذه الحروف طبقا للعدد الذي هو اصل العلوم
ولو توهم ارتفاعه ارتفع سائر العلوم لان عقود الاعداد ثمنية
وعشرون آحاد وهي تسعة وعشرات وهي تسعة ومآت وهي تسعة
والف وهو واحد ثم الباقي مكررات وجعلها ايضا طبقا لمنازل القمر
وهي ثمنية وعشرون الى غير ذلك من العجائب واما لام الف فمركب
من حرفين ولا اعتداد به في حصر المفردات وقد قال بعض النحويين
ان ذلك يجب ان يقال لا وذلك انهم لما ارادوا تعريف صورة لفظ

وبعضها مفهوم بواسطة صح

الحروف دون بعض صح

الالف مفردة ولم يكن سبيل الى التفوه به مفرداً اذ لا يكون الا مدة ضم
اليها اللام ليمكن النطق به وخص بذلك اللام لعلة مذكورة في موضعها
فاذا ثبت ذلك فقد قيل ان السور التي ذكر في اوائلها هذه الحروف
تسع وعشرون وجعل ذلك تنبيهاً على عدد حروف التهجي اذا عدّ فيها
الالف وقد ذكر هذه الحروف مفردة وثنائية الى الخماسية تنبيهاً ان الكتاب
المنزل على رسوله مركب من كلماتهم التي هي اصولها اما مفرداً واما ثنائياً
الى الخماسي وان اصول ابنية كلامهم لا يتجاوز ذلك وجاء ثلث سور مفتتحة
بمفردات وتسع سور بالثنائيات وثلث عشرة سورة بثلاثيات وسورتان
برباعيات وسورتان بخماسيات وذلك ص وق ون وطه ويس وطس
وست من الحواميم والم في ست سور والر في خمس سور وطسم في سورتين
والمر والمص وكهيعص وحم عسق فجعل عدد الثلاثي اكثر تنبيهاً ان اكثر
تراكيب كلامهم الثلاثي وباقيها اقل وانما جعل الثلاثي ثلثة عشر تنبيهاً
ان اصول الثلاثي المستعملة ثلثة عشر عشرة للاسماء المستعملة وذلك فَعْل
كفلس وفُعْل كقفل وفِعْل كقرد وفَعَل كجبل وفَعُل كعضد وفَعِل ككتف
وفُعُل كعنق وفِعَل كعنب وفُعَل كصرد وثلثة للافعال فَعَل وفَعُل وفَعِل

وفعل كابل صح

ولم يعتد بفُعِل اما في الاسماء فلانه لم يوجد ما يعتد به اما في الافعال
فان الفعل في الاصل يجب ان يبنى للفاعل ويسند اليه دون المفعول واما
التسعة الثنائية فتنبيهاً ان ما جاء من الكلم على حرفين تسعة اضرب ثلثة
للحروف انْ ومنْ ومذ اذا جر به وثلثة للاسماء من واذ ومذ اذا
رفع به وثلثة للافعال في الاستعمال نحو قل وبع وخف اما الثلثة
المفردة فتنبيهاً ان الحروف ثلثة اضرب مفتوح ومكسور وساكن نحو
له وبه ولام التعريف واما الرباعيان والخماسيان فتنبيهاً ان لكل واحد منهما
بناءين اصلاً وملحقاً به اما الاصل فكجعفر وسفرجل واما الملحق بهما
فكقردد وجحنفل واقتصر من حروف التهجي على النصف منها وهو اربعة
عشر حرفاً من غير تكرير لتدل على حكمة عجيبة ولما خص نصفها بالذكر اورد

فيها

فيها من الحروف المجهورة والمهموسة والشديدة وما ليس بشديدة واللينة
والمطبقة وحروف البدل وما لا يصح فيه الادغام وما لا يدغم فيما قاربه
ولا يدغم ما قاربه فيه وما لا يدغم فيما قاربه ويدغم ما قاربه فيه ومن حروف
القلقلة ومن الحروف التي للعرب دون العجم من كل ذلك ما هو زوج واحتمل
التنصيف فانه اخرج نصفه ومن كل ما هو فرد لا يحتمل التنصيف نصفه باسقاط
حرف او زيادة حرف واما الحروف الذلقية والحلقية والزوايد فقد زيد
فيها على النصف لخاصية فيها فمن ذلك الحروف المجهورة وهو ما اشبع الاعتماد
على منبعه ولم يجر معه النفس وهي تسعة عشر حرفاً يجمعها زاد ظبي غنج لي ضمور
اذا قطع اسقط منها الالف الزائدة قيل فيها انه لم يعتد بها من حيث لا يكون
الا مدة وذكر نصفها في هذه الاربعة عشر وهي تسعة يجمعها لن يقطعه والمهموسة
وهي ما ضعف الاعتماد على منبعه وذلك عشرة يجمعها ستشحثك خصفه
وذكر منها في هذه الاربعة عشر نصفها وهي ما يجمعها صه حسك والشديدة
وهي ثمنية يجمعها اجدت طبقك ذكر نصفها ويجمعها اقطك وباقيها وهي
احد وعشرون اذا اسقط منها الالف فنصفها عشرة يجمعها حمس على نصره
واللينة حرفان سوى الالف والواو والياء وفي هذه الاربعة عشر احدهما
وهو الياء والمطبقة اربعة ص ض ط ظ ذكر اثنان منها وهي الصاد والطاء
وحروف البدل اثنى عشر حرفاً فيما ذكر سيبويه يجمعها اجد طويت منها ذكر منها
ستة يجمعها اهطمين وترك باقيها وانما لم يجر مجرى غيرها في ان ترك منها الف
ثم نصف بل زيد لامر اختص به باب البدل وهو ان الالف في باب البدل اكثر
من سائر الحروف فلم يجز الاخلال بها في باب الابدال واما على غير طريقة
سيبويه فقد بلغ بحروف البدل ثمنية عشر فعد فيها اللام بدلاً من النون
في اصيلان والصاد تبدل من السين في الصراط والثاء من الفاء في فروع الدلو
والفاء من الثاء في حدث وجدف وثوم وفوم والعين من الهمزة في عنعنة تميم
نحو قوله اعن ترسمت من خرقاء منزلة في أأن ترسمت والياء من الميم بايمك
في ما اسمك والزاء من السين في قولهم زقر اي سقر فعلى هذا في هذه الحروف

من الثمنية عشر تسعة وهي الستة المذكورة واللام والصاد والعين وما
لا يصح فيه الادغام اثنان الهمزة والالف وذكر احدهما وما لا يدغم ولا يدغم
فيه ويدغم فيه فالواو والياء اذا انفتح ما قبلهما وقد ذكر احدهما واما
الحروف التي لا يدغم فيما قاربها وتدغم ما قاربها فيها فهي الميم والراء والشين
والفاء وقد ذكر في هذه الحروف اثنان واما حروف القلقلة فخمسة القاف
والجيم والطاء والدال والتاء وذكر منها اثنان الطاء والقاف وهما اقوى
الخمسة واما الحروف التي للعرب دون العجم فالطاء والحاء وقد ذكر احدهما واما
الحروف الذلقية وهي التي ذلقت وسهلت على اللسان فستة يجمعها رمل
نسب وحروف الحلق وهي ستة الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة
فقد ذكر من النوعين اكثر من النصف للتنبيه على كثرة وقوعهما في الكلام
اذ قل ما ينفك رباعي وخماسي من حروف او حرفين او ثلثة من هذه الحروف
فلما كثر وقوعهما زيد المذكور منهما على النصف تنبيها على ذلك واما الزوايد
فعشرة تجمعها اليوم تنساه ووقع في هذه الحروف منها سبعة لخاصية فيها
وهي التنبيه على ان البناء من الكلمة قد تبلغ سبعة احرف بالزيادة فهذه
هي التي زاد المذكور منها على النصف لفائدة تخصه وحكمة تقتضيه
وما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان هذه الحروف اختصار
من كلمات فمعنى الم انا الله اعلم ومعنى المر انا الله اعلم وارى فاشارة منه الى
ما تقدم وبيان ذلك ما ذكره بعض المفسرين ان قصده بهذا التفسير ليس
ان هذه الحروف مخصصة بهذه المعاني دون غيرها وانما اشار بذلك الى
ما فيه الالف واللام والميم من الكلمات تنبيها ان هذه الحروف منبع هذه
الاسماء ولو قال ان اللام يدل على اللعن والميم على المكر لكان كمثل ولكن تحرى
في المثال اللفظ الاحسن كانه قال هذه الحروف هي اجزاء ذلك الكتاب
ومثل هذا في ذكر تنبيها على نوعه قول ابن عباس رضي الله عنهما
في قوله تعالى ثم لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ انه الماء الحار في الشتاء ولم
يرد به ان النعيم ليس الا هذا بل اشار الى بعض ما هو نعيم تنبيها على سائره

فكذلك

في الكلام صح

فكذلك اشار بهذه الحروف الى ما تركب منها وعلى ذلك ما رواه
السدي عنه ان ذلك حروف اذا ركبت يحصل منها اسم الله
وكذا ما روى عنه انه قال هي اقسام غير مخالف لهذا القول وذلك
ان الاقسام الواردة في فواتح السور انما هي قسم واجوبتها تنبيه عليها
فيكون قوله الم ذلك الكتاب جملة في تقدير مقسم بها وقوله
لا ريب فيه جوابها ويكون اقسامه بها تنبيها على عظم موقعها
وعلى عجزنا عن معارضة كتابه المؤلف منها فان قيل لو كان قسما
لكان فيه حرف القسم قيل ان حرف القسم يحتاج اليه اذا كان
المقسم به مجرورا فاما اذا كان مرفوعا نحو ايم الله او منصوبا نحو
يمين الله فليس يحتاج الى ذلك وما قاله زيد بن اسلم والحسن
ومجاهد وابن جريج انها اسماء للسور فليس بمناف للاول فكل
سورة سميت بلفظ متلو منها فله معنى في السورة معلوم وعلى هذا
القصائد والخطب المسماة بلفظ منها يفيد معنى فيها وكذلك ما قاله
ابو عبيدة وروى ايض عن مجاهد وحكاه قطرب والاخفش ان هذه
الفواتح دلائل على انتهاء السورة التي قبلها وافتتاح ما بعدها فان
ذلك يقتضي من حيث انها لم يقطع الا في اوائل السور ولا يقتضي ان
لا معنى لها سواه كما ان بسم الله في اوائل السور تقتضي ما قالوه ولا
يوجب ذلك ان لا معنى سواه وما ذكر ان هذه الحروف قصد بها
الرد على من قال ان النبي صلى الله عليه كان يتلقن ما يودعه القران
من بعض الاعجمين وذلك في قوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه
بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين فلذلك
شبيه ان هذه الصوت المخصوص بها القران هي من النظم الذي اصوله
عندكم وذلك ان القوم لم يدعوا ان لفظ هذا القران اعجمي وانما ادعوا
ان معناه ماخوذ عنهم ولهذا قال تعالى فأتوا بعشر سور مثله مفتريات
فاذا المعنى يرجع الى ما تقدم بانه تنبيه على اعجازه وما قاله قطرب

انه قصد بها صرف اسماع المشركين الى الاستماع اليه لما تواصوا بان لا تسمعوا
حتى قال تعالى وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه فانما
يشير به ايضا الى المعنى المتقدم لانه تعالى قصد بصرف اسماعهم تنبيههم على
عجزهم عن معارضته وان من حقكم اذا عجزتم عن مثله ان يتدبروا اياته
وتعرفوا انه حق فلا يلغوا فيه وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما
انه قال الالف من الم دلالة على الله واللام على جبرئيل والميم على محمد
فدل بذلك ان القران من الله عز وجل مبداؤه وان الواسطة جبرئيل
ومنتهاه الى محمد فهذا صحيح ودال على ما تقدم وقد نبه بمخرج الف الذى
هو مبدا المخارج الحروف على المبدا وهو الله تعالى وبمخرج اللام الذى
هو اوسط المخارج على جبرئيل وبمخرج الميم الذى هو منتهى المخارج على
المنتهى الذى هو النبى عليه السلم فكانه قال من هذه الحروف الدالة على
الاسباب الثلثة حصول الكتاب الذى عجزتم عن الاتيان بمثله وما قاله
الربيع بن انس ان هذه الحروف حروف الجمل وان ذلك من علوم خاصتهم
وقد نبه بها على مدد فذلك غير ممتنع ان يكون مع المعنى الاول مرادا
بدلالة ان النبى عليه السلام لما اتاه اليهود فسألوه عما انزل عليه فتلا عليهم الم
تحسبوه وقالوا ان ملكا يبقى احدى وسبعين سنة لقصير المدة فهل غيره
فقال الر والمر والمص خلطت علينا فانا لا ندرى بايها ناخذ فتلاوة
النبى عليه السلام ذلك عليهم وتقريرهم على استنباطهم دلالة انه لا يمتنع
ان يكون فى كل واحدة دلالة على مدة لامرها واما ما حكى عن الزنبرى
ان هذه الحروف ذكرت علما منه تعالى انه يكون فى هذه الامة من يزعم
ان القران ليس بكلام الله وانما هو حكاية كلامه فاراد ان يبين ان
القرآن مما يكتب ويخبر عن ابعاضه واجزائه بالحروف التى هى معلومة
انها محدثة فان هذا القول من الوهى بحيث يستغنى عن اظهار بطلانه
اذ لا يقول احد ان الكتاب بما هو كتاب ليس بمؤلف من هذه الحروف
وان كانوا قد اختلفوا فى القران هل هو مقصور على الكتاب والمراد به

هو غيره

هو غيره قوله تعالى ذلك الكتاب قال ابو عبيدة عنى به هذا الكتاب
وقال غيره عنى هو الكتاب فظن بعض من لم يتيقن فى الحقايق ان قولهم
ذلك قد يجئ بمعنى هذا وهو وليس الامر على ما ظنوه وانما قصد هذا
المفسران يبين ان الاسم الذى فيه الالف واللام هو الخبر لانه وصف
والخبر منتظر كقوله تعالى ان هذا هو الحق والفصل كما يقع بالمضمرات فانه
يقع بالمبهمات فان قيل اذا كان المعنى ما قدمت فى الم ذلك فهلا
قيل ذلك الكتاب الم فانه قد علم ان حروف التهجى كما يكون الكتاب
المشار اليه قد يكون شعرا وخطبة ورسالة وقد تقرر ان العام
اذا اخبر عنه بالخاص كان كذبا نحو قولهم الانسان حيوان فيحصل
من ذلك انه اذا قيل الم ذلك الكتاب مبتدأ والم خبر له مقدما
وتقديمه على كون العناية به اصدق كما تقدم والثانى انه قد يقال
الانسان زيد بمعنى غير معنى زيد انسان وهو ان يراد ان كمال الانسانية
موجود فى زيد فكانه قيل كمال حروف التهجى موجود فى هذا الكتاب
والمكتوب فى التعارف اسم للمكتوب اى المنظوم كتابة وقد يعبر عن
المنظوم عبارة قبل ان يكتب بالكتاب قوله تعالى لا ريب فيه قال
المفسرون معناه لا شك فيه فان قيل كيف نفى الريب عنه وقد علم
تشكك كثير من الناس فيه قيل فى ذلك اجوبة الاول ان ذلك نفى
على معنى النهى نحو قوله فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج بدلالة
قوله فلا تكونن من الممترين وقوله فلا يكن فى صدرك حرج منه
فان قيل الشك لا يقصده الانسان فكيف ينهى عنه قيل اللفظ نهى
والمعنى حث على التدبر والتفكر النافيين للشك والثانى انه يقال
رابنى كذا اذا تحققت منه الريبة واراتبنى اوهمنى الريبة قال الشاعر
اخوك الذى ان ريته قال انما اربت وان عاتبته لان جانبه
فالقران لا ريب فيه وان كان فيه ارتياب من بعض الكفار والثالث
انه يقال هذا لا ريب فيه والقصد الى انه حق تنبيها ان الريب يرتفع عنه

الحيوان انسان واذا اخبر عن الخاص بالعام كان صدقا كقولهم
لان كذبا على هذا واذا قيل الم ذلك الكتاب
الم كان صدقا فيلزم ذلك الكتاب جوابان
احدهما الكل ... صح

عند التدبر والتامل والرابع انه لا ريب في كونه مؤلف من حروف التهجي
وقد عجزتم عن معارضته والخامس لا ريب فيه للمتقين ويكون خبر لا ريب فيه
قوله تعالى للمتقين وهدى نصب على الحال او خبر ابتدا مضمر في موضع
الحال قوله عز وجل هدى للمتقين قد تقدم الكلام في الهداية واما
اختصاص المتقين فلان الهداية نصب العلم ليهتدي به الناس فله موضع
هو المبدا وذلك نصب العلم للكافة وغاية وهو الاهتداء به فيقال
هدى للمتقين لما لم يهتد به غيرهم ومثاله من بنى مسجدا مباحا
للكافة يصح ان يقول بنيت هذا المسجد للناس كافة اعتبارا بالمبدا
ويصح ان يقول بنيته للمصلين فيه اعتبارا بالغاية فطريقة اخرى
وهي ان اللام في قول القائل خرجت لاظفر يقال على وجهين احدهما ان
المقصود بالخروج الظفر والثاني ان الحاصل منه الظفر لانه قصد به
وعلى ذلك قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا الا انه فقوله
هدى للمتقين تنبيه على حصول الهدى لهم وان كان القصد لهم ولغيرهم
وطريقة ثالثة اذا تؤملت تصور عنها جواب مسائل كثيرة في القران وهو
ان الله تعالى جعل لنا طبين طبا بدنيا وطبا دينيا وكل واحد منهما
ضربان احدهما اعادة الصحة والاخر حفظ الصحة وقد اجرى العادة
ان الذي يحفظ به الصحة غير الذي يعاد به الصحة اما في الطب البدني
فالذي يعاد به الصحة العقاقير والادوية واما الذي يحفظ به الصحة
فالغذاء والاطعمة واما في الطب الديني فالذي يعاد به الصحة صيقل
العقل واستعماله في تدبر الدلالات وتعرف المعجزات ومعرفة النبوة
والذي يحفظ به الصحة تدبر الكتاب المنزل وتتبع سنن النبي المرسل
فكما ان من لم يستفد الصحة في الطب البدني اذا تغذى كان ذلك
ضررا عليه ومتى عاد صحته كان تناول الغذاء عائدا بنفع اليه كذا
من لم يستفد صحة عقله بتدبر الدلالات كان القران ضررا عليه
ومتى استعمل ذلك وتهذب فيه جلب بالاستماع الى القران نفعا

اليه

اليه وعلى ذلك قوله تعالى وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين
ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقوله واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول
ايكم زادته هذه ايمانا الى قوله فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون
واما التقوى فهو جعل النفس في وقاية مما يخاف هذا حقيقته ثم يسمى تارة الخوف
تقوى والتقوى خوفا على تسمية المقتضى باسم المقتضي والمقتضي باسم المقتضى
وفي التعارف حفظ النفس عن كل ما يؤثم ولها منازل الاول ترك
المحظور وذلك لا يتم الا بترك بعض المباح مما يليه ولذلك قال عليه السلام صح من يرتع حول
الحمى يوشك ان يقع فيه وقيل من لم يجعل بينه وبين محارم الله سترا من
حلال فحقيق ان يقع فيها قوله انما يتقبل الله من المتقين اي التاركين للمحظورات
وقال فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال ان الله مع
الذين اتقوا والذين هم محسنون فجعل المتقي في الآيتين غير المصلح والمحسن
والثاني من منازل التقوى ان يتعاطى الخير مع تجنب الشر واياه عنى
الله تعالى بقوله وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا والثالث منها التبرؤ
من كل شيء سوى الله عز وجل بلا سكون الى النفس ولا الى شيء من القنيات
والجاه والاعراض وهو المعنى بقوله تعالى واتقوا الله حق تقاته وما وعدناه
بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم ووجاناه
بقوله وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم الى قوله لعلهم يتقون
فهذه المنازل مرتب بعضها الى بعض وقد فسر قوله تعالى هدى للمتقين على
الوجوه الثلثة فقيل عني به التاركين لمحارم الله وقال ابن عباس رضي الله
عنهما عني به الخائفين عقوبته الراجين رحمته وقال بعض المتقدمين
معناه هدى للمتقين اي وصلة للمنقطعين اليه عن الاغيار الذين نزع
عن قلوبهم حب الشهوات فهذا نظر منهم الى الغاية قوله عز وجل
الذين يؤمنون بالغيب الايمان التصديق بالشيء ولا يكون التصديق
الا عن علم ولذلك قال الا من شهد بالحق وهم يعلمون فالايمان اسم
لثلثة اشياء علم بالشيء واقرار به وعمل بمقتضاه ان كان لذلك المعلوم

عمل كالصلوة والزكوة وهذا هو الاصل ثم قد يستعمل في كل واحد من هذه
الثلثة فيقال فلان مؤمن ويعنى به انه مقر بما يحقن دمه وماله واياه
عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله
الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وبذلك حكم
عليه السلام على الجارية التي عرضت عليه فسألها اما سألها ثم قال اعتقها
فانها مؤمنة ويقال مؤمن ويراد به انه يعرف الادلة الاقناعية التي
تحصل معها سكون النفس واياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله من قال
لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ويقال مؤمن ويعنى به انه يسكن قلبه الى الله
من غير تلفت الى شيء من عوارض الدنيا واياه عنى الله تعالى بقوله انما المؤمنون الذين
اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الاية وبقوله اولئك كتب في قلوبهم الايمان والغيب
ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بداية العقول وانما يعلم اما بواسطة
علم او الاستشهاد به عليه واما بخبر الصادق وهو الذي دفعه قوم فلزمهم
اسم الالحاد لان الالحاد دفع اخبار الغيب وقول شريك الغيب هو القرآن
وقول عطا انه القدر تمثيل لبعض ما هو غيب وليس ذلك بخلاف بينهم
بل كل اشار الى الغيب بمثال وكذا ما روى ابو جمعة انا كنا مع رسول الله صلى الله
تعالى عليه وسلم فقلنا يا رسول الله هل قوم اعظم اجرا منا امنا بك واتبعناك
قال ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين اظهركم يأتيكم بالوحي من السماء
بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به ويعملون بما فيه اولئك
اعظم اجرا منكم فتبيين منه عليه السلام ان من بعده يحتاج الى نظر
اكثر من نظر الذين شاهدوه فقد كفروا كثيرا من اخبار الغيب وقوله بالغيب
في موضع المفعول كقوله وبالاخرة هم يوقنون وقال بعضهم معناه يؤمنون
اذا غابوا عنكم ولم يكونوا كالمنافقين الذين اذا خلوا الى شياطينهم
قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن وقوى ما قاله بقوله تعالى الذين يخشون
ربهم بالغيب وقوله وخشي الرحمن بالغيب وقول الشاعر وهم بغيب وفي عمى وما شعروا
ويكون بالغيب على هذا في موضع الحال ومفعول يؤمنون محذوف وقال

بعض

بعض المتأخرين من المتكلمين يحمل قوله تعالى بالغيب على المغيبين
وخفي عليه ان ذلك لا يصح فان بالغيب في القول الاول مفعول
وفي القول الثاني حال ولا يصح ان يقال ضربت راكبا وراكب يكون مفعولا
لضربت وحالا للفاعل والوجه هو القول الاول لانه مستوعب
لمعنى الثاني وزائد عليه اذ كل من امن على الوجه الاول فلا شك انه بخلاف
من يقول انما نحن مستهزؤن وقيل معنى قوله يؤمنون بالغيب يعني
بالقلب والنور الذي آتاهم الله وهو العقل ومعناه امنوا بقلوبهم
بخلاف من اخبر الله تعالى عنهم بقوله ومن الناس من يقول امنا بالله
وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين ومن حكى عنهم يقولون بافواههم ما ليس
في قلوبهم وهذا ايضا يرجع الى الاول عند التحقيق وقيل يؤمنون من
أمن فلان اي صار ذا امن نحو اغاه واجرب ومعناه صاروا ذوي
امن بظهر الغيب بان ما اخبروا به حق فتطمئن قلوبهم بذكر الله قوله عز وجل
ويقيمون الصلوة اقامة الصلوة توفية حدودها وادامتها وتخصيص
الاقامة تنبيه على انه لم يرد ايقاعها فقط ولهذا لم يأمر بالصلوة ولم
يمدح بها الا بلفظ الاقامة نحو اقيموا الصلوة وقوله المقيمين الصلوة
والذين يقيمون الصلوة ولم يقل المصلين الا في المنافقين فويل للمصلين
الذين هم عن صلاتهم ساهون وذلك تنبيه ان المصلين كثير والمقيمين لها
قليل كما قال عمر رضي الله عنه الحاج قليل والركب كثير ولهذا قال عليه السلام
من صلى ركعتين مقبلا بقلبه على الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه
فذكر مع قوله صلى الاقبال بقلبه على الله تنبيها على معنى الاقامة وبذلك
عظم ثوابه وكثير من الافعال التي حث تعالى على توفيه حقه ذكره بلفظ
الاقامة نحو ولو انهم اقاموا التورية والانجيل ونحو واقيموا الوزن بالقسط
تنبيها على المحافظة على تعديله وقال ابو علي الجبائي الصلوة لما جاورها
القيام صح ان يعبر عن المصلي بالقيام وهذا بعيد لان المجاور للصلوة
القيام لا الاقامة ثم مع القول المتقدم لا يعرج على هذا وقوله عز وجل

ومما رزقناهم ينفقون الرزق لفظ مشترك يقال للعطاء الجارى
تارة وللنصيب تارة ولما يصل الى الجوف ويتغذى به تارة فقوله تعالى
ويجعلون رزقكم انكم تكذبون يعنى نصيبكم من النعمة وقوله وفى السماء
رزقكم تنبيه على ان الحظوظ بالمقادير وقوله وانفقوا مما رزقناكم محمول
على المباح دون المحظور لامرين احدهما انه حث على الانفاق ومدح لفاعله
ولا يحث ولا يمدح بانفاق المحظور والثانى باضافته اليه وتمكينه منه
حيث قال ومما رزقناهم ومن شرط ما يضاف اليه من الافعال متفضلاً
ان يخص الافضل فالافضل وان كان قد يضاف اليه الافعال كلها على
سبيل العموم بمعنى انه هو السبب الذى لولاه تعالى لم يحصل ولم يكن بوجه
والظاهر من انفاق ما رزقه الله المال وذلك عام فيما يخرج من الزكوة
المفروضة ومن العطايا النافلة بدلالة ان ذلك مدح منه والمدح
يستحق بالفرض والنفل وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه عنى
الصلوة المفروضة والزكوة فانه ذكرا وكد ما يستحق به المدح اذ لا يعتد
بالنفل ما لم يؤت بالفرض لقوله عليه السلام ان الله لا يقبل نافلة
حتى تؤدى الفريضة وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه ان المؤمن
ليوجر فى كل شئ حتى اللقمة يضعها فى امراته فالانفاق من الرزق بالنظر
العامى من المال كما تقدم واما بالنظر الخاصى فقد يكون الانفاق
من جميع المعاون التى اتانا الله عز وجل من النعم الباطنة والظاهرة
كالعلم والقوة والجاه والمال الا ترى الى قوله عليه السلام ان علماً لا يقال به ككنز
لا ينفق منه وبهذا النظر عد الشجاعة وبذل العلم من الجود حتى قال
الشاعر • والجود بالنفس اقصى غاية الجود • وقال اخر يجود بماله وبجاهه
والجود كل الجود بذل الجاه • وقال حكيم الجود التام بذل العلم ومتاع الدنيا
عرض زائل ينقصه الانفاق واذا تزاحم عليه قوم ثلم بعضهم حال بعض
والعلم بالضد فهو باق دائم ويزكوا على النفقة ولا يثلم تناول البعض
حال الباقين والى هذا ذهب بعض المحققين فقال ومما رزقناهم

مما رزقناكم وصح

ينفقون

ينفقون اى مما خصصناهم به من انوار المعرفة يفيضون فعلى
هذا عام فى كل ذلك قوله عز وجل والذين يؤمنون بما انزل اليك
وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون الانزال والوحى متقاربان
لكن استعمال الانزال على اعتبار حال المنزل اليه بالشرف والمنزلة
لا بالمكان والوحى هو الاشارة والالقاء وذلك على ثلثة اضرب بينها
الله تعالى فى قوله وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب
او يرسل رسولاً فيوحى باذنه ما يشاء فالاول من ذلك الوحى والانزال
الذى بينه تعالى وبين اولى العزم من الرسل بسفير يرونه والثانى سماع
من غير رؤية كحال موسى عليه السلام فى ابتداء بعثه والثالث الالقاء
فى الروع وذلك ضربان اما الالقاء فى الروع فى حال اليقظة وهو المعبر عنه
بالمحدث والمروع وعليه نبه عليه السلام بقوله ان فى امتى لمروعين وقوله ان
فى هذه الامة محدث فعمر بن الخطاب وقوله ان روح القدس نفث
فى روعى واما القاء اليه فى المنام وذلك ضربان اما ظاهر من المنام
لا يحتاج الى تعبير واما تلويح ورمز يحتاج الى تعبير ولهذا قال عليه
السلام الرؤيا الصادقة جزء من خمس واربعين جزء من النبوة فالذى
يكون فى المنام بالالقاء فى الروع قد يكون بغير الانبياء عليهم السلام
والذى يكون بالسماع من غير رؤية قد يكون لغير اولى العزم من الرسل
والذى يكون بالسفير المرئى لا يكون الا لاولى العزم وعلى هذا حال الانزال
فقد ذكر تعالى الله الذى انزل الكتاب بالحق والميزان وقال وما انزل
لكم من الانعام ثمانية ازواج وقوله وانزلنا الحديد فيه بأس شديد
ومعلوم ان ذلك بالتمكين والالقاء فى الروع بالهداية اليه واليقين
اقوى ادراكات العقل ولهذا قيل هو مشاهدة الغيوب بعين القلوب
تنبيه انه اقوى ادراكات العقل كما ان رؤية البصر اقوى ادراكات
الحواس ولصعوبة ادراكه قال عليه السلام اخوف ما اخاف على امتى
ضعف اليقين وهو اطمينان القلب اعتبارا بثمرته وقال تعالى وكذلك

بالالهام وصح

ولذلك قالوا اليقين صح

بفصل ص

نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين
واستعمل فيه الرؤية تنبيها على ما تقدم والكلام فى ترتيب الايتين ونظمها
صعب وذلك انه ان كانتا تفصيلا للمتقين فالوجه ان يفصل ذلك لا يدخل
احد القسمين فى الاخر نحو ان يقال العرب بدوى وحضرى او شاعر وغير شاعر
او تميمى وغير تميمى فاما ان يقال شاعر وتميمى فلا يصح ومعلوم ان بعض ما ينطوى
عليه احد الايتين داخل فى جملة الاخرى وان كان ذلك ليس بتفصيل
وانما هى صفات للمتقين ويكون ذكر بعض ذلك مخصصا عن الجملة كذكر جبرئيل
وميكائيل بعد الملائكة على سبيل التخصيص فالوجه ان لا يعاد الذين
ثانيا ثم قوله اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون يجب ان
يعلم هل هما صفتان لموصوفين او لموصوف واحد فيقال وبالله التوفيق
انه قد قيل الايتان وان كانتا عامتين فمعناهما خاص فالاولى اشير بها
الى الذين امنوا عن الشرك والثانية الى الذين امنوا من اهل الكتاب
وهو قول ابن عباس واستدل على تقوية ذلك بانه كما صنف الكفار
بعد ذلك فجعلهم مجاهلا ومنافقا كذلك صنف المؤمنين فجعلهم مؤمنا
عن شرك ومؤمنا عن غير مخالف فى النبوة فعلى هذا قوله الذين يؤمنون
بما انزل اليك كانه قيل هذا الكتاب هدى للمسلمين الذين هذا وصفهم
ولاهل الكتاب الذين جمعوا بين الايمان بك وبمن تقدمك وقد قيل
فيه قول ثان وهو ان الايمان ضربان ضرب يمكن ان يدرك جملة
بالعقل وان لم يكن ادراك تفاصيله الا بالشرع وذلك ثلثة اشيا
ذكرها فى الاية المتقدمة وهى افضل ما يؤدى بالجوارح وهو الصلوة
وافضل ما يؤدى من الاملاك وهو الزكوة وذلك صفات المتقين
ثم ذكر بعد ذلك ثلثة احوال من اسرار الايمان مما لا سبيل الى معرفته
الا بالسمع وهو الايمان بالقران والايمان بالكتب المنزلة على الرسل
المتقدمة والايقان بيوم القيمة قال وانما اعاد الذين تنبيها ان هذه الثلثة
سبيلها غير سبيل الاول وقد قيل فيه قول ثالث وهو ان الايمان ضربان

ضرب

ضرب وهو معرفة سبيل الحق وطلب الوسيلة اليه وهو المشار اليه بقوله
ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وبقوله وابتغوا اليه الوسيلة
وضرب هو مزاولة السلوك اليه المشار اليه بقوله تعالى قل هذه سبيلى
ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى وبقوله وجاهدوا فى الله حق جهاده
فالمعنيون بالاية الاولى هم الموطئون السبيل اليه بالايمان والعبادات
البدنية والمالية وبالثانية المجتهدون فى التوصل اليه وهم الذين
يعرفون حقايق مراد الله بما انزله على انبيائه وعناهم الله تعالى بقوله
وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد وبقوله افمن شرح الله
صدره للاسلام فهو على نور من ربه وبقوله اولئك كتب فى قلوبهم الايمان
وهم المزيد لهم بقوله ومن يقترف حسنة نزد لهم فيها حسنا فعلى هذا
يرجع قوله تعالى اولئك على هدى من ربهم الى الصنف الاول واولئك هم
المفلحون الى الصنف الثانى قوله عز وجل اولئك على هدى من ربهم
واولئك هم المفلحون قد تقدم القول فى ذكر الهداية بما اغنى عن
الاعادة فاما الفلح فاصله الشق ومنه قيل الحديد بالحديد يفلح وسمى
الاكار فلاحا اعتبارا بمبدأ فعله وهو شق الارض ومن قال سمى المكارى
فلاحا لقول الشاعر وفلاح يسوق الحمار فهذا سوق نظر منه فانه اراد
اكارا يسوق حمارا فكما انه لو قال اكار يسوق حمارا لم يكن يجب ان يقال
الاكار هو المكارى كذلك هذا وسمى الظفر فلاحا اعتبارا بكشف
الكربة ثم الفلاح تارة يعتبر باعراض الدنيا فيقال افلح فلان اذا ظفر
بما يريد وقول من قال الفلاح البقا لقول الشاعر ويرجو الفلاح
بعد عاد وحميرا فانما عنى الفرج والبقا بعض الفرج فاذا ذلك
عام موضوع موضع خاص وقد استعمل الفلاح فى الاية لما هو
فى الحقيقة ظفر وفرج كما قال عليه السلام لا عيش الا عيش الاخرة وهو
قوله تعالى وان الدار الاخرة لهى الحيوان قوله عز وجل ان الذين كفروا سواء
عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون الكفر فى اللغة الستر ووصف

الليل بالكافر لستره الاشخاص والزارع لستره البذر فى الارض وليس
لهما باسم كما ظن بعض اهل اللغة لما سمع قول الشاعر القت ذكا يمينها فى كافر
فان ذلك على اقامة الوصف مقام الموصوف وقول الشاعر كالكرم اذ
نادى من الكافور اى الاكمام منه وسمى القرية كفرا لذلك وكفرا لنعمة
سترها يقال كفر كفرا وكفورا نحو شكر شكرا وشكورا وهو كافر وكفور وشاكر
وشكور وحقيقة الكفر ستر نعم الله تعالى ولما كانت نعمه تعالى بالقول المجمل
ثلثا نعمة خارجية كالمال والجاه ونعمة بدنية كالصحة والقوة ونعمة نفسية
كالعقل والفطنة صار الشكر والكفر ثلثة انواع بحسبها واعظم الكفر ما كان
مقابلا للنعمة النفسية فيها يتوصل الى الايمان واستحقاق الثواب ومن قابل
تلك النعم بالكفران فهو الكافر المطلق ولذلك صار الكفر فى الاطلاق جحود
الوحدانية والنبوة والشريعة وقوله تعالى سواء فى الاصل مصدر كالعلاء والنماء
وفى التعارف يستعمل فى وسط الشئ المعتبر استواؤه بطرفيه ومنه سواء
الدار واما السيان فى الشيئين المعتبر احدهما بالاخر فى المساوات فالشئ
هو المساوى كالقتل والمثل فى معنى المقابل والمماثل فاذا قيل سواء زيد وعمرو
فمعناه كلاهما واحد لحصولهما فى وسط واحد فاذا قيل سيان زيد وعمرو
فمعناه كل واحد منهما مساو للاخر وانما جاز قولهم سواء على اقمت او قعدت
منبه بابهام الامر على استواء الحالين لديه وان كان القصد الاول بهذا الكلام
الى الاستفهام دون المساواة فلما صار فيه معنى الاستواء جاز ان يقال
ذلك بمعنى ان ما اقتضاه هذا السوال سوى عندى واكثر النحويين جعلوا
سواء مبتدأ وما بعده خبره وقالوا كل جملة حصلت خبر المبتداء فلا بد
من ان يكون فيها ضمير منطوقا به او مقدرا الا هذه الجملة فانه لا ضمير
فيها بوجه وذكر بعضهم ان المبتداء ههنا مقدر وقد دل عليه لفظ الاستفهام
وسواء خبره والجملة قد تدل على المخبر عنه نحو من كذب كان شرا له اى كان
الكذب شرا له وهذا التقدير اجود لامور منها انها لا ينكسر الباب على هذا لان
الباب مقرر فى ان الجملة اذا كانت خبرا فلا بد لها من ضمير يرجع الى المخبر عنه

والثانى

والثانى انا اذا قلنا سواء عليها القيام والقعود يخبر عن القيام والقعود
بالسواء لا عن السواء بالقيام والقعود والثالث ان سواء نكرة غير موصوفة
ولا محدودة فيقبح الابتداء به وقال ابو على الفسوى فى نصرة المذهب الاول
انك اذا قلت سواء هو خبر بقى الكلام بلا مبتدأ فالجملة بعده خبر ساقط وهذا
على التقدير المتقدم ويشهد لصحة ما قلناه قولهم تسمع بالمعيدى خير من ان تراه
فان قولهم تسمع يدل على مبتدأ وقولهم خير خبره كانه قيل تسمع وسماعك بالمعيدى
خير والانذار اخبار فيه تخويف كما ان التبشير اخبار فيه سرور وقولهم
نذرت يقتضى معنى خشيت وخفت واما قولهم انذرت فذلك تقديم
قول يقتضى خوفا من محذورا ورجاء السرور وان قيل كيف قال سواء عليهم
الاية وقد علم انه قد امن من الذين كفروا قوم قيل ايمان من امن لا ينافى
مقتضى الاية وذلك انه تعالى نفى انهم ينتفعون بالانذار مع حصول الكفر
فاما اذا ازال الكفر وهو الجحود فانه لا يمتنع ان ينتفعوا بالانذار كقولك
المريض سواء اطعمته ام لم تطعمه لا ينفعه الطعام تنبيها انه ما دام مرضه
حاصلا لم ينفعه ذلك ولا يقتضى انه لا ينتفع بذلك اذا ازال مرضه وقد تقدم
ان الطب ضربان ازالة المرض وحفظ الصحة وان الانذار يجرى مجرى
الغذاء الحافظ للصحة وان النظر فى الادلة المقتضية للتوحيد واثبات
الرسل جار مجرى الدواء المعيد للصحة والمريض ما لا ينتفع بالغذاء ما لم يزل
مرضه فتبين ان الذى فى قلبه مرض من الكفر لا ينتفع بما يجرى مجرى الغذاء
ما دام به المرض وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ما دل على
هذا وهو انه قال عنى به الجاحدين لنعمه وان الانذار لا ينفعهم مع كفرهم
وقيل ان ذلك حكم على جميعهم لان النبى عليه السلام كان يحب ان يؤمنوا
باجمعهم وايمان بعضهم ليس يقتضى ان الحكم على الكل كاذب وقيل الاية
نزلت فى اليهود الذين جحدوا نبوة النبى صلى الله تعالى عليه مع ظهور المعجزات
لهم ولم يؤمن احد منهم وقال الربيع نزلت فى قادة الاحزاب الذين نزلت
فيهم قوله تعالى الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار

البوار الاية وقيل لم يدخل في الاسلام منهم الا نفر لا يدرى هل حصل
لهم الايمان الموصوف في قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت
قلوبهم واذا تليت عليهم اياته زادتهم ايمانا فان قيل اذا علم انه لا ينجع
الانذار فيهم فلم انذرهم قيل قد بين الله تعالى في الاية ما هو تنبيه على الجواب عن ذلك
لانه قال سواء عليهم ولم يقل عليك ليبقى للنبي فضل الانذار والسعي في
الابلاغ فائدتان فائدة له في استحقاق الثواب بما تكلفه من المشاق
وفائدة لهم ان قبلوا نهم وان حرموا فائدة القبول فانه عليه السلام
لم يحرم فائدة الابلاغ وعلى ذلك قال سواء عليهم استغفرت لهم ام لم
تستغفر لهم لن يغفر الله لهم تنبيها على هذا المعنى وقال فيما خاطب به
الكفار وذمهم لعبادتهم الاصنام سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون
فقال عليكم لما كان ذلك راجعا الى الداعين دون المدعوين وخبر
ان يصح ان يكون قوله لا يؤمنون وقوله سواء عليهم مع خبره اعتراض
في موضع الحال ويصح ان يكون الجملة التي هي سواء عليهم مع خبره خبر ان
وقوله لا يؤمنون حال مؤكدة او تفسير لذلك لانه اذا قيل سواء عليهم
ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يعلم من ظاهره ان هذا الاستواء هل هو في ان يؤمنوا
او في ان لا يؤمنوا فبين ذلك قوله عز وجل ختم الله على قلوبهم وعلى
سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم الختم والطبع الاثر الحاصل
عن نقش ويتجوز به في امور يقال ختمت كما في الاستيثاق من الشيء والمنع منه
نظرا الى ما يحصل من المنع بالختم على الكتب والابواب ويقال ذلك ونعني به
تحصيل اثر نظرا الى النقش الحاصل عن الطابع اذا طبع ويقال ذلك ونعني به
بلوغ اخر الشيء نظرا الى انه اخر فعل يفعل في احراز الشيء ومنه قيل ختمت القران
ويقال ذلك لما يستدل به على الشيء نظرا الى ختم المناشير المستدل به على منشيها
واما المراد من الاية فقد قيل للانسان بالقول المجمل ثلثة انواع من الذنوب
يقابلها في الدنيا ثلث عقوبات الاول الغفلة عن العبادات وذلك
يورث صاحبها جسارة على ارتكاب الذنوب وهي المشار اليها بقوله

فما فائدة حث النبي صلى الله عليه وسلم على انذارهم صح

عليه

عليه السلام ان المؤمن اذا اذنب ذنبا كان نكتة سوداء في قلبه
فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وان زاد زادت حتى يغلق قلبه والثاني
الجسارة على ارتكاب المحارم اما لشهوة تدعوه اليه او شرارة تحسنه
في عينه وذلك يورثه وقاحة وهي المعبر عنها بالرين في قوله تعالى
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون والثالث الضلال وهو ان يسبق الى
اعتقاد مذهب باطل واعظمه الكفر فلا يكون منه تافت بوجه الى الحق
وذلك يورثه هيئة تمرنه على استحسانه للمعاصي واستقباحه للطاعات
وهو المعبر عنه بالختم والطبع وكما عبر عنه بذلك في قوله تعالى وختم
على سمعه وقلبه وقوله اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم
فقد عبر عنه بالاقفال في قوله تعالى ام على قلوبهم اقفالها وبالاغفال في قوله
ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا وبقساوة القلب في قوله وجعلنا قلوبهم
قاسية وبجعل اكنة عليها في قوله وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وبعدم
العقل في ايات كثيرة ويجب ان يتصور ههنا نكتة تزيل الشبهة فيها وفيما اشبهها
من الايات وهي ان الهداية من الله تعالى ضربان احدهما بالعقل الذي هو فطرته
التي فطر الناس عليها ومتى توهم نفيا ارتفع التكليف والثاني العلم المحصل
للانسان بالفكر والروية بواسطة ما اعطي من نور الهداية الاولى اشار اليه
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما قال لعلي رضي الله تعالى عنه اذا تقرب الناس الى
خالقهم بالصلوة والصيام فتقرب انت اليه بالعقل تسبقهم بالدرجات فاذا
كان كذلك وجب ان يكون متصورا ان هذه الهداية الثانية مباحة
للكافة لكن لا سبيل الى لقائها وتناولها والانتفاع بها الا لمن جلى بصيرته
لرؤيتها وطهر قلبه بقبولها وقد نبه تعالى على ذلك بقوله قد افلح من زكيها
والكافر من حيث لم يجل البصيرة لم يرها واذا لم يرها لم يتناولها واذا
لم يتناولها لما صح ان يقال انه لم يهده الله تعالى اليها اذا كان الهداية التامة
انما يحصل بالاهتداء واذا لم يهتد بها صح ان يقال هو ممنوع منها ومصروف
عنها كما قال ساصرف عن اياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان

وهو الذي صح

يروا كل اية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ثم بين
سببه فقال ذلك بانهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين وتصور بعض
الناس ان ذلك الختم منع من الله تعالى للكافر عن الايمان واستدل به
على جواز تكليف ما لا يستطاع وهذا تصور فاسد فالانسان في هذه الحالة
وان كان لا سبيل له الى الايمان في الحال فذلك بما كسبت يداه من اهمال نفسه
لمن سفد بينهما من بده فانه وان كان لا يقدر على رده فقد كان من قبل
سهلا عليه ان يضبطه فلا يرمى به الا ترى انه تعالى قال ذلك بانهم آمنوا
ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون فجعل الكفر علة للطبع على قلوبهم
وقال بعض المتكلمين ان الختم والكن لو كان مانعا من الايمان لما انكر الله تعالى
على الكفار حيث قالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي اذاننا وقر ومن بيننا
وبينك حجاب وليس بصحيح استدلاله وذاك ان هذا المنع حاصل لكن هو
من جهتهم على ما تقدم والقوم لم يتصوروا ذلك فلذلك انكر الله عليهم ما قالوه
واما ما قاله ابو على الجبائي في ان الختم سمعه جعلها الله تعالى في قلوب
الكفار دلالة للملك على كفرهم كالكتابة في قلوب المؤمنين ليعرفوا بها
الاعتقادات التي لا تظهر بالجوارح فان هذا كما قال الشاعر، تحرصا واحاديثا
ملفقة، لست بنبع اذا عدت ولا غرب، وذاك ان هذا الحكم لا سبيل الى اثباته
الا بسمع غير محتمل وايضا فان هذه الكتابة ان كانت محسوسة فمن حقها ان يدركها
ذو الحاسة وان كانت معقولة والاعتقاد ايضا معقول فالملائكة غير مفتقرة
في شيء من المعقولات الى الادلة والبراهين كما يحتاج اليها البشر وقال ابو القسم
البلخي ان ختم الله عليها شهادته على صاحبها لا يؤمن قال وتخصيص القلب
بذلك لاختصاصه بالاعتقادات كتخصيص الرجل بالمشي واليد بالبطش
اذا قيل مشت رجله وبطشت يده وقد جعل الله تعالى في قوله اولئك الذين
طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ثلثتها مطبوعا عليها وفي هذه الاية وفي
قوله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة البصر مغشى عليه مفردا
عن القلب والسمع فقد قيل ان ذلك لاختصاص البصر بمعنى وهو انه لما كان

يحتاج في ادراك مدركاته الى نور من خارج كما يحتاج الى نور من داخل والقلب
والسمع يستوي حالهما في ادراك مدركاتهما في الضوء والظلمة خص البصر بالغشاوة
تنبيها على ان النور ممنوع منه فلا يحصل به الانتفاع وايضا فان ما يدركه القلب
والسمع لا يختص بجهة دون جهة وما يدركه البصر يختص بجهة المقابلة فجعل
ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات وجعل ما يمنع البصر
من خاص الغشاوة المختصة بجهة دون جهة واكثر ما ذكر الله القلب
فالمقصود به العقل والمعرفة وكان ذلك عبارة عن الموعى بالوعاء وعلى
هذا قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقوله تعالى ام لهم
قلوب يعقلون بها وقوله عليه السلام استفت قلبك وان افتاك المفتون
واما افراد السمع مع جمع القلب والبصر فقد قيل ان السمع في الاصل مصدر
فاجرى مجرى اصله وقيل اراد موضع سمعهم وقيل المضاف الى الجمع يصح جمعه
على الاصل وافراده على الايجاز اعتمادا على المضاف اليه كقول الشاعر،
اما عظامها فبيض واما جلدها فصليب، والغشاوة ما يغشى به كالعلاوة
والعلاقة وغشى منه لكن قلب الواو ياء لانكسار ما قبله وكذلك
غشيان كعليان ومن نصب غشاوة فعلى تقدير وجعل على ابصارهم غشاوة
ومن رفع فعلى القطع والاستيناف والعذاب اسم من التعذيب وكان
الاصل من قولهم ما عذب والتعذيب ازالة ذلك العذاب كقولهم مرضته
وقذيته في ازالة المرض والقذى والفرق بين العذاب والعقاب ان
العقاب لا يقال الا فيما كان مجازاة وكانه هو المتعقب للجرم المتقدم
والعذاب يقال فيه وفي غيره وفي وصفه بالعظيم تنبيه انه اذا قيس
بسائر ما يجانسه قصر جميعه عنه قوله عز وجل ومن الناس من يقول
آمنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين الناس جماعة حيوان
ذي فكر وروية واختلف في لفظه فقيل هو من قولهم اناس وحذف
همزته وتقديره بعد الحذف عال وقيل بل هو من ناس ينوس اي اضطرب
وتسميته بذلك لكونه ذا اضطراب زايد على غيره اما ببدنه او ببدنه وفكره

دعاً فللانسان بالفكر حركة زائدة على سائر الحيوان وقيل هو مقلوب من نسي
نحو جذب وجبذ ولاه ابوك ولهي ابوك وكذا قال ابن عباس رضي الله تعالى
عنهما في الانسان انه سمي بذلك لانه عهد اليه فنسي فانسان على ذلك
افعلان اصله انسيان بدلالة تصغيرهم على انيسيان وقيل سمي انساناً لانه
خلق خلقة لا قوام له الا بالانس بعضهم ببعض ولهذا قيل خلق الانسان
مدنيا بالطبع من حيث لا قوام له في حيوته بجميع اسبابه فيحتاج البعض
الى بعض ليتسبب لهم امورهم ولانه اذا لم يكن له مسكون اليه من جنسه
لم ينطب حيوته وعلى ذلك قال تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها وهذا
المعنى رمقه الشاعر، من كان في الدنيا بغير حبيب، فحيوته فيها حيوة غريب.
ما كان في حور الجنان لادم، لو لم يكن حواء من مرغوب، فكان في الفردوس
يشكو وحشة، فيها ولم يأنس بغير حبيب، وقد روي انه سمي انساناً لانه
نسي العهد وهذا من حيث اللفظ لا يصح لكن من حيث المعنى يصح ان يقال
عني انه انس بالشجرة فنسي العهد والله اعلم واما القول فيقال على اوجه الاول
اللفظ المبرز بالعبارة والثاني للمعنى المتصور في النفس المعبر عنه باللفظ
والثالث للمذهب نحو فلان يذهب الى قول ابي حنيفة رحمه الله تعالى
والرابع للغاية الصادقة بالشيء نحو فلان يقول بكذا والخامس للدلالة
المنبئة عن الشيء نحو امتلاء الحوض وقال قطني والسادس في استعمال المنطقيين
عبارة عن الحد يقولون قول الجوهر كذا وقول العرض كذا اي حدهما ولاستعمال
القول على اوجه مختلفة قال تعالى يقولون بافواههم وقال ويقولون
في انفسهم والاصل في ذلك العبارة لكن غير عن نسبة تارة به كتسمية
العنب خمراً في قوله تعالى اني اراني اعصر خمراً والفرق بين القول والكلام
ان الكلام لا يقال الا لجملة مفيدة لفظا او تقديرا والقول قد يقال لبعض
الجملة فاذاً كل كلام قول وليس كل قول كلاما ولذلك قال سيبويه قلت
في كلام مهم يحكى به ما كان كلاما لا قولا فاورد ذلك مورد المقر في النفس
ان الكلام موضوع لجملة مفيدة وقد بين الله تعالى في هذه الاية ان

(هامش: ان الواحد صح)

(هامش: حيث قال صح)

فی

في الناس من يدعي الايمان بالله والمعاد وهو كاذب في قوله ودعواه وذلك
كقوله واذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به وقوله
يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم كل ذلك تنبيه على ان الايمان غير نافع
ولا مقبول الا بتقديم النية والاخلاص ومطابقة المقال والفعال
وقال ابو علي الجبائي هذه الاية تدل على ان اقرار من اقر بالله اذا لم يكن عارفا بالله
لا يكون ايمانا بالله وظاهر الاية لا تدل على ما زعم لان من يقول امنت
لا يكون بهذا القول مؤمنا بل مدعيا له والمخالف لا يخالف في ذلك
وانما يقول انه يصير مؤمناً اذا تفوه بالشهادتين وقال ابو علي ايضا ان
الاية تدل على بطلان قول من زعم ان جميع المكلفين عارفون بالله قال
لان هؤلاء المنافقين لو كانوا بالله عارفين وكانوا بحضرة النبي عليه السلام
مقرين لكان يجب ان يكون اقرارهم بذلك ايماناً منهم لان من عرف الله
واقر به لم يكن اقراره غير ايمان فلما بين تعالى انهم غير مؤمنين بما اخبر
علمنا انهم لم يكونوا يعرفونه وليس في الاية دلالة على ما قال اولا ان
الله تعالى قال يقولون امنا بالله وباليوم الاخر ثم نفى عنهم الايمان
بهما واحد لا يقول ان معرفة الانسان بالله وباليوم الاخر ضرورة وان
ادعوا معرفة الله وحدها وثانيا ان احدا لا يقول الاقرار بالله على وجه التحاج ايمان
ايمان والله تعالى قد اخبر انهم يخادعون الله بهذا القول وثالثا ان الايمان
المنفي عنهم ليس هو الاقرار بل هو سكون النفس المذكور في قوله عز وجل الذين
امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ورابعا ان من يقول معرفة الله ضرورة يذكر
ان ذلك لا يحصل الا عن سبب يتقدمه كالعلم بمخبر الاخبار المتواترة
لا يحصل الا بتقديم سماع مخصوص فكذلك معرفة الله ضرورة لكن لا بد
فيها من سبب يتقدمها وخامسها ان عند كثير ممن يدعي ان معرفة الله ضرورة
ان ذلك موجود في الانسان بالقوة كوجود النار في الحجر فلا بد لها من القدح به
يخرج ومتى لم يحصل السبب لم يكن النار كذلك المعرفة بالله تعالى قوله
عز وجل يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون

(هامش: مطلب)

الخداع انزال الغير عما هو بصدده بامر تبديه على خلاف ما تخفيه ومنه قيل
خدع الضب اذا استتر في جحره واستعمال ذلك فيه لما اعتقدوا في الضب
انه يعد عقربا تلدغ من يدخل يده في جحره حتى قالوا العقرب بواب الضب
ولاعتقاد الخديعة فيه قالوا اخدع من ضب وطريق خادع يخالف لما يقتضيه
ظاهره والمخدع كانك جعلته خادعا لمن رام تناول ما فيه لا تبيت في بيت
وقولهم خدع الطريق اذا قل فتغير متصور منه هذا المعنى والاخدعان تصور
منهما الخداع لاستتارهما تارة وظهورهما اخرى وفي الحديث بين يدي الساعة
ستون خداعة اي معتالة لتلونها بالجدب تارة والخصب اخرى ان قيل لم قال
يخادعون الله وهم لم يقصدوا بفعلهم خديعته قيل ذكر بعض النحويين انه اراد
تعالى يخادعون رسول الله فحذف المضاف وهذا باعتبار حكم اللفظ دون
المعنى فاما باعتبار المعنى فانهم لما قصدوا اخديقه النبي عليه السلام وقد ابنا
تعالى ان معاملة الرسول معاملة الله تعالى حتى قال من يطع الرسول
فقد اطاع الله وقال ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله جعلهم مخادعين له
بخديعتهم النبي صلى الله عليه فكان قيل المخادعة من اثنين وقد علم ان ذلك
لم يكن من الله تعالى ولا من الرسول صلى الله عليهم فكيف يخادعون قيل
قد قال اهل اللغة وكثير من المفسرين ان الخديعة من الله هي مجازاته اياهم
بمثل فعلهم فسمي مجازاة الشيء باسمه وكذلك قالوا في المكر في المهر ونحوهما
مما وصف به نفسه ولا يليق مو على ذلك قول الشاعر فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ووجه آخر انه قد تقدم ان مخادعتهم لله عز وجل في الحقيقة مخادعة الرسول
ولما كانوا يرأوون بالايمان ليزيل عنهم حكم المشركين ويجريهم في الاحكام
مجرى المؤمنين ويطلعهم على الاسرار وهو لا يجريهم في كثير من الامور مجراهم
تصوروا ان ذلك لهم خداع كما ان الاول منهم له خداع فاخرج اللفظ
على حسب وهمهم وحسبانهم لا على ما عليه حقيقة الامر وقد يطلق الحكيم
على المعنى عبارة على حسب اعتقاد المخاطب والمخبر عنه لا على ما عليه
حقيقة الامر كقوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم اي على زعمك وقول

العقرب بواب الضب

الشاعر خذها حذيف فانت السيد الصمد وما حكى الله تعالى عن موسى
عليه السلام انظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا فان قيل كيف وصف تعالى
نفسه به من الصفات التي تنزه تعالى عما يتصور من ظواهر معانيها نحو قوله
تعالى وهو شديد المحال وقوله ومكروا ومكر الله ومكرنا مكرا وقوله ولا
يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقوله سنستدرجهم من حيث لا يعلمون
واملي لهم ان كيدي متين كل ذلك قد قيل فيه قول من تصوره متحريا به الحق
ملح قلبه واستغرب ما كان من قبل يستبعده وهو ان المكر والخديعة وانما
هو استنزال الغير عما هو بصدده بامر تبدي منه خلاف ما تخفيه وتحراه
مستعمله على وجهين احدهما قاصدا به استنزال الغير عن رشد الى ضلال
وذلك قبيح والثاني استنزال الغير عن ضلال الى الرشد وذلك جميل وهو
كما يفعله الاب البار بابنه من تحذير يستجره به الى ترك شر او تعاطي خير فيقول
خدعت ابني عما كان يتعاطاه من القبيح ومكرت به حتى قبحته في عينه
وقد علم ان هذا الفعل وان اطلق عليه لفظ الخديعة والمكر فهو فعل حسن
فاذا المكر والخديعة وان كان لفظهما مستبشعا فقد يقصد به وجه محمود
وبالعكس من ذلك فعل العدالة فقد يتحراه الانسان لاستغواء غيره واضلاله
وهو مستقبح وان كان لفظ العدالة مستحسنا فاذا كان كذلك مما يعد
فسادا وجورا وخديعة ومكرا قد يكون صلاحا ورشدا وعدلا قد يكون
فسادا وجورا ومكرا وبهذا النظر قال بعض التابعين كل قبيح من العبد
فهو حسن من الله تعالى ويعني بذلك ان الفعل يقبح ويحسن بحسب المقاصد
ولهذا قال عليه السلام الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وقال نية
المؤمن خير من عمله وبهذا النظر قال بعض المحققين وقد سئل عن شيء
يقبح اطلاقه في الله تعالى مع ورود الشرع به فانشد ويقبح من سواك
الشيء عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا فهذا ظاهر لمن جلى بصيرته
وتأمل حقيقته ونبه بقوله وما يخدعون الا انفسهم ان وبال خديعتهم
راجع على انفسهم لا على الله تعالى وعلى المؤمنين كقولك ظلمت فلانا

في قوله وهو

بانه خادعهم يخادعون وهو
خادعهم فيل هو محمول على ما
تقدم وجه تعرى هذا
اللفظ واخواته مما وصف
الله تعالى نفسه صح

وما يعد صلاحا ورشدا وعدلا
صح

وما ظلمت الا نفسك وذلك في الحقيقة اعظم خديعة وظلم وجور فان الله
تعالى لما قيض لهم النعيم الابدي والخير السرمدي وسهل لهم السبيل اليه ثم غفلوا
عنه ومالوا الى زهرات الدنيا صاروا في الحقيقة خادعين لانفسهم ظالمين
لها ولذلك وصفهم في القران بظلم انفسهم في غير موضع وبانهم خسروا انفسهم وما
يمكرون الا بانفسهم ولا تقبل من خدعك وقد عرفت خديعته فقد خدع
نفسه ومعلوم ان الله تعالى لا يخفى عليه شيء فمن خادعه فقد خدع
نفسه وقوله وما يشعرون اصل هذا اللفظ الشعر ومنه الشعار للثوب
الذي يلي الجسد فيقال اشعرته ثوبا ثم يقال على التشبيه بذلك اشعرهم هما واشعر
سرورا وشعرت كذا يستعمل على وجهين تارة يؤخذ من مس الشعر ويعبر به عن
اللمس وعنه استعمل المشاعر للحواس فاذا قيل فلان لا يشعر فذلك ابلغ في الذم
من انه لا يسمع ولا يبصر لان حس اللمس اعم من حس السمع والبصر وتارة يقال
شعرت كذا اي ادركت شيئا دقيقا من قولهم شعرته اي اصبت شعره نحو فادته
وراسته وكان ذلك اشارة الى نحو قولهم فلان يشق الشعر في كذا اذا دقق النظر
فيه ومنه الشاعر لادراكه دقايق المعاني قوله تعالى في قلوبهم مرض فزادهم
الله مرضا المرض ضربان جسمي ونفسي وكلاهما خروج عن الاعتدال الخاص
بهما فالجسمي معروف والنفسي كالجهل والجبن والبخل والحسد والحرص وساير
الرذائل الخلقية وتسميتها بالمرض اما لكونها مانعة عن ادراك الفضائل
كالمرض المانع للبدن عن التصرف الكامل واما لكونها ذريعة الى سلب الحيوة
الحقيقية التي هي في الدنيا لسان صدق وفي الاخرة بقاء الابد كما وصفه
تعالى في قوله وان الدار الاخرة لهي الحيوان واما لميل النفس بها الى الاعتقادات
الردية ميل البدن المريض الى الاشياء المضرة ولكون هذه الاشياء متصورة
بصورة المرض قيل دوي صدر فلان ونغل قلبه وقال عليه السلام اي داء
ادوى من البخل وقوله تعالى في قلوبهم مرض عبارة عن نفاقهم وشكهم
وعداوتهم وقول ابن مسعود رضي الله عنه والحسن وقتادة رحمهما الله
تعالى انه شك وقول غيرهم انه حب الدنيا واتباع الهوى وقول اخر انه غم

اخذ صح

وآخر

وآخر انه حسد وآخر انه السكون الى الدنيا فكلها اشارات على سبيل المثال الى
ابعاض ما ينطوي عليه معنى المرض ولا اختلاف بينهم فيه قوله فزادهم الله
مرضا على اوجه الاول كما تقدم ان ما انزله الله يجري من النفس مجرى الغذاء
الحافظ للصحة ومتى تناوله المريض الذي لم يزل مرضه لم ينفعه بل يضره والثاني
ان هذه الزيادة في المرض هي ما كان الله تعالى يؤتيه نبيه والمؤمنين
من انعامه ويصير زيادة في مرض المنافقين وذلك كقولك لمن اعطاك
شيئا قد اكمدت عدوي وهو لم يقصد اكماده ولكن لما تولد من فعله بك
ذلك صح نسبته اليه وعلى ذلك قول الشاعر يا مرسل الريح جنوبا وصبا
ان غضبت قيس فزدها غضبا اي زدنا ايلا ليزدادوا غضبا وعلى ذلك
قوله تعالى واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وقوله وليزيدن
كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا ولا يختلف المعنى
في قوله تعالى فزادهم الله مرضا ان جعل مورده مورد خبر او مورد
دعا فان الدعا من الله واجب وان كان منا رغبة وطلبا ويجوز ان يكون
ذلك راجعا الى حال الاخرة ومعناه من في قلبه مرض فان الله يزيده
في الاخرة مرضا نحو قوله ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى واضل سبيلا
وهذا والاول يرجعان الى معنى لانهم اذا زيدا في الدنيا عداوة للنبي صلى الله
عليه وسلم ما ازدادوا الا شكا في الاخرة استحقاق عذاب قوله تعالى
ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون اليم بمعنى مولم نحو سميع وخصيب بمعنى
مسمع ومخصب وقوله بما كانوا يكذبون اي بسبب كذبهم او بدل كذبهم كقولهم
هذا بذاك ووجه من قرا بالتخفيف ان ما قبله كذب وهو قوله وما هم
بمؤمنين وهو به اشبه ولانه في صفة المنافقين وقد قال الله تعالى
فيهم والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ومن قرا يكذبون بما لم يحيطوا
بعلمه ولان التكذيب ابلغ اذ كل مكذب بشيء كاذب وليس كل كاذب مكذبا
وقوله تعالى واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون
الفساد خروج الشيء عن الاعتدال والصلاح على الضد منه والافساد

مرض صح

فلقوله بل كذبوا صح

اخراجه عن الاعتدال والفساد عام فى الكفر والضلال وكل ما هو ضار
والصلاح عام فى الايمان والرشد وكل نافع فقوله لا تفسدوا فى الارض عام
فى كل ذلك وقول ربيعة وقتادة ان معناه لا تعصوا فصحيح فالعصيان فساد
وكذا قول غيره ان معناه لا تسالموا الكفار ومثله لا تفسدوا فى الارض بعد
اصلاحها ومن قال عنى بذلك كنز الدراهم فانه تمثيل بادنى ما يكون فسادا
تنبيها ان ذلك عام فانه اذا كان ذلك فسادا فما فوقها من قتل النفس الزكية
بغير حق ونحوه اولى بذلك والخطاب فى الاية للمنافقين وتوقفه ما روى عن سلمان
ان اهل هذه الاية لم يا توا بعد فيجوز ان يكون معنى قوله انه سيكون من بعد حاله
مثله فى ذلك شبيهه بحال المنافقين فان الاية متصلة بما قبلها والضمير
فيها ليس الا لمن تقدم ذكره وقولهم انما نحن مصلحون فيه تنبيه انهم يتصورون
افسادهم بصورة الاصلاح لما فى قلوبهم من المرض كما قال افمن زين له سوء عمله
فرآه حسنا وقوله وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقوله وهم يحسبون
انهم يحسنون صنعا قال الحسن من ذلك الافساد بناهم مسجد ضرارا وكفرا
وتفريقا بين المؤمنين وقوله عز وجل الا انهم هم المفسدون الا تقرير
للاثبات لان لا للنفى والالف للاستفهام واجتماعهما يقتضى اثباتا نحو
اليس والم ان قيل ما الذى يفيد تعريف قوله المفسدون وادخال هم عليه
قيل اما التعريف فيقتضى كون الكلام جوابا او كالجواب واما ادخال لفظ هم
فيقتضى اثبات الحكم للمذكور ونفيه عمن عداه نحو ان يقال زيد منطلق فتقول
انت بل عمرو هو المنطلق ولما كان فى قولهم انما نحن مصلحون تعريض انكم المفسدون
رد الله تعالى عليهم بقوله الا انهم هم المفسدون وقد تقدم ان شعرت يستعمل
على وجهين احدهما بمعنى احسست والثانى بمعنى فطنت فقوله وما يشعرون
فى الاية الاولى نفى الاحساس عنهم وفى هذه الاية نفى الفطنة عنهم لان معرفة
الصلاح والفساد تدرك بالفطنة وفى الاية التى بعدهما نفى العلم عنهم
فان قيل كيف نفى اولا الحس ثم الفطنة ثم العلم ومعلوم ان ما لا حس له فلا
فطنة له ولا علم قيل ان فى نفى هذه الثلثة على هذا الوجه تنبيها لطيفا ومعنى

دقيقا وذلك انه يبين فى الاول ان فى استعمالهم الحد بعد نهاية للجهل الدالة على عدم
الحس ثم بين فى الثانى انهم لا يفطنون تنبيها على ان ذلك لازم لهم لان من لا حس
لا فطنة ومن لا فطنة له لا علم له ثم بين فى الثالث انهم لا يعلمون تنبيها ان
ذلك ايضا لازم لهم لان من لا فطنة له فلا علم له فاذا من الالفاظ الثلثة
اشارة الى قياس ظاهر والزام واجب لمن تاملها وتدبرها وقوله تعالى
واذا قيل لهم امنوا كما آمن الناس قالوا انؤمن كما امن السفهاء الا انهم هم
السفهاء ولكن لا يعلمون قولهم الناس بل كل اسم نوع فانه يستعمل على وجهين
احدهما دلالة على المسمى وفصل بينه وبين غيره والثانى وجود المعنى المختص به
وذلك هو الذى يمدح به فى نحو اذا الناس ناس والزمان غلام ونحو ذلك زيد
رجل وهذا الفرس فرس ومثال ذلك ان كل ما اوجده الله فى هذا العالم
يصلح لفعل خاص به لا يصلح لذلك العمل سواه فان الفرس للعدو والشديد
والبعير لقطع الفلاة البعيدة والمنجر لنجر الخشب والمنحت لنحته وعلى ذلك الجوارح
كاليد والرجل والعين والانسان اوجد لان يعلم ويعمل بحسبه وكل شى
لم يوجد كاملا لما قد خلق له لا يستحق اسمه مطلقا بل قد ينفى عنه نحو قولهم
فلان ليس بانسان اى لا يوجد فيه المعنى الذى خلق من اجله واذا ثبت
ذلك فقوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله هو اسم جنس لا غير وقوله
كما آمن الناس معناه كما يفعل من وجد فيه تمام الانسانية الذى يقتضيه
العقل والتمييز فاذا قول ابن عباس رضى الله عنهما انه عنى كما امن اصحاب
النبى عليه السلام وقول غيره انه عنى كما امن الذين اسلموا من اليهود مثل
عبد الله بن سلام واصحابه كلاهما صحيح لان الفريقين يجرى على ما اقتضاه
فعل الانسانية وقوله تعالى قالوا انؤمن استعلام على جهة النفى نحو انطعم
من لو يشاء الله اطعمه ومعناه لا نؤمن ايمان السفهاء تعريضا باصحاب النبى
عليه السلام والسفه خفة فى البدن او فى المقال يقتضيها نقصان العقل
والحلم رزانة فى البدن يقتضيها وفور العقل وعنه استعير زمام سفيه ورمح
سفيه ان قيل كيف عذرهم بانهم لا يعلمون قيل ليس ذلك عذرا لهم

بل نعظيم امر عليهم وانهم مع جهلهم يجهلون جهلهم كما قال فجهلت ولم تعلم بانك
جاهل ❊ وذلك لعمري من تمام الجهالة ❊ وكل ما ذمّ به الكفار من انهم لا يعلمون
ولا يبصرون ولا يسمعون فتنبيه انهم لم يستعملوا هذه الالات ولم يتفكروا وقوله
عزّ وجلّ واذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم
انما نحن مستهزؤن قال الخليل كل شئ استقبلته وصادفته فقد لقيته ولمّا
القينه اى طرحته فاصله جعلته بحيث يلقى اى يصادف ثم جعل عبارة عن
الطرح واللقى المطروح الذى لا يحجزه شئ عن لقاء المارة به ولقى من اللقو كناية
بذلك عنها ثم كثر حتى صار معروفا بالداء وخلا الاناء صار خاليا وخلا فلان
بفلان صار معه فى خلاء والخلى من خلاه الهم نحو المطلق فى قوله يطلقه طورا وطورا
يراجع ❊ والشياطين جمع الشيطان فقيل هو فعلان من شاط اذا احترق غضبا
وذلك لما قال تعالى وخلق الجان من مارج من نار وذلك لما خص به من فضل
القوة الغضبية وقيل هو فيعال من شطن اى تباعد ومنه بير شطون وقيل
للحبل الطويل شطن والشيطان كل عارم من الجن والانس والحيوانات وقالوا
ان شيطان الرويات العسل وقال اخر ما ليلة الفقير الا شيطان ❊ وسمى الحية شيطانا
لذلك وقيل هو فعلان من قولهم وقد شط على ارماحنا البطل ❊ ومعنى الاية
انهم يراؤن للمؤمنين فاذا عادوا الى مردتهم ادعوا انهم معهم وعلى دينهم وانهم
يستهزؤن بالمؤمنين وقوله تعالى الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم
يعمهون الهزؤ اظهار جد يراد به مزح او ما هو فى الظاهر كالمزح يقال هزأت
واستهزأت نحو اجبت واستجبت والصحيح ان الاستهزاء ارتياد الهزؤ وان كان
قد يعبر به عنه وكذا الاستجابة فى الاصل معناها مخالف للاجابة وان كان
قد تجرى مجراها والهزؤ اذا اريد به المزح لا يصح منه تعالى كما لا يصح منه
اللعب واللهو واطلاقه عليه اما لانه يراد به المجازاة فسماه به اما للمقابلة
اللفظ باللفظ اما مع مقابلة اللفظ مراعاة مطابقة ما لكونه مماثلا له
فى القدر فسماه لذلك باسمه نحو قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها
وقوله فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه واما لانه تعالى لما امهلهم لتطول

المدة

المدة التى يمكنهم ان يتوبوا فيها فلم يحصل ذلك منهم سمى امهاله هزؤا
ولانه لما استدرجهم من حيث لا يعلمون صار ذلك كالهزؤ واما لان الهزؤ
لما لم ينفك من العيب اطلق على العيب لفظ الهزؤ نحو قوله ان اذا سمعتم ايات
الله يكفر بها ويستهزؤ بها فى الحقيقة او لما تقدم فى المخادعة وهو انهم يهزؤن
وقد عرف منهم الهزؤ كانه يهزؤ بهم كما قيل من خدعك وقد عرفت خديعته
فقد خدعته او لما روى فى الخبر ان المستهزئين بالناس فى الدنيا يفتح
لهم وهى فى النار باب الى الجنة فيسرعون نحوه فاذا صاروا اليه سد عليهم
وذلك قوله فاليوم الذين امنوا من الكفار يضحكون وعلى هذا الوجه
قوله سخر الله منهم واصل المد الجر ومنه المدة ومدة الجرح ومد النهر
ومده نهر اخر وامداد الجيش وامداد الانسان بالطعام وقال بعضهم
اكثر ما جاء من الامداد فى القران فبالخير نحو قوله وامددناهم بفاكهة
بفاكهة وقوله نمدهم به من مال وبنين وقال وما كان من المد
فبالشر نحو قوله ونمد له من العذاب مدا وقال واخوانهم يمدون
فى الغى والطغيان فى المصادر كالعدوان والكفران يقال طغى
يطغوا ويطغى نحو صغا وحكى طغيت والفرق بين عدا وطغى وبغى ان
العدوان تجاوز المقدار المامور بالانتهاء اليه والوقوف عنده
وعلى ذلك قال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه اى من تجاوز
معكم المقدار المامور بالانتهاء اليه فتجاوزوا معه بقدره لتكون
العدالة محفوظة فى المجازاة بالتعدى واما الطغيان فتجاوز المكان
الذى وقعت فيه وكان من اخل بما فطر عليه من المعارف العقلية
والمواقف الشرعية فلم يراعها فيما يتحراه ويتعاطاه فقد طغى وعلى
ذلك قوله انا لما طغى الماء حملناكم اى تجاوز الحد الذى كان عليه
من قبل والبغى طلب تجاوز قدر الاستحقاق تجاوزه ام لم يتجاوزه واصله
الطلب واستعمل فى التكبر طالب منزلة ليس لها باهل والعمه فى البصيرة
كالعمى فى البصر وهو التردد فى الضلالة يقال رجل عامه وعمه

Marginal notes:
لانه تعالى امهلهم
اى تعاب فالايات لا تستهزئ بها ه
لان المتكبر ه

فى قوله فى طغيانهم يعمهون ويصح ان يتعلق بقوله نمدهم فيكون ذلك عبارة
عن خذلانهم عن توفيقه لهم لا لبخله عليهم بل لسدهم طريقه على انفسهم باعراضهم عنه
ويصح ان يتعلق بقوله يعمهون ومعناه يمدهم استصلاحا لهم وهم مع ذلك
يعمهون فى طغيانهم ومثله معنى وتقديرا قوله ونذرهم فى طغيانهم يعمهون

قوله عز وجل اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم
وما كانوا مهتدين المبايعة ضربان مبايعة سلعة بناض فيقال لدافع
السلعة بايع ولدافع الناض مشترى ومبايعة سلعة بسلعة او ناض بناض
ويصح ان يقال لكل واحد منهما بايع ومشترى وذلك بحسب ما يتصور فى الثمن
والمثمن فاى تصورتهما بصورة الثمن فآخذه بايع والآخر مشترى ولهذا السلعتين صح
صار البايع والمشترى من الاسماء المشتركة المعدودة فى باب الاضداد والمبارة
وان كانت موضوعة لمعاملة فى اعيان على وجه مخصوص فقد يتجوز فى كثير
من المعاوضات فيقال لمن افرح عن شئ فى يده محصلا به غيره قد باعه به و
قد يقال ذلك لمن رغب عن شئ فى غيره طمعا صح وقوله تعالى ان الله اشترى
من المومنين انفسهم واموالهم الاية ومعناه اراد منهم ان يبذلوا مهجهم
واموالهم فى سبيله فيجعل لهم بذلك الجنة فسمى ذلك شرى وقد تقدم ان
الهدى يقال على اربعة اوجه الاول لما جعله الله للانسان بالفطرة والثانى
لما جعله له بالوحى والثالث لما يكتسبه الانسان بالفكر والنظر والعمل
والرابع زيادة الهدى فى الدنيا وطريق الجنة فى الاخرة فكذلك الضلال
على اربعة اوجه مقابل للهداية فالاول اضاعة الانسان ما جعله الله
بالفطرة الغريزى من العقل صح وذلك بان لا يزكيه كما قال وقد خاب من دسيها والثانى
اضاعته لما انزل الله تعالى على السنة الانبياء والثالث لما يكتسبه
الانسان بالفكر والنظر والعمل والرابع ان يترك ما يستحق به زيادة
الهدى فى الدنيا وثواب الاخرة وقد علم من هذا ان من الضلال لما هو
كفر ومنه ما هو ذنب صغير وكذلك للهدى منه ما هو الاسلام ومنه
ما هو وقيق الورع فكل من رغب عن منزلة من الهدى الى ضدها من الضلال

والنقد لاظهار وبكرت الامر والدرهم والدينار كالناض فيهما وانما يسمى ناضا اذا تحول عينا بعد ان كان متاعا ماكس

فقد

فقد اشترى ذلك الضلال بما يقابله من الهدى لكن منه ما يستحق به
النار كالشرك وكالكباير ومنه ما هو متجاف عنه كالصغاير فاذا ثبت
ذلك فقول من قال عنى به الذين اخلوا بالهدى الذى جعله الله لهم
بالفطرة وقول مجاهد انه عنى به الذين امنوا ثم كفروا وقول قتادة استحبوا
الضلالة على الهدى وقول من قال اشتروا النار بالجنة لا اختلاف بينهم
الا باختلاف النظرات فقط وكذا قول من قال من التزم فعلا من الخيرات
ثم اخل به فقد اشترى الضلالة بالهدى ولما استعمل فى ذلك المشاراة
قال تعالى فما ربحت تجارتهم والربح والخسران ينسبان مرة الى صاحب السلعة
ومرة الى السلعة ومرة الى الصفقة اذ لا اشتباه فيه ونحوه قوله تعالى
ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم ونفى انهم كانوا مهتدين اى طالبين
للهدى تنبيها انهم لو طلبوه لوجدوه قوله عز وجل مثلهم كمثل الذى
استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى
ظلمات لا يبصرون التمثيل تصوير الخفى بالظاهر واصله من مثل اذا
انتصب والتمثال للشئ المصور وسمى الوصف مثلا اذ هو مثال للموصوف
يدل عليه كالمثال فى دلالته على ما هو مثال له والمستوقد طالب الوقود
وآخذه ويقال للموقد كما يقال للمجيب مستجيب والنار حرارة مخصوصة والنور قد صح
والضياء واحدهما مشتق من النار من حيث انه قلما ينفك احدهما عن
الاخر ولهذا قال نقتبس من نوركم فاستعمل فيه الاقتباس الذى هو
للنار ويقال اضاءت الشئ ضياء واضاء والاظهر فى الاية ان يكون متعديا
لادخال حرف التانيث فيه والاية مثل ضربه الله لمن اتاه ضربا من الهداية
والمعارف النفسية او البدنية او الخارجية فاضاعه ولم يتوصل به الى
نعيم الابد والمعاون فاذا قول من قال ذلك هو فيمن آثر الضلالة على الهدى
المجعول له بالفطرة وقول من قال هو فى الذين امنوا ثم كفروا وقول من
قال هو فيمن اظهر الايمان نفاقا منه حقيقا لذمه كل ذلك داخل فى عمومه
وكذا قول من قال انه يعنى من لم يتضح له احوال الارادة فارتقى منها

بالدعوى الى احوال المحبة فاذهب الله عنه ما جعل له من النور بمبدا الارادة
فبقى متحيرا فى حال الدعوى وقد نبه تعالى بتشبيههم بمستوقد نار اضيع
نورها على خيرتهم او نكسهم فيما اضاءه من الهدى وقوله ذهب الله بنورهم
الاظهر ان يكون ذلك راجعا الى المشبه الذى هو فى قوله مثلهم دون المشبه به
الذى هو قوله استوقد نارا واختصر ولو بسط الكلام لقيل فلما اضاءت ما حوله
ذهب الله بنارهم ذهابه بنورهم وقد قيل ان ذلك يرجع الى المشبه به وان
الذى قد يستعمل فى الجمع كاستعماله فى الواحد استدلالا بقول الشاعر، فان
الذى حانت بفلج دماؤهم ٭ هم فقال استوقد ردا الى لفظ الذى ثم قال بنورهم ردا
الى معنى الجمع وانما قال على هذا بنورهم ولم يقل بنارهم لان المراد من النار ههنا النور
الذى يضئ لهم الطريق وتركه اياهم فى ظلمات انما هو لتركهم اياه فى قبول التوفيق
منه فلما تركوه تركهم كما قال تعالى نسوا الله فنسيهم وانما قال ظلمات لانه عنى ظلمة
ضلالهم وظلمة همومهم فى الدنيا وظلمة يوم القيمة التى تنزه عنها الموصوفين بقوله
تعالى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم وقوله عز وجل
صم بكم عمى فهم لا يرجعون، والصمم صلابة من اكتناز الاجزاء ومنه قيل حجر اصم
وصخرة صماء وقناة صما وقيل لراس القارورة الصمام والبكم اعتقال اللسان
واصله فيمن يولد اخرس والعمى يقال فى عدم البصر والبصيرة جميعا فمن ترك
الاصغاء الى الحكمة واعرض عن طريق الاخرة واشتغل عن تعرف حالها ولم ينعم
تدبرها صح ان يستعمل هذه الالفاظ فيه فيقال هو اصم عن سماعه وابكم عن
تعرفه واعمى عن ادراكه والاية مبنية على الاية الاولى ومفسرة بحسب تفسيرها
وقوله لا يرجعون اى لا يعودون الى طريقة الرشد وقيل معناه لا يرجعون
جوابا اى لا يردونه وقوله تعالى او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون
اصابعهم فى اذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق
يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله
لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شئ قدير الصيب فيعل من صاب
يصوب وذلك يقال للسحاب والمطر وان كان الصيب فى السحاب اكثر والصوب

بهم النعم نخ

يقال

يقال فى المطر وكان المطر سمى صوبا لمجيئه على الصواب اما اعتبارا بالوقت المحتاج
اليه فيه واما بالقدر المعتدل على حسب قوله تعالى انزل من السماء ماء بقدر
وعلى طريقه نظر من وصف المطر، مسق وبارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى
وصاب السهم اذا توجه نحو الرمية على الصواب وقد شبه العقل والقران بل العلوم
كلها بالمطر والماء من حيث انه سبب الحيوة الابدية كما ان الماء سبب الحيوة الدنياوية
والسماء فى هذا الموضع يجوز ان يكون السحاب وان يكون المطر ومن فيه
للتبعيض وقوله فيه ظلمات يقتضى معنى الاصطحاب فلا فرق بين ان يقال
صيب فيه ظلمة ورعد واما الكلام فى ماهية الرعد والبرق فليس يليق
بهذا الموضع والصاعقة يستعمل فى كل هائل عظيم من مرئى ومسموع وانما
قال او كصيب لانه من حيث انه يدل على احد الشيئين ويستعمل فى
الاباحة والتخيير وفيه تنبيه على انه ان شبه باحدهما فصواب
وان شبه بهما فصواب وهذا المعنى فى لفظة او دون الواو فان قيل
كيف وجه العطف فى ذلك وقد قال فى الاول مثلهم كمثل الذى
استوقد ولا يليق ان يقال بعده او كصيب قيل قد اجيب عن ذلك
بانه اريد او كاهل صيب من السماء وقيل ان ذلك عطف على المعنى
وذلك ان التشبيه تارة يؤتى به مطابقا للمشبه فى اللفظ وتارة يؤتى به
على ما يقتضيه المعنى دون اللفظ على ذلك قوله تعالى مثل ما ينفقون
فى هذه الحيوة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم
ومعناه كحرث قوم ظلموا انفسهم اصابته ريح فروعى فيه المعنى دون
اللفظ وعلى ذلك قول الشاعر، فلابنة حطان بن عوف منازل،
كما رقش العنوان فى الرق كاتب، ونقدير كعنوان رقشه الكاتب وهذا
النوع من التشبيه يقال له التشبيه الملفق والاية تاولت على وجهين
احدهما انه شبه حال المتحيرين الذين اشتروا الضلالة بالهدى بمن
حصل فى ليلة مطيرة ومظلمة راعدة بارقة يخاف من اهوالها وصاعقتها
ويسد اذنه خوفا ان يصعق ويكون هذا من اسفل الكلام بالمشبه به

بقوله

صيب فى ظلمة وبان يقال

مايرجع الى المشبه طريقة العرب على ذلك قول لبيد «افتلك ام وحشية مسبوعة»
تخذوله ولا اختصاص للناقة بهذا الوصف والثانى انه ما اتى الله
الانسان من المعاون التى هى سبب الحيوة الابدية بالصيب الذى فيه حيوة
كل ذى حيوة وما فيه من المشاق المبهمة والعوارض المشكلة بظلمات وجع
الظلمات تنبيهاً على كثرة العوارض وشبه ما فيه من الوعيد بالرعد
وما فيه من الايات الباهرة بالبرق ثم ذكر كل واحد من هذه الاشياء
فقال اذا سمعوا وعيداً تصاموا عنه كحال من تهواه الرعد فتخاف من
صواعقه فيسد اذنه عنها مع انه لا خلاص لهم منها وهذا قوله والله
محيط بالكافرين ثم ذكر انهم اذا راوا لامعاً لهم امارشداً تدركه بصائرهم
او رفدا ينفعهم اهتزوا له تضوا بنوره وذلك قوله كلما اضاء لهم مشوا فيه
ثم بين انه ان اعترض لهم شبهه او عن لهم مصيبة تحيروا فوقفوا وذلك
معنى قوله واذا اظلم عليهم قاموا وقوله ولو شاء الله لذهب بسمعهم
وابصارهم تنبيه على انهم يصرفون اسماعهم وابصارهم عما فيه نجاتهم
وتامل ما فيه صلاحهم وانما جعل الله لهم السمع والابصار لينفعهم
ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التى يجعلون انفسهم عليها بسدهما وتعطيلهما
وذلك تنبيه على انه انما اعطاهم هذه الالات لينتفعوا بها وقوله عز وجل
يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون
قد تقدم ان الناس يستعمل على وجهين احدهما المشار به الى الصور المخصوصة
وذلك عام فى الصغير والكبير والعاقل وغير العاقل والثانى المشار به
الى المختص بقوتى العلم والعمل المحكم وهو المستعمل على طريق المدح ولذلك
يقال فلان اكثر انسانية من فلان لاختصاص هذا المعنى بقبول الزيادة
والنقصان وهذا المعنى هو المراد فى هذا الموضع والعبادة نهاية التذلل
فى الخدمة وبذل الطاعة وذلك فى مقابلة اعظم النعم ولا يستحقها غير الله
تعالى فهو الذى له اعظم النعم والعبادة يقال فى ثلثة اشياء اعتقاد الحق
وتحرى الصدق وعمل الخير وعبادة الله تعالى قد يكون فى فعل المباحات

معنى صـ

كما يكون فى اداء الواجبات وذلك اذا قصد بالفعل وجه الله وتحرى به
مرضاته وقد قال بعض الحكماء مباحات اولياء الله كلها واجبات وواجباتهم نوافل
فقيل كيف يكون ذلك قال لانهم لا يقومون على تناول مباح كالاكل والشرب حتى يضطروا
اليه فيصير تناوله محتما ويلتزمون من الفرايض فوق ما يلزمهم حتى يصير
فرضهم متنفلا وبهذا النظر قيل عند اكل الصالحين تنزل الرحمة تنبيهاً انه
لا يتناول الا اذا اشتد به الامر ووجب عليه الاكل امساكاً لرمقه الا ترى
ان كثيرا من المحظورات يصير مباحا عند الضرورة بل ربما يصير عليه كمن الواجبات
ان قيل ما الفرق بين قوله اعبدوا الله وبين قوله اعبدوا ربكم قيل
فى قوله اعبدوا ربكم ايجاب العبادة بواسطة رؤية نعمه التى بها تربيتهم
وقوامهم وفى قوله اعبدوا الله ايجاب عبادته بمراعاته عز وجل من غير واسطة
وعلى ذلك قوله يا ايها الناس اتقوا ربكم وقوله يا ايها الذين امنوا
اتقوا الله فحيث ذكر الناس ذكر معه الرب وحيث ذكر الايمان ذكر الله
لما تقدم واما الخلق فتقدير الاعراض الجسمانية وايجادها وقد يقال مفيدا
للتقدير من غير ايجاد نحو قول الشاعر «ولانت تفرى ما خلقت وبعض
القوم يخلق ثم لا يفرى» واستعمل فى الاجسام والخلق فى القوى والافعال
وجعل خلقت للتكوين واخلقت للافساد نحو فريت وافريت وذلك نحو
اخلقت الثوب فخلق واخلق ولما كان الشئ الخلق كثيرا ما يلين قيل حجر
اخلق وصخرة خلقاء اى ملساء ومن اجل ان الخلق لا يستعمل الا فى ايجاد اجسام
واعراضها امتنع قوم من اطلاق الخلق على القران فراعوا فيه هذا الوجه
دون الوجه الاخر لو ولا يكاد يقال فى وصف الكلام مخلوق ومختلق
الا اذا اريد به المنقول المفتعل وعلى هذا قال تعالى حكاية عن الكفار
فى وصفه ان هذا الا خلق الاولين ولا يكاد يستعمل الخالق مطلقا
الا فى وصف الله تعالى وقيل فى الجملة يستعمل فى المتقدم لكن ذلك
على اربعة اوجه تقدم بالزمان نحو ادم قبل نوح عليهما السلام وتقدم
بالذات وهو فى كل شيئين متى توهمت ارتفاع احدهما ارتفع معه الاخر

الخلق صـ

واذا توهمت ارتفاع الآخر لم يرتفع معه الاول كالحيوة مع العلم
وتقدم بالشرف نحو تقدم الامير للحاجب وبهذا النظر استعمل العتيق
فى الشريف وان كان موضوعه لما تقدم زمانه نحو قولنا تمر عتيق وتقدم
بالرتبة الوضعية نحو قولنا الواحد قبل الاثنين وقوله الذين
ههنا يتناول نوع العقلاء وغيرهم من جميع الاشيا وفى ذلك تنبيه ان
الله تعالى خالقنا خالق كل ما تقدمنا وكل ما هو سبب فى وجودنا وحصولنا
من الاباء والامكنة والازمنه والسماء والارض وسائر ما لو تصورناه
مرتفعا لم نحصل واخرج الكلام مخرج المقر عند المخاطبين انه تعالى
خالق الكل ومبدع الجميع فعلم ذلك عندهم اما موجود واما ممكن وجوده
ولهذا قال ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله ولعل ذكر بعضهم
ان معناه كى فى عامة القرآن قال لان لعل للشك والشك لا يصح
على الله تعالى فكما لا يصح ان يقول ارجوا واشك واظن فكذلك لا يصح
منه ان يقول لعل وعسى بمعنى ذلك فثبت ان معناه اذا ورد فى معنى كى
وهذا تصور بعيد وذلك ان القائل اذا قال افعل كذا لعلك تفلح يصح
ان يكون لعلك حالا للمخاطب بمعنى انا طامع راج لفلاحك ويصح ان يكون
للمخاطب وانت طامع فى فلاحك ولما دلت الدلالة ان الطمع انما يكون
لمن يخفى عليه العواقب علم انه لا يصح ان يكون لله تعالى اذا ورد فى كلامه
فصار ذلك حالا للمخاطب كانه قال اعبدوا ربكم راجين تقاكم واخرج
الكلام على ذلك لان من شرط المكلف ان يكون واقفا بين الرجاء والخوف
ولذلك قال فى مدح المومنين يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال يرجون
رحمته ويخافون عذابه وكذلك الكلام فى عسى وهذا قول سيبويه وقطرب
ومحققى النحويين واما التقوى فقد تقدم ان لها ثلث منازل الاولى ترك
الكفر والثانية ترك المحارم التى يحظرها الشريعة والثالث حفظ الخواطر
والنيات والآخران هما اللذان رجانا هما الله تعالى ههنا دون الاولى اذ لا يصح
فعل العبادة مع وجود الكفر وحقيقة التقوى جعل النفس فى وقاية من كل

ما يبعد عن الله ولهذا قال بعض المحققين التقوى ان يتجنب الانسان بغاية
جهده الاخلاق الحيوانية ويتخصص بالاخلاق الملكية فلا يكون متكبرا كالنمر
ولا مهينا كالكلب ولا حقودا كالجمل ولا غمرا كالثور ولا جاهلا كالحمار وقد
نبه بالآية ان العبادة لله تعالى هى المبلغة بنا الى نهاية التقوى التى يستحق بها
جوار الله تعالى نحو قوله عز وجل اعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون
وقوله واطيعوا الله واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون قوله عز وجل الذى جعل
لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات
رزقا لكم جعل لفظ عام فى الافعال كلها ويتصرف على ثلثة اوجه تارة
تجرى مجرى صار وطفق فلا يتعدى مثل قولك جعل زيد يقول كذا قال
الشاعر وقد جعلت قلوص ابنى سهيل من الاكوار مرتعها قريب وتارة
تجرى مجرى اوجد فيتعدى الى مفعول واحد نحو قوله تعالى وجعل الظلمات
والنور وتارة تجرى مجرى صير وكون فيتعدى الى مفعولين نحو قوله
تعالى جعل لكم الارض فراشا وتقول جعلته خارجا اذا حملته على الخروج
واذا اخبرت عنه بالخروج او حكمت له سواء كان خارجا او لم يكن والفراش
والبساط متقاربان وهو كل مفرش من ثوب او غيره والبناء لكل مرتفع
وحايط وغيره والقصد بالآية الى ما جعله الله تعالى لنا من الآية الواصلة
الينا من السماء والارض وما بينهما ودل على ذلك بالظاهر الاولى واقربها وقد
بسط ذلك المعنى بابلغ من هذا فى قوله ان فى خلق السموات والارض واختلاف
الليل والنهار لايات لاولى الالباب وهذا المعنى على مقتضى ظاهر اللفظ
وقد قال بعض المفسرين ان الله تعالى مع ارادته لهذا المعنى جعل ذلك
مثلا فذكر انه جعل الارض فراشا اى مركبا من قولهم افترشت البعير اذا ركبته
والسماء بناء اى الجنة مقرا او منزلا وجعل ما يصل الينا من الوحى والعلم
ماء وما يثمر من الاعمال الصالحة التى هى سبب الحيوة الابدية ثمرات وهذا
اذا جعل مثلا فليس ببعيد اذ قد علم ان السماء يجعل مثلا لكل منزلة رفيعة
كقول الشاعر نالوا السماء فامسكوا بعنانها حتى اذا كانوا هناك استمسكوا

من الحواس ح

ولا منزلة ارفع من الجنة ثم لما كانت الجنة فى السما على ما روى فى الخبر صح ان
يعتبر به عنها وقد جعل الارض مركبا لنا لما روى فى الخبر اجعلوا الدنيا مطية
تبلغكم الى الاخرة واجعلوا الاخرة دار مقركم وحط رحالكم وجعل الماء
مثلا للعلم والحكمة حتى قيل فى قوله تعالى والله انزل من السماء ماء فاحيا به
الارض بعد موتها ان فى ذلك لاية لقوم يسمعون انه عنى بالماء القران
بدلالة انه علقه بالسماع وليس الماء مما يسمع وفى قوله عز وجل انزل
من السماء ماء فسالت اودية بقدرها انه عنى به القران كذلك روى عن
ابن عباس رضى الله عنهما ان رجلا قال لابن سيرين رايت فى منامى كان ماء يتبعنى
وانا اهرب منه وكنت عطشان فقال انه يعرض عليك علم انت محتاج اليه
وتابى ان تتعلمه وجعل الثمر مثلا لما يحصل من الافعال الصالحة عن ذلك
البيان وقد جعل الله تعالى الماء والثمر مثلا فى قوله ضرب الله مثلا كلمة طيبة
كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء الاية وجعل بعضهم ذلك مثلا
على وجه آخر فقال الارض مثلا للابدان والسماء مثل للعقل والماء مثل لما
افاض الله علينا من العلوم المكتسبة التى تحصل بواسطة العقل والثمرات التى جعلها
الله رزقا لنا مثل لما يحصل من الافعال التى يقتضيها العلوم والله اعلم
وهذا يكون ابلغ فى المعنى لانه يحصل مع المعنى المحسوس معنى معقول والله اعلم
قوله عز وجل فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون والند والشبه والمساوى والشكل
والمثل متقاربة لكن بينها فروق فند الشئ هو المشارك له فى الجوهر وان المعنى ص
خالفه فى الكمية والكيفية وشبهه مماثله فى الكيفية وان خالفه فى غيرها
ومساويه مماثله فى الكمية كلها وان خالفه فى غيرها وشكله مماثله فى
القدر والمساحة ويدل على هذا الفرقان انه اذا قيل ما هذا فيقال ند كذا
او يقال كم هذا فيقال مساو لكذا او يقال كيف هذا فيقال شبه كذا فتقنع
المخاطب متى عرف المشبه به ولو قال كم هذا فيقال شبه هذا او قال كيف
هذا فقال مساو لهذا لم يقنع به والمثل عام فى جميع ذلك ولهذا لما اراد
الله تعالى نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال ليس كمثله شئ وقال

ابو عبيد

ابو عبيد الند هو الضد وهذا نظر منه الى بعض الانداد وذلك ان الشيئين
قد يشتركان فى الجوهر ثم يختلفان فى فصل ما كالانسان والفرس فانهما
مشتركان فى الحيوانية ومنفصلان فى كثير من المعانى فمن اعتبر
فى مثل ذلك ما بينهما من الفصل قال الند هو الضد او المخالف لان اهل
اللغة يطلقون الضد على المتقابلين وعلى المختلفين كثيرا على ما يدل عليه
كلامهم فى الاضداد وقوله فلا تجعلوا لله اندادا عام فى النهى عن الشرك المطلق
وعن الدقايق المؤدية الى الشرك المنبا عنه بقوله وما يؤمن اكثرهم بالله
الا وهم مشركون ولهذا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى هذه الاية
هو قول الرجل لولا نباح الكلب لدخل علي اللص وقيل هو نهى لقوم كانوا
يقولون ان شا الله وشاء رسوله فقال عليه السلام امثلان انتم
قولوا ان شا الله فانزل الله هذه الاية ان قيل ما وجه قوله وانتم تعلمون
فان ذلك ان جعلته خبرا مستانفا فلا بد له من ذكر معلوم يقترن به
حتى يحصل به تمام الخبر وان جعلته حالا يصير تقديره لا تجعلوا له اندادا
فى حال علمكم وذلك غير صحيح لان جعل الانداد محظور فى كل حال قيل
ان ذلك حال للمنهى وليس الاتيان به شرطا لقصر الحكم على هذه الحال وانما
هو تنبيه على قبح فعلهم لان مرتكب القبيح مع علمه بقبحه اعظم جرما واذا
قيل لا تكفروا معاندا فذلك نهى عن الكفر وعن العناد فكذلك هذا قوله وعلى هذا ص
تعالى ومن يدع مع الله الها اخر لا برهان له به ثم قوله وانتم تعلمون عام
فيمن حصل له العلم بذلك وفيمن له التمكن من العلم به فقد يوصف
من حصل له التمكن من الشئ والترشح له بذلك الشئ كتسميتهم العصير خمرا
والصبى ناطقا والنائم عالما وقد تقرر فى عقل كل عاقل اذا تامل او فى نظر
انه لا بد للموجودات من موجد لها يخالفها يصح ان يقال لهم وانتم تعلمون
بهذا الوجه قال تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض امن
يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى
ومن يدبر الامر فسيقولون الله ومعلوم انهم لا يقولون ذلك الا بادنى

تأمل واعتبار قوله عز وجل وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله قد تقدم الكلام في الريب وأما الفرق بين الشك والمرية والريب
والارتياب والتخمين والحدس والوهم والخيال والحسبان والظن فإنه نذكرها
هنا إذ كانت نافعة فنقول وبالله التوفيق إن الشك هو وقوف النفس
بين الشيئين المتقابلين وطلب الأمارة مأخوذ من مري الضرع أي مسحه للدر فكأنه
يحصل مع الشك تردد في طلب ما يقتضي غلبة الظن والريب أن تتوهم في
الشيء أمرا ما ثم ينكشف عما توهمت فيه والارتياب أن تتوهمه فينكشف بخلاف
ما توهمت ولهذا قيل القرآن فيه ارتياب وليس فيه ريب والتخمين توهم لا عن
أمارة والحدس إسراع الحكم بما يأتي به الهاجس من غير توقف فيه مأخوذ من حدس
في سيره أي أسرع والوهم صورة تتصورها في نفسك سواء كان لها وجود من
خارج كصورة إنسان ما أم لم يكن له وجود كعنقاء مُغرِب وغزال والخيال
تصور ما أدركته الحاسة في النفس والحسبان اعتقاد عن أمارة اعتددت به
سواء كان له وجود في الحقيقة أو لم يكن وهو مشتق من حسبت الحساب والظن
أعم معنى من ذلك كله فإنه اعتقاد عن أمارة ما مما قد ثبت فمتى كانت تلك
الأمارة ضعيفة جرى مجرى خلت وحسبت ومتى كانت الأمارة قوية
جرى مجرى علمت ولتردده بين هذين قال أهل اللغة ظننت قد يكون بمعنى
خلت وبمعنى تيقنت ومتى كانت الأمارة قوية ولحق بباب العلم
استعمل معه أن المثقلة والمخففة منه نحو الذين يظنون أنهم ملاقوا
ربهم وقوله علم أن سيكون منكم مرضى ومتى كانت ضعيفة استعمل معه
أن المختصة بالمعدومين من الفعل نحو قوله تظن أن يفعل بها فاقرة وقد
تقدم الكلام في الإنزال والتنزيل وفي معنى العبد وأما تخصيص إضافة
العبد إلى الله في كثير من المواضع فتنبيها على مدحه في كونه مطيعا له مؤتمرا
عن أمره وأنه غير منعرج على غيره ولا مؤتمر لسواه كمن سماهم عبدة الطاغوت
وعبد الدرهم والدينار وتنبيها أنهم ممن وصفهم بقوله إن الله اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وتنبيها أنه يجري مجرى الملك

معرفته صح

بحيث لا يترجح أحدهما على الآخر بأمارة والمرية هي التردد في المتقابلين صح

هذين صح

الموصوف

الموصوف في قوله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ثم إضافته
بنون الملوكية مبالغة في الاختصاص وكل إضافة إليه تعالى على هذا الوجه
فللمبالغة والسورة المنزلة في نحو الم تر أن الله أعطاك سورة ويقال للمحيط
بالمدينة سور لحياطته بجملتها وتسمية القطعة من القرآن بذلك لكونه
كالمحاط بها إحاطة السور بالمدينة أو لكونها منزلة ما من القرآن كما تقدم
ومن قال سورة بالهمز فمن أسأرت أي أبقيت قطعة مفرزة من جملته وقوله
من مثله قيل من مثل القرآن وقيل من مثل النبي عليه السلام من البشر
تنبيها أن مثله ليس في طوق البشر فمن على الوجه الأول للتبعيض وعلى
الثاني للابتداء قوله عز وجل وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم
صادقين الشهادة تبين الشيء الحاضر فقولهم شهد زيد في المعنى
من قولهم حضر وإن كان قد يفسر به ولما كان تبين الشيء على ضربين تبين
بالبصر وتبين بالبصيرة والحضور على ضربين حضور بالذات وحضور بالتصور
صار الشهادة تستعمل على أوجه بحسب ذلك فيقال ذلك لحصول قربة
ومنزلة ومنه قيل استشهد فلان وهو شهيد كأنه حضر وتبين ما كان يرجو
واستعمال ذلك فيه كاستعمال القريب نحو قوله الملائكة المقربون ولهذا
المعنى قال إن الذين عند ربك وقال في الشهداء بل أحياء عند ربهم يرزقون
وقالوا أنا شاهد لهذا الأمر أي عارف به متصور له إشارة إلى قولهم
لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي وقالوا شاهده أي ناصره وعلى نحوه
قال تعالى إن الله معنا وقالوا صحبك الله وأما الشهادة المتعارفة
فأصلها الحضور بالقلب والتبيين ثم يقال ذلك إذا عبر عنه باللسان
ولذلك متى أطلق لفظ الشهادة على ما ينطق اللسان دون حصوله في القلب
عد كذبا كقوله تعالى في المنافقين حيث قالوا نشهد إنك لرسول الله
فكذبهم وقال والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون
ثم يقال لكل ما يدل على شيء شهادة وإن لم يكن قولا فقوله وادعوا شهداءكم
قد فسر على كل ما يقتضيه لفظ الشهادة قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه

فكان ذلك قطعة صح

من صح

اعوانكم وقال مجاهد معناً الذين يشهدون لكم وقال غيرها ائمتكم نحو
ونزعنا من كل امة شهيدا وكانما عنى بذلك الكبير الذين لايبتوم امرمن
دونهم كقولهم فلان يحضر به النوادي وهو من اهل النجوى ويصدره هجي
من قبيل فيه مخلفون ويقضى الناس امرهم وهم بعيب وفي عميا ما شعروا
واما الصدق فانه يحد بانه مطابقة الخبر المخبر عنه لكن حقيقته وتمامه
ان يتطابق في ذلك ثلثة اشيا وجود المخبر عنه واعتقاد المخبر فيه ذلك
عن دلالة او امارة وحصول العبارة مطابقا لهما فمتى حصل ذلك وصف
بالصدق المطلق ومتى ارتفع ثلثتها وصف بالكذب المطلق ومتى حصل اللفظ
والمخبر عنه او الاعتقاد وبخلافه صح ان يوصف بالكذب الا ترى ان الله
تعالى كذب المنافقين في اخبارهم لرسول الله لما كان اعتقادهم غير مطابق
لقولهم واذا قال لك من اعتقد كون زيد في الدار ولم يكن فيها صح
ان يقال كذب وان كان قوله مطابقا لاعتقاده ولما كان اللسان ترجمان
القلب صح ان يقال صدق اعتقاده او كذب وقد يتجوز ايضا بذلك في
جميع الافعال فيقال لكل فعل جميل على ما يحب صدق ولما كان بخلافه
كذب ويقال ايضا لكل شئ يعتقد فيه اعتقادا ما فوجد مطابقا لذلك صدق
وان وجد بخلافه كذب ووجه الاية ان الله تعالى تحداهم بان قال ادعوا
اعوانكم ونصاركم واستعينوا بكل ناصر لكم غير الله الذي هو مفزع الكل
وانظروا هل في طوقكم الاتيان بمثله تنبيها على ان ذلك لو اتى به محمد من
قبله لقدرتم انتم مع تظاهركم على الاتيان بمثله ويجوز ان يكون قوله
من دون الله ذما لهم اي ادعوا اعوانكم التي من عادتكم الاستعانة بهم
الذين هم غير الله ويجوز ان يكون معناً وادعوا شهداءكم الذين لكم دون
الله فان الاستعانة به ليس لكم وعلقه بقوله ان كنتم صادقين تنبيها
ان اقامة الدلالة على الشئ الصدق ليس بقير فعجزكم عنه دلالة على انكم
في دعواكم كاذبون قوله عز وجل فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار
التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين لفظ الفعل اعم من معنى

على ما اخبر عنه صح

انك صح

سائر اخواته نحو العمل والصنع والابداع والاحداث والخلق والكسب
وذلك ان الابداع اكثر ما يقال في ايجاد عين عن عدم وليس حقيقة ذلك
الا الله تعالى والاحداث يقال في ايجاد الاعيان والاعراض معا والعمل
لا يقال الا ما كان عن فكر وروية ولهذا قرن بالعلم فقيل علم وعمل حتى
قال بعض الادبا قلب لفظ العمل عن لفظ العلم تنبيها انه من مقتضاه
والصنع يقال لايجاد الصورة في المواد كالصياغة والبناء فان
الصايغ يوجد صورة الخاتم والخلخال في الذهب والفضة والبناء
يوجد صورة البناء في الطين والكسب اكثر ما يقال في اجتلاب المنافع
وقد يقال ايضا في اجتلاب المضار مقيدا والخلق قد تقدم القول فيه
وقد امر الله بالتقوى على ثلثة اوجه وخص بكل وجه عصابة من الناس
وذلك بحسب اختلاف مراتبهم من العلم ومكانهم من الايمان فالاول
حث الانسان على اتقاء عقوبة الله برؤية ذنوبه وذلك في قوله واتقوا
النار التي اعدت للكافرين واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله والثاني
حث على اتقائه برؤية الائه ونعمه لقوله يا ايها الناس اتقوا ربكم والثالث
حث على تقواه برؤيته وحدانيته دون الوسايط وذلك في قوله
يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وجعلها على ثلثة مراتب حسب ما سنه تعالى
في سياسة الاصناف الثلثة من الناس الخاصة والخامة والعامة وبهذا
الاعتبار قسمهم تعالى ثلثة اقسام في قوله فمنهم ظالم لنفسه ومنهم
مقتصد ومنهم سابق واشرف هذه المنازل تقوى الله من غير روية الوسايط
بلا مخافة ولا رجاء ولذلك عظم ثوابه بقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا
ويرزقه من حيث لا يحتسب وهم الا تقون المعنيون بقوله ان اكرمكم
عند الله اتقاكم والمعبر عنهم بقوله ان الذين امنوا وعملوا الصالحات
اولئك هم خير البرية والوقود الحطب الذي يوقد به ولما كانت نار
الدنيا محتاجة الى دقاق توقد به ونار جهنم مستغنية عن ذلك بل مكتفي
في ايقادها بالناس وبالحجارة التي ليست من عادة النيران المشاهدة

ولذلك فسر بانه دقاق الحطب
لان الدقاق الذي يوقد به

ان يتقد بها عظم بذلك امرها ومن قال اراد بذلك حجارة الكبريت
فانما عنى ان الحجارة لتلك النار كحجارة الكبريت لنار الدنيا وقوله اعدت
اصله من العد وهو الاحصا لكن العد يتجوز به على اوجه فيقال شى معدود
ومحصور للقليل مقابلة بما لا يحصى كثرة ويقال على الضد من ذلك جيش
عديد وانهم لذو عدد اى كثيرة وذلك مقابلة بما لا يحتاج الى الحصر وتعداده
لقلته ولهذا قيل ما عد للكثير والاعدا ومن العد كالاستقاء من السقى فاذا
قيل اعددت هذا لكذا اى جعلته معادا للعد له يتناول منه بحسب
حاجته اليه وقد الزمهم الله تعالى بهذه الاية الحجة بانكم ان اتيتم بمثله
فقد اوحصتم حجته وان لم تاتوا به لزمتكم الحجة ووجب عليكم ان تتقوا
عقابه وفصل بين الشرط والجزاء بحكم جزم ان لا تاتوا بمثله وذلك
زيادة فى اعجاز لوجود مخبره على ما اخبر به وذلك مثل قوله قل لئن
اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القران لا ياتون بمثله
الاية فان قيل كيف خص الكافرين بالنار دون الفاسقين قيل يجوز
ان يكون اراد ان هذا الضرب من النار يختص به الكفار وهى المخصوصة
ايضا بقوله ادخلوا آل فرعون اشد العذاب وقوله ان المنافقين
فى الدرك الاسفل من النار ثم اذا قيل اعد هذا لزيد لا يقتضى ان
لا يكون معدا لغيره بل قد يكتفى باعظم الشيئين عن الاخر نحو قوله سرابيل
تقيكم الحر ولم يذكر معه البرد فيكون النار على هذا الوجه للجنس
وعلى الاول للنوع قوله عز وجل وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات
ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا
قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها اصل بشرته تلقيته
منى ببشرة ووجه طلق وذلك ان من شان من اتى بخبر سار ان يكون
طلق الوجه ومن اتى بخبر بخلافه يكون عابس الوجه وقيل معنى بشرته
اطلقت بشرته بما اخبرته فان من ناله سرور طار دمه منتشرا فى صفحة
وجهه ومن ناله سوء يقبض دمه فاصفر واسود وقيل بشرته اظهرت له

خبرا واثرت بشرته على المسرة به اى ظاهر الجلد البشرة وذلك الكثير ما يدل
وجه الشئ على باطنه فان قيل فان كانت البشارة للاخبار السار فما وجه
قوله تعالى فبشرهم بعذاب اليم قيل ان مثل ذلك قد يستعمل على
سبيل التهكم نحو تحية بينهم ضرب وجيع تنبيها ان السار لهم الاخبار بالعذاب
الاليم فالظن بما وراه والايمان لما كان فى الاصل للتحقيق والتصديق كل
ما ذكره تعالى الا قرن به الاعمال الصالحة ان الاعتقاد لا يغنى من دون
العمل فالعلم اس والعمل بناء ولا غناء للاس ما لم يكن بناء كما لا بناء ما لم يكن
له اس ولذلك قيل لولا العمل لم يطلب علم ولولا العلم لم يكن عمل فاذا حقهما
ان يتلازما والجن اصله الستر عن حس البصر وسمى الجن لاستتاره عنه ثم
اشتق من الجن فقيل جن فلان وبنى على فعل بناء عامة الادواء نحو زكم وحم
ولقى والجنان القلب لكونه مستورا عن البصر وجن الليل والمجن لذلك
وقيل للبستان ذى الاشجار جنة لاستتاره بها والجنة قيل سميت بجنة
الارض وان كان بينهما بون وقيل سميت بذلك لانه ستر فى الدنيا
حقيقة ما اعد فيها من عظم الالاء وبذلك اخبر تعالى فى قوله فلا تعلم
نفس ما اخفى لهم من قرة اعين وانما قال جنات بلفظ الجمع لما قال ابن
عباس رضى الله تعالى عنهما ان الجنان سبع جنة الفردوس وجنة عدن
وجنة النعيم وجنة الماوى ودار الخلد ودار السلام وعليون والجرى
المر السريع ويقال ذلك فى الماء والرياح والسحاب والفرس ويقال للرسول
والوكيل المتحققين فى الحاجة جرى والاتيان عام فى المجئ والذهاب فيما
كان طبعيا وقهريا والاتى يقال للماء الجارى ولما وقع فيه من خشب
ونحوه والمجرى الماء والقريب ايضا ان قيل لم قال تجرى من تحتها الانهار
وقد علم ان الماء فى البساتين اذا كان جاريا تحتها قيل عنى انها انهار جارية
تحت الاشجار لا تحت الارض وقد روى عن مسروق ما يدل على ذلك
وهو ان انهار الجنة تجرى فى غير اخاديد ان قيل كيف قال هذا واخوانه بتاتا
الى العين الموجودة طورا والى النوع والجنس طورا والنوع من حيث ما هو نوع

فاستعبر لظاهر صح

على وجه الارض احسن منه
اذا كان جاريا صح

هذا الذى رزقنا من قبل وما كان من قبل
تدفنى وعدم قيل الفظة صح

ليس بفني وانما الذي يفني هو الجزئيات وعلى ذلك يقول في الاشارة
الى نهر جار هذا الماء لا يفني وانت لا تعني بذلك الجزء المشاهد منه وانما
تعني به النوع المعلوم وقوله من قبل هو للمتقدم فقيل عني بذلك ما اتوا به
قبل ذلك في الجنة واليه ذهب الحسن ويحيى بن ابي كثير فقالا اذا اوتي
احدهم بصحفة فيأكل منها ثم يؤتى باخرى يقول هذا الذي رزقنا من قبل
فيقول له الملك كل فاللون واحد والطعم مختلف وقال ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما رزقنا من قبل اي في الدنيا شبهه وابن جرير رجح هذا الوجه
وقال ان قوله كلما عام يقتضي انهم قالوا ذلك في كل مرة من غير تخصيص
ومتى جعل ذلك للاولى اقتضى ان يكون ذلك مخصوصا خلاف ما يقتضيه
عموم الاية وقال بعض المفسرين قول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله
هذا الذي صح
رزقنا من قبل اي في الدنيا يعني ثواب ما رزقنا من المعارف
كقوله ذوقوا ما كنتم تعملون قال ويدل على صحة هذا ان ابن عباس
رضي الله عنهما قال ليس في الجنة من اطعمة الدنيا الا الاسماء والمتشابه
المتماثل في الكيفية ولهذا يقال فيما لا يتميز احدهما عن الاخر متشابه
وكذلك للواقع من الكلام بين معنيين فصاعدا متشابه والتشبه
في الشيء ما يقع فيه من مشابهة الغير فقوله واتوا به متشابها
قيل هو تفسير لقوله هذا الذي رزقنا من قبل اي يشبهه اسما
ولونا لا طعما وحقيقة وقيل عني به متماثلا في الكمال وان لا تفاوت
فيه كاطعمة الدنيا وقال بعض المفسرين ان الاية مثل لا على الحقيقة
وقد نبه على كونه مثلا بقوله بعده ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا
ما بعوضة فما فوقها والانهار مثل لمجاري الخيرات كقولك ينابيع الحكم
وانواع الفضل والرزق لم يعن به ما يؤكل فقط وانما هو كقولك رزقت
فهما وعلما والثمرة اسم لما يحصل عن الشيء كقولهم ثمرة العلم العمل الصالح
وثمرة العمل الصالح الجنة ومعناه كلما اعطوا في الجنة جزاء لما رزقوا من المعارف
والاعمال قالوا هذا الذي رزقنا من قبل اي هذا ثواب الذي وفقنا له

في الدنيا

في الدنيا وهذا القول وان كان لمجازه مساغ في اللغة فهو ترك لما
روي عن السلف في تفسير الاية وامثالها من الايات قوم من المتفلسفين
وقد طعن في هذه الاية صح
والطبيعيين وقالوا ان الجنة لا يصح فيها الاكل والشرب فان الاكل
لا يطيب الا عن جوع والجوع مرض واذى والاكل مداواة له ولا مرض
ولا اذى بوجه في الجنة ثم ان الطعام يصير بعضه ثقلا بعد طبخ المعدة
اياه فيخرج من البدن وبعضه يصير غذاء يزيد في البدن بقدر ما يتحلل
منه والا خرج به البدن عن الاعتدال وكل ذلك لا يصح الا في دار
الكون والفساد دون دار الخلد والبقاء وهذا كلام من نظر الى
الاجساد في الاخرة نظره اليها في هذه الدنيا وهي مركبة تركيبا معرضا
للاستحالات ولم يعلم ان الله تعالى يعيدها اعادة لا يعتورها
الاستحالات ويجعل لها اطعمة يتلذذ بها فلا يكون لها ثقل ولا تغير
منكر وقد دل على ذلك تعريضا وتصريحا اما اعادتها على وجه معرى
من الاستحالات فقوله وننشئكم فيما لا تعلمون وبقوله عليه السلام
في اهل الجنة جرد مرد مكحول واما اطعمتها لا يستحيل فبقوله عليه السلام
ان اهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون انما هو عرق يجري من اعراضهم
مثل ريح المسك وبقول ابن عباس رضي الله عنهما ليس في الجنة شيء مما في
الدنيا الا اسماؤها فان الله تعالى سمى الماء واللبن والخمر والعسل والسندس
والحرير والمسك والزنجبيل ووصف لكم ما في ايديكم ليحلو عندكم وليشتهي
اليه قلوبكم وليس لهذا القول منه وجه الا التوقيف اذ لا مدخل للاجتهاد
فيه وروي ان يهوديا سأل النبي صلى الله عليه وسلم اتزعم ان في الجنة نكاحا
واكلا وشربا ومن اكل وشرب كانت له عذرة فقال النبي عليه السلام
والذي نفسي بيده ان فيها اكلا وشربا ونكاحا ويخرج منهم عرق اطيب
من ريح المسك فقال رجل صدق رسول الله خلق دود ياكل مما ياكلون
ويشرب مما يشربون فيخلف عسلا سائغا هذا مثل طعام اهل الجنة
فقال عليه السلام صح
وفي هذا اشارة عجيبة فانه اذا امكن ان ياكل دود اطعمة مستحيلة فيخلف

جنسا طيبا يبقى اطول مدة فلا يلحقه فساد فكيف ينكر ان يتناول اهل الجنة
طعاما معرا من العفونات والاستحالات فيحلف منه مسك والذى يستبعده بعض
الناس من ذلك هو انهم يريدون ان يتصوروا ابدانا متناولة لاطعمة
لا استحالة فيها ولا تغير لها ولا يكون منها فضولات وتصور ذلك محال
وذلك ان التصور هو ادراك الوهم خيال ما ادركه من الحس جزءا ولا كله
كيف يمكن تصوره ولو كان للانسان سبيل الى تصور ذلك لما قال تعالى
فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين ولما قال عليه السلام مخبرا عن الله
تعالى اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رات ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر وجملة الامر يجب ان يكون معلوما ان النقصانات
منفية عن الجنة لانها من الاعدام وليس فى الجنة اعدام اذ هى غاية الكمال

وما لا يدركه الحس

والتمام وقوله عز وجل ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون
الزوج يقال لكل واحد من القرنين من الذكر والانثى فى الحيوان المتزاوجة
ومن القرينين فى غيرهما كزوج الخف والنعل ولكل ما معه اخر مقارن له
مماثلا او مضادا كان مركبا معه او مفردا فقوله تعالى احشروا الذين ظلموا
وازواجهم اى اشكالهم وموافقيهم فى الدين ولم يرد الرجل وحليلته
فقد تكون تحت المؤمن الكافرة وتحت الكافر المؤمنة وقوله ومن كل شىء
خلقنا زوجين اى اثنين اما من حيث الاعداد ومن حيث التركيب تنبيها
انه تعالى هو الفرد من كل وجه وما سواه زوج من وجه ما والزوجية
اى اثنوية يقتضى كونها محدثة والتطهير يقال فى الاجسام والاخلاق
والافعال جميعا وقيل فى قوله وثيابك فطهر اى نفسك نقها من الاوساخ
وذلك مخاطبة للكافة وان كان لفظه للنبى عليه السلام وقال تعالى
انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ومعلوم
انه تعالى لم يرد تطهيرا عن نجاسة فى ثوب وبدن وانما اراد تطهير النفس
الذى يستحق به المدح والخلود البقاء الدائم واصله لما يطول مكثه ومنه قيل
للاثافى والاحجار خوالد والخلد اسم للجز الذى يبقى من الانسان على حالته

ما دام حيا وقوله عز وجل ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة
فما فوقها فاما الذين امنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا
فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا
وما يضل به الا الفاسقين الحيا عارض للفزع من النقيصة وذلك
بين الوقاحة والخجل فان الوقاحة هى الجراءة على الافعال القبيحة من غير
مبالاة والخجل انحصار النفس عن الفعل والحيا ماخوذ من لفظ الحيوة
التى يراد به العلم والعقل ووجه ذلك ان الحيا اس العقل اذ هو اول
امارة تظهر من الصبى ولهذا قال عليه السلام من لا حياء له لا ايمان له
لان الحياء اول منزلة من العقل والايمان اخر منزلة لمن حصل فمحال ان يحصل
اخر المنزلة لمن لم يحصل له الاول واما الحيا الذى هو الفرح فسمى بذلك
لكونه مستحيا من ظهوره ومن اجل ذلك قيل شورت من فلان
اى خجلته ممن يظهر شوارة اى فرجه والضرب اصله وقع شىء على شىء
ثم تجوز به على انظار مختلفة ولما قيل ضربت الدرهم ودرهم ضرب اى
مصنوع استعير منه ضربت المثل والكلام فى المثل قد تقدم وما فى

والمثل

قوله مثلا ما للمبالغة فى التنكير فان ما فى الخبر اما ان يكون معرفة
فيكون موصولة او نكرة وذلك على ثلثة اوجه اما موصوفة نحو
قوله رب ما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال او مبتدا
بلا صفة وذلك فى قولهم ما احسن زيدا على مذهب سيبويه واما
تابعا لاسم منكور تنبيها انه لم يقصد به معين نحو رايت رجلا ما
وقوله فما فوقها قيل معناه ما دونها وانما عنى ما فوقها فى الصغر
فقسره بدون فظن بعض اهل اللغة ان فوق يكون بمعنى دون
فاخرجه فى جملة ما صنف من الاضداد والحق لفظ عام لصدق
المقال وصواب الفعال يقال قول حق كقولك صواب وقيل الحق
هو الذى لا يزاحمه فى ذاته ضد ولهذا وصف الله تعالى به فى قوله
ويعلمون ان الله هو الحق المبين والارادة منا يقتضى نزوع النفس الى

الشيء مع الحكم بانه ينبغي ان يفعل وان لا يفعل واذا وصف الباري
تعالى فلا يصح ان يكون فيه النزاع او هو منزه عن ذلك والاختيار
اخص من الارادة فان فيه مع الارادة دلالة من اللفظ على تفضيل
احد الشيئين على الاخر والايمان ههنا الاعتقاد الصادر عن العلم
وان كان في التعارف يقتضي مع الاعتقاد قولاً وعملاً بحسب مقتضاه
والكفر ههنا الاعتقاد الكاذب عن تخمين ومعنى الاية ان الكفار لما
سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم وقد تلا عليهم قوله مثل الذين اتخذوا
من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وقوله وان يسلبهم
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه قالوا الا يستحي ربك عن ذكر الذباب
والعنكبوت فانزل الله تعالى ذلك تنبيهاً ان الاعتبار بالحكمة لا بصغر
الجثة وكبرها ان قيل من جوع مطابقة قوله تعالى فاما الذين امنوا
فيعلمون انه الحق من ربهم ان يقول واما الذين كفروا فلا يعلمون
قيل لما كان الايمان صادراً عن العلم والعلم يقتضي سكون النفس وطمأنينة
القلب وذلك لا يقتضي مراجعة ومسألة ذكر مقتضاه ولما كان
الكفر منبع الجهالة التامة وتمام الجهل هو الاعتراض على الحق على سبيل
الانكار نبه بانكارهم لما لا يعرفونه على تمام جهلهم وقوله يضل به
كثيراً ويهدي به كثيراً قد تقدم الكلام في الاضلال والهداية فاما
الفاسق فهو الخارج عن حجر الايمان من قولهم فسق الرطب عن قشره
وكل كفر فسق وليس كل فسق كفراً واكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الاسلام
واقر به او ببعضه ثم اخل به واذا قيل للكافر الاصلي فاسق فلانه
اخل بحكم ما الزمه العقل واقتضاه الفطرة وللفاسق في انخلاعه عن
الاسلام ثلث درجات التغابي والانهماك والجحود فبالتغابي يرتكب
بعض الذنوب مع استقباحه من نفسه وبالانهماك يرتكبها مستصوباً لها
يرتكبها غير مبال بها وبالجحود صح
الكبير والكثير يتقاربان الا ان الكبير اكثر ما يقال في اجزاء الشيء المتصلة
فالكثير في الاعداد والمعدودات المنفصلة ان قيل كيف قال يضل به كثيراً

ويهدي به

ويهدي به كثيراً والكثير والقليل انما يقالان في شيئين يعتبر احدهما بالاخر
والناس اذا فرقوا فرقتين فحكمت على احديهما بالكثرة فالاخرى لا محالة قليلة
فكيف جعلهما كثيرين قيل ان ذلك باعتبارين فقوله يضل به كثيراً ويهدي به
كثيراً يعني من حيث العدد ويهدي به كثيراً يعني من حيث الفضل والشرف
وعلى هذا قول الشاعر قليل اذا عدوا وكثير اذا اشتدوا او يحكم عليهما بالكثرة
اعتباراً بالاضافة الى غيرهما قوله عز وجل الذين ينقضون عهد الله
من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في
الارض اولئك هم الخاسرون النقض فسخ المبرم واصله في طاقات
الحبل والنكث مثله لكنه يقال في الملبد كالاكسية والاخبية والعهد
كل امر شانه ان يراعى كاليمين والمشاركة والمبايعة ويقال العهد للدار المراعاة
بالرجوع اليها والتاريخ المراعى وللمطر المتعهد والميثاق اسم لما يقع به
الوثاقة والعهد المامور بحفظه ضربان عهد ماخوذ بالعقل وعهد
ماخوذ بالرسل والماخوذ بالرسل مبني على الماخوذ بالعقل ولا يصح
الا بعده او معه وقد حملت الاية عليهما وذلك هو المذكور في قوله
واذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم الاية وفي قوله
واذ اخذ الله ميثاق النبيين وقد عظم الله تعالى امر العهد وتوعد
على الاخلال به في اي كثيرة كقوله فمن نكث فانما ينكث على نفسه
وقوله واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم
ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى الاية
وقال فيما نقضهم ميثاقهم صح
وقوله تعالى ان الذين
يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلاً واما ذمهم بقطع ما
امر الله به ان يوصل فذم بقطع الخيرات وتعاطي السيئات وذلك
ان التقاطع بين الناس يحصل من رفض المحبة والعدالة ورفضهما
سبب كل فساد فان القوم اذا احبوا عدلوا
واذا تواصلوا صح
تواصلوا تعاونوا
واذا تعاونوا عمروا
وامروا صح
واذا عمروا عمروا وبالعكس اذا تباغضوا وظلموا
تدابروا واذا تدابروا تخاذلوا واذا تخاذلوا لم يعمل بعضهم لبعض فهلكوا
ولهذا قال عليه السلام لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله

اخوانا كما امركم الله وقال المؤمن مالف ولا خير فيمن لا يولف ولذلك
حثنا على الاجتماعات فى الجماعات والجمعات لكون ذلك سببا للالفة بل لذلك
عظم الله تعالى المنة على المؤمنين بايقاع الالفة بين المؤمنين فقال
تعالى لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف
بينهم وقال واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وليس ذلك فى الانسان
فقط بل لولا ان الله تعالى الف بين الاركان المتضاده لما استقام
العالم ولذلك قال عليه السلام بالعدل قامت السموات والارض
ومتى تصور هذه الجملة علم ان الاية فى نهاية الذم لهم وقول قتادة انه
امر بصلة الارحام وقول غيره انه ذم لهم بقطعهم النبى صلى الله تعالى
عليه وسلم اشارة منهم الى ابعاض ما يقتضيه عموم الاية والخاسر من
خسر احدى المقتنيات الثلثة من المال والبدن والعقل وكما ان الفاسق
بالقول المجمل على ثلث طبقات بعضها فوق بعض فكذلك ناقضوا العهد على ثلث
طبقات ناقض عهده فى اوامره المفروضة وناقض عهده فى اوامره النافلة
وناقض عهده فى اركان الدين وذلك اعظم الثلثة وكذلك قاطعوا ما
امر الله به ان يوصل قاطع لبعض ما يشير اليه عقله تابعا لهواه وقاطع
لبعض ما يامر به العلم وينبوه وقاطع للعصمة بينه وبين الله وكذلك
الخاسر خاسر ماله فى ابتغائه غير الدار الاخرة وخاسر بدنه فى غير خدمة
الله وخاسر عقله فى اهماله عن اقتباس ما يفيده الحيوة الابدية
وذلك اعظم الخسران المنبأ عنه بقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين
اعمالا وقوله تعالى ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم فلكل منزلة
من الفسق منزلة من نقض العهد ومنزلة من القطع ومنزلة
من الخسران تلازمه فالاول فى كل ذلك مخطئ والثانى فاسق
والثالث كافر ثم منزل كل واحد منهم يتفاوت وقوله عز وجل
كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه
ترجعون كيف ههنا استخبار لا استفهام والفرق بينهما ان الاستخبار

قد

قد يكون تنبيها للمخاطب وتوبيخا ولا يقتضى جهل المستخبر والاستفهام
بخلاف ذلك فكل استفهام استخبار وليس كل استخبار استفهاما
والحيوة يستعمل على اوجه يقال للقوة النامية فى النبات والحيوان حيوة
ومنه قيل نبات حى اذا كان ناميا وعلى ذلك قوله اعلموا ان الله يحيى
الارض بعد موتها وقوله واحيينا به بلدة ميتا والثانى للقوة
الحساسة وبه سمى الحيوان حيوانا والثالث للقوة المختصة بالانسان
من العقل والعلم والايمان وذلك لكونها سببا للحيوة الابدية وعلى
ذلك قوله اومن كان ميتا فاحييناه وقوله استجيبوا لله وللرسول
اذا دعاكم لما يحييكم وعلى نحو قوله وقد اسمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حيوة لمن تنادى والموت يستعمل فى فقد كل واحد مما تقدم
واما وصف البارى جل ثناؤه بالحى فليس يتصور منه مقابلة الموت
فانه تعالى الدائم الباقى الذى به حيوة كل حى ومعنى الاية قيل كنتم
امواتا اى ترابا ونطفة فاحياكم بان انشاكم وخلقكم ثم يميتكم الموت
المعروف ثم يحييكم يوم ينفخ فى الصور ثم اليه ترجعون اى تردون
الى الثواب والعقاب وذلك نحو قوله ربنا امتنا اثنتين واحييتنا
اثنتين ونبه بمثل هذه الايات على ان القادر على الابداء قادر
على الاعادة كما قال وهو اهون عليه وقال بعض اهل الحقايق
الاية خطاب للمؤمنين لا على الانكار بل على تعظيم المنة عليهم وتبعيد
الكفر منهم بعد تحققهم بالايمان فقد قيل ما رجع من رجع الا من
الطريق اى لا ينكر الله احد بعد تخصصه بالمعرفة الحقيقية وانما
يرتد ويتشكك من لم يبلغها فمحال ان يصير العارف جاهلا وليس بمحال
ان يصير الجاهل عالما فيقول امواتا اى جهالا فاحياكم بما افادكم
من العقل وشحنكم من العلم كما قال اومن كان ميتا فاحييناه
وهذا اعظم اعجوبة واولى بالاعتبار به والتنبيه عليه لمن القى
السمع وهو شهيد ثم قال يميتكم الموت المعروف الذى لا يجب ان

بنكاد كم ثم يحييكم الحيوة الحقيقية ثم تثابون الثواب الذي لا عين
رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقوله عز وجل
هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسويهن
سبع سموات وهو بكل شيء عليم الاستواء طلب السواء اي المساواة
وسمي وسط الشيء سواء لتساوي مساحة الجوانب كلها اليه وقيل
للعدل سوا لكونه وسطا للظلم والانظلام ان قيل قوله تعالى خلق لكم
ما في الارض جميعا يقتضي ان كل ما في الارض خلق لاجل الانسان
والانتفاع به ومعلوم ان في الارض كثيرا مما لا ينفع للانسان
فيه بل فيه المضار والعقارب والاشرار من الانسان قيل الاشياء
الضارة في الظاهر لكل نوع منها خاصة فيها نفع للانسان او نفع
لما فيه نفع للانسان واجزاء العالم اذا تاملتها اما ان يكون قرارا للانسان
او غذاء له او غذاء لما هو غذاء له او دواء له او ينتفع به نفعا ما على وجه
وذلك بين في انواع الاشياء واجناسها فاما نفع جزئياتها في ان يقال
ما نفع هذه الحية بعينها فلا سبيل لنا اليه واجزاء العالم شيء ضار
بالاطلاق وانما الضار ضار بالاعتبار الى جزئياته ان قيل كيف ذكر ههنا
انه خلق ما في الارض قبل السماء وقد قال والارض بعد ذلك
دحيها ومعلوم ان ما في الارض محال وجوده قبل وجودها قيل قد
ذكر في هذا جوابان احدهما انه تعالى خلق جوهر الارض ثم دحيها
وبسطها بعد خلق السماء والثاني انه خلق السماء بعد خلق الارض
ودحوها وانما وقعت الشبهة من قوله والارض بعد ذلك دحيها
لان بعض الناس تصوره من جهة القرآن قوله بعد ذلك ظرف
لقوله دحيها واعتبر في بعد الزمان وليس كذلك فان تقدير الآية
والارض بعد ذلك ثم قال دحيها اخرج منها ماءها ومرعيها كقوله
أانتم اشد خلقا ام السماء ثم قال بناها رفع سمكها فسويها وليس بناها
وصفا للسماء بل تقديره ام السماء اشد خلقا ثم استونف فقيل بناها

كالحيات

تنبيها ان من قدر على ذلك فهو على اعادتكم قادر ثم قال والارض بعد
ذلك اي الارض بعد السماء اشد خلقا من اعادة خلقكم وذلك لان
السماء بما فيها من عجايب الصنعة اعظم خلقا من الارض ثم الارض
اعظم من الانسان وليس يريد من بعد التوقيت وانما يريد الترتيب
في الشرف والرفعة فان قيل ولم نصب الارض بقوله بعد ولم يرفعها كما رفع
السماء قيل ان الاول استخبار وقوله والارض ليس بداخل في الاستخبار
لانه لو كان استخبارا لقال ام الارض لكن استانفه فاضمر له فعلا
نحو يدخل من يشاء في رحمته والظالمين اعد لهم وذلك الفعل
ما دل عليه انتم اشد من التعرف وقوله ثم استوى الى السماء فالاستواء
وان كان في الاصل للاقبال الدال على الانتقال فقد يراد به التوفر
على اصلاح الشيء وهو المراد ههنا وعلى ذلك الاتيان في نحو قوله
فاتيهم الله من حيث لم يحتسبوا ولكون اللفظ متجوزا به ههنا
قال بعضهم معناه استولى وقال الحسن اقبل على خلقه وقال ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما استوى امره عليه وقيل معنى سويهن
اي تحري السواء اي العدالة وذلك لما جعل فيها من التركيب
المتعادل المشار اليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت
السموات ان قيل لم ذكر السماء ثم قال فسويهن قيل لما عني بالسماء
السموات رد الضمير الى المعنى وجاز ذلك ان الاسماء على ضربين
اسم موضوع لاجزاء متشابهة نحو اليد والرجل فما كان من الاول
فانه يقع على بعضه اسم كله فلا فرق بين ان يذكر بلفظ الواحد
او بلفظ الجمع والسماء من هذا الباب لانه يقال لاقطاع اللحم
ولكل قطعة منها منفصلة كانت او متصلة لحم كذلك السماء
والله اعلم قوله عز وجل واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في
الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء
ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون

نحو الدم واللحم والماء والارض
واسم موضوع لاجزاء غير متشابهة
نحو والمراة والرجل

اذ يتعلق بمضمر في موضع المفعول به لان تقديره اذكر لا اذكر فيه وقول
ابي عبيدة ان اذ في مثل هذه المواضع زائدة فانه تقصير منه في النظر
والملائكة اصله ملاك مقلوبا عن مالك والالوك الرسالة المحفوظة
في الفم من الك الفرس اللجام اذا لاكه وروي ان الملائكة على اضرب خواص
يتميزون تميزا متباينا في الفضيلة وادون اولي اجنحة وجماعة يقال لهم
الجن وهم اقرب الى الناس وقد يقال للصالح من الناس ملك على ذلك قوله
تعالى ان هذا الا ملك كريم وقال الشاعر فلست لانسي ولكن لملاك
والخليفة والخلف يتقاربان من قولك خلف فلان فلانا اذا قام مقامه
والخلف والسلف يتناقضان كخلف وقدام فان قيل ما وجه استخلاف
الله تعالى والخلافة انما يكون للنيابة عن الغير اما لغيبته او موته او عجزه
وذلك لا يجوز على الله تعالى قيل بل قد يكون على غير ذلك وهو ان يستخلف
المستخلف غيره امتحانا او تهذيبا له او يستخلفه لقصور المستخلف عليه
عن قبول التاثير من المستخلف لا لعجزه وذلك ظاهر في الاشياء المهيبة
والطبيعية فان السلطان جعل الوزير بينه وبين رعيته اذ هو اقرب
الى قبولهم منه وكذا الواعظ جعل بين العامة والحكماء فان العامة
لا يقبلونه من الحكيم وليس ذلك لعجز الحكيم بل لعجز العامة عن القبول منه
وعلى هذا اللحم والعظم لما تباعد ما بينهما عجز العظم عن قبول الغذاء من اللحم
فجعل الله تعالى بحكمته بينهما الغضاريف التي بينهما ولها مناسبة اليهما
لياخذ ذلك من اللحم ويعطيه العظم وكذلك جعل تعالى الرسل بين الملك
الذي هو من قبله تعالى وبين العباد لفضل قوة اعطاهم لياخذوا
منه الحكمة ويوصلوها الى الناس وبهذا الوجه قال تعالى ولو جعلناه
ملكا لجعلناه رجلا والخليفة يقال للواحد والجمع وههنا هو جمع فان
الخليفة لم يرد به آدم عليه السلام فقط بل اريد هو وصالحو اولاده
فهم خلفاؤه وحزبه لقوله تعالى اولئك حزب الله ونصاره لقوله
وليعلم الله من ينصره ورسله وعباده لقوله وما خلقت الجن والانس

للمستخلف صح

الا ليعبدون وعماره في الارض لقوله واستعمركم فيها والمقصود واحد
بهذه العبارات وان اختلفت بحسب الاعتبارات وقيل سماهم
خليفة لكونهم بعد جان سكنوا الارض فان كل من يولي شيئا بعد اخر
يقال له خليفة على ذلك قوله واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد
قوم نوح وقوله خلفاء من بعد عاد واما السفك والسبك والسفح
والسن والشن والصب فمتقاربة وبينها فروق فالصب اعم هذه
الالفاظ والسفك يقال في الدم والدمع والسبك يقال للجواهر
المذابة والسفح في الصب من اعلى كسفح الجبل وعنه استعير السفاح والشن
للصب عن القربة ونحوها والسن يقاربه لكن استعير السن في اماهة
الحديد وعنه بني المسن والشن استعمل في الغارة وفي لبس الدرع وذلك
لتشبيه الدرع بالماء واجزاء الكتيبة باجزاء السيل واما التسبيح فاصله من السبح
اي سرعة الذهاب في الماء واستعير لمر النجوم في الفلك ولجري الفرس
قال تعالى ان لك في النهار سبحا طويلا اي سعة ذهاب وسبحه كذا
اي نزهه عن وتسبيح الله تنزيهه بالقول والحكم وسبحان مصدر كغفران
وجعل السبحة للتسبيح وسمي الصلوة بها لكونها تسبيحا والخرزات سمي سبحة
ومعنى سبح بحمدك اي نسبحك والحمد لك او نسبحك بان نحمدك والتقديس
التطهير وقوله نقدس لك قيل معناه نطهر انفسنا لك اشارة الى نحو
قوله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وليس ذلك اظهارا للمنة
بل هو على حسب ما تقول مجتهد يحب ان يفوض صاحبه اليه خدمة ما
فيقول استعين بغيري وانا مجد في خدمتك وعلى ذلك قولهم وانا لنحن
الصافون وانا لنحن المسبحون وليس نحو قوله اني جاعل في الارض خليفة على سبيل
الاستشارة فالاستشارة استمداد علم من المستشار والله منزه عن ذلك
وانما هو اعلام كاعلامه ايانا كثيرا من الكائنات لمصلحة ما ان قيل فمن
اين حكمت الملائكة على الانسان بالافساد في الارض وسفك الدماء
وذلك اما علم الغيب او الحكم بالظن والتخمين وهم منزهون عن ذلك

وانا لنحن صح

ادعا صح

قبل قد قيل انهم قاسوهم على من كان يسكن الارض قبل من الجان فافسدوا
فيها وقيل وهو اصح ان الله كان قد اخبرهم بذلك لكن لم يقص علينا
فيما حكى عنهم تنبيها عليه بما ذكر فى الجواب وذلك عادة القران فى كثير من
الاقاصيص المذكورة كقوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام انا انبئكم
بتاويله فارسلون ايها الصديق وقولهم اتجعل فيها ليس بانكار انما هو
استخبار مجرد ليعرفهم ما تسكن نفوسهم اليه ويرشدهم الى ما يزيل شبهتهم وقولهم وليسالوا
عن ذلك الا وقد اذن لهم فى السوال اما جملة وتفصيلا ان قيل كيف دخل
عليهم الشبهة حتى سالوا عن ذلك واستنكروه قيل ان الله تعالى لما خلق الانسان
جسمانيا روحانيا وجعله مركبا من قوى ثلث قوة شهوية وقوة غضبية وقوة
ملكية فبقوته الشهوية يفسد فى الارض وبقوته الغضبية يسفك الدما
متى لم تكونا مهذبتين ويتولى خلافة الله تعالى بقوته الملكية التى هى
العقل وعلى ذلك دل النبى صلى الله عليه السلام بقوله لما خلق الله العقل قال له
اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا
اكرم على منك بك آخذ وبك اعطى فلما سمع الملائكة ان الانسان مركب من
هذا التركيب وراوا القوة التى بها تصلح لخلافة القوة التى خصوا بها ونظروا
الى رذيلة القوتين الاخرتين ولم يعرفوا فضيلتهما استنكروا فراجعوا الله
تعالى وقالوا اما العبادة التى هى التسبيح والتقديس المختصة بالقوة الملكية
فنحن نقيمها فما معنى الانسان المركب تركيبا لا ينفك من فساد وقتل
فقال تعالى فى جوابهم انى اعلم ما لا تعلمون فعرض ولم يصرح ههنا لهم بفضيلة
الانسان وما خصوا به من العلم والعمل اللذين يفضلون الملك عنهما عيانا
ومشاهدة والاجمال فى هذه الاية بقوله اعلم ما لا تعلمون هو المبين المفصح
بما بعده من الاية التى تليها وقوله عز وجل وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم
على الملائكة الى قوله انى اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما
كنتم تكتمون الانبا اخبار فيه اعلام وهو متضمن لهما ولذلك كل انباء
اخبار وليس كل اخبار انبا وكل نبا علما وليس كل علم نبا ولكونه متضمنا

لهما مشتملا عليهما اجرى مجرى كل واحد منهما فقيل انبائه بكذا كقولك
اعلمته كذا ولا يقال نبا الا لكل خبر يقتضى العلم كالمتواتر وخبر الله تعالى
وخبر الانبياء عليهم السلام وما جرى مجراها وسمى النبى لكونه منبئا
بما تسكن نفسه او نفسك ومنبئا بما سكن المؤمنون اليه فهو اصح من ان يكون فعيلا
بمعنى فاعل وبمعنى مفعول اما بمعنى الفاعل فلقوله نبئ عبادى انى انا
الغفور الرحيم وقوله اؤنبئكم بخير من ذلكم واما بمعنى المفعول فلقوله نبانى
العليم الخبير وشرح الاية لابد ان يبين فيه كيف كان تعليم الله آدم
الاسماء وهل فيه دلالة على ان اللغات توقيفى او اوايلها اصطلاح
وانه هل علمه الاسما دون المعانى او علمه اياها جميعا وبما فى ذلك
مما نبه الملائكة على خطائهم فيما توهموه وقالوه حتى رجعوا عن دعويهم
واعتقادهم واذعنوا للاستسلام نقول وبالله التوفيق ان الناس
اختلفوا فى اللغات فذهب بعض المتكلمين الى ان اوايلها اصطلاح
والباقى يصح ان يكون توقيفا واستدل على ذلك بانه لا سبيل الى
معرفة مراد الله تعالى الا بالخطاب ولا يصح ان تعلمه ضرورة لان العلم
بمراده فرع على العلم بذاته فلا يصح ان يكون العلم بمراده ضرورة والعلم
بذاته مكتسبا لان ذلك مؤد الى ان يكون العلم الخفى ضروريا والجلى
مكتسبا وذلك فاسد هذا ما قاله والصحيح ان شا الله ما ذهب اليه الجمهور
انه توقيفى وقبل الدلالة على المسئلة ان تعليم الله عباده على اى وجه
يكون فانه يسهل الكلام فى المسئلة والقول فى ذلك ان شا الله تعالى
قد اشار الى ذلك بقوله تعالى ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من
وراء حجاب او يرسل رسولا الاية فذكر ان مكالمته للبشر على احد هذه الوجوه
الثلثة واشرفها ما كان بارسال رسول يرى ذاته ويسمع خطابه كحال
النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع جبرئيل عليه السلام والثانى ما كان بالقاء
الكلام فى السمع من غير رؤية كحال موسى عليه السلام فى ابتداء امره
والثالث ما كان بوحى والوحى ههنا مخصوص بالالقاء فى الروع والالهام

اخبرته وانبائه كذا كذلك صح

والتسخير والمنامات فتعليم الله تعالى آدم عليه السلام الاسماء على احد هذه الوجوه
ومحال ان يكون الاصطلاح على الالفاظ متقدما على التعليم فان الاصطلاح
لابد فيه من كلام يتواطاون عليه وذلك الى ان لايكون اصطلاح الا بلغة
ولايكون لغة الا باصطلاح فاذاً لايكون اصطلاح ولا لغة فان قيل
فما ينكر ان يتواضعوا باشارات وتصويت فان الاخرس يقدر على ذلك
وله مخارج الحروف لانا نجد الذين لايتكلمون يفهمون ويُفهمون ولا لغة
لهم قيل الاشارات يفهم عنها بالاستدلال كسائر الاستدلالات التي لو
توهمنا الكلام مرتفعاً لصح حصوله وليس للاخرس الا الاستدلال فقط
ولا قدرة له على الالفاظ يؤلفها وانما صوته كصوت الطفل الذي لم يتلقن
الالفاظ واللغة انما يكون لغة بحصول تركيب المفردات الثلث ولو كان
الى ذلك سبيل من غير تعليم لكان من شرط البكم ان يتواضعوا فيما بينهم
كلاماً لان آفة البكم من السمع وانما عجز عن الكلام لعجزه عن التلقن
بالسمع فثبت ان ابتداء تعليم الكلام لايكون الا من معلم وذلك قد كان
من الله تعالى لآدم باحد هذه الوجوه المتقدمة ان قيل كيف علمه الاسماء
كلها وقد علمنا انه ما من زمن الا وبنوه يضعون اسامي لمعاني واعيان
اما مخترعة واما منقولاً اليها عن غيرها قيل قد قال بعض الناس
ان كل ذلك بجزئياتها علمها الله تعالى آدم عليه السلام وان ظهر في بعض
الازمنة من بعض اهلها والصحيح ان العلم في الحقيقة يتعلق بمعرفة
الاصول المشتملة على الفروع والمعاني الكلية المنطوية على الاجزاء كمعرفة
جوهر الانسان والفرس والقوانين التي يعرف بها حقيقة الشئ مثل
اصول الضرب في الحساب واحوال الابعاد والمقادير في الهندسة والاصول
المبني عليها المسائل الكثيرة في الفقه والكلام والنحو واما معرفة الجزئيات
متعرية عن الاصول فليس بعلم ولا يقال للعارف بها عالم على الاطلاق
وانما هي في معرفتها محاكي محاكاة الببغا للالفاظ واذا كان كذلك فتعليم
الله تعالى الاسما كلها اعلامه القوانين والاصول المشتملة على الجزئيات

يؤدي

والفروع وقد علم ان تعليم الكليات اعظم في الاعجوبة واشبه بالامور
الالهية من تعليمها الصبي الحرف بعد الحرف وقوله الاسما كلها اراد بها الالفاظ
والمعاني مفرداتها ومركباتها وحقايقها وذوات الاشيا في انفسها وبيان
ذلك ان الاسم يستعمل على ضربين احدهما بحسب الوضع الاصطلاحي
وذلك هو للمخبر عنه نحو رجل وفرس والثاني بحسب الوضع الاول
وذلك يقال للانواع الثلث التي هي المخبر عنه والخبر والرابط بينهما
وهي المعبر عنها بالاسم والفعل والحرف وهذا هو المراد ههنا فانه تعالى
لم يرد بقوله وعلم آدم الاسماء كلها تعليمه رجل وفرس دون ذهب وخرج
ومن وعلى ولا يعرف الانسان الاسم فيكون عارفاً بمسماه اذا عرض عليه
الا ان يعرف المسمى الا ترى انا لو علمناه اسامي بالهندية او لغة نجهلها ولم نعرف
صورة ما له تلك الاسما لم نعرفها اذا شاهدناها وكنا عالمين باصوات
مجردة فثبت ان معرفة الاسم لا يحصل الا بمعرفة المسمى في نفسه وحصول صورته
في الضمير ثم المعلومات قد يكون جواهر واعراضاً من كميات وكيفيات واضافات
وسائر ذلك من الاعراض ويجعل للشئ الواحد اسامي بحسب هذه النظر ان فلابد
ان يكون عارفاً بالاسماء التي يجعل ذلك لها بحسبها مثال ذلك انه يقال للشخص
الواحد فلان اعتباراً بلقبه ورجل اعتباراً بالاله المولدة وابن اعتباراً
بوالده واب اعتباراً بولده واخ اعتباراً بمن ضمه واياه نسب وقريشي ومكي
اعتباراً بقبيلته وبلده الى غير ذلك من الاسماء التي يكثر تعدادها فاذاً حقيقة
قوله وعلم آدم الاسماء كلها متضمنه لما ذكرناه ان قيل فاي شئ في تعليم
آدم الاسما من تنبيه الملائكة على ما سألوا عنه قيل ان الله تعالى لما خلق
الانسان من امشاج مختلفة وقوى متباينة وجعله جسمانياً وروحانياً
وحصل له بحسب القوى المختلفة معارف مختلفة واحوال متفاوتة فان له
بحسب الحواس الخمس معارفاً خمساً وبحسب العقل معارف معقولة وبحسب الوهم
والخيال معارف موهومة متخيلة وحصل له بحسب التراكيب البدنية وبسايطها
افعال متباينة وهي متفاوتة كالنجارة والصياغة وسائر الصناعات

الا ان عارفا بهذه المعاني مجتمعة ومفترقة حتى يكون

وجل ذلك معدوم فى الملك لعدم كثافة الجسم المركب من الامشاج ولاستغنائها
عن ذلك فبين الله تعالى بتعليمه آدم عليه السلام هذه الاسما كلها والمعانى وعرضها
على الملائكة وانبا آدم عليه السلام بها وبحقايقها ومعرفة تعاطى الصناعات
المختصة بالانسان عجز الملائكة وان الانسان مستصلح لعلوم واعمال ليس للملك
سبيل اليها بوجه فان المحسوس لابد ركه محسوساً الا ذو الحاسة والمهن
لابتعاطاها الا من ركب تركيب الانسان من القوى المتفاوتة التى منها القوتان
اللتان كانوا يرونهما مفسدتين اعنى الشهوية والغضبية ونبههم ان ذلك و
ان كان فيه مفسدة ما ففيها مصالح كثيرة وان الخلافة التى رشح لها الانسان
فى الارض لا يصلح لها الا هذا التركيب ثم قال لهم الم اقل لكم انى اعلم غيب السموات
والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ان قيل ما وجه قوله انى اعلم
غيب السموات والارض وهل كان لهم فى ذلك تشكك حتى احتاجوا
الى ان يقال لهم ذلك قيل ليس مخرج هذا الكلام على الوجه الذى توهمته
بل هو تنبيه لهم بما علموه مجملا على ما اشتبه عليهم مفصلا وتقديره
كانه قيل انى اعلم غيب السموات والارض ومن علم غيب السموات والارض
علم ما تبدون وما تكتمون ومن علم ذلك علم ما لا تعلمون ان قيل فما
الفضائل التى خص الانسان بها واستصلح لها مما لم يكن للملائكة
قيل له هو تعاطى العفة المختصة بالقوة الشهوية والنجدة المختصة بالقوة
الغضبية فى المعاملات وسياسة الانسان نفسه ومجاهدة هواه وسياسة
ذويه وابنا جنسه فان ذلك فضائل ليست الا للانسان المختص بقوتيه
الشهوية والغضبية فاما الملك المعرى عن مقاسات غاذية بطنه وفرجه فليس
يحتاج الى سياسة نفسه وسياسة ابناء جنسه فى مراعاة ذلك منهم ان
قيل ما وجه قوله انبئونى باسماء هؤلاء وذلك تكليف لهم ما لا تعلمون وتكليف
ايراد ما لا يعلم تكليف ما لا يطاق وما وجه قوله ان كنتم صادقين والصدق
انما يتعلق بالخبر وهم انما استخبروا ولم يخبروا فكيف يصدقون او يكذبون قيل
اما قوله انبئونى فليس بتكليف وانما هو تنبيه على عجزهم عن الخلافة التى

والانصاف صح

رشح

رشح الانسان لها وقد علم ان لفظة افعل يجئ على اوجه منها التبكيت ٦٠
والتعجيز وقوله ان كنتم صادقين فالصدق وان كان لا يدخل الاستخبار
والامر والنهى بالقصد الاول ومن حيث مقتضى اللفظ فقد يدخلها
بالقصد الثانى ومن حيث المعانى فان السائل اذا قال مستفهما ازيد فى الدار
او قال اعطنى كذا فانه بالاول ينبه على جهله بكون زيد فى الدار وبالثانى
على حاجة وافتقار فمن هذا الوجه يصح ان يقال هو صادق او كاذب
على ان هذا حكم على قولهم من يفسد فيها ويسفك الدماء فانهم استفهموا
بقولهم اتجعل فيها وحكموا بان الخليفة تفسد وتسفك الدماء ويصح ان يكون
ذلك راجعاً الى قوله ونحن نسبح بحمدك تنبيهاً لهم على انه ليس كل تسبيح وتقديس
يتولونه بل من التسبيحات والتقديسات ما يصلح له غيركم وهو ما تقدم ذكره
ان قيل ما وجه قوله سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا وهو عالم بما علمهم
وعالم بان لا علم لهم قيل القصد بذلك اظهار ان ليس سؤالهم على وجه
الاعتراض بل على سبيل الاستفادة واظهار العجز وانه قد بدا لهم ما كان
خفى عليهم من فضيلة الانسان واظهار الشكر نعمته وعظيم منته بما عرفهم
وفيه تنبيه على استعمال الادب عند سؤال العلم بتفويض علمه اليه وتنبيه على
اعظم التواضع فقد قيل لبعض الحكما ما اعظم التواضع فقال الاعتراف
بالجهل للعالم وفيه تنبيه على العلم بما جهلوه وذلك احدى فضيلتى الانسان
وقال بعضهم الا فتخار درجة للسقوط انظر كيف اضطر الله الملائكة لما قالوا
نحن نسبح بحمدك الى ان اعترفوا بعدم العلم فمن استكثر لله طاعة واستكبر له
عبادة فالجهل موطنه واستدل بعضهم بهذه الاية على ان العلم افضل من
العبادة فان الملائكة اذعنوا لادم لما افيد من العلم والحكيم اصله لمن له الفعل
المحكم لكن لما لم يصح حصول الفعل المحكم الا بالعلم المتقن صارت الحكمة متناوله
للعلم والعمل معا فالحكمة منتهى العلم والعلم مبدا الحكمة ولا يتم احدهما الا بالاخر
فلهذا جمع بينهما وقدم العليم هاهنا على الحكيم فقال انك انت العليم الحكيم قوله

الا ما علمتهم صح

عز وجل واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر
وكان من الكافرين الخضوع والخشوع والخنوع والسجود والركوع تتقارب
وبينهما فروق فالخضوع ضراعة بالقلب والخشوع بالجوارح ولذلك قيل اذا
تواضع القلب خشعت الجوارح وقال تعالى الذين هم فى صلوتهم خاشعون
وقال وخشعت الاصوات للرحمن والخنوع ضراعة لمن دونه طمعا لعرض
فى يده ولذلك اكثر ما يجئ فى الذم والركوع تذلل مع التطاطؤ والسجود
مع خفض الراس وسجود الملائكة ان اريد به المتعارف بالشرع فليس بعبادة
لآدم عليه السلام فعبادة غير الله تعالى لا يجوز بوجه وان كان على
حسب المتعارف للخدمة فقد قيل ان ذلك كان مباحا قبل شرعنا وعلى
ذلك ما قيل فى قصة يوسف عليه السلام وخروا له سجدا وقد قيل اريد به
التذلل كقوله تعالى ولله يسجد من فى السموات والارض وقول الشاعر
ترى الاكم فيه سجدا للحوافر وابليس لفظة اعجمية فلا يصح ان يكون مشتقه
من العربية وقول ابن عباس رضى الله عنهما ابليس ابلس من رحمة الله فقصد
ذكر الحكم لا الى معنى اللفظ ويصح ان يكون ابليس مشتقا منه بعد الانتقال
الى العربية وعلى ذلك كثير من الاعلام اعجميا كان او عربيا يتصورون منه
معنى ما فيعتبرونه ويشتقون منه نحو قولهم تفرعن فلان اذا فعل فعل فرعون فى
العتو وتشيطن فعل فعل الشيطان وتمرد فعل فعل المردة فعلى هذا تصوروا
من ابليس يأسه من رحمة الله فاشتقوا منه فقالوا ابلس فلان اى اجرى
مجرى ابليس فى يأسه من الرحمة وابعاده من الخير وقوله فاذا هم مبلسون
اى مأيسون من الخير يأس ابليس منه وايضا قد يتطابق لغة العرب والعجم
فى لفظة نحو ايوب واسحق فانهما قد يكونان فيعولا وافعالا من اب وسحق
ويكونان اعجميين وادم عليه السلام قيل سمى بذلك لكونه مخلوقا من اديم
الارض على ما روى ان الله تعالى قبض قبضة من جميع الارض سهلها
وجبلها فخلق منها ادم عليه السلام فلذلك يأتى بنوه اخيافا وقال

قطرب لا يكون من اديم الارض لانه لو كان كذلك لانصرف نحو طابع وخاتم
وليس كما قال فان ادم افعل منه واصله اأدم فقلبت الهمزة الفا وقيل
هو افعل من الادمة اى اختلاط البياض والسواد وادمت بين الشيئين
اى خلطت ومنه الادم وطعام مادوم مخلوط وسمى بذلك لانه من
الاركان الاربعة ومن الامزجة المتفاوتة والقوى المتباينة والاباء
الامتناع من الشئ مع الارادة فكل اباء امتناع وليس كل امتناع اباء
قال تعالى ويأبى الله الا ان يتم نوره وقيل ابيت العين وهى ابواء اذا تسلط
عليها داء فصارت مانعة لها من الشرب والتكبر ان يرى الانسان نفسه
اكبر من غيره فضلا والاستكبار طلب ذلك بالتشبع والكبر والعسه والبغى
والزهو والاستطالة والخيلاء والصلف يتقارب وبينهما فرق فما يستحقه
والزهو سرعة الحكم لنفسه بالفضل من زهاه كذى اذا استخفه والاستطالة
اظهار طول اى فضل على الغير من قولهم صلف اذا اشتكى صليفه واعتبارا
بهذا المعنى قال الشاعر ان الكريم من تلفت حوله وان اللئيم دائم الطرف اقود
واختلف فى ابليس هل كان من الملائكة فقال قوم كان منهم بدلالة استثنائه
من الملائكة المأمورين للسجود لآدم وقال قوم لم يكن منهم اعتبارا
بقوله تعالى الا ابليس كان من الجن وروى عن ابن عباس رضى الله
عنهما ان الملائكة على ثلثة اضرب على ما تقدم آنفا وضرب منهم يقال لهم
الجن ومنهم ابليس ولهم توالد ولهذا قال افتتخذونه وذريته اولياء من دونى
وقيل ان الجن كانوا مامورين مع الملائكة بالسجود له لكن لم يحتج الى ذكرهم
فالسلطان اذا امر اماثل رعيته بالخضوع لانسان فمعلوم ان اصاغرهم
مامورون بذلك الا ترى ان قوله تعالى لموسى اذهب الى فرعون انه طغى
معلوم انه لم يبعثه اليه وحده وبعض الناس اعتبر لفظ كان وروى ان
ابليس كان من الجن الذين سكنوا الارض قبل ادم وحاربهم الملائكة
وسبوا ابليس فصار بالحكم من الملائكة فولى القوم منهم وبالنسبة من الجن
فصار يصدق عليه القولان ويجوز ان يكون عنى انه كان من الجن فعلا

فالتيه التحير فى معرفة قدر النفس
والبغى طلب منزلة فوق ح
والخيلاء ظن بالنفس كاذب من قولهم
خلت والصلف قلة التلفت الى الغير ح

مطلب فى الملائكة
والجن

ومن الملائكة نوعاً وباعتبار الفعل قال تعالى كان من الكافرين ان قيل كيف
يصح ان يكون من الملائكة نوعاً والله قد وصفهم بانهم لا يعصون الله
ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون قيل ان ذلك في وصف خزنة جهنم وليس
كون بعضهم على هذه الصفة مقتضياً ان يكون كلهم كذلك وكان من الجن
قيل معناه صار ههنا وليس ذلك بشيء فان كان استعمل ههنا على احد
وجهين اما لاعتبار العصيان بوقت الاخبار ويكون بالاضافة اليه
ماضياً فيجب ان يقال كان واما انه قال كان من الكافرين تنبيهاً ان
ما تقدم من طاعته غير معتد به وان حكمه من قبل حكم الكافرين لان
شرط الطاعة ان لا تحبط من حكم الايمان ان تمتد ويتصل ان قيل كيف امر الملائكة
بالسجود لآدم ومنزلتهم فوق منزلته بدلالة ان ابليس منّاه ان يكون اياهم
بقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين وبعيد ان يؤمر
الفاضل بالتخضع للمفضول قيل الخضوع لآدم كان خضوعاً لله تعالى من اجل
الايتمار له فيما امرهم به وظاهر في العادات ان التذلل لخادم كبير خضوع لذلك
الكبير لا له وايضاً فان الانسان في باب الفضائل التي ذكرنا انفاً افضل من
الملك وان كان الملك افضل منه من وجوه اخر والشيئان قد يكون كل واحد
منهما افضل من الاخر من وجه ووجه وانما منكر ان يفضل كل واحد
منهما الاخر من وجه واحد وفي الآية تنبيه على وجوب الايتمار لله في الخلق
والامر ومجانبة عصيانه وارتكاب التكبر والحسد وانهما قد يفضيان
براكبهما الى الكفر كما روي في الخبر ان اول ما عصي به الله في السماء والارض
الكبر والحسد وحث على ترك الدخول في سره والاعتراض على حكمه قوله عز وجل
وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما
ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ان قيل ما الفرق بين ان يقال
افعل انت وقومك كذا وبين ان يقال افعلوا كذا قيل الاول تنبيه ان المقصود
هو المخاطب وغيره تبع له وانه لولاه لما كانوا مأمورين بذلك وعلى نحوه
قال فمن ربكما يا موسى وليس كذلك اذا قال افعلوا وقال بعضهم انما قال اسكن

فاستعمل

فاستعمل السكنى تنبيهاً انه بعرض النقل ولا يجب ان يركن اليها ان قيل
ما الفرق بين الارادة والمشيئة قيل الارادة قد يكون بحسب القوة التسخيرية
والفكرية والحسية ولذلك يستعمل في الجماد نحو جداراً يريد ان ينقض وفي
الحيوان وفي العقلاء والمشيئة لا يكون الا مع اختيار ولذلك لا يقال
الا للعالم والمفكر وقوله ولا تقربا فالقصد بالنهي عن قرب الشيء تاكيداً
للحظر والمبالغة في النهي وذلك لان القرب من الشيء مقتض للالفة
والالفة داعية للمحبة ومحبة الشيء كما قيل حبك الشيء يعمي ويصم والعمي
عن القبيح والصم عن النهي عنه الموقعان فيه والسبب الداعي الى الشر منهي عنه
كما ان السبب الموصل الى الخير مامور به وعلى ذلك قال عليه السلام العينان
تزنيان لما كان النظر داعياً الى الالفة والالفة الى المحبة وذلك مقتض
لارتكابه فصار النظر مبدأ للزنا وعلى هذا قال ولا تقربوا الزنا ولا تقربوا مال
اليتيم الا بالتي هي احسن ولا تقربوا الصلوة وانتم سكارى وعلى هذا قال في
الخمر فاجتنبوه وبهذا النظر قال عليه السلام الحلال بيّن والحرام بيّن
وبين ذلك امور مشتبهة وسأضرب لكم مثلاً ان لله حمى وان حمى الله
محارمه ومن رتع حول الحمى اوشك ان يقع فيه والشجرة قيل كانت
الحنطة وقيل الكرم وقيل التين وقوله فتكونا الاظهر انه جواب للنهي
وقد قيل يصح ان يكون عطفاً لانك تقول لا تخف والدك فتعص
ربك كما تقول تعصي ربك والظلم في الحقيقة الاخلال بما يقتضيه داعيا
الله العقل والشرع وهو الخروج عن الحظر ولهذا قيل هو وضع الشيء في غير
موضعه وقد تقدم ان الظلم ضربان ظلم النفس وظلم الغير وظلم الغير
لا ينفك من ظلم النفس وظلم النفس قد ينفك من ظلم الغير ولاجل
ان الظلم خروج عن الحق وان الحق يجري مجرى النقطة من الدائرة ومجرى
القرطاس من الهدف صار من تعداه يصح ان يقال هو ظالم وان كان
بين الظالم والظالم بون ولذلك قد يطلق الظالم على المرتكب صغيرة وعلى
المرتكب كبيرة ان قيل كيف جاز ان ينهى عن الشجرة ثم يتناولها وقد انكر

ان يرتكب الانبياء الكباير وقد اجيب عن ذلك بان ادم عليه السلام اشير له
الى شجرة فقيل له لا تقربا هذه الشجرة واريد به الجنس لا العين نحو ما
روى ان النبى عليه السلام خرج وفى احدى يديه ذهب وفى الاخرى
حرير فقال هذان حرام على ذكور امتى حل لاناثها ولم يرد به العين وانما
اراد به الجنس فحمل ادم متاولا الاشارة الى العين دون الجنس فوقع
عليه السهو من هذا الوجه وقيل انه حمل النهى على التنزيه دون الحتم ونسى
الوعيد المقرون به ولذلك قال ولقد عهدنا الى ادم من قبل فنسى اى
نسى الوعيد واختلف فى الجنة التى اسكنها ادم عليه السلام فقال بعض
المتكلمين كان بستانا جعله الله تعالى له امتحانا ولم يكن جنة الماوى فان تلك
لم يخلق بعد اذ هى للخلود وقد ثبت ان الله تعالى نفى الاشيا كلها حتى لا يبقى
الا وجهه ولو كانت مخلوقة الآن لم يصح ان يخص بهذه الصفة وقال
اكثر الناس كانت جنة الماوى وتسميتها بجنة الخلد اعتبارا بما يؤول امره بعد
ان يدخلها المثابون والشئ الواحد قد يسمى باسماء كثيرة اعتبارا بمعانى
متفاوتة الا ترى ما حكى عن الحسن انه قال خلقنا للابد ولكنا ننتقل من دار
الى دار وذلك اعتبار بحال الاعادة ومن قال لم يكن تلك الجنة الخلد
لانه لا تكليف فى الجنة وادم عليه السلام كان مكلفا فقد قيل فى جوابه
انما لا يكون دار التكليف فى الاخرة ولا يمتنع ان يكون فى وقت دار تكليف
ولا يكون فى وقت كذلك كما ان الانسان يكون مكلفا فى وقت دون وقت
وقال بعض الناس ان الله تعالى لما خلق الانسان لاستخلافه فى ارضه
واستعماره فيها كما قال ويستخلفكم فى الارض وقال واستعمركم فيها واراد
ان يوصله بذلك الى جنة الماوى وعلم بسابق علمه انه لسوء تدبيره قد
يختار العاجل الخسيس على الاجل النفيس كما وصفه بقوله تعالى خلق الانسان
عجولا وانه قد يتبع هواه كما قال واتبعوا اهواءهم وعلم ما يكون منه ادخله
الجنة ليعرف النعيم الذى اعد له عيانا فيكون اليه اشوق وينذوق طعم
المخالفة فيكون منها افرق فمعلوم من حال الانسان ان المحنة تهذبه والا شتياق

الى

الى ما عاينه من الخيرات ترغيبه فصار ما جرى على ادم من تمام نعمه عليه
والله اعلم بوجوه المصالح وفى الاية حث على قبول قول من هو اعلم منك وتحرى نصحك
ومصلحتك وان الانسان اذا حفظ فى دنياه قواه المتصلة به من قواه الشهوية
والغضبية وقواه المنفصلة عنه من اهله وولده وساس نفسه ومن يعنيه
ووعى من الله اوامره وتجنب زواجره كان فى الجنة عاجلا واجلا والا صار
معاونه عليه ومنافعه راجعة بالمضرة اليه كما قال فلا تعجبك اموالهم
ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيوة الدنيا وقوله عز وجل فازلهما
الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو
ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين زل وزال يتقاربان الا ان زل
يقتضى عثرة مع الزوال يقال زلت رجله فى المشى ولسانه بالقول وسمى الاسد
ازلالا اعتبارا من الفاعل استقلالا له حتى يعده عثرة وقول النبى عليه السلام
من ازلت اليه نعمة فليشكرها اى من اسدى اليه نعمة وان كانت طفيفة وازلال
ابليس لادم عليه السلام قوله له هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقوله
ما نهيكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين ومقاسمته
اياهما بقوله انى لكما لمن الناصحين فمن الناس من حمل هذه الاحوال على مفاوضة
ومجاراة بالمشاهدة وقيل ان ذلك كان بوسوسته كما قال فوسوس لهما
الشيطان ليبدى لهما ما ورى وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان
ابليس عرض نفسه على دواب الارض ان تحمله فتدخله الجنة ليكلم ادم
وزوجته فابت عليه الدواب كلها حتى كلم الحية وقال امنعك من بنى ادم
ان انت ادخلتنى الجنة فجعلته بين نابين من انيابها فادخلته الجنة وكلمهما
من فيها قال فلذلك امر الانسان بقتلها اينما وجدها فان بعض الناس حمل
ذلك على سبيل المثل وقال هذا اشارة فقوله عرض نفسه على دواب
الارض اى استعان بقوى الانسان ونظر من اى جهة يمكنه ان يليه
فلم يجد قوة مستصلحة يستعين بها حتى اتى الحية اى الشهوة وكنى بالحية
عنها فانها حية لا يبرا سليمها وذلك ان الشيطان لا يأتى الانسان

يقال لمن سعة الحية والعقرب سليم تفاؤلا بالسلامة من المفازة لمحل المخطرة والهلاك ٢٢

الامن قبل هواه نجعلته بين نابيها كناية عن الاكل اذ هو اعظم شهوة
يتمكن الشيطان به من الانسان ولهذا قيل في الخبر من حفظ بطنه
فقد سد على الشيطان ولكون الهوى اعظم سلاح للشيطان صار
لا فرق بين قوله تعالى ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقوله
لا تتبعوا الشيطان في ان المقصد واحد في كونهما نهيا عن ارتكاب
العصيان وقوله فلذلك امر الانسان بقتلها اي امران يقهر الشهوة
ويذللها حيث ما تراآت له وطالبته بما ينافيه الايمان وهذا الذي ذكره هذا
القائل وان كان صحيحا من حيث المعنى ففي صرف الخبر اليه ترك للظاهر
وفتح باب من التاويلات منكر والله اعلم بحقايق ما يخبرنا به عن الغيوب
وقوله اهبطوا فالهبوط ضد الصعود وليس يراد به الانحدار عن دفعة
مكانية فقط بل يراد به مع ذلك سقوط المنزلة فقد كثر في كلامهم استعمال
الرفعة والضعة في المراتب حتى قيل شريف ووضيع على طريق الاستعارة
وعلى ذلك قول الشاعر • بلغنا السما باحسابنا وقال وصاعد في هضاب
المجد يطلعها واما المعاداة ففقدان الملايمة والموافقة ومنه قيل مكان ذو عداوا
والتعدي والعدوان والاعتدا والعدوى منه وقوم عدى للاعدا او الغربا
لما بينهم من فقدان الملايمة وقول بعضهم لبعض عدو وليس يريد به المهارشة
فقط وانما يعني فقدان الالتيام اما بين الانسان والشيطان فظاهر
وبين الرجل والمراة كثير في الخلق حتى ان عامة ما هو يحمد من اخلاق الرجال
يذم من المراة ثم بين قوى الانسان في نفسه تفاوت فحذرنا الله تعالى الذي
خلقنا منها لنسعى للاحتراز مما ينافينا في بلوغ السعادة ونسوس منها ما يمكن
سياسته وندفع منها ما يجب مدافعته والمستقر المكان الذي يحصل فيه
القرار والقرار هو السكون كما ان من شان الحرارة الحركة قيل في الساكن برد
وفي المتحرك اشتعل والتهب وحتى يشبه السريع بنار متقدة والساكن
بماء جامد وقوله لكم فيها مستقر كقوله امن جعل الارض قرارا وقوله
جعل لكم الارض فراشا وقيل معنى المستقر القبور والاية محمولة عليها

يا يه ومن شبع ونام قلبه تمكن منه الشيطان صح

عن برودة ولما كان من شان البرودة السكون صح

فقد

فقد قال الم نجعل الارض كفاتا احياء وامواتا والمتاع انتفاع ممتد الوقت
ومنه قيل متعه الله بكذا ومنه متعة الحج ومتعة المطلقة ومتاع البيت ومن
قال عني به الحيوة فلانه عمد الى اشرف نوع من المتاع فخصه به والحين وقت
بلوغ الشيء ويختص بالمضاف اليه ولما كان احيان الاشيا مختلف نظر بعض
المفسرين الى المضاف اليه لفظ الحين ففسره به فقال تجيء على اوجه فالحين للاجل
لقوله ومتعناهم الى حين والسنة لقوله توتي اكلها كل حين والساعة لقوله
حين تمسون وحين تصبحون والزمان لقوله هل اتى على الانسان حين من الدهر
لم يكن شيا مذكورا واختلاف ذلك باختلاف المضاف اليه وفي الاية تحذير
من الشيطان كما قال يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة
والتحذير من كل غرور ومن الركون الى الدنيا والتشبيه على انها دار مم وان الاخرة
دار مقر وبالله التوفيق وقوله عز وجل فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه
انه هو التواب الرحيم التلقي كالتلقن الا ان التلقي يقتضي استقبال الكلام وتصوره
والتلقن يقتضي الحذق في تناوله والتلقف يقاربه لكن يقتضي الاحتيال
في التناول والكلم التاثير المدرك باحدى الحاستين السمع والبصر فالكلام مدرك
بحاسة السمع فكلمته جرحته جراحة بان اثرهما ولاجتماعهما في ذلك قال
الشاعر والكلم الاصيل كارغب الكلم • وقال وجرح اللسان كجرح اليد والكلمات
التي تلقاها آدم من ربه قيل هي قوله قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم
تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقال الحسن هو قوله الم تخلقني
بيدك الم تسكني جنتك الم تسجد لي ملائكتك الم تسبق رحمتك
غضبك فقال تعالى له بلى قال ارايت ان تبت تبت علي واعدتني الجنة
قال نعم فهذا معنى قوله فتلقى آدم من ربه كلمات وقيل انه قال تعالى له من اذنب
ذنبا ثم تاب قبلت منه وهذا يقارب الاول وقيل انها قبول الامانة المعروضة
على السموات والارض المذكور في قوله انا عرضنا الامانة على السموات
والارض والجبال فابين ان يحملنها الاية وقيل حروف التهجي وما تركب
منها من الاسماء التي كانت في علمها وما انتتج منها من العلوم الحقيقية

والاعمال الفاضلة فان اصل الايمان العلوم الصادقة والاعمال
الصالحة فمن الحروف يتركب مفردات الالفاظ نحو زيد عمرو ذهب
خرج من عن ومن المفردات يتركب المقدمات المفردة نحو زيد خارج وعمرو
ذاهب ومن المقدمات يتركب الادلة والاخبار المؤلفة ومن الادلة
والاخبار الصادقة يتوصل الى حقايق العلوم يتوصل الى الاعمال الصالحة
وبمجموعها يحصل الايمان الذى بتحققه يصير الانسان تام التوبة متطهر من
النقيصة محبوبا لرب العزة كما قال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين
والمتحقق بذلك لا محالة يتوب الله عليه وقيل ان هذه الكلمات هى المذكورة
فى قصة ابراهيم عليه السلام قال تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن
وهى خصال مذكورة فى ثلثة مواضع من القران احدها فى سورة التوبة التائبون
العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف
والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين والثانى
فى قوله تعالى قد افلح المؤمنون الايات الى قوله اولئك هم الوارثون الذين يرثون
الفردوس هم فيها خالدون والثالث فى سورة سأل سائل وهو قوله
الا المصلين الذينهم على صلوتهم دائمون الى قوله اولئك فى جنات مكرمون
فهذه الخصال الثلث فرق بين العلماء والحكماء والكبراء المعنيين بقول النبى صلى الله
عليه وسلم سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء ولكل فرقة مقامات
معدودة يترتب بعضها على بعض وهذه مسئلة كثيرة قد احكمتها فى كتاب
شرف التصوف وبينت تخصيص كل مقام وهذا القول والذى تقدمه يتقاربان
عند الحقيقة غير ان الاول نظر الى المبدأ والثانى الى الغاية وذلك مذكور
هناك والتوبة ترك الذنب على احمد الوجوه وهو ضرب من الاعتذار
فان الاعتذار على ثلثة اوجه اما ان يقول المعتذر لم افعل كذا او يقول
فعلت لاجل كذا او يقول فعلت واسات وقد اقلعت ولا رابع لذلك
وهذا الاخير هو التوبة فاذا التوبة ضرب من الاعتذار والتوبة والانابة
والاوبة والاستغفار متقاربة وبحسب ما اختلفت فيها الاعتبارات

وبحقايق العلوم صح

مطلب

اختلفت

اختلفت عليها العبارات فالانابة الرجوع عن طريق الضلال الى الهدى والاوبة
رجوع القلب الى الحق والوقوف عليه والاستغفار طلب الغفران قولا وفعلا
اى تعاطى ما يغفر ما تقدم من الذنب والتوبة التامة المعتد بها ترك الذنب
والندم عليه والعزم على ان لا يعود اليه وتدارك ما تقدم وهو رد المظالم
مظلمة الخلق ومظلمة الخالق وهى اعادة المتروك من العبادات واذابة ما
استفاد جسمه من الشبهات الا ترى الى قوله عليه السلام لحم نبت من سحت
النار اولى به والتواب يقال فى العبد وفى الرب فالعبد تائب الى الله عز وجل
والله تائب على عبده وقوله وهو التواب الرحيم جمع بين الصفتين
تنبيها على انه مع ترك ذنبه عليه لا تخليه من الاحسان اليه ولم يقل
تاب عليهما لما تقدم انه جعلها تابعة له لا مقصودة فى نفسها وفى
الاية تنبيه انا متى تلقينا منه ما انعم به علينا من العلوم واستعملناه
واعترفنا بذنبنا وطلبنا منه التجاوز عنه ونحن فى مهلة من الحيوة
تاب علينا واحسن الينا وقوله عز وجل قلنا اهبطوا منها جميعا فاما
ياتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون
والمجئ والاقبال والاتيان متقاربة غير ان المجئ عام والاقبال مجئ من ناحية
القبل والاتيان مجئ عن بعد ومنه الاتى للغريب والسيل الجائى من
بعيد واتيته اعطيته منقول عن اتيته او اتوته وهما لغتان والاتباع
والاتلاء والاحتذاء والاقتداء تتقارب فالاتباع مجئ بعد اخر بلا فاصل بينهما
من جنسهما والاحتذاء منقول من حذو النعل بالنعل والاقتداء اتباع
على قدر اى على قدر المتبع بلا تجاوز ولا تاخر والاتباع عام فى كل ذلك
ومنه قيل فى الرعية اتباع وسمى العجل التابع لامه تبيعا والخوف والفزع
والحذر والرهبة والهيبة والخشية والوجل والشفقة تتقارب
فالخوف توقع مكروه عن امارة وذلك للمذنب ولهذا قال امير المؤمنين
رضى الله عنه لا تخافن امرؤ الا ذنبه ولا يرجون الا ربه والفزع
اضطراب عن وهم كمن يسمع هدة فاضطرب والحذر خوف مع احتراز

والرهبة خوف مع اضطراب واحتراز والهيبة رهبة مع استشعار
تعظيم والشفقة خوف مع محبة ولذلك قيل الخوف والحذر للمذنب
والرهبة للعابد والخشية للعالم والهيبة للعارف والحزن خشونة تعترى
النفس مشتق من حزونة الارض ولذلك يقال حشنت بصدره وقيل الحزن
والغضب من جنس واحد وقد تقدم الكلام فيه والفائدة على تكرير قوله
اهبطوا لتكرير الشرط المقرون به فان الاول قرن بحال العداوة الثانية
بينهم وسكونهم فى الارض الى مدة متناهية والثانى بيّن به انهم وان
اشتركوا فى الهبوط فهم متباينون فى الحكم فان من تبع هدايته فهو على سبيل
الخلاص ان قيل لم لم يقل فمن تبعه فيستغنى بالضمير عن التكرير فقد استقبح
فى باب البلاغة تكريرا للفظة الواحدة فى الجملة الواحدة حتى استرذل
قول الشاعر • لا ارى الموت يسبق الموت شئ • نغص الموت ذا الغنا والفقيرا •
واستقبح قول الاخر • بجهل كجهل السيف والسيف منتضى • وحلم كحلم السيف والسيف مغمد •
قيل ان ذلك يستقبح اذا لم يحصل فى الثانى معنى غير المعنى الاول كالبيت
والاية بخلاف ذلك فان الهدى من الله ضربان ضرب بالعقل وضرب بقول
الرسل واراد تعالى بقوله فاما يأتينكم منى هدى ما يأتى على السنة الرسل
عليهم السلام وبقوله هدى اما على السنتهم وما كان من جهة العقل
فنبه ان من اتاه رسول ووعاه مع رعاية لمقتضى العقل فهم الاولياء
الذين لا خوف عليهم ولا حزن ان قيل كيف نفى الخوف عن الاولياء
فى مواضع نحو قوله الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
ومدحهم بذلك فى مواضع نحو قوله تعالى يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب
وقوله يرجون رحمته ويخافون عذابه قيل اما نفى الخوف والحزن عنهم
فقد قيل لفظه الخبر ومعناه النهى كقوله لا تخافوا ولا تحزنوا وقيل
هو خبر لكن مدحهم بها فى الدنيا وحثهم عليها وامنهم منها فى الاخرة
كما روى من خاف الله فى الدنيا امنه الله فى الاخرة وعلى ذلك حكى
عنهم بقوله وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن وايضا فان الخوف

الذى

الذى مدح به المؤمنون وحثوا عليه ليس يراد به استشعار الرعب
المترقب مضرته وانما يراد به فعل الخيرات المامور بها المذكور فى قوله
يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون والكف عن المعاصى ونهى
النفس عن الهوى المذكور فى قوله واما من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى فان الجنة هى المأوى والخوف والحزن المنفيان عنهم استشعار
الغم الذى يكون من ذوى العدوان ولذلك روى لا يرجون امرؤ الا ربه
ولا يخافن الا ذنبه وايضا فالحزن انما يكون لفوت محبوب والخوف يكون
لفقد مطلوب والمتبع لهدى الله هو المؤمن الذى لا يقتنى لنفسه فضولات
الاعراض وما اقتناه لضرورة علم انه يعرض الاعراض وانها عارية مستردة
فلا يحزن على استردادها ولا يطلب المستغنى عنه وما طلبه بعد وجوبه عليه طلبه
عالما ان الله لا يبسط لاحد دنيا الا اغترارا واختبارا فاذا منح قام بحقوقه
شاكرا واذا منع استغنى عنه صابرا فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون
فى دنياهم قوله عز وجل والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم
فيها خالدون الاصطحاب والاجتماع والاقتران تتقارب فالاجتماع
اعم معنى والاصطحاب اجتماع مع طول لبث والاقتران يقتضى سدادا اما
صيغة كاقتران الصديقين واقتران العلة بالمعلول وقولهم اوهم مصحباى
اصحب الشعر الذى كان عليه فلم يجزعنه واصحب الرجل اذا صار ذا صاحب
ولما كان الاصحاب مقتضيا للانقياد فسر اهل اللغة به والتكذيب بالايات
بعض الكفر وتمامه فان فيه مع تعاطى الكفر جحودا باللسان وتخصيصه بعده
نحو قوله الذين امنوا وعملوا الصالحات فى ان عمل الصالحات بعض الايمان
وتمامه وليس يعنى بالايات القران فقط بل يراد بها مع ذلك الايات التى فى
السموات والارض الدالة على الوحدانية المستحث على اعتبارها بنحو قوله
وكاين من اية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون
ان قيل لم قال ههنا اولئك اصحاب النار وقال فى غيره والذين كفروا
وكذبوا باياتنا فاولئك لهم عذاب مهين قيل الاسم الموصول والنكرة

كاقتران بعير بعير اما حكاما

الموصولة متى ضمنا معنى الشرط قد يدخل الفاء في خبرها تنبيها على معنى الشرط
ويجوز تركه منه نحو الذي يأتينا له درهم والذي يأتينا فله درهم قوله عز وجل
يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي
فارهبون الابن من البنا وسمي بذلك لكونه كالمبني لابيه وكل مصنوع ينسب الى
صانعه وآلته فيقال هو ابنه وللصانع يقال هو ابوه وعلى هذا يقال فلان
ابن الحرب وابو الحرب وبتسمية الصانع ابا للمصنوع والمصنوع ابنا للصانع اطلق
على ما حكي في شريعة من تقدمنا ابنا الله ثم تصور ذلك جهلتهم واغبياؤهم معنى
الولادة فحظر اطلاق ذلك حتى صار التفوه به يعد كفرا والوفا مراعاة العهد
والغدر تضييعه كما ان الانجاز مراعاة الوعد والاخلاف تضييعه والوفا
والانجاز في الفعل كالصدق في القول والغدر والاخلاف كالكذب فيه وقيل
وفى واوفى بمعنى والصحيح ان اوفى ابلغ من وفى كما ان اسقى ابلغ من سقى
والخطاب وان كان لبني اسرائيل لقولهم مقصودين بالتبكيت لنسيانهم
نعم الله تعالى التي يختص به في نفسه دون ما اختص به في غيره وذلك يفيده
رضاء المنعم وشكرا له ومعرفة ما على غيره من النعم والثاني نظره الى نعمة
الله على غيره ونسيان ما قد خص به في نفسه وذلك يجلب اليه سخطا على
ربه وكفرانا لالائه وحسدا على عباده ولهذا قيل انظر الى من هو فوقك
فذلك اجدر ان لا تزدري بنعمة الله وعهود الله كثيرة بعضها مرتب على بعض
وللوفا بكل واحد مقابله فاول منزلة اظهار الشهادتين ويقابله من الله
تعالى حقن الدما والاموال كما قال عليه السلام من قال لا اله الا الله فقد
عصم مني ماله ودمه وآخره ما كان من اوليا الله في حفظ النظرات والخطرات
ويقابله من الله تعالى ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر وبينهما وسايط كثيرة لها من الله تعالى مقابلة ولما كان بين مبداه الى
منتهاه عرض كثير نظر كل واحد من المفسرين للآية نظرا ما صارت به اقوالهم
مختلفة في الظاهر بحسب اختلاف نظراتهم فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما
ان الاشارة بذلك الى قوله تعالى ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم

[margin:] الله

[margin:] وكون نعمته عليهم اظهر فالناس طرا بشار كونهم في وجوب
ذكر نعمه عليهم وقد تقدم ذكر تفاصيل النعم ان قيل
ما فائدة تقييد النعمة بقوله انعمت عليكم قيل نظر
الانسان الى نعم الله ضربان احدهما نظره الى نعمة الله
صح
الى من هو دونك ولا تنظر صح

اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم الى قوله لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم
جنات وروي عنه اوفوا بعهدي في ترك الكبائر اوف بعهدكم في غفران
الصغائر وقيل اوفوا بعهدي في اداء الفرائض اوف بعهدكم في الاثابة
عليها وقيل اوفوا بعهدي في الاهتداء الى طريق الاستقامة اوف بعهدكم
في الزيادة في الاهتداء واتيا الاتقاء اشارة الى ما قال والذين اهتدوا زادهم
هدى وآتيهم تقويهم وهذه الاقاويل اختلفت اما بحسب اختلاف العبارات
وفيما بين من الاصل معرفة نظر الكل وان عامة اقوالهم لا يخرج عن الصواب
ان شا الله وقال تعالى لهذه الامة اذكروني اذكركم فقال بعض المحققين في
اعتبار الايتين دلالة على تشريف هذه الامة في انه لما خصهم بفضل فهم
وعظم امرهم بذكرهم بلا واسطة وامر بني اسرائيل ان يجعلوا ذكر الآية وصلة
الى ذكره وذلك فضل قد احكم في كتاب شرف التصوف وقوله فارهبون
تقديره ارهبوني فحذف اليا لدلالة الكثرة عليه وكون الفواصل
كالقوافي وفائدة تكرير الضمير توكيد للحث على رهبته وانها لا يجوز ان يكون
الا منه تعالى دون غيره ومثله في تذكيرهم نعم الله تعالى ما حكاه عن موسى
حيث قال لهم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبيا وجعلكم ملوكا وآتيكم
ما لم يؤت احدا من العالمين قوله عز وجل وآمنوا بما انزلت مصدقا لما معكم
ولا تكونوا اول كافر به ولا تشتروا باياتي ثمنا قليلا واياي فاتقون
قد تقدم ان الايمان مقتض للعلم اليقيني ففي ضمن قوله آمنوا بما انزلت
حث على استفادة العلم اذ لا يحصل الايمان الحقيقي من دونه ونبه بقوله
مصدقا لما معكم ان لا منافاة بين ما اتى به الانبيا من اصول العبادات
وانهم كنفس واحدة من حيث يتساوى دعاؤهم الى التوحيد والاركان الثلث
من الشرايع التي هي العبادات الخمس واحكام الحلال والحرام والمزاجر وانما
الاختلاف بينهم في جزئيات الاحكام وفروعها كيفما يقتضيه مصلحة قوم وزمان
فكل مصدق للآخر فيما اتى به من ان كليات شرايعهم متساوية وان فروعها
حق بحسب الاضافة الى زمان كل واحد منهم وامته حتى لو كان احدهم في زمن

[margin:] في اتباع محمد اوف بعهدكم في رفع الاصر
والاغلال التي عليكم وقيل اوفوا بعهدي صح

[margin:] اختلاف النظرات او بحسب صح

الاخرليه بر المصلحة الا فيما اتى به الاخر ولذلك قال عليه السلام لو نشر موسى بن
عمران لما وسعه الا اتباعى وقوله ولا تكونوا اول كافر به اى لا تكونوا ايمة
فى الكفر فيقتدى بكم تباعكم فتكونوا حاملين لاوزاركم واوزارهم كما قال
تعالى ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيمة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم وذلك
اشارة الى ما قاله عليه السلام من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها
ومن سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها وقيل معنى اول المتقدم
بالشرف كقولهم حاتم اول الاسخيا وما رد اول اللئام والمعنى لا تكونوا ارفع كافر
منزلة فى الكفر وذلك ان محمدا عليه السلام لما كان آخر الانبيا وكان متمما لشرايع
من تقدمه كما روى عنه عليه السلام انه قال انما مثلى ومثل الانبيا كرجل
بنى بنيانا فاحسنها واكملها وترك موضع لبنة فانا كنت موضع اللبنة فصار الكفر به
كالكافر بجميعهم فان من شرط الايمان بهم ان يضامنه الايمان به والا لم يعتد بايمانهم
والهاء فى قوله به ضمير ما انزلت وقيل هو ضمير ما معكم ان قيل لم قال ولا تكونوا
اول كافر به وانت لا تقول كونوا اول رجل وانما تقول رجال قيل ان ذلك معناه
اول فريق كافر او حزب مما لفظه لفظ المفرد ومعناه الجمع على ذلك قول الشاعر
فاذا هم طعموا فالام طاعم ۝ واذا جاعوا فشر جياع ۝ وقد اجاز نحاة وبعضهم اخوتك
اول رجل اى اول الرجال اذا كانوا رجلا رجلا والقليل والكثير من الاسما المتضايفة
يعتبران بالغير وليس استعمال القلة هو فى قوله ولا تشتروا باياتى ثمنا قليلا
لاجل اعتبار ثمنين من اعراض الدنيا كما تصوره بعض الناس فاعترض
على الاية وقال ذلك يقتضى جواز اشتراء الثمن الكثير باياته تعالى بل جعل الاعتبار
ههنا بمنافع الدنيا والاخرة وقد علمنا ان منفعة الدنيا خفيفة اذا اعتبرت
بمنفعة الاخرة واذا كان كذلك فمن اشترى باياته تعالى منافع الدنيا وترك
منافع الاخرة فقد خسر خسرانا مبينا كما حكى عن المنصور لما حضرته الوفاة
قال اقلنا بعنا نعيم الاخرة بنومة وقال الشاعر ۝ وان امرا يبتاع دنيا بدينه
لمنقلب منها بصفقة خاسر ۝ وعلى هذا قوله تعالى فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم
ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا الاية وانما ذكر فى الاية الاولى

فارهبون

فارهبون وفى الاية الاخرى فاتقون لان الرهبة دون التقوى فحيثما خاطب
الكافة عالمهم ومقلدهم وحثهم على ذكر نعمه التى يشتركون فيها امرهم بالرهبة
التى هى من مبادى التقوى وحيثما خاطب العلما منهم وحثهم على مراعاة اياته
والتنبه لما ياتى به اولو العزم من الرسل امرهم بالتقوى التى هى منتهى الطاعة
قوله عز وجل ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون اللبس والستر
والتغطية والتعمية والتمويه والكتمان والاخفا يتقارب فالستر اعم الالفاظ
لانه يقال فى المحسوس والمعقول يقال سترت كذا بثوبى وسترته فى نفسى
والتغطية فى الاعيان فقط واللبس اصله فى الثوب ثم يقال فى المعنى ايضا
وذلك ان يخلط حق بباطل وصدق بكذب والتعمية ما جعل الانسان عن
ادراكه كالاعمى والتمويه ما جعل على وجهه مواهه والكتمان يقال فى الحديث
ونحوه وقوله وتكتموا الحق اخص من قوله تلبسوا الحق بالباطل لان اللبس هو الخلط
بغيره والكتمان اخفاؤه جملة والاجود ان يكون قوله وتكتموا جوابا بالواو
منصوبا وان صح ان يكون عطفا مجزوما فيكون امرا بمخصوص بعد عموم وقرائة
ابى ولا تكونوا اول كافر به وتشتروا باياتى ثمنا قليلا وتكتموا الحق ونحو ذلك
فى احتمال الجواب والعطف قول العطف قوله عز وجل ولا تاكلوا اموالكم بينكم
بالباطل وتدلوا بها الى الحكام وقوله وانتم تعلمون لان ارتكاب الذنب فانه
مع العلم بقبحه اعظم عقوبة ولهذا قال بعض الحكما لان ادع الحق جهلا به
احب الى ان ادعه زهدا فيه ولان اترك جميع الخير جهلا به احب الى من ان
افعل اقل شر بعد المعرفة بقبحه وقد تقدم الكلام فى الحق فاما الباطل
فما لا ثبات له عند الفحص عنه والحق يناقضه وذلك فاستعماله فى القول
وفى الاية حث على تجنب الشر والنهى عن كل تلبيس وتمويه وان كانت
الاية واردة فيمن امنوا ببعض الكتاب وكفروا بالبعض وجحدوا صفة
النبى صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس رضى الله عنه لا تخلطوا الحق الذى
هو التورية بالباطل الذى كتبتموه بايديكم فاشارة الى بعض ما يقتضيه
عموم الاية قوله عز وجل واقيموا الصلوة واتوا الزكوة واركعوا مع الراكعين

تعظم صح

من ان صح

عام فى الاعتقاد والمقال والفعال
ولذلك قال الشاعر لقد نطقت
بطلا على الاقارع ۝ صح

قد تقدم القول فى اقامة الصلوة فاما الزكوة فاصلها من زكا الزرع فهى بالنظر العامى تثمير المال باستجلاب بركة الله عز وجل وبالنظر الخاصى تثمير النفس وهو تطهيرها باخراج الحقوق من المال والتزكية قد يقال فى المقال نحو زكيت فلانا وعلى ذلك قوله فلا تزكوا انفسكم وذلك نهى الثنا على النفس فانه من المستقبح بالعقل والشرع ولذلك قيل لحكيم ما الذى لا تحسن وان كان حقا فقال مدح الرجل نفسه وقد يقال التزكية فى الفعال وهى ما يقتضى تطهير النفس المدعو اليه بقوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقلما حث الله تعالى على اقامة الصلوة اومدح بها الا قرن بها ايتاء الزكوة فبهما يتم الايمان وعليها دل قوله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وقوله اركعوا حث على الخضوع وتدرع الخشوع ويصح ان يكون مع ذلك حثا على مراعاة الجماعات فى الصلوات والاجتماع مع المؤمنين فى كل ما مور به نحو قوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ولذلك قال مع الراكعين قوله عز وجل اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون البر التوسع فى افعال الخير بدلالة ما قاله عليه السلام وقد ساله ابو ذر عن البر فتلا عليه قوله ليس البر ان تولوا وجوهكم الى قوله اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون فذكر جملة افعال الخير فرايضها ونوافلها ومكارم الاخلاق وجلتها فالبر فى ثلث بر فى معاملة الله تعالى وعبادته وبر فى معاملة الاقارب ومراعاة حقوقهم وبر فى معاملة الاجانب وانصافهم واشتقاقه من البر الذى هو الفضا والسعة ولهذا وصف المؤمن بسعة الصدر والكافر [بضده صح] نحو قوله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا الاية [فسيح] وقد وصف الله تعالى بالبر كما وصف به العبد يقال بر العبد ربه اى اطاعه على ذلك قول الشاعر: يبرك الناس ويفجرونكا والله عز وجل بر عبده اى وسع عليه احسانه ويقال ابر فلان على فلان اى تقدمه ببر اى سعة من المكان وعلى هذا قالوا بينهما بون وقال الشاعر: فثم الفتى كل الفتى

كان

كان بينه وبين المراجى نفنف متباعد والنسيان زوال الشئ عن الحفظ فهو ضربان انفعال بغير فعل من صاحبه وهو المعفو عنه بقوله عليه السلام رفع عن امتى الخطا والنسيان وانفعال بفعل من صاحبه وهو ان يترك مراعاة المحفوظ حتى يذهب عنه وهو المذموم بقوله تعالى كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وقال عليه السلام من حفظ القران ثم نسيه لقى الله وهو اجذم ولما ورد هذا الخبر عن النبى عليه السلام كره ابن مسعود رضى الله عنه ان يقول القائل نسيت اية كيت وكيت وقال لتقل انسيت ومن جعل الانسان من ذلك فاصله عنده انسيان بدلالة انيسيان فى تصغيره ومعنى تلاه تبعه والتلاوة فى القران اتباع اللفظ اللفظ واتباع اللفظ بتدبر المعنى والمراد بقوله يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به والعقل اصله المنع الشديد ومنه عقل البعير والعاقول لدواء يمسك البطن والعقيلة للنفيس الممنوع عن الاخراج والمعقلة والعقال واعتقل لسانه وقد ذكر الله تعالى العقل باربعة اسماء العقل والنهى والحجر واللب وذلك بانظار مختلفة فاكثرها ذكر العقل وذلك لعقله عما يقبح وعلى ما يحسن والنهى لكونه ناهيا عن القبايح والحجر لحجل صاحبه فى حجر عما لا يحسن واللب لكون ذلك الجزء من الانسان بالاضافة الى سائر اجزائه [كل الشئ الى اجزائه صح] وهو اشرف اسمائه وقد ذمهم الله تعالى فى هذه الاية بغاية ما يذم به المتصدى للوعظ بغير الحق وذلك ان الواعظ من الموعوظ تجرى مجرى المظلة من الظل والطابع والمطبوع ومحال ان تعوج المظلة فيستوى ظلها او يمكن للطابع ان يوجد فى مطبوعه احسن مما فى طبعه ولهذا قيل كفى بالمرء تهزيا ان يعظ غيره وينسى نفسه ولان المدعى لمصلحة هو يحمها اما كاذب فى دعواه واما خبيث النفس وكلاهما لا تقبل قوله فاذا حق الانسان ان يبدا بنفسه فيما يعظ به غيره حتى يكون واعظا بفعله كوعظه بقوله [مطلب] وروى ان رجلا اتى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال انى اريد ان امر بالمعروف وانهى عن المنكر فقال ان لم تخش ان يفتضح بثلث ايات من كتاب الله فافعل قوله اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وقوله لم تقولون ما لا تفعلون

وقول شعيب وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه وقد اتبع الله ذمهم
بحكمين حقق عيبهم احدهما قوله وانتم تتلون اى تتدبرون التورية الثانى
قوله افلا تعقلون تنبيهاً ان الجامع للعقل وتتبع الكتاب ليس من حقه
ان يأمر الغير بما لا يفعلوا فذلك منبئ عن الجهل فصارت الاية بما عقبت
ابلغ فى المعنى من قول الشاعر لا تنه عن خلق وتأتى مثله وقوله يا ايها
الذين امنوا عليكم انفسكم مثل هذه الاية فى حث الانسان على العناية
بغيره لا نهياً عن الوعظ كما تصوره بعض الناس حتى قال هذه الاية
منسوخة قوله عز وجل واستعينوا بالصبر والصلوة وانها لكبيرة الا على
الخاشعين الصبر الامساك فى ضيق ومنه دابة مصبورة والصبرة من الطعام
للجمعة منه وفى التعارف امساك النفس على ما يقتضيه العقل وعما يقتضيه
وذلك ضربان صبر عن المشتهى وهو العفة وصبر على المكروه وهو الشجاعة
وقيل الصبر الصبر الصوم قوله عليه السلام صيام شهر الصبر وثلثة ايام
من كل شهر يذهب كثيرا من وحر الصدر وتسميته بالصبر لكونه بعضه اذ هو
امساك الشهوة ولهذا قال عليه السلام الصوم نصف الصبر والصلوة
ارفع منزلة من الصبر لانها تجمع ضروبا من الصبر اذ هى حبس الحواس على العبادة
وحبس الخواطر والافكار على الطاعة ولهذا قال وانها لكبيرة الا على الخاشعين
وخصها برد الضمير اليها دون الصبر واما الصلوة التى تخفف على غير الخاشع فانها
مسماة باسمها وليس هى فى حكمها بدلالة قوله تعالى ان الصلوة تنهى عن الفحشاء
والمنكر ومثلها وقلما ترى صلوة غير الخاشع تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومثلها
فى رد الضمير على احد المذكورين لاختصاص العناية به قوله واذا راوا تجارة او لهواً
انفضوا اليها فاعيد الضمير الى التجارة عن العبادة من لا يشغله اللهو وعلى ذلك
قوله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله لما كان حبس
الفضة عن الناس اعظم ضررا اذ الحاجة اليها امس ومنعها للمضرة اجلب خصها
بالضمير وقوله كبيرة اى كبيرة القدر او ثقيلة على النفس بالاضافة الى غيرها
من العبادات اذ هى جامعة للعبادات وزائدة عليها فانها لا يصح لا ببذل

لما كانت سبب انفضاض الذين نزلت فيهم هذه الاية ولانه قد تشغل التجارة
صح

مال جار

مال جار مجرى الزكوة فيما يستر به العورة ويطهر به البدن وامساك فى مكان
مخصوص يجرى مجرى الاعتكاف وتوجه الى الكعبة يجرى مجرى الحج وذكر الله ولرسوله
يجرى مجرى اظهار الشهادتين للايمان ومجاهدة فى مدافعة الشيطان جارية
مجرى الجهاد وامساك عن الاطيبين جار مجرى الصوم وفيها ما ليس فى العبادات
الاخر من وجوب القراءة واظهار الخشوع والركوع والسجود وغير ذلك ولهذا
عظم النبى صلى الله عليه وسلم امرها فكان اخر ما اوصى به عند وفاته الصلوة
وما ملكت ايمانكم وجعل يقولها وما يفيض بها لسانه وقوله عز وجل
الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون قد تقدم الكلام فى الظن
وانه اعم الفاظ الشك واليقين وانه اسم لما يحصل عن امارة فمتى قويت ادى الى العلم
ومتى ضعفت جدا لم يتجاوز حد الوهم وانه متى قوى استعمل معه ان المشددة وان
المخففة منها ومتى ضعفت استعمل معه ان المختصة بالمعدوم من الفعل
نحو ظننت ان خرج وان يخرج فالظن اذا كان بالمعنى الاول فمحمود واذا كان
بالمعنى الثانى فمذموم والاية من المعنى الاول والمعنى الثانى كقوله ان هم
الا يظنون وقوله ان الظن لا يغنى من الحق شيئا وعنى بلقاء الله الموت والرجوع
اليه الثواب والعقاب وتخصيص ذكر الظن ههنا اعلام بانهم فى كل حال لا يأمنون
الموت ولو كان بدله العلم لم يصح على الوجه الذى يصح فيه الظن لانك تقول
اظن انى اموت فى كل حال واما قوله الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم
فهو نهاية فى الذم ومعناه الا يحصل لهم امارة تنبههم على التفكر فى ذلك
تنبيهاً ان هذا لا محالة مما تبين امارته للانسان اذا تأمل ادنى تأمل وخاطب بالاية
علماء بنى اسرائيل الامرين غيرهم بالبر الناسين انفسهم بان يستعينوا فى مدافعة
هذه الحال بالصبر والتوصل به الى الصلوة فيها يصير الانسان خاشعا ملتزما
للحق ممن ظهر منه وقوله عز وجل يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وانى
فضلتكم على العالمين الفضل كالزيادة الا انه اخص منها وهو من الاسماء
المتضايفة كالكثير والقليل والكبير والصغير ويستعمل على اعتبارا
بالوسط الذى هو العدل والسوا ويستعمل ذلك على وجهين احدهما الزايد

اعتبارين احدهما اعتبارا بالطرف الذى
هو النقص وذلك يستعمل على سبيل المدح
والثانى م م

على العدالة على سبيل الاستظهار وهو السماحة والاسماح ببعض ما لا يجب
عليه او بترك بعض ما لا يجب له وذلك هو المعنى بالاحسان فى قوله ان
الله يأمر بالعدل والاحسان وبالزيادة فى قوله للذين احسنوا الحسنى وزيادة
واياه عنى بقوله لا تنسوا الفضل بينكم والثانى الافراط الجارى فى الذم
مجرى التفريط كالاسراف والتبذير المنهى عنه بقوله ولا تسرفوا وقوله
ولا تبذر تبذيرا والمعبر عنه بقول العامة الزيادة على الاعتبار الاول
فضيلة وهو استظهار فى العدالة ~~والتفضيل~~ وعلى الاعتبار الثانى رذيلة
وهو ترك العدالة والتفضيل يستعمل على وجهين اما بمنحة خص المفضل
بها نحو قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا فان ذلك امر خص بها
بنو آدم ابتداء واما الحكم للمفضل بالفضل الحاصل منه نحو قوله وفضل الله
المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما فالاول يجب على العبد به الشكر اذ
هو ممدح له وليس له به حمد والثانى يجب له به حمد ويستحق به الثواب واما
العالمون فقد تقدم الكلام فيه وانه تارة يقال لجميع ما اوجده الله تعالى من
الفلك وما يحويه عالم بلفظ الافراد وتارة يقال لكل جنس من الموجودات
عالم وتارة يقال لاهل كل زمان عالم وتارة يقال لكل انسان فى نفسه عالم وذلك
يقال على وجهين احدهما ان الانسان الواحد هو كالعالم فى تخصيصه بمثال كل
ما هو موجود فى العالم والثانى يقال للفاضل الكامل من الرجال وبهذا
النظر قال الشاعر • فواحدهم فى الورى عالم ان قيل كيف قال فضلتكم على العالمين
وقد قال تعالى لهذه الامة كنتم خير امة اخرجت للناس الجواب ان التفضيل الذى
ذكر الله هو الفضيلة التى خص بها بنو آدم المعنية بقوله ولقد كرمنا بنى ادم
الاية وبنو اسرائيل وان كان قد شاركهم غيرهم فى هذه النعمة فانهم لما نسوا
نعم الله تعالى خصوا بالنداء للتذكير كقولهم يا فلان نسيت نعمة الله عليك وقد تعلم
انه ربما يخص بالخطاب لتذكيرهم بعض المعنيين بالحكم لانهم ارفعهم منزلة او لان العناية به
اكثر او لان ذكره بالموضع المقصود اليه اليق وقيل عنى بهذه الفضيلة فضيلة
خصوا بها وهى ما اعطوا من المن والسلوى واظلالهم بالغمام والحجر الذى يتفجر منه

على الكفار نقصان واكثر ما يعبر عنه بالفضلة والفضالة فالزيادة صح

ذلك صح

الانهار

الانهار وغير ذلك وقيل انه جعل كل فرقة او كل نفس فى زمانهم عالما
وذكر انه فضلهم على غيرهم ممن فى زمانهم وقيل ان ذلك بما شحهم له من الايمان
بالله ورسوله والاعمال الصالحة فان من فعل ذلك كان هو المفضل على العالمين
كقوله ان الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية ان قيل كيف
قال ذلك وهذه النعم كانت على اسلافهم قيل قد قال بعضهم لما ذكر الله تعالى
ذلك فى التورية على سبيل الخطاب اعاد اللفظ على الحكاية وقيل النعمة على الانسان
ضربان نعمة يحصل عليه بلا واسطة ونعمة تصل الى المنعم عليه بواسطة وذلك
كتسخير الله من يزرع لنفسه زرعا يصل الينا نفعه على بعض الوجوه فهذا
الزارع منعم علينا وعلى هذا قيل ان الله تعالى منعم على كل احد باكثر ما يتعاطاه
الناس من المهن والصنايع المرفقة لانفسهم ونحو هذه الاية قوله عز وجل
واذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء واعاده قوله يا بنى اسرائيل اذكروا
نعمتى التى انعمت عليكم فلان الاول حث على استبقاء نعمته بالوفاء بعهده والثانى
لتنبيههما بتفضيلهم على العالمين قوله عز وجل واتقوا يوما لا تجزى نفس عن
نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون الجزاء
والمكافات والمقابلة متقاربة لكن الجزاء اعمها لان المكافاة يراعى فيها المماثلة
والمقابلة يعتبر فيها المجازاة والجزاء لا يراعى فيه شىء من ذلك ويقال جزاه
بلا همزة يجزيه او اجزاه بالهمز ففى الجزاء معنى الغناء والقبول تناول المقبل
ومنه القابل المتناول الدلو واصل ذلك من قبل فقيل يستعمل فى المتقدم
المنفصل ويضاده بعد وقيل فى المتصل ويضاده دبر وقد جعل كنايتين
عن السوءتين ويقابل القبول الرد والشفاعة ضم الشىء الى مثله يقال شفعت
فلانا اى صرت شفعا له بانضمامى اليه وعبر عمن انضم الى غيره فى طلب ما شافع
وعلى ذلك قول الشاعر له من عدو مثل ذلك شافع ومنه الشفعة واصلها
ضم ملك الى ملكه شفعه به والعدل التسوية يقال عدلته وانعدل وعدل
الشىء مساويه بلا افراط ولا تفريط واكثر ما يقال فى المساوى من حيث
الحكم نحو قوله عز وجل او عدل ذلك صياما والعدل يقال للمساوى فى الكمية

او بوسائط صح

وقبل صح

وعدلته فاعتدل صح

فى الوزن والكيل والعدد وقيل للفداء العدل اذا اعتبر فيه معنى المساواة وقوله
لا يقبل منه صرف ولا عدل وتفسيرهم بان العدل الفريضة والصرف النافلة
من حيث ان العدل هو المساواة وتعاطيه واجب والصرف الزيادة الحاصلة
عن التصرف وتعاطيه تبرع وهما كالعدل والاحسان والنصرة احض من المعونة
فانها يختص بدفع الشر والظلم وقيل ارض منصورة اذا اتاها المطر بعد طول مدة
والقصد بالاية التقوى من يوم لا يكفى احد احداً وقد اعاد تعالى هذا المعنى
فى غير موضع كقوله تعالى يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً وقوله يوم يفر المرء
من اخيه وامه وابيه وقوله واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا
مولود له هو جاز عن والده شيئاً تنبيهاً ان لكل واحد ما يستصحبه من الايمان
والاعمال الصالحة كما قال وان ليس للانسان الا ما سعى ان قيل كيف قال ذلك وقد
اثبت الشفاعة فى غير آية قيل هذا رد على اليهود فيما ادعوه حيث قال نحن
ابناء الانبياء وهم يشفعون لنا وان ارتكبنا فنبه على انه ليس لهم شفاعة كما
قال يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا وقوله
ولا يشفعون الا لمن ارتضى والضمير فى قوله لا يقبل منها راجع الى النفس الاولى
وقيل راجع الى الثانية وفى قوله لا يؤخذ منها راجع الى الثانية لا محالة
وقوله ولا هم ينصرون اى ليس لهم من ينصرهم من الله تعالى بان يمنعهم من عذابه
اشارة الى قوله وقفوهم انهم مسؤلون ما لكم لا تناصرون وقوله يوم لا تجزى
قيل معناه لا تجزى فيه فحذف وهو قول الكسائى وقال البصريون وصل
الفعل اليه فنصبه نحو ويوماً شهدناه سليماً وعامراً ثم حذف الهاء كحذفه
من الذى ضربت وحقيقة الخلاف ان ما يقدر الكسائى حذفه بدفعة
يقدره البصريون بدفعتين ولا خلاف ان الاصل كان فى ذلك مع انه لا يطرد
فى كل مكان حذف الجار مع المجرور وقوله عز وجل واذ نجيناكم من آل فرعون
يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم
بلاء من ربكم عظيم اصل النجا طلب الخلاص ويقال لمن عد نجا لكون العد
واحد اسباب التخلص فان الله تعالى جعل للحيوانات قوتين تزيل بهما الاذى قوة بها

تهرب

تهرب مما يوذيها وقوة بها تدفع ما يوذيها فمن الحيوانات ما يختص باحديهما
ومنها ما جعلتا جميعا له فاذا العدو احد اسباب الخلاص فصح ان يعبر عنه به
وقيل نجا فلان اذا القى ثوبه وذلك استعارة له كما استعير القاء الثوب للعدو
فى نحو قولهم القى بزه ويخلع ثوبه وعلى ذلك القيت ليلة خبث الرهط اردائى و
سميت الربوة نجوا اعتبارا بانه منجى من السيل وكثيرا من الآفات التى يكون فى الوهود
وكنى عن العذرة الملقاة بالنجو اما اعتبارا بانه خلاص من الاذى او كناية عنه بالنجو
كما كنى عنه بالغايط ولما اعتقد فى السر انه خلاص من الوشاة والعداة
سمى نجوى وبهذا النظر قال الشاعر ويجعل نجوانا نجاة من العدى والآل قيل هو
مقلوب عن الاهل كالماء عن الموه ويصغر على اهيل كما ان الماء مصغر على مويه
الا انه خص بالاضافة الى اعلام الناطقين دون النكرات ودون الازمنة
والامكنة يقال آل فلان ولا يقال آل مكة وزمان كذا هو اسم للشخص
ويصغر على اويل وهو قول الكسائى ويستعمل فيمن اختص بالانسان اختصاص
ذاته به اما بقرابته او بموالاة دينه او كالدينية فقد اجرى الموالاة الدينية
مجرى القرابة واللحمة حتى قال تعالى ومن يتولهم منكم فانه منهم وقال
فمن تبعنى فانه منى وقال فى نوح وابنه انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح
وللاختصاص المذكور قال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران
على العالمين ذرية بعضها من بعض ولاختصاص الآل بما قلنا قال تعالى ادخلوا
آل فرعون اشد العذاب وقال هذا القائل اهل الدين من النبى عليه السلام
ضربان ضرب يتخصص منه بالعلم المتقن والعمل المحكم فيقال لهم آل النبى وضرب
يتخصص منه بالعمل على سبيل التقليد دون العلم المتقن ويقال لهم امة فكل
آل النبى امته وليس كل امته آله وقيل لجعفر بن محمد ان ناسا يقولون المسلمون
كلهم آل النبى فقال كذبوا وصدقوا قيل فما معنى كذبوا وصدقوا قال كذبوا
ان الناس على ما هم عليه من التقصير فى دينهم هم آل محمد وصدقوا انهم آله اذا
قاموا بشريطة شريعته ثم ضيع الشريطة فليس منه وان قرب نسبه ومن
حافظ على شريطته فهو منه وان بعد نسبه والسوم اصله الذهاب

مطلب الآل

فی ابتغاء الشیء فهو لفظ لمعنی مرکب الذهاب والابتغا فاله جری مرة مجری الذهاب
فقیل سام الابل فهی سایمة اذا ذهبت فی المرعی وسمته کذا کقولک بغیته
کذا ومنه السوم فی البیع فعدی تعدیته والسوء یتناول کل ما یسوء الانسان
من افة وداء ویقال السوء والسوی ای نحو الحسن والحسنی وعلی سبیل کراهیة
ذکر الفرج والنظر الیه کنی عنه بالسوءة وکذا کنی عن البرص بها وسوء العذاب
ای شدة العذاب والذبح اصله شق الاوداج وقیل ذبحت الفارة للنافجة
علی الاستعارة لما شبه ذلک الوعا بفارة وسمی بها والذباحة داء کانه
یذبح لشدته وکونه فی المذبح وخصت بما یکثر فی الادواء نحو خراجه
وتخصیص التذبیح دون الذبح تنبیها علی کثرة ذلک منهم والاستحیا کالاستبقا
وهو تحری طلب الحیوة فیهن وقیل معناه یبتغون ما فی ارحام النسا مشتقا
من الحیا ای الفرج والبلا اصله من قولهم بلی الثوب بلی وبلاء وقیل بلوت فلانا
ای اخبرته کانی اخلقته من کثرة اختباری له ولهذا قیل ابلیت فلانا ای اخبرته
وسمی الغم بلاء من حیث انه یبلی الجسم وسمی التکلیف بلاء من اوجه الاول ان
التکالیف کلها مشاق علی الابدان فصارت من هذا الوجه بلاء والثانی
ان التکالیف اختبارات ولهذا قال ولنبلونکم وقال لیبلوکم ونحو ذلک والثالث
انه لما کان اختبار الله تعالی لعباده تارة بالمسار لیشکروا وتارة بالمضار
لیصبروا صار المنحة والمحنة جمیعا بلاء فالمحنة مقتضیة للصبر والمنحة
مقتضیة للشکر وکان القیام بحقوق الصبر ایسر من القیام بحقوق
الشکر لما بیناه فی کتاب شرف التصوف فصار المنحة اعظم البلاءین وبهذا النظر
قال امیر المؤمنین رضی الله تعالی عنه وکرم الله وجهه من وسع علیه فی دنیاه
ولم یعلم انه مکر به فهو مخدوع عن عقله والرابع انه رب منحة تعقب محنة
تفضی الی منحة ولهذا قیل رب مغبوط بنعمة هی داؤه ومرحوم لشدة هی
شفاؤه فاذا من النعمة ما هو نقمة ولکون البلاء مستناولا للامرین قال
تعالی وبلوناهم بالحسنات والسیئات وقال ونبلوکم بالشر والخیر فتنة وقالوا
فی الخیر والشر معا بلاء فاذا افردا قالوا فی الخیر ابلاء ولیبلی المؤمنین بلاء منه
قال تعالی

محنة وصح

ابلاه وفی الشر

حسنا

حسنا واما قول الشاعر جزی الله بالاحسان ما فعلا بکم وابلاهما خیر
البلاء الذی یبلو فمعناه اعطاهما الله خیرا فیما یمنحهما به وجعل لهما بدل المکروه
محبوبا فقوله وفی ذلکم بلاء من ربکم راجع الی الامرین الی المنحة التی هی الانجا
من آل فرعون المقتضیة للشکر والی المحنة التی هی ذبحهم واستحیاؤهم للنساء
المقتضیة للصبر وعلی ذلک قوله وبلوناهم بالحسنات والسیئات لعلهم یرجعون فاذا
صح ذلک فقول مجاهد وابن جریج انه اراد فی انجائکم منهم نعمة نظرا الی مبداء
الایة وهو قوله انجیناکم من آل فرعون وقول مقاتل اراد فی قتل الاولاد
واستحیاء النساء شدة نحو قوله ان هذا لهو البلاء المبین نظرا الی منتهی الایة
وهو قوله یذبحون ابناءکم ویستحیون نساءکم وکلا القولین صحیح وقول السدی
عن ابن عباس رضی الله تعالی عنهما اراد بقوله بلاء ای نعمة او نقمة تصریح ان الامرین
مراد ان ولیس قوله او ههنا شکا کما ظنه بعض المفسرین وقال ان ذلک شک
من السدی بل ذلک روایة عن ابن عباس رضی الله تعالی عنهما تنبیها منه ان
النعمة والنقمة فی هذه الجملة حاصلتان وکل واحد منهما موجود فیها وفی الایة
تذکیرهم بما اولاهم من النعم فی انقاذهم من آل فرعون رای فی المنام او قال له الکهنة
سیولد فی هذا العام مولود یذهب بملکک فجعل علی کل عشر من النساء رجلا
فقال انظروا الی کل امراة ولدت فان کان ذکرا فاقتلوه وان کان انثی فابقوه وکان
ذلک اعظم للرزیة کما قال الشاعر ومن اعظم الرزء فیما اری بقاء البنات وموت
البنین وقیل ذبحهم للابناء استخدامهم فی الاعمال القذرة الجاریة مجری اعظم الذبح من
القتل والاهانة قال علی ذلک قوله تعالی ان فرعون علا فی الارض وجعل
اهلها شیعا یستضعف طائفة منهم وفیها حث لنا علی تذکر نعمه ومراعاتها وقتا
واحدة وتجدیدا لشکر لکل منها واذ فرقنا بکم البحر فانجیناکم واغرقنا آل فرعون
وانتم تنظرون الفروق والفلوق کالفصل لکن الفلق لا یکون الا بین جسمین
والفرق قد یکون فی الاجسام والمعانی وفی هذه القصة قد جاء اللفظان
قال تعالی فانفلق فکان کل فرق کالطود العظیم ای کل قطعة من الماء والفرقان
کل کتاب یفرق بین الاحکام وسمی عمر رضی الله تعالی عنه فاروقا لاجل ان النبی

منه

قوله عز وجل

صلى الله عليه وسلم قضى ليهودى على منافق فاتى عمر وقال ان محمدا قضى بينى وبين
هذا ولست ا رضى قضاه فاقض بيننا فقال او رضيت قضاى قال نعم فدخل
داره واخرج السيف وحز رأسه فنزل جبرئيل عليه السلام وقال ان عمر قد سمى
فى السما فاروقا والبحر استعير للسعة فقيل بحرت كذا اى وسعته كسعته وقيل
بحرت الناقة اى شققت اذنها شقا والباحر الاحمق الموسع عليه من جهة رفع
حجر العقل عنه وكانه اعتبر فى تسميته بذلك مقابلة العاقل فقد جعل اسما
العقل كلها معتبرا فيه الضيق والشد والغرق الرسوب فى الماء شبه به غيره حتى
قيل غرق فلان فى النعمة وغرقه من اللبن اى ملء قدح واغرق فى الشئ اذا تناهى
والنظر نظران نظر بصر وبه يدرك المحسوسات ونظر بصيرة وبه يدرك المعقولات
ونظر البصر كالخادم لنظر البصيرة وان كان كلاهما سبيلا الى المعرفة والنظير
اصله للمناظر كانه ينظر كل واحد من النظرين الى صاحبه فى المشاكلة وناظرته
باريته فى النظر وانظرته تركته ينظر فيطالب ومعنى الاية ما ذكره فى قوله
فلما ترى الجمعان قال اصحاب موسى الاية وفى قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا وفى قوله
واوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك الحجر وقوله وانتم تنظرون لما كان النظر مترددا
بين المحسوس الذى منه الابصار والنظر المعقول الذى منه البصيرة نظر كل واحد
من المفسرين نظرا ما فقال من نظر نظر محسوس معناه وانتم تشاهدونه فقد ذكر
انه افرد لكل سبط طريق من الماء وجعل الحاجز الذى بينه وبين الاخر مشفا
كالزجاج ينظرون منها الى الاخرين وقال بعضهم قذف الماء حساد فرعون بعد
اغراقهم الى الشط فكان الناس ينظرون اليهم وعلى ذلك حمل قوله فاليوم ننجيك
ببدنك لتكون لمن خلفك اية وقال من نظر نظر معقول معناه وانتم تعتبرون
بذلك وقيل معناه وانتم متمكنون من النظر اى الاعتبار بذلك وقال بعضهم
فى الاية مع ارادة هذا المعنى او النعمة والمحسوسة التى اولاهم اشارة الى معنى
اخر والى النعمة معقولة اعطاهم فانه اشار بالبحر الى الشبه التى يعترى وبفرقه
الى ازالتها وباغراق ال فرعون الى ابطال الكفر وبالنظر الى المعرفة والتمكن منها
بما اولاهم من البصيرة والتمييز وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح انه تعالى

واسعاء

فعله

فعله بهم اقتضاه لفظ الاية او لم يقتضه وقوله واذ واعدنا موسى اربعين ليلة
ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون قرئ واعدنا اعتبارا بالموعود وقبوله
من الواعد وعده فكان من كل واحد منهما وعد هذا بالاعطاء وذاك
بالقبول ووعدنا هو للاعتبار بالواحد دون الموعود وعلى الثانى
اكثر ما فى القران نحو ان الله وعدكم وعد الحق والله يعدكم احدى
الطائفتين وتقدير اربعين ليلة انقضاؤها كقولك اليوم اربعون
يوما منذ خرج زيد اى تمامها وقيل انما وعدهم ذلك فى الاربعين وان
لا يتجاوز هذا القدر وهو الاصح وقوله وواعدنا موسى ثلثين ليلة
ثم اتممناها بعشر على ذلك فانه قد له يكون ذلك انقضاء ثلثين
ثم كان عند الاربعين فلم يكن فى الوعد خلاف وانما كان فيه بعض
الايهام فلهذا التبس عليهم وذكر تعالى عظيم جهلهم وانهم بعد ما اعطوا
من البينات ونسوا الما وعد وانهما فتوا على عبادة عجل اتخذوه وقوله
ظالمون عنى به الظلم المطلق وهو الكفر وفى الاية حث على معرفة
ما وعدنا الله تعالى به ومراعاته والمنع من الاشتغال عنه تعالى بغيره
وعلى هذا الوجه قال بعض الناس كل ما شغلك عن الله فهو عجل متخذ
وطاغوت متبع وشيطان مطاع وسبب ذلك اتباع الهوى فيضلك
عن سبيل الله وقال وهذا وان لم يكن كفرا فهو شرك ولهذا الوجه قال تعالى
وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون وقوله عز وجل ثم عفونا عنكم من بعد
ذلك لعلكم تشكرون العفو القصد لتناول الشئ يقال عفاه واعتفاه
وعفت الريح الدار اى قصدته متناوله منها اثارها وبهذا المعنى قال الشاعر
اخذ البلى اياتها وعفت الدار كانها قصدت هى البلى واذا قيل عفا فلان عن
فلان كانه قصد تناول شئ ما منصرفا عنه والمفعول به متروك لكونه غير مقصود
وذلك كقولهم ذهبت عما ارتكبته وتجاوزت عنك اى تجاوزت الى شئ ما وعفا
النبت والشعر اى تناول الزيادة كقولهم اخذ النبت فى الزيادة وقولهم اعطى
عفوا فعفوا مصدر فى موضع الحال اى اعطى وحاله حال العافى فى الاهتزاز

قوله عز وجل

مغفرة منه واذ يعدكم الله ص

وقد تقدم الكلام فى انواع الظلم وانها بالقول المجمل ثلث اعظمها الكفر صح

ولذلك قال ولا تتبع الهوى ص

قصد ص

اشارة المعنى الذى عد بديعًا من قول الشاعر كانك نعطيه الذى انت سائله
والشكر مقابلة الصنيعة باظهارها ومنه دابة شكور اذا كانت مظهرة لاحسان صاحبها
اليها وصره شكرى على ذلك والشكر كناية عن الفرج المزوج لكونه مقابلا مقابلة
الشكر للمشكور عليه والشكر ضرب من العدالة اذ هو فى مقابلة النعمة واعم من المكافات
فان المكافات يعتبر فيها تارة مماثلة فى الكمية وتارة فى حال المكافى والمكافا
والشكر لا يعتبر فيه ذلك وايضا فالشكر قد يكون باللسان تارة وبالمقابلة
تارة وقد تقدم الكلام فى لعل وان كان مقتضيا للرجا فليس على الاعتبار به
تعالى فان الرجا لمن يخفى عليه العواقب ولا يتمكن من كل ما يريده والقصد بالاية
يتبين عفوه عنهم بعد ارتكابهم الجرايم ليتحروا شكره المقتضى لرحمته تنبيها لنا
ان تراعى عفوه واحسانه راجين بلوغ شكره بالافعال الحميدة وقوله من بعد
ذلك اى من بعد اتخاذكم العجل وانما لم يقل ذلكم لان كاف الخطاب اذا اتصل باسم اشارة
يصير كوصله لها لا خطابا فيترك على حالته لا يثنى ولا يجمع وقوله عز وجل
واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون الكتاب والفرقان اسمان
لشئ واحد لكن يقالان باعتبارين مختلفين اما الكتاب فلجمع الاحكام المتفرقة
منه واما الفرقان فلكونه مفرقا بين الحق والشبهه وبين الاحكام المختلفة وأتى
باللفظين تنبيها على تضمن التورية للمعنيين وهذا اصح من قول من قال بتقديره
واذ اتينا موسى الكتاب ومحمد الفرقان فان التورية والفرقان كل واحد كتاب
من وجه وفرقان من وجه وقد قال تعالى ولقد اتينا موسى وهرون الفرقان
وضيا وما قالوه من ان الفرقان اريد به فرق البحر فلا يمتنع ارادته مع
ما تقدم والايتاء منقول عن اتيت لكن تعورف فى الاعطاء لما كان الاعطاء
ضربان من الايتاء وقد تقدم الكلام فى لعل قوله عز وجل واذ قال موسى لقومه
يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل الى قوله انه هو التواب الرحيم قد تقدم الكلام
فى الظلم فاما ظلم النفس فقد يقال لكل فعل يباعدها عن توفيق الله تعالى
فى الدنيا وعن ثوابه فى الاخرة صغيرا كان او كبيرا وقوله والذين اذا فعلوا
فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم وقوله ومن يعمل

الى صه

للمهر صه

وجزامنها فتارة يعتبر فيه الاصل فيجمع وتارة يعتبر كونه وصله صح

وفى الاهتداء صه

سوء

سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما فالاظهر ان فعل
الفاحشة وعمل السوء للكبيرة وظلم النفس فى الايتين للصغيرة وفى الجملة
فان ظلم النفس هو الخروج عن الاعتدال صغيرا كان او كبيرا وقوله بارئكم
فاصل البرء خلوص الشئ عن غيره اما على سبيل التفصى منه او على سبيل
الانشاء عنه فعلى التفصى قولهم برئ فلان من مرضه والبايع عن عيوب
مبيعه وصاحب الدين من دينه ومنه استبراء الجارية فانه اراد تفصيها
من ماء من عسى ان قد غشيها من قبل وعلى سبيل الانشاء قولهم برأ الله الخلق
وقوله الخالق البارئ المصور فاشارة الى احوال ثلث فالخالق الى ايجاد البدن
والبرء الى ايجاد الروح وهى النسمة التى عناها امير المؤمنين بقوله والذى
فلق الحبة وبرأ النسمة والتصوير الى الجمع بينهما والى ثلثتها اشار بقوله انى
خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى الاية والى ذلك
اشار بقوله يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلث
واما البرية فكثير من الناس ذهبوا الى انها منه فترك همزه كالذرية والنبى
والخابية ومنهم من قال هى البرى اى التراب ومن البرى واليه ذهب الكسائى
فبرا اعتبارا بالارواح وبرى اعتبارا بالاشباح والقتل معروف وقد يستعمل
فى معنى التذليل وازالة السورة يقال قتلت الدابة اى ذللتها وقتلت
الخمر ازلت سورتها بالمزج قال الشاعر ان التى ناولتنى فرددتها قتلت
قتلت فهاتها لم يقتل وفلان قتل فلانا اى مثله فاصله مقاتلة فتصور
منه معنى المماثلة لكون المقاتلين متماثلين فى فعلهما المختص بهما واذا قيل
فلان قتل نفسه فقد يقال اذا فعل بنفسه ما افاته الروح وقد يقال
اذا قيل من يختص به اختصاص نفسه نحو فلم اقطع بهم الا بنانى وقوله
واذا رميت يصيبنى سهمى وقد يقال قتل فلان نفسه اذا ضيع حظها
فى طلب الاخرة فادى به ذلك الى زوال حيوته الابدية وذلك مذموم
وقد يقال فى ضد ذلك وهو اذا افنى شهوته وذلل هواه فى الدنيا طلبا
للاخرة وذلك محمود وعلى الاول قال جعفر بن محمد فى قوله لا تقتلوا انفسكم

وقد يقال اذا سلم نفسه للقتل وان كان اكثر ما يقال فى ذلك استقتل صه

واحياءها صح

نفس لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها فعوتب فاقتلوا انفسكم حملوه على اكثر هذه الوجوه قال بعضهم امروا ان يجا كل واحد نفسه بالسكين وقيل امروا ان يقيم كل احد صح صح

اى اطلبوا لها الحيوة الابدية وعلى هذا نبههم قتل النفس احياءها قتلها يعنى فى حالة
وحالة وروى ان الله تعالى اوحى الى موسى ان من احبنى قتلته فقال يا رب
اذا استهديت فى الخلة لم ابال بقتل الدنيا وقال بعض الحكماء من لم يعذب نفسه
للقتل وقال اكثرهم امروا ان يقتل بعضهم بعضا فكان الرجل يقتل اباه واخاه
ولا يتحاشى من ذلك وقال بعضهم امروا ان يزيلوا شهواتهم ويفنوا نفوسهم
الشهوية فى الوصول الى مرضاة الرب والبلوغ الى الحيوة الابدية وقد طعن فى هذه
الاية بعض الملحدة وزعم ان قتل النفس مستقبح فى العقل وهذا الجاهل
انما استقبحه لذهابه عن ان لنفوسنا خالقا بامره نستبقيها وبامره نفنيها
وان لها بعد هذه الحيوة التى هى لعب ولهو معادا الى دار فيها حيوة سرمدية
كما قال وان الدار الاخرة لهى الحيوان وان قتلها بامره يوصلها الى حيوة خير منها
ومن علم ان الانسان فى هذه الدنيا كمجاهد اقيم فى ثغر يحرسه ووال على بلد يسوسه
وانه مهما استرده بعاد فلا فرق بين ان يامره بخروجه بنفسه او يامر غيره
باخراجه ومن تصور هذه الجملة علم ان الانسان انما انكر له قتل نفسه
فى الدنيا لانه كالراجع عن الثغر الى حضرة صاحبه قبل استرداده واذا
امره ان يقتل نفسه فقد رجع عنه بامره وذلك ظاهر لمن تصور حال التى
الدنيا والاخرة وعرف قدر الحيوتين والميتتين فيهما وقوله ذلكم خير لكم
الاشارة به الى التوبة وقتل النفس ولما كان الشئ قد يكون خيرا عند
الاعتبار بالدنيا شرا عند الاعتبار بالاخرة وقد يكون على عكس ذلك
بين تعالى بقوله ذلكم خير لكم عند بارئكم ان ذلك خير بالاعتبار بالامور
الالهية ان قيل لم اعاد ذكر بارئكم والاتيان بالضمير فى مثله احسن
قيل انما يحسن الضمير اذا لم يشتبه ولم يقصد بالتكرير تفخيم الامر وكان ذلك
فى جملة واحدة او ما حكمه حكم الجملة الواحدة فاما اذا لم يكن كذلك
فتكريره احسن وقد حصل ههنا الاحوال الثلث فانه جرى ذكر موسى
والعجل فلو قيل عنده يصح توهم ارادة احدهما ثم قد علم ان المقصود فى
مثل هذا الموضع تفخيم الامر ثم قوله ذلكم خير لكم جملة اخرى غير الاولى

وقوله

وقول الشاعر لا ارى الموت يسبق الموت شئ وانما استقبح لان قوله
يسبق الموت مفعول ثان لقوله لا ارى الموت فصار المصراع كله جملة
واحدة والكلام فى التوبة والثواب قد مضى وعند قوله بارئكم اى
فى حكمه وما يرتضيه نحو قوله ويقولون هو من عند الله وما هو
من عند الله والشئ الذى يرتضيه تعالى تارة ينسب اليه فيقال
هو له وتارة هو عنده ومن عنده وقد بين فى قوله واذ واعدنا موسى
ما ارتكبوه من الذنب وبين فى هذه الاية ما قال لهم موسى عليه السلام
عند ارتكابهم ذلك الذنب وان موسى عليه السلام مع تعظيم ما ارتكبوه
لم يخلهم عن النصح لهم وتصريفهم بين بلاء النعمة والنقمة حسب ما امره الله به

يقال صح

وقوله عز وجل واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة
فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون الرؤية ادراك المرئى على اوجه

وذلك صح

بحسب اختلاف قوى الانسان فالاول بالحاسة وهو ادراك البصر
والثانى بالوهم والتخيل نحو ارى ان زيدا منطلق اى اتوهم وقد يكون
ذلك فى اليقظة طورا وفى المنام طورا لكن يجعل اسم ما فى المنام رؤيا
والثالث بالتفكر والرابع بالعقل المشار اليه فى قوله ثم لترونها
عين اليقين فاما الرؤية الحسية على ما هى عليه فى الدنيا من المقابلة
وكونه فى جهة دون جهة فمنفية عن البارى سبحانه اذ كان ذلك
لا يصح الا على جسم ذى لون وكيفية ولعدم اللون لا يبصر الهواء كونه
جسما ولا يصح ايضا على الله الرؤية الوهمية اذ كان ذلك تصور هيئة
محسوس كما تقدم او مثل محسوس باطلا كتوهم انسان طائر واما الفكرية
فهى للعلماء فى الدنيا وذلك ادراك المعرفة بالفكر والروية واياه عنى
امير المؤمنين بقوله لم تره العيون بشواهد الابصار ولكن راته

مطلب

القلوب بحقايق الايمان واما العقلية فانها تحصل فى الاخرة لكل احد
من حيث انهم يضطرون الى معرفته تعالى لكن للمؤمنين حالة زائدة يقصر العبارة
عنها وهى المبشر بها فى قوله عليه السلام ترون ربكم عز وجل كما ترون

القمر ليلة البدر والمشار اليها بقوله عز وجل ان المتقين فى جنات
ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ولا يحصل فى الدنيا الا
لبعض الانبياء فى بعض الاحوال وذلك بتصور افعاله تعالى مجردة
عن افعال المخلوقين بلا شبهة تعتريه ولتعري نفسه من الشهوات
والهوى ولكون ذلك لبعض الانبياء فى حال دون حال قال عليه
السلام رايت ربى فى بعض طرقات المدينة بمعنى وانا فيها وقال تعالى ما كذب
الفواد ما راى ولقد راه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى اى وكان النبى
عندها وقال ما زاغ البصر وما طغى وروى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
ان محمدا صلعم راى ربه مرتين وهذه الجملة اذا تصورت اسقطت الشبهة التى
تعترى من لم يتصور الحقايق فاحتاج الى دفع الاخبار الصحيحة والاثار الواضحة
الى محض نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا وليس قوله تعالى
اخبارا عن موسى عليه السلام فى قوله رب ارنى انظر اليك كما ظنه بعض الناس
ان ذلك ساله لان قومه كلفوه سواله ان يدركوه محسوسا فى الدنيا وكان
يعلم ان ذلك محال فانه عليه السلام منزه عن ان يسئ لاساءة قومه ويتجاهل اتباعا
لجهلة تباعد وانما ساله هو الحالة التى كانت للنبى صلى الله عليه وسلم مرتين
وهذه اشارة يمكن مع الاستعانة بما تقدم انفا ان يعرف معناه الى ان ينتهى اليه
فنشرحه شرحا شافيا ان شا الله تعالى واما الجهر فالظهور لحاسة البصر او حاسة السمع
فمن حاسة البصر قيل رايته جهارا وتجاهروا بالامر واجهرت فلانا وفلان
تجهر بالمعاصى وجهرت البير اظهرت ماءها ومنه اشتق الجوهر لكونه اكثره
ظاهرا للحواس فيمن لم يجعله منقولا عن الفارسية ومن حاسة السمع قيل جهر فلان
بقراءته وكلام جهير وهو جهورى الصوت والصاعقة والصاقعة يتقاربان الا ان
الصقع يقال فى اصوات الاجسام الارضية والصعق فيما يكون من الجو والسما وقال
بعض اهل اللغة الصاعقة على ثلثة اوجه الموت لقوله فصعق من فى السموات ومن فى
الارض وقوله فاخذتهم الصاعقة والثانى العذاب لقوله انذرتكم صاعقة
مثل صاعقة عاد وثمود والثالث نار تسقط من السما لقوله ويرسل الصواعق فيصيب بها

مطلب فى اشتقاق الجوهر

من يشا

من يشاء وهذا سوء تصور لان الصاعقة هى الصوت الشديد على ما تقدم
ثم قد يكون منه الموت تارة والعذاب تارة ويصحبه النار تارة فان الموت
والنار والعذاب لم يستفد من لفظ الصاعقة ويجب ان لا يلتبس علينا المعنى
الذى وضع له اللفظ بالمعنى الذى يتبعه ويقتضيه وليس بموضوع له
بالقصد الاول وهذا باب قد احكم فى غير هذا الكتاب وقد بين الله تعالى
فى هذه الاية جهلهم بالبارى وسوالهم منه ما لا يصح سواله تنبيها
ان الجهل يردى بالانسان ان يعتقد فى البارى ما لا يصح عليه ويرغب اليه
بما لا يجوز ان يرغب به اليه وقد نبه على ذلك بالاية الاخرى تسكينا
للنبى عليه السلام فيما سالوه جهلا منهم بقوله يسئلك اهل الكتاب
ان تنزل عليهم كتابا من السما فقد سالوا موسى اكبر من ذلك فقالوا
ارنا الله جهرة الاية ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون البعث
ارسال المبعوث عن المكان الذى فيه لكن فرق بين تفاسيره بحسب
اختلاف المعلق به فقيل بعثت البعير من مبركه اى اثرته وبعثته فى
السير اى هيجته وبعث الله الميت احياه وضرب البعث على الجند اذا امروا
بالارتحال وكل ذلك واحد فى الحقيقة وانما اختلف لاختلاف صور
المبعوثات والموت حمل على المعروف وحمل ايضا على الاحوال الشاقة الجارية
مجرى الموت وليس يقتضى قوله فاخذتكم الصاعقة انهم ماتوا الاترى
الى قوله وخر موسى صعقا لكن الاية يحتمل الامرين وحقيقة ما كان
انما يعتمد فيها على السمع المتعرى عن الاحتمالات والكلام فى لعلكم
تشكرون قد تقدم ونبه بالاية على انه تعالى انقذهم من الشدايد عند
حالا فحالا تنبيها له من غفلته واليه اشار بقوله اولم نعمركم ما يتذكر
فيه من تذكر وقوله عز وجل وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن
والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم
يظلمون الظل فى الحقيقة عدم الضح وسمى سواد الليل ظلا لعدم
الضح والظلة كالصفة والمظلة الة يطلب بها الظل واظل فلان

قوله عز وجل ثم

علينا حقيقة التى ظاله علينا لدنوه منها واستعير الظل للمكان الذى فيه
النعمة تصوراً له فى الصائف حتى قيل فلان فى ظل فلان وقد اشار
ابن عباس رضى الله عنهما الى ان الغمام ههنا فيض البارى عز وجل وتوفيقه
واحسانه فقال هذا الغمام الذى يأتى الله فيه المذكور فى قوله تع هل
ينظرون الا ان يأتيهم الله فى ظلل من الغمام وهو الذى جاءت فيه
الملائكة يوم بدر وهذه اشارة منه عجيبة واما المن فمصدر مننت اى انعم
واصله من مننت اى قطعت والمنة تتصور على وجهين احدهما النعمة
المقطوعة عن القنية وعلى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم وازع منه رد عبه
من المال اى اقطع والثانى السبب الذى يقطع الشكر ويحرمه وهو المعنى
بقوله لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وبقول الناس المنة تهدم
الصنيعة والسلوى اصله ما يسلى الانسان ومنه السلوان والتسلى وقال
مجاهد المن صمغة وقال قتادة وهو مثل الثلج وقال الربيع شراب كالعسل
وقال السدى هو الترنجبين الزنجبيل وقالوا السلوى طائر كالسمانى واما قول ابن
عباس رضى الله عنهما المن الذى يسقط من السما على الشجر فيأكله الناس
والسلوى طائر فقد قال بعضهم ان ابن عباس رضى الله عنهما اشار بذلك
الى ما يرزق الله بنى آدم من النبات واللحوم وسائر الخيرات ودل على ذلك
بهذين المثالين قال وعلى هذا قول غيره انما هو مثالات وقوله كلوا من طيبات
ما رزقناكم قد تقدم الكلام فى الرزق وانه بالنظر الخاصى ليس يتناول
الاعراض الدنيوية فقط بل جميع ما خولنا ومكننا منه من النعم الثلث
النفسية والبدنية والخارجية ولم يرد بالطيب المستطاب بحاستى
الذوق والشم بل المستطاب من كل وجه محسوسا ومعقولاً وعاجلاً وآجلاً
والطيبات من الطعام هى المتناولة بحكم العقل والشرع بحيث من ما يسوغ
تناوله فى وقت ما يحتاج اليه غير مسرف فيه ولا مشتغل به عما خلقنا
لاجله ومتى تنوول على هذا الوجه يكون طيبا على الاطلاق والا فان طاب
من وجه خبث من وجه وعلى ذلك قوله كلوا مما فى الارض حلالا طيبا

اليوم صح

وقوله قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق
واذا عرف هذه الجملة علم ان من قال الطيبات اللذيذات نظر نظر حس ومن قال
الحلال والحرام نظر نظر معقول وقوله وما ظلمونا لما كان الله تعالى ذكر افعالاً
تجرى مجرى معاملات بينه وبين العباد كمعاملة العباد بعضهم مع بعض
من نحو الاستقراض فى قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا والابتياع
فى نحو ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ووصف
نفسه بشكره لهم كشكرهم له ومحبته لهم كمحبتهم له ونصرته لهم كنصرتهم له
وموالاته لهم كموالاتهم له وذكر مخادعته لهم كمخادعتهم له تعالى الله
عن القبايح وساير ذلك من الافعال التى تجرى بين تعالى ان
لا يعتقدن معتقد انى اذا فعلت به فعلا حسنا مما اذا فعله انسان
باخر ولم يقابله بمثله كان ظلما منه له ان يكون قد ظلمنى فى ذلك
ولكن نفسه ظلم وخطه ضيع اذ هو منزه ان يلحقه نقيصة ان قيل
كيف يتعلق قوله وما ظلمونا بما تقدم قيل معناه قلنا لهم كلوا من طيبات
ما رزقناكم فخالفوا وما ظلمونا بمخالفتهم وفى الاية تحذير لنا من الكفران
للنعم وتلقيها بالبطر وان ما نعامله به من اساءة واحسان فعايد علينا
منافعه ومضاره قوله عز وجل واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا
منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم
خطاياكم وسنزيد المحسنين الدخول والولوج والتقحم والتوغل متقاربة
لكن الدخول عام والولوج الدخول فى مضيق والتقحم فى شدة والتوغل
فى مشتبك كالشجر واوردت الابل دخالا اذا داخلت فى الورود دخول وفلان دخيل
فى القوم وفيه دخل كناية عن الفساد ودخول فى مغرة بالكلام والدخل طائر
صغير اعتبارا بدخوله خلال الشجر الملتفة والحجرة الضيقة والقرية من قريت الشئ جمعت
وقيل اصله قرية والقرى مجمع الماء والابنية قيل قرية والمقرى للحوض والمسكة وحطة
فعلة من حططت وقرى نصبا ورفعا وبالنصب قيل هى مفعول بها نحو قلت كلمة
طيبة وقيل هى فى موضع سؤال اى حط عنا ذنوبنا نحو غفرانا وبالرفع قيل هى

بين المكافيين صح

فكل بقعة تجمع فيها الماء صح

حكاية كانه قال لما نسأله حطه وقيل معناه هي معلم محطون فيه رحالكم والغفر
ستر بحايل ومنه المغفر للبيضة والغفارة لخرقة يغطى بها الراس ولما تلف على
القوس وغفر المريض نكس كانه غطى المرض على عقله او على صحته وغفر ذنبه استعارة
فى الاصل كقولهم لبست عليه ذيلى والخطاء على ضروب احدها ان يريد غير ما يحسن
ارادته ويفعله فهذا هو الخطاء التام الماخوذ به الانسان والثانى
ان يريد ما يحسن فعله لكن وقع منه خلاف ما اراد فيقال اصاب فى
الارادة واخطا فى الفعل وهو المعنى بقوله عليه السلام رفع عن
امتى الخطا والنسيان وقوله من اجتهد فاخطا فله اجر والثالث
ان يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه فهذا مذموم لقصده
وغير محمود على فعله وجملة الامر انه يقال لمن اراد شيئا فاتفق منه خلافه
انه اخطا واذا وقع كما اراده انه اصاب ويقال لمن فعل فعلا لا يحسن
او اراد ارادة لا يجمل انه اخطا ولهذا يقال اصاب الخطاء واخطا
الصواب واصاب الصواب واخطا الخطاء فاذا هذه اللفظة مشتركة كما
ترى مترددة بين معانى يجب لمن يتحرى الحقايق تامله فهى مشكلة جدا
وقال بعض اهل اللغة يقال خطئ اذا اصاب ما اراده من الخطاء واخطاء
اذا اراده ولم يصبه والحسن يقال لما يالفه البصر ويالفه البصيرة
واحسن اذا فعل ما استحسنه احد هذين وقد تقدم ان الاحسان زايد
على العدالة لان العادل هو الذى يفعل ما اذا اخل به لحقه المذمة والمحسن
من زاد على ذلك ولذلك قيل عدل الله كله احسان وورد فى التفسير
انهم امروا بدخول بيت المقدس من باب القبة منحنين وقيل ساجدين وان
يستغفروا وذكر بعض المحققين ان الاشارة مع ارادة الظاهر بدخول
القرية الى الدخول تحت حجر الشريعة وبالاكل الى تحرى ما يبلغهم الى العيش
الرغد وبدخول الباب سجدا سلوك الاستقامة على التذلل والتخضع
وبقوله حطه الى الاستغفار قولا وفعلا طلبا لحط الذنوب فقال بعضهم
الاشارة به الى التحقق بالعلم الذى اتاهم به موسى عليه السلام وتناولهم منه

والتمسك به

والتمسك به فهو الحلال الحلو الذى يتناول بلا خطر اذ جميع المتناولات
فى تناوله مزاحمة البعض ومنع الغير عنه على وجه الا العلم فانه يمكن
لكل احد ان يتناول كل جزء منه بلا منع منه للاخر وامر بسلوك طريقه
على ما يجب وذلك بان لا تقدم ما يجب ان يؤخر او يؤخر ما شانه ان يقدم
وعلى ذلك قوله عز وجل واتوا البيوت من ابوابها والاشارة بالقرية الى العلم
كاشارة النبى عليه السلام بالمدينة اليه حيث قال انا مدينة العلم
وعلى بابها وهذان القولان يتقاربان فان العلم والعمل متلازمان
وبهما يتم الايمان لكن الاول نظر الى المنتهى الذى هو العمل والثانى نظر الى
المبداء الذى هو العلم وبحسب هذه الاية قوله تعالى ادخلوا الارض المقدسة التى
كتب الله لكم قوله عز وجل فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فانزلنا على
الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون التبديل والتغيير يتقاربان
لكن اكثر ما يقال التبديل فى شئ يجعل مكان اخر والتغيير فى حالة للشئ تغير
كالماء الحار اذا جعل باردا وقيل الابدال من الناس قوم يجعلهم الله مكان
اخرين هم الذين بدلوا احوالهم البهيمية بالاحوال الملكية حسب الطاقة والرجز
الرجس والنجس يتقارب معانيها تقارب الفاظها نحو السراط والزراط والبراق
والبساق واصل ذلك لما يعارف ذوقا او شما او عقلا او شرعا فالكريه
بالعقل والشرع يعبر عنه بالخبث والقذر ونحو ذلك كما يعبر عن ضده
بالطيب والنظيف وعلى ذلك قوله انما المشركون نجس وقوله انما الخمر و
الميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فان كريه بالطبع وبعضه كريه بالشرع
وسمى العذاب رجزا فى قوله لئن كشفت عنا الرجز ورجسا فى قوله فاما الذين
فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ومن قال ليس الرجس النتن فقد وصف
الله الخمر بذلك وهى طيبة الرايحة وقد وصف الله تعالى الخمر فى الجنة باللذة
فان هذا القائل بعيد التصور للموهومات فضلا عن المعقولات وهذه الجملة اذا
تصورت علم ان الكسائى لما قال الرجس النتن والرجز العذاب والزجاج
لما قال الرجس قد يجئ للعذاب كله قريب وانما اختلافهم لنظرهم الى مواقع

مطلب فى الابدال

بعض ذلك صح

الكلمات لا الى موضوعها فى نفسها وكونها مستعارة من المحسوس للمعقول
واما تبديلهم فقد قيل انه قيل لهم قولوا حطة فقالوا استهزاء حنطة وقيل لهم
ادخلوا سجدا فدخلوا مقنعين على استاههم والاشارة بذلك فى الجملة انهم
غيروا ما شرع لهم ولم يراعوا امر الله تعالى فانزل الله عليهم العذاب وتخصيص
قوله رجزا من السماء هو ان العذاب ضربان ضرب قد يمكن على بعض الوجوه
دفاعه او يظن انه يمكن فيه ذلك وهو كل عذاب على يد آدمى او من جهة المخلوقات
كالهدم والغرق وضرب لا يمكن ولا يظن دفاعه بقوة آدمى كالطاعون والصاعقة
والموت والوجى وهو المعنى بقوله رجزا من السما ان قيل لم قال فانزلنا على
الذين ظلموا ولم يقل فانزلنا عليهم مع انه كان اوجز قيل قصدا الى ان يبين
ان انزال الرجز كان لظلمهم لا للابدال فقط فان الابدال بعض الظلم ثم بين بقوله
بما كانوا يفسقون ان ذلك الظلم الذى تعاطوه كان فسقا منهم والله الموفق
قوله عز وجل واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت
منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق
الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين الاستسقاء طلب السقى او الاسقاء
فالسقى ان يجعل له ما يشربه والاسقاء التعريض للما وجعله له ليتناوله
متى اراد فهو اخص معنى من السقى والسقى اسم للمفعول نحو النقض و
النكث فيقال للماء سقى وللارض التى يجعل فيها الماء سقى والعصا اصله
من الواو بدلالة قولهم عصوته نحو هروته اذا ضربته بهما وقيل عصيته
و قيل عصيته بالسيف وعصى فلان اصله ان يتناول العصا فيضرب بها
ثم كثر تعبيره عن الخارج من الطاعة فصار العصا اسما للطاعة حتى
قيل شق فلان العصا ولما كانت عادة المسافر ملازمة العصا قيل ألقى
فلان عصاه اذا ترك السفر والانفجار والانبجاس والانصداع والانشقاق
يتقارب لكن الانشقاق عام والانصداع اكثر ما يقال فى الاشيا الصلبة
والانفجار فى الاشيا اللينة ومنه فجرة الوادى للمكان الذى يتشعب منه الماء
واستعير للخروج عن خطر الشريعة لتصور الفاجر بصورة الماء المنفجر

من الحوض

من الحوض واستعير الانفجار والانصداع والانشقاق لظهور الفجر
وقولهم فجر اى كذب هو استعمال لفظ عام فى موضع خاص فان الكذب بعض
الفجور اذ قد يكون الفجور قولا وفعلا والانبجاس يقارب الانفجار الا ان
الانبجاس لا يكون الا واسعا والانفجار يستعمل فى الضيق والواسع فكل انبجاس
انفجار وليس كل انفجار انبجاسا فاذا صح ان قيل ههنا انفجرت وفى غيرها انبجست لان
العام يستعمل ابدا مكان الخاص والمشرب مكان الشرب وسمى الشعر على الشفة
العليا والعروق العروق التى فى باطن الحلق شاربا لتصورهما بصورة الشاربين
واستعير الشرب والشبع فى المصبوغ فقيل ثوب مشرب ومشبع صبغا واشربت
فلانا كذا مكنته فى نفسه وعلى ذلك واشربوا فى قلوبهم العجل والعيث والعثى
يتقاربان نحو جذب وجبذ يقال عثى يعثى عثا وعثى يعثو عثوا وعاث
يعيث عيثا الا ان العيث اكثر ما يقال فيما يدرك حسا والعثو فيما يدرك
حكما فان قيل فما فائدة قوله مفسدين والعثو ضرب من الافساد وقيل قد قال
بعض النحويين ان ذلك حال مؤكدة وذكروا الفاظا مما يشبهه وقال بعض المحققين
ان العثو وان اقتضى الفساد فليس بموضوع له بل هو كالاعتداء وقد يوجد
فى الاعتداء ما ليس بفساد وهو مقابلة المعتدى بفعله نحو فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وهذا الاعتداء ليس بافساد
بل هو بالاضافة الى ما قوبل به عدل ولولا كونه جزاء لكان افسادا
فبين تعالى ان العثو المنهى عنه هو المقصود به الافساد فالافساد
مكروه على الاطلاق ولهذا قال لا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها وقد يكون
فى صورة العثو والتعدى ما هو صلاح وعدل على ما تقدم وهذا ظاهر
والمروى فى الخبر انه كان مع موسى عليه السلام حجر اذا نزلوا منزلا وضعه
فضربه بالعصا فانفجرت منه اثنتى عشرة عينا لكل سبط عين وانكر
ذلك بعض الطبيعيين واستبعده وهذا المنكر مع انه لم يتصور قدرة الله
فى تغيير الطبايع والاستحالات الخارجة عن العادات فقد ترك النظر
على طريقته اذ قد تقرر عندهم ان حجر المقناطيس يجر الحديد وان الحجر المنفر

للنخل بنفره والحجر الحلاق يحلق الشعر وذلك كله عندهم من اسرار الطبيعة
واذا لم يكن مثل ذلك منكراً عندهم فغير ممتنع ان يخلق الله حجرا يسخره
لجذب الماء من تحت الارض وقال بعض الناس ان في الاية مع هذا المعنى
الظاهر اشارة الى معنى اخر دقيق وهو انه اريد بالعصا السياسة وذلك
يكثر في استعمالهم نحو قوله عليه السلام لا ترفع عصاك عن اهلك
وشق فلان العصا اذا خرج عن السياسة المشروعة واريد بالحجر بنو اسرائيل
الذين وصفهم الله تعالى بقوله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة
او اشد قسوة وكان موسى عليه السلام طلب لهم المداواة يعمهم العالم والجاهل
منهم عموم المطر للبقاع العامرة والغامرة فامره الله تعالى ان يسوسهم بسياسة ظاهرة
بالعلوم والاعمال التي جمل الاسلام والايمان وهي اثنى عشر خصلة التي
بينها النبي صلى الله عليه في حديث جبريل عليه السلام ستة منها الاسلام
وهي شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله والصلوة والزكوة والصيام
والحج وستة منها هي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر
والقدر خيره وشره وذلك ان هذه الاركان الاثنى عشر يتشارك في اصولها
المكلفون وان اختلف فروضهم في احكامها وفروعها وقيل ان استسقى
موسى عليه السلام لقومه هو طلب علوم لهم يعمهم ويقلهم من حيث لا يحتاج
احد فيه الى الاستعانة بالاخر بل يجري مجرى المطر العام للغني والفقير فبين
الله تعالى ان ذلك ليس من الحكمة اذ قد جعل بنية الدنيا على تفاوت بين بينها
ولذلك قال نحن قسمنا بينهم في الحيوة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض
درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وامره ان شرع لهم بالسنة الاسباط الاثنى عشر
انهارا من العلوم يتناول كل فرقة على قدر منزلته واستحقاقه من مشربه
وقيل ان موسى عليه السلام طلب لهم العلوم الموهبية وهي الحكمة الحقيقية
التي نبه عليها الخضر حيث قال له موسى عليه السلام هل اتبعك على ان
تعلمني مما علمت رشدا فبين الله تعالى له ان منزلة بني اسرائيل تقصر عن ادراك
وامره ان يأخذهم بالعلوم والاعمال الظاهرة وذلك هو الاعتقادات

والعبادات والمعاملات والمزاجر التي قد بنيت عليها الشرايع كلها ولكل واحد
من ذلك ثلث منازل منزلة الظالم والمقتصد والسابق وهم العامة والخاصة
والخاصة بالقهر اليقيني فهذه اثنى عشر خصلة من استكملها بلغ منزلة من وصفهم
تعالى بقوله والذين اهتدوا زادهم هدى ووصف به اصحاب الكهف في قوله
انهم فتية امنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وهذه الاقوال
محققة في نفسها وان لم تكن مقصودة في الاية والله اعلم واذ قلتم يا موسى
لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها
وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذي هو ادنى بالذي
هو خير الى قوله ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون الصبر الحبس على المكروه
وذلك ضربان احدهما حبس الغير فيتعدى نحو صبرت الدابة وصبرت يمينه اي حلفته
لا خروج له منها والثاني حبس النفس ولا يتعدى في اللفظ وهو حبس النفس
عما يقتضيه الهوى او على ما يقتضيه العقل ويختلف مواقع الصبر وربما خولف بين
اسمائها بحسب اختلاف مواقعها وان كان في مصيبة يقال له صبر لا غير وضده
الجزع وان كان في محاربة سمي شجاعة وضدها الجبن وان كان في نائبة مضجرة
سمي رحب الصدر وضده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان في امساك
كلام في الضمير سمي كتمانا وضده الذل والافشاء ثم الصبر ضربان نفسي وبدني
فالبدني اكثر لاخساء الناس والنفسي للاشراف ولذلك قال ع والصبر بالارواح
يعرف فضله صبر الملوك وليس بالاجساد والطعام ما يغتذى به مأكولا كان
او مشروبا وفي المشروب قال ومن لم يطعمه فانه مني ورجل طاعم لمن يطعم
ويتجوز به لمن حسن حاله في المطعم ويقال فرس مطعمة وبعير مطعم ومطعمات
البادي لبونه كل ذلك تصورا انها تطعم صاحبها والواحد يقال على اوجه
من حيث الجنس فيقال الانسان والفرس واحد اي من حيث الحيوانية وواحد
من حيث النوع يقال زيد وعمرو واحد اي من حيث الانسانية وواحد
من حيث الشخص وان كان ذا اجزاء كثيرة يقال رجل واحد وواحد
من حيث الشرف نحو قولهم واحد دهره وواحد من حيث العدد وهو مبدا

فالعامة توخذ منها بالقهر السلطاني والخاصة بالقهر العلمي والخاصة صح

قوله عز وجل صح

بالصبر حلفته صح

العدد بمعنى انه لو ارتفع ارتفعت الاعداد ولم يرتفع الواحد بها فالواحد
كيف ما ادرته واجزيته لم يزد فيه شيء ولم ينتقص فانه يحفظ ذاته ولذلك
قيل ان الواحدة في العدد اقرب الاشياء الى معرفة وحدانية الله تعالى
ان قيل كيف قال لن نصبر على طعام واحد وكان لهم المن والسلوى قيل
ان ذلك اشارة الى مساواته في الازمنة المختلفة كقولك فلان يفعل فعلا
واحدا في كل يوم وان كثرت افعاله اذا تحرى طريقة واحدة وداوم عليها
والدعاء اعم من النداء فان النداء يقال فيمن يكون بعيدا او في حكم البعيد والدعاء
وفي القريب وقوله ادع لنا ربك يخرج لنا ذكر جواب الدعاء ولم يذكر المطلوب
في الاول لكونه معلوما كقولك قل لفلان يعطني كذا وتقديره قل له اعطني
يعطني والنبت والنبات يقال لما ينبت الله والمصدر نبت وقد يقال ذلك
لذوي الساق من الشجر وانبت الغلام اذا راهق على طريقة الاستعارة ولنبات
عانته والبقل ما لا ينبت اصله ولا فرعه في الشتاء وابقل المكان صار
ذا بقل وتبقلت تناولته وبقل وجهه استعارة والفوم الزرع وقيل
الحنطة خاصة وقيل الثوم والثاء والفاء يبدل احدهما من الاخر نحو جدث
وجدف ومغافير ومغاثير وادنى اي اوضع ويعبر عن الوضيع بالدني
والخير يقال على ضربين احدهما الخير المطلق وهو الشيء النافع الملذ الحسن
وضده الشر المطلق وهو الضار القبيح المولم والثاني الخير المفيد وهو
ما يحصل فيه احد الاوصاف الثلثة فيصح ان يوصف بالخيرية وبالشرية
على نظرين مختلفين نحو ان يقال المال خير والمال شر ولاجل ان الخير المطلق
هو ما جمع الاوصاف الثلثة وهي غاية ما يتحرى ويطلب قيل الخير هو الذي
يطلبه الكل والشر هو الذي يهرب منه الكل فان ما جمع الحسن واللذة
والنفع يرغب فيه الكل وما جمع منه اضداده الثلثة يهرب منه الكل
والمصر اسم لكل بلد عظيم مجموع الاقطار والحدود وهو في الاصل
اسم للمصور اي المضموم بالحدود نحو النقض والنكث للمنقوض والمنكوث
وعبر عن الحد بالمصر في قول الشاعر وجعل الشمس مصرا لا خفاء به بين النهار

وبين

وبين الليل قد فصلا من حيث ان الحد معتبر فيه ومصرت الناقة
جمعت ضرعها باصبعين للحلب ولما كان خروج اللبن على ذلك
قيل غير مصور لقليلة اللبن وفلان مصور اي بخيل يعسر اخراج الشيء
منه تشبيها بذلك فمصر ههنا قيل هو البلد المعروف ولذلك قيل هو في
قراءة ابي رضي الله تعالى عنه بغير تنوين وقيل عني به مصر من الامصار والذلة يقال
على وجهين على الهوان وعلى الهوان وفي واخفض لهما جناح الذل من الرحمة
والمسكنة الفقر الذي يسكن الانسان عن التصرف ومعنى ضربت عليهم الذلة
واوجبت تشبيها بضرب الخيمة على من فيها والاحاطة به وباؤوا اي احتملوا واصل
ذلك من البواء المساواة فباء فلان بكذا تنبيه انه يحمل مقدار ما يساوي قوته
والمباءة المنزل المستوي وذلك اذا لم يكن ذا عدو وبين الله تعالى في هذه
الاية انه لما اختار الله لهم ما يبتلون به ابوا الا الميل الى القاذورات وما فيه
مراعاة القوة البهيمية والعناية بترتيبها فقال اتستبدلون الذي
هو ادنى اي اخس بما هو خير مطلق ثم قال اهبطوا مصرا وذلك على نحو
اعملوا ما شئتم فكانه قيل ان لم ترغبوا فيما اخترته لكم وفيه خلاصكم
فشانكم في قصد المكان الذي لا يعدم فيه ما ترومونه وذكر ثلث احوال
كل واحدة كالمعلول للاخرى فقال ذلك بانهم يكفرون بايات الله اي
حصلت لهم هذه العقوبة التي هي الذلة والمسكنة والغضب من اجل كفرهم
بايات الله وقتلهم النبيين وحصل لهم الكفر وقتل النبيين بالعصيان
والاعتداء وذلك كما ان الخيرات صغارها سبب لتحري كبارها كذلك
الشرور صغارها سبب لارتكاب كبارها فبين انهم لما عصوا وتعدوا
ادى ذلك بهم الى الكفر وقتل الانبياء وادى ذلك بهم الى ان لزموا
الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم وفيها تنبيه لنا ان من طلب
لنفسه غير ما اثره الله له فقد خرج من التوكل بل تعدى فقد قيل
من لم يهتد بما يختاره الله له لم يهتد بما يختاره لنفسه ولهذا قيل
في الدعاء اللهم لا تكلني الى نفسي طرفة عين واكلني كلاية الوليد

فى المهد قوله عز وجل ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى
والصابئين من آمن بالله واليوم الاخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون اليهود قيل التوبة لقوله
تعالى انا هدنا اليك اى تبنا ومنه اخذ اليهود وقيل اصل اليهود ويهود
منقول عن السريانية وهو اقرب وهاد فلان اذا تحرى طريقتهم فى الدين
والاسم العلم قد يتصور منه معنى ما يتعاطاه المسمى او المنسوب اليه ثم يشتق
منه نحو قولهم تفرعن فلان اذا فعل من الجور ما كان يتعاطاه فرعون
وتطفل فلان اذا فعل فعل طفيل فى كونه وارشاً او واغلاً فى الدعوات
وقالوا لاط فلان وتلوط اذا فعل فعل آل قوم لوط وهذا ابعد من الاول
ولما كان اليهود قبل ان نسخ دين حق قيل لمن تاب هاد حتى كثر ذلك
ولما تصور منه الحركة عند القراءة شبه بهم المتحرك طوراً والماشى مشياً
مخصوصاً طوراً فقيل تهود فلان فى مشيه وهود الرابض الدابة اذا
سيرها برفق واما النصارى فقد قيل هو مما حكى عن المسيح من انصارى
الى الله قال الحواريون نحن انصار الله والاقرب ما قال بعضهم ان
المسيح كان من قرية يقال لها نصران فاما ان سموا باسمها ثم جمعته
العرب على نصارى نحو سكران وسكارى او جعلوا منسوبين اليها جمعت
نحو مهرى ومهارى والصابئين قيل قوم كانوا على دين نوح وذلك
كان من اديان الحق قبل النسخ وقولهم صبا فلان اذا خرج من دينه
الى دين اخر يجوز ان يكون اصله فيمن كان يخرج الى دينهم ثم صار
يستعمل فى كل حاد ويجوز ان يكون صبا عربيا طابق ذلك وصبا
ناب البعير طلع ومن قرا صابئين فقد قيل هو من صبا يصبو وقيل
اصله صبأ فترك همزه والاجر والجزاء والثواب يتقارب لكن الاكثر
فى الجزاء ان يستعمل فى المعاملة بين الاكفاء او فيما يجرى مجراه بضرب
من التلطف والاجر فيما يعطى الرفيع من دونه والثواب فيما يرجع
الى الانسان من نفع عن فعله وقد تقدم ان الايمان يستعمل على وجهين

احدهما

احدهما الاقرار بالشهادتين الذى يؤمن نفس الانسان وماله
عن الاباحة الا بحق وذلك بعد استقرار هذا الدين مختص به كالاسلام
والثانى تحرى اليقين فيما يتعاطاه الانسان من امر دينه فقوله
ان الذين امنوا عنى به المستدينين بدين محمد صلى الله عليه وسلم وقوله
من آمن بالله عنى به المتحرى للاعتقاد اليقينى فهو غير الاول ولما
كانت مشاهير الاديان هذه الاربع بين تعالى ان كل من تعاطى دينا
من هذه الاديان فى وقت شرعه وقبل ان نسخ عنه فتحرى فى ذلك
اعتقاده بالاعمال الصالحة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون وتبين
صحة ذلك ما روى ان سلمان الفارسى رضى الله عنه لما ذكر له
خبر النبى صلى الله عليه وسلم قصده وامن به وذكر حسن احوال رهبان
صحبهم قال النبى عليه السلام ماتوا وهم فى النار فانزل الله تعالى هذه
الاية ثم قال عليه السلام من مات على دين عيسى قبل ان سمع بى فهو
على خير ومن سمع بى ولم يؤمن بى فقد هلك وقول ابن عباس رضى
الله تعالى وسعيد رضى الله عنهم ان هذا منسوخ بقوله ومن يتبع غير الاسلام
دينا فلن يقبل يعنون ان هذه الاديان كلها منسوخة بدين الاسلام
وان الله عز وجل جعل لهم الاجر قبل وقت النبى عليه السلام فاما
فى وقته فالاديان كلها منسوخة بدينه واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا
فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون
الميثاق عقد يمين او عهد يقال اوثقت كذا ووثقته ووثقت به ثقة ثم
قيل رجل ثقة وقوم ثقة ثم استعير لفظها للموثوق به والميثاق الذى اخذ منهم
ما ذكره الله تعالى فى قوله واذ اخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا
الله وفى قوله ولقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر
نقيبا وفى قوله واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب
وحكمة الاية والطور قيل هو اسم لجبل مخصوص وقيل اسم لكل جبل
ينبت شيا وطابق لفظه لفظ الطور اى الغناء وطار يطور لسرعة

الاعتقاد اليقيني واتبع صح

قوله عز وجل صح

مؤكد صح

المشى كما ان طاريطير للسباحة فى الهوا والقوة يستعمل تارة بمعنى القدرة
وتارة للتهيؤ الموجود فى الشئ نحو ان يقال النوى بالقوة نخلة اى
متهيئ ومترشح ان يكون منه ذلك ويستعمل القوة فى البدن تارة
وهو الاظهر وتارة فى النفس ولما كانت القوة للشئ الموجودة
فى الشئ سميت المعادة نواتصورا منها ذلك ثم قيل اقوى فلان اذا
صار فى قواى قفر وتصور من حال الفقر الفقر فاستعير الاقوا للافتقار
استعارة قولهم اترب وارمل لذلك فقوله خذوا ما اتيناكم بقوة اى
تعاطوا ما فيه بعلم ودراية فالعلم هو الذى يقوى الانسان ويبلغه
المقصود من امور الدين وقال الضحاك بقوة اى بطاعة الله وذلك
لما روى اقوى الناس من اطاع الله واتقاه وقيل بقوة اى بعمل ما فيه
وذلك صحيح بنظر فان تعاطى كل جزء من العمل الصالح يقوى الانسان
على ما فوقه وقد تقدم ان الذكر ذكران ذكر باللسان وذكر بالقلب
وانه يتجوز به فى الحفظ والمراعاة فيقال اذكر كذا كما يقال فى الترك
النسيان وذلك سبب لحفظ صورة الشئ فى النفس كما ان النسيان
والترك سبب لانحذافها عنها فمن قال الذكر والنسيان ليسا من فعل الانسان
فانما نظر الى الغاية التى هى المسبب دون المبداء الذى هو السبب ومن قال
قد يكون من فعل الانسان فانما اعتبر السبب الذى عنده يحصل ويثبت صورة
الشئ فى النفس وعنده يحذف ومعنى الاية قيل ان موسى عليه السلام لما اتى
بنى اسرائيل بالتورية متضمنه لاحكام شريعتهم ابوا ان يلتزموها فامر الله الملائكة
ان ترفع الطور فقيل لهم خذوها والا طرح عليكم وذلك قوله واذ نتقنا
الجبل فوقهم كانه ظلة الاية ان قيل ان هذا يكون الجاء ولا يستحق به الثواب قيل
لم يستحقوا الثواب بالالتزام وانما استحقوا بالعمل بها من بعد فاما فى التزامها فمضطرون
وقال بعض الناس عنى بالطور تشديد الامر عليهم وجعل ذلك مثلا
وذلك بعيد وقوله ورفعنا فوقكم الطور الواو فيه للحال لا للعطف
لان اخذ الميثاق كان بعد رفع الطور وذلك نحو قول الشاعر
قالت ولم يقصد لقيل الخنا مهلا فقد ابلغت اسماعى ثم توليتم من بعد

قوله عز وجل ثم

ذلك

ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين التولى
تفعل من الولاية فى الاصل ويقتضى تولى الامر حصوله فى اقرب المواضع منه
واذا قيل تولى عنه فمعناه ترك التولى معرضا فالتولى عن الشئ اخص من
الاعراض والافضال والاحسان والانعام لا يكاد يفرق بينها فى التعارف
سيما اذا وصف به البارى سبحانه وان كان قد يختلف فى اصل الموضوع
ومن حيث الاشتقاق فالافضال بذل ما لا يجب عليه او ترك ما يجب له
وذلك من الفضل وهو الزائد على العدل والاحسان الفعل الحسن سواء
كان واجبا وعدلا او نافلة وزائدا على العدل وان كان فى قوله تعالى
ان الله يامر بالعدل والاحسان الاية يقتضى ما يزيد على العدل والانعام
يقتضى ما يتنعم عليه ولا يكاد يقال فى التعارف الا اذا كان المسدى اليه
من العقلاء فلا يقال انعم على فرسه ويقال احسن اليه والفضل فى التعارف
يقال فيما يقتنيه الانسان فى نفسه تارة وفيما يعطى غيره تارة فيقال فيهما
فلان ذو فضل والثانى هو المراد ههنا وقول ابى العاليه والربيع ان فضل الله
الاسلام ورحمته القران فذلك بعض ما يقتضيه عموم اللفظ ولكن فى قولهما
تنبيه ان هذا خطاب لمن كان فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم
دون المتقدمين والخاسر المطلق فى القران هو الذى خسر اعظم ما يقتنى
وذلك نعيم الابد وهو المذكور فى قوله قل ان الخاسرين الذين خسروا
انفسهم واهليهم يوم القيامة ان قيل ان ذلك يقتضى ان لا فضل
له تعالى على الذين خسروا انفسهم قيل تخصيص من انتفع بذلك
من حيث انه قبله لا يقتضى ان لم يعرض فضله لغيره فان فضله
تعالى الدينى معرض لكل احد لكن حق الانسان ان يترشح لقبوله والانتفاع
فمثله كمثل نعمته بالشمس والصوب اللذين وان كانا عامين لا ينتفع بهما
مزرعة من لم يرشحها للانتفاع بهما كذلك فضله الدينى والعقلى
لا ينتفع به من لم يرشح نفسه لقبوله قوله عز وجل ولقد علمتم الذين
اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين العلم

به المنعم

ههنا بمعنى المعرفة ويتعدى ذلك الى مفعول واحد وحقيقة ذلك
ان معارفنا ضربان احدهما حصول صور الموجودات فى النفس وذلك
كالمعرفة بذات الشئ والثانى الحكم موجود شئ لشئ هو موجود له والحكم
بنفى شئ عن شئ هو منتف عنه فالاول يقال له معرفة وعلم ويتعدى
الى مفعول واحد وعلى ذلك قوله ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى
السبت وقوله لا تعلمونهم الله يعلمهم والثانى يقال له علم ولا يقال له
معرفة ويتعدى الى مفعولين لا يصح الاقتصار فيه على احدهما من حيث
ان ذلك يقتضى اثبات حكم او نفى حكم لمعلوم والاعتداء مجاوزة
الحق على وجه محظور قال الحسن كان اعتداؤهم فى السبت اخذهم الحيتان
على جهة الاستحلال وقيل حبسهم اياها فى الشبائك يوم السبت ليأخذوها
يوم الاحد والسبت فى الاصل راحة بعد تعب واستعمل فى الشعر اذا حلق
لهذا المعنى وفى الجلد اذا ازيل عنه الشعر تشبيها به وقيل للنعل سبتى اى مسبوت
نحو نقض ونكث والسبات للنوم من ذلك والسبت قيل جعل اسما للنوم من
ذلك وخسأت الكلب فخسأ زجرته فانزجر وخسأ البصر من ذلك اى انقبض
وقوله قلنا لهم كونوا قردة اى جعلناهم فذكر القول ههنا تنبيها على سرعة
جعله كذلك انما قولنا لشئ اذا اردناه اى جعلنا له وبيان جعله الانسان
قردة وخنازير يحتاج فيه الى مقدمة وهى ان الانسان اتم ما اوجده الله تعالى
فى هذا العالم واشرف فان الاعيان المبصرات بالقول المجمل اربعة الجماد وهو جسم
غير النامى ثم النبات وهو الجسم النامى ثم الحيوان وهو النامى الحساس ثم الانسان
وهو الحساس المروى فللانسان صورتان بهما باين ما سواه احدهما مدركه
بالحساسة وهو الشكل المخصوص والثانية مدركه بالعقل وهو ما خص به
من قوة الفكر والتميز والعقل فالانسان بهذه القوة يشابه الملائكة وبقوة
الشهوية والغضبية يشابه البهائم فصار واسطة بين القبيلتين وفيه تمكن
من التشبه بالقبيلتين اما تشبهه بالملائكة فباماتة قوته الشهوية بقدر
الطاقة وتربية قوته الفكرية وتعاطيه ما وصف الله به الملائكة فى قوله

لايعصون

لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون واما شبهه بالبهائم فباماتة قوته
الفكرية وتربية قوته الغضبية والشهوية وتعاطيه ما وصف الله به الكفار
فقال يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام بل هم اضل فاذا ثبت ذلك فمن
اعتبر الصورة المعقولة قال هذا مثل ضربه الله لهم كقوله كمثل الحمار
يحمل اسفارا وقوى ذلك بقوله وجعل منهم القردة والخنازير وعبد
الطاغوت واليه ذهب مجاهد ومن اعتبر الصورة الشكلية قال
جعلهم على شكل القردة والخنازير كذا روى عن ابن عباس رضى الله
تعالى عنهما والحكمة يقتضى الامرين اذا تحرى بذلك ردع الكافة فان تغيير
الصور المعقولة لا يعرفه الا الخاصة من اولى البصائر والعقول الراجحة
وتغيير الصور المحسوسة يشاركهم فيها العامة واصحاب الحواس والذين لا يرتدعون
الا بما يدركه حواسهم فتنبيههم نحوهم فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها

قوله عز وجل

وموعظة للمتقين النكال العقوبة الرادعة على سبيل القهر والفضيحة المشهورة
وهو منقول عن نكل فلان عن كذا اى ارتدع ومنه النكل للقيد
ولحديد اللجام ولكل ما ينكل به والوعظ ردع بالعبارة والاحالة على الاعتبار
وقوله لما بين يديها اى لما فى زمانها وما خلفها اى لمن بعدها ولما كانت
عامة السياسات ضربين قهرية وهى للعامة وذلك بالنكال ووعظية
وهى للخاصة وذلك بالمقال ذكر الله تعالى انه جمع فى ذلك الامرين نكالا
لعامتهم وموعظة لخاصتهم وهم المتقون فان قيل لم قال لما بين يديها
ولم يقل لمن بين يديها قيل فى ذلك تنبيه على لطيفة وهى ان لفظ ما
يعبر بها عن الاجناس من الحيوان وغيره ومن لا يعبر به موردا الا
عن العقلاء ولما قال فى الجملة ان هم الا كالانعام استعير لهم لفظ ما تنبيها
على ما ذكرنا وعلى ذلك كثير مما وضع ما وضع من فى كلامهم ويكشف ذلك
قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون فجعلهم
شر الدواب كما جعلهم فى الاولى اضل من الانعام وبهذا المعنى الم يعض
المحدثين فى قوله هولى بكل مكان منهم حرج كطلى اذا جئت فى استوائى

وقال بعض الادبا قوله وما خلفها نصب معطوف على الهاء فى قوله
فجعلناها اى جعلنا هذه العقوبة وهى المسخ وما خلفها من عذاب النار عقوبة
لما بين يديها اى الذنوبهم المتقدمة قوله عز وجل واذ قال موسى لقومه
ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان
اكون من الجاهلين قد فرق العرب بين كثير من ذكور سائر الحيوان واناثها
فى الاسماء فقالوا رجل وامراة وجمل وناقة وثور وبقرة وعير واتان
وجعلوا فى عامة ذلك اسما يجمعها كالانسان والبعير والحمار وربما
جمعوها تحت احد اسمى الذكر والانثى كقولهم البقر والضبع وقيل سمى البقر
لانه يبقر الارض اى يشقها والاقرب ان يكون البقر اصلا فى الباب ثم اشتق منه
هذه الافعال بحسب تصورها منه فلما عرف من البقر هذا الفعل اشتق
من لفظه بقر وشبه به بقر فلان بطن فلان وتصور انفعال من البقر
وهو ما فيه من البلادة فاشتق منه بقر فلان اذا تبلد فى الامر تبلد البقر
وتصور منه اسراع مضطرب فقيل بقر اذا اسرع اسراعه وقيل لجماعة البقر
نحو الجمير والكليب وقيل الباقر للبقر واصحابها وعلى ذلك الجامل وذلك
كقولهم لابن وتامر فى انه اسم للبن وصاحبه لكن الباقر يستعمل لجماعة البقر
منفردا نحو قول الشاعر "وما ذنبه ان عافت الما باقر" والعوذ الالتجاء الى الغير
والتعلق به وعوذه اذا ارقاه منه والعوذة اسم لما يعاذ به من الشر وقيل
اطيب اللحم عوذه اى ما عاذ بالعظم وتمسك به والجهل عدم العلم وربما جعله
اهل اللغة وبعض المتكلمين معنى مقتضيا للافعال الجارية على النظام
وعلى ذلك قالت العرب المجهلة للامر وللارض او الخصلة التى تحمل الانسان
على الاعتقاد فى الشئ على خلاف ما هو به او على ايقاع الفعل على غير ما يجب
وقالوا استجهلت الريح الغصن اذا حركته حركة شديدة ويجب ان يعلم
ان الجهل ضربان احدهما افتقاد العلم والثانى تصور الشئ بخلاف ما هو
عليه وهو اعظم الجهلين ولما لم يسم كثير من المتكلمين الضرب الاول جهلا

مطلب

حدوا

حدوا الجهل بانه اعتقاد الشئ على خلاف ما هو به لكن لما كان افتقاد
العقل يقال له جهل حتى يقال عاقل وجاهل كما يقال عالم وجاهل صار
عدم العلم مسمى بالجهل والهزؤ مزح مع عيب واما السخرية فمعه تسخير بالفعل
ولهذا قال ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وهو ان يجعله منقادا لك بضرب
من الهزؤ ولما قال موسى لهم اذبحوا بقرة استطرفوا هذا الحديث فقالوا
لفباداتهم وقلة تنبههم اتتخذنا هزوا فاجابهم بجواب مختصر متضمن لمقدمتين
ونتيجة فقال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين فكانه قال الهازئ جاهل
والجهل منتف عنى فاذا لست بهازئ واخرج ذلك بقوله اعوذ بالله
مخرج منكر مستقطع لما رمى به فان قيل كيف جعل الهازئ جاهلا وقد
يهزأ الانسان وليس بجاهل قيل لما كان يقال لمن اعتقد فى الشئ خلاف
ما هو به جاهل ولمن فعل ما لا يقتضيه العلم وان لم يعتقد فيه خلاف
ما هو به جاهل والهازئ اما ان يهزأ لاعتقاده ان ذلك يجوز او لا يعتقد
ذلك ولكن يفعل ما لا يقتضيه العلم فيصح من هذا الوجه ان يقال
هو جاهل فاذا كل هازئ جاهل على احد هذين الوجهين قوله عز وجل
قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال انه يقول انها بقرة لا فارض
ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون التبيين كالتعريف الا ان
التبيين يقتضى اظهار الفصل بين الشئ وغيره والتعريف قد يكون اظهار
الشئ فى نفسه من دون اعتبار بغيره واشتقاق ذلك من البين وهو المسافة
بين الشيئين واصل الفرض قطع الحديد وهو ابلغ من القرض والمفراض
ما يقطع به الحديد ونحوه وفرض الزند والقوس مستعار من ذلك وكذا
فرضة الماء وقيل لما اوجب وقطع به الحكم فرض كفرض العبادة وما الزم
اعطاؤه من المال وسمى ما يؤخذ فى الصدقة من النعم فريضته والفارض
من البقر يجوز ان يكون من هذا لان السابغ فى الصدقة من سن البقر
اثنان البيع يجوز فى حال دون حال والمسنة يصح بدلها فى كل حال فيجوز
ان يكون سمى فارضا لهذا وقيل فرضت البقر وفرضت والبكر المقدم
على امثاله فى السن وبه سمى البكر واول نكاح واول مولود واول والد

والمسنة فالبيع صح

بكرت

وو الدة وقيل في البعير بكر وفي الفواكه باكورة وبكر فلان في الحاجة
اذا تعجل وعلى ذلك بكر تلومك بعد وهن في الندى والعوان للوسط
بين السنين وهو المحمود لانه بين الحالين وقد يجعل كناية عن المسنة
من النساء فتذم به المرأة كما قال وان اتوك فقالوا انها نصف فان امثل
نصفيها الذي ذهبا وقيل حرب عوان تشبيها بالمرأة واستعارة منها
كاستعارة القناة والشمطا وغير ذلك من الاسماء وقوله لا فارض اي غير
فارض وهو وصف او خبر مضمر وكذلك عوان لكن الاجود في عوان ان
يجعل خبر ابتدا مضمر فقد كثر عن الغرا الابتدا به وذلك قصد منهم ان
يكون خارجا عن النفي في اللفظ كما هو خارج عنه في المعنى وجاز ان
يقال بين ذلك وان كان بين يضاف الى شيئين لما كان ذلك عبارة عن
الفارض والبكر وفي قوله فافعلوا ما تؤمرون زجر لهم عن المراجعة ونطلب
العناد وتنبيه ان مراجعتهم تشدد الامر عليهم وذلك كما روى عن النبي صلى
الله عليه وسلم لما قيل له في الحج العامنا هذا ام للابد فقال بل الابد ثم

و اختلافهم صح

قال انما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم على انبيائهم قوله عز وجل
قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع
لونها تسر الناظرين الصفرة لون مخصوص وعبر عن ذلك السواد بالصفرة
كما عبر عن الخضرة بالسواد وذلك لكون الصفرة والخضرة سالكين الى السواد
وقال الحسن الصفراء هنا سوداء لكن استبعد ذلك لقوله فاقع والسواد
يقال فيه حالك لا فاقع ولفظة الصفر يتصرف على وجهين ومنه
قيل للنحاس صفر وليبيس البهمى صفار والثاني حكاية صوت وهو الصفر
وعنه قيل صفر الاناء اذا خلا حتى يسمع منه صفير لخلوه ثم صار متعارفا

مطلب

في الخالي وقيل لخالي الجوف صفر وسمت العرب الصفر الذي هو الخلو حية الجوف
من حيث انه يتألم به الجوف وذلك ان العرق الممتد من الكبد الى المعدة
اذا لم يجد غذاء امتص اجزاء المعدة فاعتقدت جهلة العرب ان ذلك حية

و ذلك بقوله صح

في البطن تعض الشراسيف حتى نفى النبي عليه السلام لا صفر والسرور انشراح

مستبطن

مستبطن في الصدر وواصله من السرر والحبور والفرح والجذل والمرح متقارب
لكن السرور هو الخالص المنكتم وسمي بذلك اعتبارا بالاسرار والحبور ما يرى
حبره اي اثره في ظاهر البشرة وهما يستعملان في المحمود واما الفرح فما يورث
اشرا وبطرا ولذلك كثيرا ما يذم فقال تعالى ان الله لا يحب الفرحين

وجذلان م

وقال وفرحوا بالحيوة الدنيا والجذل بطر معه تزعزع ولذلك قيل فرس جذل
لا اي نشيط والمرح هو النشاط المفرط فكان السرور والحبور اكثر ما يكونان
عن القوة الفكرية والفرح والجذل والمرح عن القوة الشهوية ومن قال
تسر الناظرين اي تعجب فعلى التوسع من حيث ان الاعجاب بالشيء والسرور به
كثيرا ما يجتمعان قوله عز وجل قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر
تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون ان قيل لم قال ما هي ولم يقل
اي بقرة هي او كيف هي وما يسئل به عن الاجناس والانواع وانما يسئل عن الاعراض
بكيف وباي قيل انما قد يسئل به عن كل ذلك فيقال ما هذا الانسان اي ما حاله
وما صفته كما يقال كيف هذا الانسان واي انسان هو وكيف واي لا يسئل بهما
عن الاجناس والانواع والفصل بين ذلك ان لفظ ما من لفظه اي وكيف

بالنوع م

يجري مجرى الجنس من الانواع فكما يصح ان يعبر عن النوع بالجنس فيقال للانسان
هو حيوان ولا يصح ان يعبر عن الجنس بالنوع بالجنس فيقال لكل حيوان انسان

بما ولا يصح ان يعبر عن كل ما يقال فيه ما باي وكيف م

كذلك يصح ان يعبر عن اي وكيف وقرئ تشابه على لفظ الماضي فجعل لفظ
البقر مذكرا وتشابه بالتخفيف على تقدير تتشابه فحذف احدى التائين وقرئ
تشابه بتشديد الشين على ادغام التاء في الشين وقرئ تشابه بالتشديد
على الادغام والتذكير والاشتباه ان يشبه البعض البعض فيصعب التمييز بينهما
وروي انهم لما قرنوا بالمراجعة الاخيرة قولهم وانا ان شاء الله لمهتدون وفقهم الله
لمعرفة ما سألوا عنه ولترك التعنت وقال النبي عليه السلام والذي نفس
محمد بيده لو لم يستثنوا ما بينت لهم آخر الابد وفي ذلك حث حيث قال
الله تعالى لعباده على استجلاب توفيقه وضم لفظ المشيئة اي مشيئة الله
الى كل ما يذكر من مستقبل كما قال ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا

الا

الان بشاء الله تولكه عز وجل قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير
الارض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت
بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون الاثارة البحث والكشف
الشديد ومنه ثار الدخان والغبار والقطاع عن محمها والدم
فى وجه الانسان والحصبة فى البدن وتورث الامر وقوله تثير الارض
صفة لقوله ذلول لانه يراد نفى الاثارة عنها لا اثباتها لها
والحرث تذليل الارض وتسهيلها للزراعة ويكنى به عن النكاح
وعن جميع المال ويقال دابة محروثة اى مذللة والمحراث لما يحرث به
الوزع والنار والمسلمة المتروكة سليمة من العاهات واصل ذلك
من السلامة والتسليم اصله بذل السلامة وجعل فى التعارف
لبذل المقالة المخصوصة لما كان ذلك فى الاصل موضوعا
لبذل السلامة ولما كان قوله السلام مقتضيا لذلك قال عليه
السلام افشوا بينكم تدخلوا جنة ربكم ولم يرد بذلك المقال
دون الفعال وان كان ظاهره المقال ولهذا ضمن به الجنة وقوله
لا شية فيها اى لا اثر بها يخالف معظم لونها وهى فعلة من الوشى
واستعمل الوشى فى الكلام بالمنسوج وخص التقول على سبيل النميمة
بالوشاية والمجئ والاتيان يتقاربان لكن المجئ كانه يقال باعتبار
الحصول والاتيان باعتبار القصد ولذلك قيل للماء المجتمع جبة
وللسيل القاصد اتى وقوله قالوا الآن جئت بالحق لا يتضمن ان ما جئت به
من قبل كان باطلا وانما ارادوا الآن جئت بما تحققنا المراد منها وليس كما قال
بعض الناس ان القوم كفروا بذلك لان كلامهم متضمن ان موسى لم يكن
ياتى بالحق قبله والنفى فى قوله وما كادوا يفعلون وان دخل فى لفظ
كاد فهو متناول لقوله يفعلون نحو ما كان زيد يخرج وتقدير ذلك
كادوا يفعلون لتعذر ذلك عليهم كثرة مراجعتهم وقيل كادوا لا يفعلون

ثم تجوز به فى الزراعة صح

خشية

خشية الفضيحة واما انهم بكم اشتروا البقرة وممن اشتروها فليس
مما يفتقر اليه تفسير الآية وقال بعض الناس فى هذه الآية دلالة
على نسخ الشئ قبل فعله فان فى الاول امروا بذبح بقرة غير معينة وكان
لهم ان يذبحوا اى بقرة شاؤا وفى الثانى والثالث امروا بذبح بقرة مخصوصة
فكانهم نهوا عما كانوا امروا به من قبل وليس الامر كذلك فان الاول امر
مطلق والثانى والثالث كالبيان له لما راجعوا ولم يسقط عنهم
ذبح البقرة بل زيد فى اوصافها وكشف عن المراد بالامر الاول وفى الآية
دلالة على جواز تاخير البيان الى وقت الحاجة قوله عز وجل واذ قتلتم
نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون فقلنا اضربوه ببعضها
كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ادّارأتم اى تدافعتم
واصل الدرء الاعوجاج فالتدارؤ ان يعوج كل على الآخر مخالفة له وقال
الخليل كوكب درى فعيل من الدرء اى تدافع الضوء ودارات عنه الحد
منه ووزن ادارأتم من الفعل تفاعلتم اصله تدارأتم فاريد الادغام
تخفيفا فابدل من التاء دال فسكن للادغام واجتلب لها الف الوصل
فحصل على افاعلتم وقال بعض الادباء ادارأتم افتعلتم وغلط فيه من اوجه
اولا ان ادارأتم على ثمنية احرف وافتعلتم على سبعة احرف وثانيا
ان الذى يلى الف الوصل تاء فجعلها دالا وثالثا ان الذى يلى الثانى دال
فجعلها تاء ورابعا ان الفعل الصحيح العين لا يكون ما بعد تاء الافتعال
منه الا متحركا وقد جعله ههنا ساكنا وخامسا ان ههنا قد دخل بين
التاء والدال زايد وفى افتعلتم لا يدخل ذلك وسادسا انه انزل الالف
منزل العين وليست بعين وسابعا ان تاء افتعل قبله حرفان وبعده حرفان
وادارأ بعد التاء ثلثة احرف وثامنا ان عين افتعل فى المستقبل مكسور وعين
اداراتم فى المستقبل مفتوح وفى قوله والله مخرج ما كنتم تكتمون اعتراض
متضمن لتمرد وتنبيه انه تعالى لا يخفى عليه خافية وان كل من عمل خيرا

ليتهدد

اوشرا فان الله تعالى لا يظهره على بعض الوجوه وعلى ذلك روى ما عمل
عبد حسنة فى تسعة ابيات الا اظهره الله تعالى لقوله والله مخرج
ما كنتم تكتمون ونظم هذه الايات مشكل فقد كان فى الظاهر يقتضى
ان يكون قوله قتلتم نفسا متقدما على قوله واذ قال موسى لقومه لان
امر موسى عليه السلام بذبح البقرة بعد التدارؤ فى قتل النفس والظاهر
ان ذبح البقرة قد كان من قبل وبيان ذلك انه قد قيل فى ذلك قولان احدهما
ان موسى عليه السلام قد امر بنى اسرائيل ان تذبحوا بقرة قبل الحادثة
فلذلك تعجبوا وقالوا اتتخذنا هزوا فلما ذبحوا البقرة اتفق حصول المقتول
فقال موسى لما راجعوه اضربوه ببعضها وقيل بل كان الامر بذبح البقرة بعد
وقوع التشاجر وعلى هذا قوله واذ قتلتم نفسا ليس بمعطوف على قوله واذ قال
موسى لقومه بل هو فى موضع الحال له كانه قيل واذكروا اذ قال موسى لقومه
الاية وذلك اذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها او واذ قتلتم نفسا كان ذلك لكن
اختصر وفى قوله اضربوه ببعضها اختصار كانه قيل ليحيى فحى واما باى عضو
ضرب فقد قال مجاهد بفخذها وقال السدى بمضغة من لحمها وقال الفرا
بذنبها وقال وهب باصغريها قلبها ولسانها وظاهر الاية لا يقتضى تخصيص عضو
وقوله كذلك يحيى الله قيل هو حكاية عن قول موسى عليه السلام لقومه وقيل
بل هو خطاب من الله تعالى لهذه الامة تنبيها على الاعتبار باحيائه الموتى
وقد استبعد بعض الناس ذلك وما حكاه الله منه وانكر حصول ذلك
الفعل على الحقيقة وقال ذلك ممتنع من حيث الطبيعة وايضا فان ذلك
لا يعرف فيه حكمة الهية فاما استبعاده ذلك من حيث الطبيعة فانما هو
استبعاد للاحياء والنشور ولذلك موضع لا يختص بالتفسير ومن كان
ذلك طريقته فلا خوض معه فى تفسير القرآن واما الحكمة فيه فظاهرة
اذ هو من المعجزات المحسوسة الباهرة للعقول واما تخصيص البقرة فان كثيرا
من حكمة الله تعالى لا يمكن للبشر الوقوف عليه ولو لم يكن فى تخصيص بقرة على

[margin: واذ هم]

وصف مخصوص الا بتوافر المامورين بذلك على طلبها واستيجاب الثواب
فى بذل ثمنها وجلب نفع عظيم الى صاحبها لكان فى ذلك حكمة عظيمة وفى الاية
تنبيه على ان الجماعة التى حكمهم واحد يجوز ان ينسب الفعل اليهم وان كان
واقعا من بعضهم ولا يكون كذبا كما ان الجملة المركبة من شخص واحد
يصح ان ينسب اليها ما وقع من عضو منها وذكر بعض الصوفية ان
الله تعالى قصد بما ذكره لبنى اسرائيل اشارة الى معنى لطيف فان الامر
بذبح البقرة تذليل القوة الشهوية ولما لم يتنبهوا لمراده قالوا اتتخذنا
هزوا وبين لقوله لا فارض ولا بكر ان حق الانسان ان يتحرى فى اماتة شهوته
وقت ما يزول عنه شره صباه فلا يكون كبكر ولم يلحقه حسو الكبر فيكون
كفارض ثم نبه بما ذكره من اللون انه لا يجب ان يمنع من اماتة شهوته
كونها رائقة المنظر بل يجب ان يميتها اعجب ما تكون اليه ثم نبه بقوله
لا ذلول تثير الارض ان النفس التى تحمل على تذليلها فى العبادة هى النفس
التى لم تستعبدها الدنيا ولم يتاثر بدنسها ولم تتوسم بمقابحها وظاهر
الاية لا يقتضى ذلك لكن مثله اذا حكى فتصحيحه مفوض الى فكرة
قاريه ومتامله والله اعلم قوله عز وجل ثم قست قلوبكم فهى كالحجارة
او اشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق
فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل
عما تعملون قسا وحسا وعسا يتقارب معانيها تقارب الفاظها
فالقساوة يقال فى الصلب الذى لا تخلخل فيه كالحجر ونحوه وقيل قلب
قاس تشبيها به وعسا اذا كان معه عصيان فهو يقارب عصى وحسا يقال
فيما يتصلب والصلابة يقال فيما فى جوهره شدة واما الشدة فيقال
فيما تعتبر فيه انضمام الاجزاء بعضها الى بعض ومنه قيل شددته وشد
الشئ واشتد وقيل للعدو الشد كما يقال فيه القبض والتقريب والشدة
تارة يقال فى القوة الجسمية وتارة فى القوة النفسية وقولهم بلغ
فلان اشده اى حالا استمر بها نفسه وجسمه والنهر يقال للمسيل الماء

[margin: ذلك صح]
[margin: امر صح]

الواسع وللماء جميعًا و لتصور السعة فيه يقال منه انهرت فتقه
اى اوسعته والنهار خص به السعة فيما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس
والشق ان يجعل الشئ شقين وقيل للاخوين شقيقان وللخلاف
الشقاق اذ هو ضد الايتلاف والشقيقة فى الداء تشبيها بذلك
ولهذا قيل له الصداع والخشية خوف عن تعظيم المخشى وقد تقدم
الفرق بينه وبين اخواته والغفلة والسهو والنسيان تتقارب
لكن النسيان بالخلاف ذكر الشئ عن القلب والغفلة استتاره فى
بعض الاحوال اشتغالًا بغيره والسهو يقاربه الا ان الغفلة اكثر
ما يقال فيما تركته وحقه ان لا يترك والسهو يقال فيه وفيما فعلته
ولم يكن حقه ان يفعل فاذا السهو اعم من الغفلة و ا يستعمل لاحد
الشيئين وقول من قال هو للشك فنظر منه الى بعض تفاصيله فان
الشك لا يفيده او بالقصد الاول فقد يقال لقيت زيدا او عمرا
قصدًا الى الاجمال والابهام او لعلة التفصيل وقد بين الله تعالى بالاية
انهم ارتكبوا ذنوبا قست بها قلوبهم بعد ايات تقتضيه لِلين قلوبهم من احياء
الموتى ومسخ الناس قردة وخنازير ورفع الطور فوقهم وانها صارت
فى القساوة بحيث ان قلت هى كالحجارة قساوة صح بنظر وان قلت هى
اشد من الحجارة صح بنظر ثم ذكر حكما كليا فقال وان من الحجارة اى من القلوب
القاسية التى هى كالحجارة فذكر المشبه بلفظ المشبه به تحقيقا
للتشبيه كقولك هم كبقرة ومن البقرة ما يفعل كذا اى من القوم الذين
كالبقرة فكانه قيل وان من القاسية قلوبهم من يراجع فبعض ينفجر
منه الانهار ومعناه حكمة بالغة كانهار منفجرة وبعض يحصل منه
نوع من العلوم يجرى مجرى الماء وقد تقدم ان الماء يضرب به المثل
فى العلم وبعض يحصل منه الخشية ونبه بفحوى الكلام ان هؤلاء المذمومين
لم يحصل منهم شئ من ذلك فهم احجار صلدة وانما قال لما يتفجر منه
ولم يقل من اعتبارا بلفظ الحجارة وهذا الذى قلناه على قول من اعتبر هذه

الاحكام

غناه

الاحكام فى المشبه دون المشبه به فاما من اعتبر ذلك فى المشبه به دون
المشبه ففيهم من تعسف جدا فى قوله وان منها لما يهبط من خشية الله
اى من الحجارة ومنهم من قارب قال ابو على الجبائى عنى بهذه الحجارة البرد الهابط
من السحاب وبقوله من خشية الله اى بخشيته وعنى بالخشية التخويف
لان الخوف والخشية واحد قال ولما كان نزول البرد تخويفا من الله
لعباده قال ذلك ثم قال وانما قلت هذا لان الحجارة جماد فلا يصح منه
الخشية قال الشيخ ابو القسم ايده الله فهذا كما ترى وقال البلخى هذا على
جهة التمثيل لما فى الحجارة من الانقياد لامر الله الذى لو كان من حى قادر
دل على انه خاشٍ لله وقال ابو مسلم وان منها لما يهبط الهاء فيه راجع
الى القلوب لا الى الحجارة اى من القلوب ما يخضع فيكون ذلك مستثنى
من القاسية قلوبهم كما قال وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل
اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله وقال بعضهم وان منها اى من الحجارة
لما يهبط من اجل ان يخشى الله العباد وقال مجاهد وابن جريج كل حجر
تردى من راس جبل فخشية الله نزلت به وقال الزجاج الهابط منها
قد جعل له معرفة قال ويدل على ذلك قوله لو انزلنا هذا القران على
جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله وقال الم تر ان الله
يسجد له من فى السموات ومن فى الارض الى قوله والنجوم والجبال
والشجر والدواب وقد روى مثل هذا عن السلف ولا بد فى معرفة
ذلك من مقدمة تكشف عن وجه هذا القول وحقيقته فان قوما
استسلموا لما حكى لهم من هذا النحو فانطووا على شبهة وقوما استبعدوا
ذلك واستخفوا عقل رواته وقائليه فيقال وبالله التوفيق ان قوما
من المتقدمين ذكروا ان جميع المعارف على ضربين الاول المعرفة التامة التى
هى العلم التام وذلك لعلام الغيوب الذى احاط بكل شئ علما والثانى
معرفة متزائدة وهى للانسان وذلك ان الله تعالى جعل له معرفة غريزية
وجعل له بذلك سبيلا الى تعرف كثير مما لم يعرفه وليس ذلك الا للانسان

والثالث معرفة دون ذلك وهى معرفة الحيوانات التى سخرها لايثار
اشيا نافعة لها والسعى اليها واستر ذال اشيا هى ضارة لها وتجنبها
ودفع مضار عن انفسها والرابع معرفة الناميات من الاشجار والنبات
وهى دون ما للحيوانات وليس ذلك الا فى استجلاب المنافع وما ينميها
والخامس معرفة العناصر فان كل واحد منها مسخر لان يشغل المكان
المختص به كالحجر فى طلب السفل والنار فى طلب العلو وذلك له بتسخير الله
تعالى بلا اختيار منه ولوا والدلالة على ذلك ان كل واحد من هذه العناصر
اذا نقل عن مركزه قهرا ابى الا العود اليه طوعا ولوا ويوضح ذلك ان السراج
يجتذب الادهان التى تبقيه ويابى الما الذى يطفيه وان المقناطيس يجر الحديد
ولا يجر غيره هذا ما حكوه فعلى هذا اذا قيل لهذه الاشيا معرفة فليس ببعيد
متى سلم لهم ان هذه القوى تسمى معرفة فاما اذا قيل ان للجمادات معارف
الانسان فى انها تميز وتختار وتريد فهذا مما يعافه العقول ونبه الله تعالى
تخويفا لنا ان ارتكاب الذنوب يفضى براكبها الى قساوة قلب حتى انه
ربما يعدم فيه رجا الخيرات كلها ونبه انه تعالى لا يغفل عن افعال البشر
اذ هو علام الغيوب قوله عز وجل افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان
فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون
الطمع يقارب الرجا والامل لكن الطمع اكثر ما يقال فيما يقتضيه الهوى
والامل والرجا قد يكونان فيما يقتضيه الفكر والروية ولهذا اكثر ذم الحكما
الطمع حتى قيل الطمع طبع والطمع يدنس الثياب ويعرف الاعما والاصل
فى تحريف الشى الانتها به الى ناحية يمكن جره الى غيره ثم يقال فى كل كلام
غير عن وجهه فهو محرف والسماع يقال على ما يحس وعلى ما يتصور ولذلك
وصف الله تعالى الكفار بالصم فقوله يسمعون كلام الله حمل بعضهم على مسموع منه
تعالى فجعل الفريق بعض السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام فى المناجاة
لاستماع كلامه فلما عادوا حرفوا ما سمعوه واليه ذهب السدى والحسن وابن
زيد وفى الاية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتوهين

ابن عباس والربيع وبعضهم حمله على ما كان فى الاصل منه تعالى وان سمع من غيره فجعله التوراة وجعل الفريق العلماء الذين غيروا التاويل واليه ذهب صح

للطمع

للطمع فى ايمانهم وان هؤلا اذا كان علماؤهم واحبارهم الذين سمعوا كلام
الله وعقلوه وحرفوه ولم يؤمنوا فكيف يرجى ايمان جماعتهم مع جهل
اكثرهم ان قيل كيف يقتضى امتناع بعض من الايمان قطع الطمع فى ايمان
سائرهم قيل لما كان الايمان هو العلم الحقيقى مع العمل بمقتضاه فمتى
لم يتحر ذلك من حصل له بعض العلوم تحقق ان لا يحصل لمن غنى
عن كل العلوم فذكر تعالى ذلك تبعيدا لايمانهم لا ابتا للحكم بذلك اذ ليس
كل ما لا يطمع فيه كان مايوسا منه وقوله وهم يعلمون اى يعلمون انهم
محرفون ومعاندون وفى الاية تنبيه ان ليس المانع للانسان عن تحرى
الايمان الجهل به فقط بل يكون عنادا وغلبة شهوة قوله عز وجل واذا
لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم
بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم افلا تعقلون الحديث ما يوجد
بعد ان لم يكن نطقا كان او عينا والفتح اصله فتح الغلق ولما استعمل
فى الامر المبهم والكلام الصعب الغلق استعمل فى ازالته الفتح ومنه قيل
فى الحرب وفى اباته الحجة وفى الحكم الفتح حتى قيل للحكم المفصول فتاحة
وللحاكم فتاح وقوله بما فتح الله عليكم اى بما اطلعكم عليه من العلم وهذا
اولى من قول من قال بما فتح الله عليكم من النصر فى مغازى رسول الله صلى
الله عليه وسلم من الايات التى كانت فى بدر من المواضع التى انتهى اليها قبل
وقوع الحرب فقال وهذا مصرع فلان غدا فكان كما قال فان هذا لم يخصهم النبى
عليه السلام بالاطلاع عليه دون المؤمنين حتى كانوا يكتمونه
ويتواصوبه والحجة هى ما يقتضى صحة احد النقيضين واصله من الحج اى
القصد للزيارة وسمى سبر الجراحة حج وخلا فلان اى صار فى خلا والاية
اخبار عن المنافقين منهم وانهم يظهرون الايمان ويتواصون فيما بينهم
ان لا يظهروا ما انكشف لهم من حقايق النبوة لئلا يصير ذلك حجة عليهم
فى حكم الله وهذا معنى قوله عند ربكم كقوله فاولئك عند الله هم
الكاذبون اى فى حكمه وهذا التاويل اولى من قال ليحاجوكم به عند

هذا مصرع فلان غدا صح

من قول صح

ربكم اى يوم القيمة وقيل عند ربكم عند سيد كم يوم الخصام وقوله
افلا تعقلون يصح ان يكون من جملة الحكاية عنهم على سبيل انكار
بعضهم على بعض ويصح ان يكون استيناف انكار من الله عز وجل على سبيل
ما يسمى في البلاغة الالتفات ويصح ان يكون ذلك خطابا للمؤمنين تنبيها
على ما يفعله الكفار والمنافقون قوله عز وجل اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون
وما يعلنون هذا تبكيت لهم وانكار لما يتعاطونه مع علمهم بان الله لا يخفى
عليه خافية قوله عز وجل ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني

مطلب

وانهم الا يظنون الامى قيل هو الذى لا يكتب واصل هذا اللفظ في المنسوب
الى الام ولما كان الام هى المنشئة المربية للولد تصور ذلك فى اشيا فقيل له
ام نحو ام الاصبع وام الجيش للرئيس وام القرى لمكة وذلك لنحو ما روى انه
لما خلق الارض دحاها من تحت الكعبة وام الكتاب للوح المحفوظ ولفاتحة
الكتاب تصوراً انهما منشا الكتاب وقيل امه اذا قصده فصد الانسان للام
المشفقة عليه ومنه اشتق الامام والامة فالامى في التعارف هو المنسوب
الى من يجرى منه مجرى امه فى العناية وتربيته فى الفضيلة وحفظها عليه
اما ما كان ذلك او غيره واستعمل فيمن لا يقرأ فيحتاج الى من يحفظ عليه معارفه
وهذه الحالة فضيلة للنبى عليه السلام ونقيصة لغيره من حيث انه عليه السلام
حفظ علومه فيض الهى ونور سماوى فصار افتقاره غنى كما روى عنه صلى الله
تعالى عليه وسلم انه كان يقول فى دعائه اللهم اغننى بالافتقار اليك وغيره لما
احتاج الى ان يحفظ معلومه عليه ادمى مثله صار فى الحقيقة ناقصا وقوله
الا امانى فمعنى الاصل الدائر فى جميع متصرفات هذه اللفظة التقدير ومنه
المنا الذى يوزن به والمنى الذى منه الحيوان ومنى الله كذا اى قدر وعن
ذلك وضع الامنية فانه تقدير شئ فى النفس وتصوره فيها وذلك قد يكون
عن تخمين وظن ويكون عن روية وبنا على اصل لكن لما كان اكثره عن تخمين
صار الكذب به املك فاكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له ولما كان الكذب
تصور ذلك ويراد باللفظ صار التمنى كالمبدأ للكذب فصح ان يعبر عن الكذب

بالتمنى

انه قال صـ

بالتمنى فى نحو ما روى عن عثمان رضى الله تعالى عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولما قلناه
قال مجاهد الا امانى معناه الا كذبا وقال غيره الا تلاوة مجردة عن المعرفة
من حيث ان التلاوة بلا معرفة المعنى تجرى عند صاحبها مجرى امنية مبنية
على التخمين فان قيل فما معنى قوله تعالى على هذا وما ارسلنا من قبلك من رسول
ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته قيل قد قلنا ان التمنى كما يكون
عن تخمين وظن فقد يكون عن روية وبنا على اصل ولما كان النبى عليه
السلام كثيرا ما كان يبادر الى ما نزل به الروح الامين على قلبه حتى قيل له
لا تعجل بالقران من قبل ان يقضى اليك وحيه ولا تحرك به لسانك
لتعجل به سمى به تلاوته على ذلك تمنيا وقوله ان هم الا يظنون كناية عن
الكذب لما كان الظن واقعا بين الصدق والكذب كما كنى عنه بالخرص الذى هو
تقدير الاثمار لما كان ذلك مترددا بين الوفاق والخلاف وقد انبا الله تعالى
بالاية عن جهل الاميين وذمهم والمبالغة فى ذم علمائهم واحبارهم
فان الاميين لم يعرفوا الا مجرد التلاوة واعتمدوا على زعمائهم واحبارهم
وهم قد ضلوا واضلوا ونبهنا الله تعالى بذم الاميين على اكتساب المعارف
لئلا يحتاج الى التقليد والاعتماد على من لا يؤمن كذبه ويذم زعمائهم على
تحرى الصدق وتجنب الاضلال اذ هو اعظم من الضلال قوله عز وجل
فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به
ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون ويل تقبيح وقد
يستعمل على التحسر وما روى ابو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه انه واد
فى جهنم فليس يعنى ان الويل هو اسم لذلك الوادى وانما يعنى ان الذى جعل
لهم الويل هم المتبوئون لذلك الوادى والكسب استجلاب نفع وقوله ومن يكسب
خطيئة فعلى نحو قوله فبشرهم بعذاب اليم ان قيل ما وجه توكيد الكتابة باليد
وهى لا تكون الا بها قيل لما كان اليد العاملة يختص بها الانسان من بين
الحيوان وهى اعظم جارحة بل عامة المنافع راجعة اليها حتى لو توهمناها
مرتفعة ارتفع بها الصناعات التى بها قوام العالم كالبنا والحوك والصوغ

صارت مستعارة فى القوى جميعا والمنافع كلها حتى قيل فلان يد فلان
اذا قواه وقيل للنعمة يد لما صارت معينة للمعطى اعانة يده وحتى صار
مستعارا فى اللفظ لله تعالى بدلا عن القدرة او عن النعمة او صفة اخرى
غيرهما فذكرت مثناة مرة ومجموعة مرة تصويرا للمبالغة فى ذلك فقال
تعالى والسما بنيناها بايد وقال مما عملت ايدينا وقال لما خلقت بيدى
ووجه آخر وهو ان الفعل ضربان ابتداء واقتداء فيقال فيما كان ابتداء
هذا مما عملته يد فلان فقوله مما كتبت ايديهم اى مما اخترعوه من تلقائهم
وعلى هذا قد يحمل قوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم ان قيل
لم ذكر يكسبون بلفظ المستقبل وكتبت ايديهم بلفظ الماضى قيل تنبيها
على ما قال النبى عليه السلام من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من
عمل بها الى يوم القيمة فنبه بالآية ان ما اضلوهم واثبتوه من التاويلات
الفاسدة التى يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا
ان قيل لم ذكر الكتابة دون التقول لما كانت الكتابة متضمنة للقول
وزائدة عليه اذ هو كذب باللسان واليد صار ابلغ لان كلام اليد
يبقى رسمه والقول يضمحل اثره ان قيل ما الذى كانوا يكتبونه قيل روى
عن بعض السلف ان رؤسا اليهود كانوا يغيرون من التورية نعت النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم ثم يقولون هذا من عند الله وهذا فصل يحتاج
الى فضل شرح وهو يجب ان يتصور ان كل نبى اتى بوصف لنبى بعده
فانه اتى بلفظة معرضة واشارة مدرجة لا يعرفها الا الراسخون
فى العلم وذلك لحكمة الهية فان من شان المسوسين سيما الذين لم يتمهروا
فى الحقايق انهم متى احسوا بسايس يتعقب امامهم تواكلوا عن الايتمار للاوامر
والارتسام لزواجره وهذا معروف من عادات الناس وقد قال العلماء
ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن من ذكر النبى عليه السلام لكن
باشارات ولو كان ذلك متجليا للعوام لما عوتب علماؤهم فى كتمانه ثم ازداد
ذلك غموضا بنقله من لسان الى لسان من العبرانى الى السريانى الى العربى

وقد ذكر المحصلة الفاظا من التورية والانجيل اذا اعتبرت وجدت
دالة على صحة نبوة محمد صلى الله تعالى عليه بتعريض هو عند الراسخين فى
العلم جلى وعند العامة خفى فبان بهذه الجملة ان ما كتبت ايديهم كانت
تاويلات محرفة وقد نبه الله تعالى بالآية على التحذير من تغيير احكامه
وتبديل آياته وكتمان الحق عن اهله وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر
طمعا فى غرض من الدنيا وقد تقدم انه عنى بالثمن القليل اعراض الدنيا
وان كثرت لقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل قوله عز وجل وقالوا لن
تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله
عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون المس واللمس والحس والجس تتقارب
الا ان الحس عام فى المحسوسات والجس فيما يخفى ويدق كنبض العرق والخبر الخفى
واللمس بظاهر البشرة وكل ذلك يقال عند تاثير المحسوس فى الحاس وتغيره لاجله
واللمس كالطلب للمس وقد ينفك منه ولذلك قال والمسه فلا اجده وجعل
المس كناية عن النكاح تارة وعن الجنون تارة فقيل بفلان مس وهو ممسوس
والمسوس من الماء ما مسته الايدى ولما كان كل وعد عقدا ما وكل عقد عهدا
ما كان كل وعد عهدا فصح ان يعبر عن الوعد بالعهد ولكونه وعدا استعمل منه
الاخلاف ومعدودة قليلة ووجه ذلك انه لما كان المعدود ضربين ضربا
قليلا يسهل عده وكثيرا يعسر عده وكانت الاعراب يقل فيهم الحساب
وقوانين الحساب تصوروا الكثير متعذر العد والقليل متيسر العد فقالوا
شئ معدود ومحصور اى قليل وغير معدود ومحصور اى كثير ووجه
الآية ان اليهود اختلفت فبعض قال نعذب بعدد الايام التى عبد
اصحابنا فيها العجل وبعض قال مدة الدنيا سبعة الف سنة وانما
نعذب مكان كل الف سنة من الدنيا يوما من الآخرة وبعض قال
انما بين طرفى جهنم اربعون سنة واذا خلا العدد انقضى الاجل
ولا عذاب فبين الله تعالى ان زعمكم انا نعذب اياما معدودة لا طريق
للعقل الى معرفة ذلك وانما سبيل معرفته الاخبار منه تعالى جده

واخباره بذلك وعدا او وعده عهدا وما كان به من الله عز وجل بما لا تعلمون
فتبين بلفظ الاستفهام كذبهم فيما زعموا وقوله عند الله اى فى حكمه على ما تقدم
قوله عز وجل بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب
النار هم فيها خالدون بلى رد للنفى ونعم عدة وتصديق ويقعان فى الاستفهام
والخبر فبلى لا يكون الا فى النفى اما فى الاستفهام فنحو الست بربكم قالوا بلى
واما فى الخبر فنحو هذا واما نعم ففى الاستفهام نحو هل وجدتم ما وعد ربكم
حقا قالوا نعم ويقال انا اجيك فيقول نعم ولا يقول بلى بوجه وفى النفى
اذا قيل ما عندى شئ فقلت بلى فهو رد لكلامه واذا قلت نعم فاقرار
منك به والسيئة الفعل القبيح المقصود اليه فى نفسه ولكونها قبيحة
قوبلت بالحسنة فى عامة ما جاء فى القرآن نحو من جاء بالحسنة فله عشر
امثالها ومن جاء بالسيئة الآية وقوله وبلوناهم بالحسنات والسيئات
وقوله ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقوله ولا تستوى الحسنة
ولا السيئة والفرق بينها وبين الخطيئة ان السيئة قد يقال فيما يقصد
اليه فى نفسه والخطيئة اكثر ما يقال فيما لا يكون مقصودا اليه فى نفسه
بل يكون مقصودا الى سببه كمن يرمى صيدا فاصاب سهمه انسانا او شرب
مسكرا فجنى على رجل جناية فى سكره ثم السبب فى ذلك سببان سبب محظور
فعله كشرب السكر وسبب غير محظور كرمى الصيد فالخطأ المتجافى عنه
هو الاول دون الثانى وقد فرق العرب بين الخطائين فى اللفظ فقيل
فى الاول الخطأ وقد اخطأ وفى الثانى خطا وقد خطئ فهو خاطئ وعلى
هذا لا جناح عليكم فيما اخطأتم به وقال لا يأكله الا الخاطئون وفى
استعارة الاحاطة ابلغ تشبيه وذلك ان الانسان اذا ارتكب ذنبا
فلم يقلع عنه استجره الى معاودة مثله فتجعل على قلبه غشاوة فتجره
الى ارتكاب اكبر منه ثم ارتكابه لما هو اكبر منه يطبع على قلبه فيشجعه
على المداومة عليه فيصير ذلك عليه حائطا يمنعه عن رؤية ما وراءه
فيرى مقابح الذنوب محاسن فينحبط بكليا فى دنياه ربما يراه نعما

ومعاودة مثله صح

فيحسب

فيحسب ان لا وراء اللذات الدنيوية ولا بعد التخصص بها ورائها نعمة
فهذا معنى احاطت به خطيئته وعلى ذلك دل قوله تعالى ثم كان عاقبة
الذين اساؤا السوأى ان كذبوا بايات الله وقوله فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم
الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه ووجه آخر روى عن السلف
وان كان عائدا الى ما تقدم فالنظر اليهما مختلف وهو ان السيئة الكفر
وذلك عن مجاهد وابى وايل والربيع فبين تعالى ان من تحرى طريق
الكفر ثم استمر مريرة فى ترك الاقلاع اما لترك النظر واما لشرارة واما
لشهوة مستولية عليه حتى يصير ذلك كحائط عليه لا خروج له منه
فاولئك اصحاب النار ومن قرأ خطيئته فاعتبارا بالجنس ومن قرأ
خطيئاته فاعتبارا باحاد الذنوب وجعلهم اصحاب النار لملازمتهم
فى الدنيا ما يوجب لهم النار وفى الاخرة لملازمتهم اياها اذ كان الصاحب
انما يقال فيمن كثر ملازمته لغيره قوله عز وجل والذين امنوا وعملوا
الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون عادة القران
فى كل موضع يذكر عقاب قوم ان يذكر بازائه ثواب مضادتهم
ليرجى رحمته ويخشى عذابه وقد تقدم ان عامة ما ذكر الايمان
فى القران مقرونة بالاعمال الصالحة تنبيها ان جملة الاعتقاد والفعل
لا اعتداد بها ما لم يضامها الاعمال الصالحة اذ الاعتقاد كالاس
والعمل كالبناء ولا غناء فى اس بلا بناء كما لا اثبات للبناء بلا اس وفيه
دلالة ان قوله تعالى من قبل بلى من كسب سيئة هو الكفر واحاطة الخطيئة به
الاعمال السيئة وذلك لما قابله به من الايمان والاعمال الصالحة
قوله عز وجل واذ اخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله
وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس
حسنا واقيموا الصلوة واتوا الزكوة ثم توليتم الا قليلا منكم وانتم معرضون
الولد المولود والوليد للصبى اعتبارا بقرب ولادته كما يقال لما قرب اجتناؤه
جنى والوليدة فى الامة كناية على طريق التلطف بانها تجرى مجرى الولد

وفلان لِدَةُ فلان اى ولد معه واليتيم قد يقال لمن فقد كافله قبل البلوغ
من ابويه اما فى الناس فاباه واما فى البهايم فامه لان كفالة الولد فى الناس
على غالب وفى الحكم الى الاب وفى البهايم الى الام وقد يقال لمن يتصور بصورة
الفرد الذى اذا اعتبرت فضيلته قدران لا اباله من جنسه لكونه خارجياً
بالفضل عن طبيعة ابائه وعلى ذلك قيل الدرة اليتيمة وقد حمل على هذا
قوله تعالى الم يجدك يتيماً فاوى اى نسيج وحدك فاصطفاك كقوله تعالى
فى موسى عليه السلام واصطنعتك لنفسى واخذ هذا الميثاق المذكور
فى الاية ليس شيئاً اختص منه بنو اسرائيل فقط بل فى كل امة ولكل نبى وقد تقدم
ان هذه العبادات مما لا يجوز خلو شرع منها وان اختلفت هيئاتها واعدادها
وان كلياتها ماخوذة على الناس بقضية عقولهم والسنة انبيائهم وجزئياتها
وكيفياتها ماخوذة عليهم بالسنة انبيائهم عليهم السلام اذ لا طريق للعقل
الى معرفة جزئيات العبادات والمصالح الجحة وتقدير قوله لا تعبدون الا الله فيه
اوجه قال الكسائى ان لا تعبدوا فلما حذف ان رفع الا ايهذا الزاجرى
احضر الوغا وقال الاخفش لما افاد قوله اخذنا ميثاق بنى اسرائيل معنى
القسم اجابه بجوابه نحو حلفت لا يخرج زيد وقال قطرب لا تعبدون
فى موضع الحال تقديره غير عابدين وقال الفرا لفظه خبر ومعناه النهى
نحو لا تضار والدة بولدها بالرفع واستدل على كونه نهياً بقراءة ابى لا تعبدوا
الا الله وبعطف قوله وقولوا للناس حسناً عليه ولما تضمن اخذ الميثاق
معنى الوصية حمل عليه قوله وبالوالدين احساناً واختلف فى قوله تعالى
وقولوا للناس حسناً فذهب بعضهم الى انه منسوخ باية السيف لان المسلمين
امروا فى الابتداء ان يتلقوا الكافر والمسلم بالحسنى ثم امروا بالتغليظ والقتال
وقيل لا نسخ فيه وهو الاصح لان ذلك كقوله لهم اولا قول حسن كما قال
لموسى عليه السلام فقولا له قولاً ليناً ثم قوله وقولوا للناس حسناً يصح ان
يكون نهياً عن المقادح والكذب ثم هذه الاية ليست مخاطبة للمسلمين من
هذه الامة وانما هى حكاية ما امر به بنو اسرائيل وهما خطاب للاسلاف

الامر صح

مطلب لا طريق للعقل فى معرفة جزئيات العبادات

المتعلقة بها وليس اخذ الميثاق كله معتبرا بان يلتزمه الماخوذ عليه ويرضى به بل بان توجبه صح

يعنى ذلك كقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة الاية ولان قتالهم لا يمنع من ان يقال صح صح

من بنى

من بنى اسرائيل وقيل هو خطاب لمن كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه
وسلم منهم وقيل قوله ثم توليتم خطاب للاسلاف وقوله وانتم معرضون
خطاب لمن كان فى زمنه ان قيل ما فائدة قوله وانتم معرضون حال موكدة
لان تقديره ثم توليتم معرضين وعلى ذلك قول من جعلها خطابا لفريق
واحد والثانى ان التولى قد يكون لحاجة تدعو الى الانصراف مع ثبوت
العقد والاعراض هو الانصراف عن الشئ بالقلب والثالث ان التولى والاعراض
فى ذلك مثل ماخوذ من سلوك الطريق واذا اعتبرنا حال سالك المنهج
فى ترك سلوكه فله حالتان احديهما ان يرجع عوده الى بدئه وذلك
هو التولى والثانية ان يترك المنهج وياخذ فى عرض الطريق متخطباً
وذلك هو الاعراض والمتولى اقرب امراً الى المعرض لانه متى ندم على رجوعه
سهل عليه العود الى سلوك المنهج واخذ فى عرض المفازة الى طلب
منهجه فيعسر عليه العود اليه فمتى جعل الخطابان لفريق واحد فذلك
غاية الذم فانهم جمعوا بين العود عن السلوك والاعراض عن المسلك
ومتى جعل توليتم للسلف وانتم معرضون للخلف فتنبيه انكم شر من اسلافكم
فقد كان منهم التولى ومنكم الاعراض والاية منطوية على عامة الاحكام
الاعتقادية والعلمية والاداب الشرعية ومكارم الاخلاق وفيها ذم
لبنى اسرائيل انه مع اخذ الميثاق منهم بذلك لم يكن من اكثرهم الوفا به
قوله عز وجل واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون
انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون الدار سميت اعتباراً
بدورها وقيل داره كقولهم محله ومنزله اعتباراً بوحدة ما فان
الدار يقال لها وان انطوت على حجر وبيوت والدوارى الدهر لكرور الجديدين
والدوار فى الراس على بناء الادواء نحو الصداع ويقال للصنم التى يدار
حوله دُوار ودَوار ودوار وقوله تعالى لا تسفكون دماءكم متعلق بقوله
واذ اخذنا ميثاقكم على ما تقدم فى الاية الاولى ان قيل كيف اخذ
ميثاقهم ان لا يفعلوا ذلك بانفسهم مع كون الانسان مضطراً الى ان لا يفعلها

بعد قوله ثم توليتم قيل فيه ثلثة اقوال الاول ان قوله وانتم معرضون صح

ذلك قيل في ذلك اجوبة الاول لا يفعل ذلك بعضكم ببعض واليه
ذهب قتادة وابو العالية الثاني لا يفعلن احدكم ذلك بالاخر
فيفعل به فيكون في حكم فاعله بنفسه الثالث لا تفعلوا ما يؤدي بكم
الى صرفكم عن الحيوة الابدية الجاري مجرى القتل وهو العذاب السرمد
ولا تفعلوا ما تخرجون به انفسكم الجنة التي هي داركم فتكونوا في حكم
من اخرج نفسه من داره وعلى ذلك قوله ولا تقتلوا انفسكم وعلى
هذا حمل قوله تعالى قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا
ما رزقهم الله افتراء على الله اي شغلوهم بما يعود بوبالهم وحرموا
العلم والاقرار قد يكون باللفظ ويكون بالفعل وهو الرضي نحو
ان يقال فلان مقر بالخسف قال الشاعر • اقر كما قر الحليلة للبعل •
فقوله اقررتم وانتم تشهدون يصح ان يكونا جميعا خطابين للسلف
وان يكونا للخلف فان قيل ما الفرق بين الاقرار والشهادة قيل
الشهادة اقرار مع العلم وثبات اليقين والاقرار قد ينفك من ذلك
ولهذا اكذب الله تعالى الكفار في قولهم نشهد انك لرسول الله ولو قالوا
نقر انك لرسول الله لم يكذبوا قوله عز وجل ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم
وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان
وان ياتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتؤمنون
ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي
في الحيوة الدنيا ويوم القيمة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل
عما تعملون قيل تقدير هؤلاء يا هؤلاء وذلك مستبعد لحذف حرف النداء ولا يحذف
الا من الاعلام ومن المضاف دون غيرهما من المناديات وقيل معناه معنى
الذين فقد اجرى المبهمات مجرى الموصولات وعلى ذلك حمل الكوفيون قوله
تعالى وما تلك بيمينك وقول الشاعر • نجوت وهذا تحملين طليق • وقيل معناه
انتم كهؤلاء وتظاهرون تتعاونون واصل اللفظة من الظهر التي هي الجارحة
ولما كان الظهر من حيث الخلقة خاليا عن الحروق والعكس بخلاف البطن

وما هو كالاعلام

سمي ما

سمي ما كان بارزا ظاهرا وما كان خافيا بطنا فجعل الظهر والظهور لجميع
متصرفات هذه اللفظة اصلين وقرئ تظاهرون بالتشديد واصله
يتظاهرون ويظاهرون بالياء والتشديد على ذلك وتظاهرون بحذف
احد التائين وبالتخفيف والاثم اسم للافعال المبطئة عن الثواب ولتضمن
البطؤ قال الشاعر في صفة ناقة جمالية تغتلي بالرداف • اذا كذب الآثمات الهجير
وقوله قل فيهما اثم كبير اي في تعاطيهما ابطاء عن الخيرات فانهما شاغلان فصار
الاثم في التعارف نقيض البر وقوله عليه السلام البر ما اطمأن اليه النفس
والاثم ما حاك في صدرك فهذا حكمهما لا تفسيرهما والوزر والذنب والجرم
يتقارب لكن الوزر اسم لما يوجب العقوبة بمعاونة الغير ولهذا روي
من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها فان السان والمستن بها
متوازران متعاضدان والسان اعظم اثما اذ ليس المتبع كالمبتدع واما
الذنب فما يقتضي عاقبة مذمومة اعتبارا باذناب الامور والجرم اعتبارا
بما يحصل من ثمرة سوء العمل تشبيها بجرام النخل والعدوان هو تجاوز الحد
المرسوم في الاعتداء المرخص فيه على سبيل المجازاة في قوله فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فالتجاوز للمرسوم هو
العدوان والاسر شد يضم به بعض المشدود الى بعض يقال اسرت الرحل
والسرج والرحل وما يشد به اسار والفدا العوض الذي يختص به فكاك
الانسان وقيل الفدي والفدا واحد والاقرب ان الفداء بالمد اسم
لما يفدي به والفدي اسم للمفدي كما يقال الحمي للمحمي وان كان كل واحد منهما
يوضع موضع الاخر والحرام المنع الشديد من جهة الحكم ورجل حرام يجوز
ان يكون على وضع المصدر موضع الفاعل كانه حرم على نفسه بالتزامه
ما التزم ما كان محللا له اما بدخوله الحرم او الاحرام ويجوز ان يكون في
موضع المفعول كانه صار محرما اي ممنوعا من بعض ما كان مباحا له والشهر
سمي محرما لذلك واستحرمت الماعز كانها طلبت شيئا محرما في غيرها وذلك
كناية والخزي ذل يستحيى منه ولتضمن المعنيين استعمل تارة في الذل نحو عليه

مطلب

الخزي وفي الاستحيا نحو خزي والرد والرجوع متقاربان الا ان الرد يقتضي قهرا اما للمردود اذا استعمل في الحيوان والرجوع لا يقتضي ذلك فان قيل الردة عن الاسلام يتعاطاها صاحبها طوعا قيل اذا اعتبرت الردة بصريح العقل والفطرة التي فطر الناس عليها فهي قهر للعقل على ما ليس من مقتضاه لان الكفر هو الاعتقاد الظني كما ان الايمان هو اعتقاد يقيني والعقل لا يسكن الى الكفر ولا يطمئن اليه اذ هو مناف لمقتضاه ولهذا قال تعالى ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين لانهم اذا رجعوا انفسهم انكروه وتمنوا سواه وعلى ذلك قوله تعالى ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق ومعنى الآية ان اليهود كان اوجب عليهم ان لا يسفكوا الدماء ولا يخرجوا احدا من ديارهم ولم يوجب عليهم مفادات الاسرى فاخلوا بالواجب والتزموا ما لم يكن يلزمهم فانكر والله تعالى عليهم ترك الفريضة ومراعاة النافلة وقوله وهو محرم عليكم اخراجهم متعلق بما قبله وقد فصل بينهما بقوله وان يأتوكم اسارى تفادوهم وقال بعضهم ان الله تعالى نبه بهذه الآية مع المعنى الظاهر على لطيفة وهي ان قوله تعالى انفسكم تنبيه انكم تسعون في اكتساب العقاب الذي يجري مجرى قتل النفس وبقوله تخرجون فريقا منكم من ديارهم اي تضيعون بعض قواكم ولا تراعونها حق المراعات فان من هذب قوته العالمة ثم ضيع القوة العاملة بالتقصير فقد ضيع نفسه وكانه اخرجها من محلها الذي جعله الله تعالى لها وعلى ذلك اذا ضبط قوته الشهوية ولم يضبط قوته الغضبية ونبه بقوله وان يأتوكم اسارى تفادوهم انكم تتصدون لهدى غيركم مع تضييعكم انفسكم كقوله اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وعلى ذلك قيل كيف تحكي بالمرء تهزيا ان يعظ غيره وينسى نفسه وقوله وهو محرم عليكم اخراجهم فقد قيل هو ضمير الحديث وقيل هو ضمير المصدر الذي هو الاخراج وقد اعيد ذكره تاكيدا فكانه تكرير الخبر مرتين ثم بين ان متعاطي ذلك له في الدنيا

مطلب

خزي وفي الآخرة عذاب عظيم وعظم ابعادهم بتنبيههم انه سبحانه بالمرصاد لا يغفل عن شيء تعالى الله وتقدس قوله عز وجل اولئك الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون الخفة والثقل يقال على ضرب الاول يقال خفيف في المسخر لطلب العلو كالنار وثقيل في المسخر لطلب السفل كالحجر الثاني يقال على سبيل التضايف كشيئين يرجح احدهما على الآخر فيصح ان يوصف شيء واحد بانه خفيف وثقيل على اعتبار بشيئين الثالث على اعتبار الزمان نحو ان يقال هذا الفرس خفيف وذاك ثقيل بمعنى انه اذا اعتبر عدوهما بزمان واحد كان احدهما اكثر عدوا من الآخر والرابع يقال فيما يستحليه النفس خفيف وفيما تعافه ثقيل فالخفيف على هذا مدح والثقيل ذم الخامس على العكس من ذلك وهو ان يقصد بالثقيل معنى الرزين وبالخفيف معنى الطائش والقصد باشتراء الحيوة الدنيا والرضى بها في نحو قوله ورضوا بالحيوة الدنيا وبالاخلاد اليها في قوله ولكنه اخلد الى الارض وباتباع الهوى في نحو قوله واتبع هويه وبعبادة الشيطان في نحو قوله ولا تعبدوا الشيطان وباتباع الخطوات في نحو قوله ولا تتبعوا خطوات الشيطان وبنصرة الشيطان في قوله اولئك حزب الشيطان كل ذلك قصد واحد في انه حث على تجنب المعاصي وان اختلفت العبارات وتفاوتت الانظار وبين الله تعالى بالآية ان من فعل ذلك فهو معاقب لا يخفف عذابه اما في الدنيا فيعذب لشرهه على تتبع فضولات المال وجمعه كما قال انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيوة الدنيا فلا يكون لطلبها غاية اذا انتهى اليها خف عذابه واما في الآخرة فبدوام العذاب الاليم وبين تعالى انه لا يجد نصرة من جهة ماله في الدنيا كما قال حكاية عن المحتضر ما اغنى عني ماليه ولا في الآخرة كما قال من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا الآية وقوله فلا يخفف عنهم قيل هو داخل في صلة الذين والصحيح انه جواب لتضمن لفظة الذي معنى الشرط كما هو جواب في قوله ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم قوله عز وجل

في معنى الآية وباينا رها في نحو قوله تعالى فاما من طغى وآثر الحيوة الدنيا صح

ولقد اتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل واتينا عيسى بن مريم البينات وايدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون الاقتفاء اتباع القفا كما ان الارتداف اتباع الرداف وقفوته اصبت قفاه نحو قادته وبطنته اذا رميت ذلك منه ثم يكنى به عن الاغتياب وقافية الشعر لاعتبار الاقتفاء فيها والقفاوة ما يفتقد به الغير على سبيل الايثار والهوى اسم للقوة الشهوية واصله من الهوى لانه يهوى بصاحبه فلا يستقر به والروح من الحيوان اسم للجزء الذى معه يحصل الحيوة ولما كانت الحيوة يختلف فمنها ما يشترك فيه الحيوانات ويحصل به التحرك والسعى واستجلاب المنافع واستدفاع المضار ومنها الحيوة الذى يختص بها الانسان وبها يكون الفكر والروية ولاجله قيل فلان ليس بحى او هو ميت اذا ضعف ذلك فيه ومنها التى يستفيدها الانسان بالعلم وهو اشرف ما يتوصل به الى الحيوة الابدية واياها قصد بقوله او من كان ميتا فاحييناه صار الروح يقال لكل ذلك فيقال ذو روح لكل حيوان وقيل للقران روح لما كان سببا للحيوة الابدية قال تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا وقيل سمى عيسى عليه السلام روحا لانه كان يحيى الموتى فصار كالروح وقيل سمى بذلك لانه كان يفيد الناس ويعلمهم ما يتوصلون به الى الحيوة الابدية وقيل سمى بذلك لقوله ونفخنا فيه من روحنا وذلك انه لم يخلق من ماء الذكر والانثى وانما قال له كن وسمى جبرئيل عليه السلام روح القدس والروح الامين وهذه الاية توكيد لذمهم والابناء عن بعدهم عن الايمان وانهم قد اتاهم موسى بالكتاب ثم اتخذوا العجل واتاهم رسل فلم يعرجوا عليهم وجاءهم عيسى عليه السلام بالمعجزات الباهرة فكذبوه وقوله ففريقا كذبتم وفريقا يصح ان يكون معطوفا على قوله وايدناه بروح القدس ويكون قوله افكلما جاءكم رسول فصلا بينهما على سبيل الانكار عليهم ويصح ان يكون معطوفا على قوله استكبرتم وقوله افكلما استيناف وبين باتباعهم الهوى غاية معايبهم فان متبعه مخطئ وان اصاب

فالاصابة

فالاصابة منه على غير اعتماد اذ هو كالبهيمة المتنا ولذلك لما تدعوا اليه شهوتها صوابا ام خطاء ثم زاد فى ذمهم بوصفهم بالاستكبار اذ هو مقر النقايص فانه كان نتيجة الاعجاب والاعجاب نتيجة الجهل بالنفس والجهل بالنفس مقارن للجاهل بخالقها ولذلك قال تعالى لا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم ان قيل لم قال فريقا كذبتم وتقتلون وهلا جعلا ماضيين او مستقبلين قيل اما من حيث اللفظ فلانه لما لم يكن يفسد المعنى روعى فيه المجانسة بين الفواصل ليكون اللفظ احسن واما من حيث المعنى فللتنبيه انهم لم يتوقفوا فى تكذيب من جاءهم من الانبياء فذكره بلفظ الماضى اذ لا مزاولة فيه وذكر القتل بلفظ الاستقبال تنبيها انهم يزاولون قتله قدروا عليه او لم يقدروا

قوله عز وجل وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون اصل الغلف ستر الشئ بالشئ الذى يجعل فيه ومنه غلفت السيف والسرج والرحل واللحية بالغالية والاغلف الاقلف لكون ذلك منه فى غلاف من غلفته اى قلفته وعزلته فقوله غلف قيل هو جمع غلاف واصله غلف مخفف وقرئ غلف ككتب وقيل هو جمع اغلف فعلى الاول قيل معناه قلوبنا اوعية للعلم لا تسمع علما الا وعته الا ما تقول بمعنى ان ما يقوله ليس بعلم وعلى الثانى معناه قلوبنا مغطاة عما تدعونا اليه فلا نفهمه كما قال وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه الاية ورد الله تعالى ذلك عليهم بان ذلك لكونهم مبعدين عن العلم ليس فعلهم وقد تقدم ان سبب المانع من الفضيلة سببان احدهما ابتداؤه ليس من جهة الانسان نفسه وهو متجاف عنه كمرتكب قبيح لزوال عقله بجنون او مرض والثانى ابتداؤه من جهته وهو ما خوذ به كمرتكب ذنب لسكره فبين الله تعالى ان قلوبهم ممنوعة عن العلم بكفرهم وذلك من جهتهم وقوله فقليلا ما يؤمنون اى لم يؤمنوا الا ايمانا قليلا او زمانا قليلا وذلك غير معتد به لان الايمان هو التصديق المخصوص ومتى لم يحصل كاملا لم يعتد به ولذلك عظم عقوبة ذلك بقوله افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ونحوه

الاية قوله بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا قوله عز وجل
ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل
يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله
على الكافرين الاستفتاح طلب الفتح والفتح ضربان فتح الهى
وهو النصرة بالوصول الى العلوم والهدايات التى هى ذريعة الى
الثواب والمقامات المحمودة وفتح دنيوى والنصرة فى الوصول الى اللذات
البدنيه وعلى الاول قوله انا فتحنا لك فتحا مبينا وقوله وعسى ان
يأتى بالفتح وعلى الثانى قوله فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
ابواب كل شئ وقوله يستفتحون قيل معناه يستعملون خبره من الناس مرة
ويستنبطونه من الكتب مرة وقيل يطلبون من الله بذكره الظفر وقيل كانوا
يقولون انا ننصر بمحمد عليه السلام على عبدة الاوثان وكل ذلك داخل
فى عموم الاستفتاح فبين الله تعالى من جهلهم انهم كانوا ينتظرونه وكانوا
يعرفون وصفه كما قال تعالى يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وكما قال النبى
الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التورية والانجيل فلما جاءهم كتاب لامنافاة
فالم بنيه وبين التورية فى الاصول وعرفوا عيانا ما كانوا عرفوه من
قبل اخبارا فكفروا به ثم قال فلعنة الله على الكافرين تنبيها ان اللعن
ثابت للكفار وهم كفار فاللعن عليهم واما معنى اللعن هو افضا على وجه
الاهانة ومن قال هو العذاب من حيث انه لا ينفك لعنة الله من العذاب
واما تكرير لما فقد قيل جواب الاول محذوف وقوله كفروا به انما هو جواب
للثانى وقيل لما بين لما وجوابه بقوله وكانوا من قبل يستفتحون اعاد ذكره
بلفظ يقتضى زيادة فائدة ثم اجاب وقيل جواب الاول الفا وكفروا به
جواب للثانى نحو قولك لما جاء زيد فلما قعد اوسعت له قوله عز وجل
بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله
على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين
بئس كلمة يستعمل فى جميع المذام كما ان نعم يستعمل فى جميع الممادح واصله من البؤس

وهو المكروه

وهو المكروه وتصور منه الفقر تارة فقيل بئيس والنكاية فى الغير فقيل
بؤس وسمى البسالة بأسا واصل البغى الطلب واختلفت معانيه لاختلاف
المسند اليه وربما خولف بين مصادرها فمتى اسند الى المراة فلا تبغائها
ما يحرم عليها واذا اسند الى المتكبر فلطلبه اكراما لا يستحقه والى ذا اسند
الى الراى فلطلبه متطلعا والهوان يتصرف على وجهين احدهما التذلل للانسان
فى نفسه لما لا يلحق به غضاضة فيمدح به نحو المؤمن هين لين والثانى ان
يكون من جهة متسلط عليه على طريق الاستخفاف فيذم به وعلى الوجهين
استعمل [illegible] فبين الله تعالى انه بئس شيئا باعوا انفسهم به كفرهم بكتب الله
المنزلة ثم بين ان اعظم هذا الجنس ان يفعل ذلك حسدا على من خصه الله
بفضل من عنده وفضله ههنا اجل الفضائل وهو النبوة ثم بين انهم بذلك
استحقوا انواعا من الغضب نوعا بعد نوع نحو قوله لضعف لهم العذاب
نعوذ بالله منه قوله عز وجل واذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن
بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون
انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين وراء يقال للخلف والقدام وهو فى
الاصل مصدر وارى فلما كان المصدر يضاف الى الفاعل والى المفعول
فمتى قيل وراء زيد بمعنى قدامه فمعناه الذى يوارى زيد واذا قيل بمعنى
خلف فهو الذى يواريه زيد ثم جعل ظرفا مثل كثير من المصادر ان قيل كيف
قيل للخلف فلم تقتلون وكان القتل من اسلافهم دونهم قيل لما كان
من عادة العرب ان ينسبوا الى انفسهم على طريق الفخر ماثر ابائهم فيقول فعلنا
كذا منصورين بصورتهم خوطبوا ايضا فى نسبة مثالبهم اليهم على ذلك الوجه
وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما اذا عمل معصية فمن انكرها فقد برئ
منها ومن رضيها كان كمن فعلها فلما رضوا فعل ابائهم فكانهم هم فعلوه
فلذلك خوطبوا بذلك ان قيل كيف قال تقتلون من قبل ولا يجوز تخرج
امس قبل فى ذلك جوابان احدهما ان عادة العرب اذا ارادوا ان يخبروا
عن تعاطى فعل مدا ودم عليه قرنوا لفظ الماضى بالمستقبل تنبيها على المداومة

عليه نحو قول الشاعر ولقد امر على اللئيم يسبني فمضيت ثمة قلت لا يعنيني وعلى
ذلك يقال فعلت كذا قبل وبعد وافعل كذا قبل وبعد فيجي تارة بلفظ الماضي
وتارة بلفظ المستقبل والثاني ان قوله من قبل يتعلق بمقتضى قوله فلم الذي هو بحث
عن علة الشئ فكانه قيل اخبرني قبل عن سبب قتلكم ويعني لم تقتلون لم تؤمنون
قتلهم وهذا اوضح وقوله ويكفرون بما وراءه قيل معناه بما انزل الله بعده
من الانجيل والقران وقيل معناه بما ينطوي عليه التورية وذلك ان انتساب
المعنى المتاخر الى المتقدم والباطن الى الظاهر ولهذا يقال وراء هذا الكلام
معنى لطيف وفي ضمنه شئ حسن وقد بين الله تعالى انهم يدعون الايمان بالتورية وهم
كاذبون في دعواهم فانهم لا يكونون مؤمنين بها اذا كفروا بما يتضمنه من اخبار
النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وكفروا بما يتلوه من كتب الله عز وجل فان النبوة
والكتاب لا يختلف من حيث ما هو نبوة وكتاب ومن لم يؤمن ببعضه
فهو في حكم من لم يؤمن بشئ منه ولهذا قال افتؤمنون ببعض الكتاب
وتكفرون ببعض فاثبت لهم اشد العذاب الذي يستحقه الكافر المطلق
ثم بين انه هو الحق اي ذلك المعنى الذي هو القران حق لا يزاحمه في ذاته ضد
وهو مصدق لما تقدمه لا منافاة بينهما في الاصول ثم بين تعالى ثانيا ابطال
ما ادعوه بقتلهم الانبياء اذ كانت التورية لم يقتض ذلك ثم قال ان كنتم
مؤمنين تنبيها انكم لستم بمؤمنين اذ المؤمن لا يقتل الانبياء وفي كل ذلك
حجة على بطلان ما ادعوه من الايمان بالتورية قوله عز وجل ولقد جاءكم
موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون جعل ايضا دلالة
على بطلان قولهم نؤمن بما انزل علينا فكانه قيل كيف آمنتم به صح وقد اتاكم موسى
بالايات البينات فالبثتم ان عبدتم العجل ظلما وظلمهم الاخلال بايات الله وبيناته
وتلقيها بالكفران والكفر وفي تخصيص ثم زيادة فائدة وهي ان ذلك منكم بعد
تدبر الايات والتمكن من معرفتها والايات ههنا هي الايات التسع المذكورة في قوله
ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات وقوله ادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء
من غير سوء في تسع ايات قوله عز وجل واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور

خذوا

الى اللفظ انتساخ

خذوا ما اتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا واشربوا في قلوبهم العجل
بكفرهم قل بئسما يامركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين قوله اسمعوا قيل معناه
اعملوا به ووجه ذلك ان الشئ يسمع به ثم يتخيل ثم يفهم ثم يعقل ثم يعمل به
ان كان ذلك المسموع مما يقتضي عملا ولما كان السماع مبدا والعمل غاية وبينهما
وسايط صح ان يذكر ويراد به بعض الوسايط وان يعنى به الغاية وهي العمل
فمن قال معنى واسمعوا اي اعملوا به فنظر منه الى الغاية ومن قال افهموا او اعقلوا
فنظر منه الى بعض الوسايط وقال بعضهم قد قالوا قولا سمعنا وعصينا وقيل
انما سمعوه وتلقوه بالعصيان فكانهم قالوا بذلك قولا كقول الشاعر
امتلأ الحوض وقال قطني وقول الاخر جناحا لرجليه الحفا واشربوا في قلوبهم
العجل من عادة العرب انهم اذا ارادوا العبارة عن مخامرة حب او بغض
في القلب ان يستعيروا لها الشراب اذ هو ابلغ منساغ في البدن ولذلك
قالت الاطباء الماء مطية الاغذية والاغذية والادوية به يبلغ اقاصي الامكنة
وعلى هذه المراعاة قال الشاعر تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ
سرور وقال اهل النحو اراد حب العجل فحذف المضاف تخفيفا ويجب ان يعلم
انه لو قيل حب العجل لم يكن له من المبالغة ما له بحذفه لان فيه تنبيها ان لفرط
شغفهم به ثبت صورة العجل في قلوبهم راسخة وان زالت ذاته الجسمية
ثم بين ان ذلك بسبب كفرهم لا انه تعالى ظلمهم به وما قال السدي وابن
جريج ان موسى عليه السلام لما رجع الى قومه برد العجل الذي عبدوه
فذراه في اليم فلم يشرب به احد احبه الا خرج على شاربيه الذهب فلبس بنا
فيما تقدم تصورت ذلك حقيقة ام تصورته كناية واشارة وقال بعضهم
معنى اشربوا من قولهم اشربت البعير اذا شددت حبلا في عنقه قال واشربتها
الاقران حتى وقفتها بقرح وقد القين كل جنين فكانما شد في قلوبهم
العجل لفرط شغفهم به فهو راجع الى الاول تحقيقا وان خالفه تشبيها وتمثيلا
ثم بكتهم تعالى بقياس شرطي يدل على ابطال دعواهم الايمان بالتورية وهو
قوله بئسما يامركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين وتقديره ان كنتم مؤمنين

افهموا وقيل معناه صح

اسمع صح

يكن صح

كذلك صح

فايمانكم امركم بذلك وكل ايمان امر بذلك فايمان مذموم وقد ثبت
ان الايمان بالتورية ليس بمذموم ولا يامر بالمذموم فاذ السنم مومنين
فكيف تدعون الايمان بما انزل اليكم وقال الزجاج فى قوله ان كنتم
مومنين فان عنى ان ان ههنا لفظه للنفى فذلك بعيد وان عنى انه شرط
مقتضاه النفى كما تقدم فصحيح والكلام فى انه كيف جعل الايمان امراً
فى قوله يامركم به ايمانكم فقد تقدم فى صدر الكتاب فصلٌ كلى يكفى
الاشتغال بهذه التفاصيل قوله عز وجل قل ان كانت لكم الدار الاخرة
عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين
الخالص كالصافى لكن الصافى يقال فيما لم يكن فيه شوب ولا يقال خالص
الا ما كان فيه شوب من قبل فزال عنه ولذلك قال الشاعر خلاص الخمر من نسج الفدام
فاعتبر فيه معنى التخلص والتمنى تقدير ما فى مشية والتحدث به اما ضميرا
او اما مقالا ودون لما كان فى الاصل القاصر عن الشى اعتبر ذلك
فى المكان تارة وفى الشرف تارة وفى الاختصاص تارة فاذا قيل هذا لى دونك
فهو مفيد للاختصاص ومعناه انت تقصر عنه ان قيل كيف قال من دون
الناس والمخاطبون ايضا من الناس قيل قد قال اكثرهم لفظه عام ومعناه
خاص اى دون سائر الناس وقال بعضهم فى ذلك لطيفه وهو انه يقال فلان
ليس من ذلك متردد بين المدح والذم فالمدح نحو قول بعضهم فلان
ليس انسانا بل هو ملك كريم وقال الشاعر فلست بانسى ولكن ملاكا
والذم نحو فان جلهم او كلهم بقر ولما كانت الدار الاخرة لا تحصل للناس
خالصة بل لا بد فى نيلها من تحمل شوائب وتجرع نوائب وكانوا قد ادعوا
انها لهم خالصة قيل لهم ذلك بمعنى ان كنتم جنسا غير الناس فى ان
تحصل لكم الدار الاخرة خالصة لا على ما تحصل للناس فتمنوا الموت
لانهم قالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقالوا نحن ابناء الله واحباؤه
فبين الله تعالى كذبهم فى دعواهم ذلك فقال ان كنتم احباء الله فالمحبة
داعية الى الشوق والشوق داع الى محبة لقا المحبوب ومحبة لقائه داعية

فتمنوا الموت دالة ... لهم ص

الى تمنى

الى تمنى سهولة السبيل اليه ولا سبيل الى سهولة السبيل اليه الا بالموت
فيجب ان يكون الموت متمنى فتركهم تمنى ذلك دلالة ان لا محبة منكم له
ان قيل فهل يجوز للمسلم ان يتمنى الموت قبل اما تمنيه على ان يسخط ما اراد الله
من حيوته فلا فان ذلك مضادة الله فى ارادته وتسخط لقضائه واما
ان لا يكرهه اذا اتاه فجائز وهو غاية الحكمة وشعار المومن المحق ولذلك
قيل لا يكون الحكيم حكيما حتى يعلم ان الموت معتقه والحيوة مسترقه وقيل
سرور المومن بموته سرور القادم على اهله وقال عليه السلام من احب
لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه وقال على رضى
الله تعالى عنه لا ابالى سقطت على الموت او سقط الموت على ان قيل كيف
اعاد الشرط فقال ان كنتم صادقين وذلك يقتضى جوابا اخر قيل ان ذلك
كالبدل من الشرط الاول فان مقتضاهما واحد لكن الصدق يتناول
اللفظ وقوله ان كانت لكم الدار الاخرة يتناول ذات الشئ فصار كقول
القائل لمن يدعى فعلاً ان فعلته فلك كذا ان صدقت قوله عز وجل
ولن يتمنوه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين التقدم اتاما ان يقال
باعتبار زمانين فيقال حديث وقديم واما باعتبار تقدم على الزمان
فيقال قديم اى متقدم وجوده على وجود الزمان واما بالشرف فيقال
فلان متقدم على فلان اى اشرف منه منزلة واما لما لا يصح وجوده
الا بوجود الاخر فيقال لذلك الاخر قديم كقولك الواحد متقدم على
العدد بمعنى انه لو توهم ارتفاعه لارتفع الاعداد وكما استعملوا القديم
والحديث باعتبار زمانين استعملوا التقدم والتاخر وقدام وخلف
باعتبار مكانين وباعتبار التقدم المكانى سمى التقدم قدما وقد بت
الله تعالى القول بان لا تمنى للموت منهم قط لما احتقبوا من الاثام وفى ذلك
اعظم حجة فانهم ما فعلوا ذلك ولا جسروا حتى قال عليه السلام لو تمنوا
الموت ما قام رجل من مجلسه فلم يجسروا ان يقولوا كاذبين نحن نتمناه
ثم بين تعالى بقوله والله عليم بالظالمين قدرته على معاقبتهم تهديدا لهم

مطلب

قوله عز وجل ولتجدنهم احرص الناس على حيوة ومن الذين اشركوا يود
احدهم ان يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر والله بصير
بما يعملون الوجود يقال باعتباره بالحاسة وباعتباره بالتخيل
وباعتباره بالفهم والعقل ومتى قيل باعتباره بالعقل فعلى ضربين متعد
الى مفعول واحد ومعناه كمعنى عرفت ومتعد الى مفعولين ومعناه قريب
من معنى علمت والحرص اصله ان لا يرضى بالكفاية ويضاده القناعة
واصله من حرص القصار الثوب والحارصة وهى شجة تشق الجلد فالحرص
كانه مزيل للحيا والكرم عن النفس واصل الشرك مساواة اثنين فصاعدا
فى شئ كتجارة وزراعة وميراث وشراك معتبر فيه معنى الشركة وكذا
الشرك للطريق والحبالة للصايد وصار الشرك متعارفا فيمن يثبت
مع الله الها اخر او يصفه على حد ما يوصف به المكونات فيطلق مرة على من
لم يكن من اهل الكتاب كقوله ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئين
والنصارى والمجوس والذين اشركوا وهم الذين لا يقارون على قبول الجزية
ومرة يقال لاهل الكتاب لقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله وقولهم
اتخذ الله ولدا ومرة يطلق على الريا ونحوه روى ان ابا حنيفة رحمه الله
تعالى قال لجعفر بن محمد رحمهما الله تعالى من اين قال ابوك الريا شرك فقال
من قول الله عز وجل فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك
بعبادة ربه احدا ولما لم ينفك عامة الناس من تشبيه ما فى اوصاف الله
تعالى ومن ريا ما فى عبادته قال تعالى وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم
مشركون والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحيوة والعمارة قبيلة تحصل
باجتماعهم العمارة والمعمر المسكن ما دام عامرا بسكانه والعومرة صخب
تدل على اجتماع عمارة والعمرى فى العطية منه والالف مشتق من الالفة
وهو ضم البعض الى البعض فالاعداد احاد وعشرات ومئون والوف
فالالف يالف انواعها والسنة للعرب فى اصلها طريقان من جعلها
من الواو لقولهم سنوات وكانها اسم لدورات الفلك ولاعتبار

الدوران

الدوران فيها سمى المشتق عليه سانية ومنهم من يجعلها من الها لقولهم
سانهته فكانها اسم لتغير الفصول الاربعة ومنه قيل لسنة الطعام اى
تغير والزحزحة الازالة عن المقر وقوله من الذين اشركوا فمن المفسرين
من يقول تقدير الاية ولتجدنهم وطائفة او كثير من الذين اشركوا احرص
الناس على حيوة واستبعد ذلك بعض النحويين لحذف الموصول وترك الصلة
وقيل تقديره وهم من الذين اشركوا فكان قوله ومن الذين اشركوا خبر ابتداء
مضمر اى هم فى محبتهم للحيوة من المشركين واكثر المفسرين على معنى قوله احرص الناس
فان قيل كيف قال ذلك والذين اشركوا من الناس قيل لما كان للمشركين
فضل اختصاص فى محبة الحيوة الدنيا خصهم بالذكر بعد العموم كتخصيص جبريل
وميكائيل بعد الملائكة وتخصيص النخل والرمان بعد الفاكهة فان قيل
فهلا قال احرص الناس والمشركين او من احرص من الناس والمشركين ليكون
الكلام على نمط واحد قيل انما قال كذلك لمعنى اقتضاه وهو ان افعل يستعمل
على وجهين احدهما مضافا الى جملة هو بعضها نحو هو افضل الناس ومعناه
ان فضله زائد على جل المضاف اليه والثانى ان يذكر بمن نحو الانسان افضل
من الاسد ويريد انه زايد على جميع المذكور ويدلك على صحة ذلك انه قيل
زيد افضل من الناس او لا يكون منهم فحيث ذكر تعالى الناس واراد انه
زايد على جلهم اصناف وحيث ذكر المشركين وعنى انه زايد عليهم كلهم ذكر من
وانما قال على حيوة فنكرها لان الحيوة التى يحرصون عليها هى حيوة ما وهى
اخس حيوة فكانها لخستها وقلة وزنها ذكرها منكرة وانما الحيوة المطلقة
هى الحيوة الحقيقة التى وصف بها الاخرة فى قوله وان الدار الاخرة لهى
الحيوان فابان الله تعالى فرط حرصهم على الحيوة الدنيا وان تمنيهم لها
فوق تمنى المشركين اذ غاية تمنيهم للحيوة الف سنة وبذلك يتداعون
ثم بين تعالى ان بقاهم الف سنة لا ينقذهم من عذاب الله ان ما له مدة
فقصير وان طال فكما قال الشاعر • ارى العمر كنزا ناقصا كل ليلة • وما تنقص
الايام والدهر ينفل • قوله عز وجل قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله

مسانهة صح

على انه عطف صح

الناس و عنى بالناس العموم لم يكن ذلك
محالا ولو قيل زيد افضل من الناس
وعنى بالناس العموم كان محالا لانه
يقتضى ان يكون افضل من نفسه ايضا
اذ هو ه ه

على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وبشرى للمومنين
العدو التجاوز ومنافات الالتيام فتارة يعتبر بالقلوب فيقال له
العداوة وتارة فى المشى فيقال له العدو وتارة فى الاخلال بالعدالة
فى المعاملة فيقال له العدوان وتارة اما فى المكان واما فى النسب فيقال
قوم عدى اى غربا وجبريل فيه لغات وانما كثرت فيه اللغات لكونه
معربا ونقوه كل قبيلة على حسب استحقاقه فمنهم من لم يتحر فيه ابنية
كلامهم ولا تخفيف اللفظ ومنهم ولم يراع البناء نحو جبريل لان فعليلا
ليس فى ابنيتهم ومنهم من راعى ردوه الى بناء كلامهم فقال جبريل
نحو قنديل وعلى ذلك اختلفت اللغات فى ميكائيل ومن قال جبر هو
العبد وايل هو اسم الله وان ذلك كقولهم عبد الله فان ذلك لا يصح
على حد كلام العرب اذ لو كان كذلك لكان مضافا والاذن الاعلام
بالرخصة وقد يعبر عن الاعلام بالحتم ومعنى الاية ان اليهود زعمت
ان جبريل عدوهم فانه لم يكن ياتيهم الا بالصواعق فقال تعالى انه نزله
على قلبك اى ان جبريل نزل القران على قلبك باذن الله ومصدقا
لما تقدمه من كتب الله عز وجل وهاديا ومبشرا للمومنين تنبيها
على انه لم يعاده ولا احدا من انبياء الله تعالى والصالحين من عباده
فليس من شان الملك مخالفة الرب عز وجل فان هو عاداهم فلكونهم غير
مومنين ان قيل كان الوجه ان يقال فانه نزله على قلبى قيل يجوز الامران
فالحكاية تارة تعاد على اللفظ نحو ان يقال الخبر عندى كذا وكذا وتارة
على المعنى فيقال قل لهم الخبر عندك كذا وعلى ذلك قل للذين ستغلبون
وسيغلبون ويحشرون ويجوز ان يكون قوله قل خطابا لجبريل كانه
قال قل للنبى قوله عز وجل من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل
وميكال فان الله عدو للكافرين قد دل على تفسير هذه الاية ما روى
ان عمر رضى الله تعالى عنه سال عن جماعة من اليهود عن سبب
امتناعهم من الاسلام فقالوا ان الملك الذى ياتى محمدا هو جبريل

وهدى صح
من خفف صح
قل لهم صح
كفروا صح
صلى الله تعالى عليه وسلم صح

وجبريل عدونا ولو اتاه ميكائيل لامنا به فان ميكائيل صاحب كل
رحمة فقال عمر رضى الله عنه انشدكم اين جبريل وميكائيل من الله
عز وجل قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره قال فاشهدوا
ان الذى هو عدو لمن عن يمينه عدو لمن على يساره ومن هو عدو لهما
فعدو لله عز وجل فرجع عمر رضى الله تعالى عنه وقد انزل الله هذه الاية
تصديقا لقوله ومنبها بذكر من ذكرهم والجمع بينهم ان من عادى
واحدا منهم فقد عاداهم فانهم اولياء من والاه واعداء من عاداه وبين
بذلك ان اليهود اذا عادوا احدهم فالله عدوهم وحقيقة معاداة
الانسان لله والبعد عنه مخالفته فى تحرى الصدق فى المقال والحق
فى الفعال وان لا يستحق ان يوصف بشئ من اوصافه نحو العادل
والجواد والكريم والقريب منه والمحب له هو ان لا يخالفه فى ذلك
وان يصح ان يوصف بتلك الصفات وتلك المعانى هى المقتضية لمعاداة
اولياء الله والمقتضية لارتكاب المعاصى فاذا قول من قال معنى قوله
عدو لله عدو الاولياء الله او قال معناه عاص لامره فانه غير مخالف
لما قلنا قوله عز وجل ولقد انزلنا اليك ايات بينات وما يكفر بها
الا الفاسقون عنى بالايات القران وساير المعجزات والدلالات التى
اوضح الله عز وجل بها امر النبى عليه السلام وذكر انه لا يجحد ذلك ولا ينكره
الا كل متناه فى الكفر والفاسق الخارج عن الطاعة اما عن اصل الدين
واما عن بعض الطاعات بارتكاب كبيرة ولذلك قال عز وجل فى ابليس
ففسق عن امر ربه وقال فيمن يرمى المحصنات واولئك هم الفاسقون
وقال ان المنافقين هم الفاسقون فبين الفاسق والفاسق بون
قوله عز وجل اوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يومنون
النبذ والطرح والالقاء متقاربة لكن النبذ اكثر ما يقال فيما ينسى وعلى
ذلك قول الشاعر كنبذك نعلا اخلقت من نعالكا وقيل صبى منبوذ
اذا القته امه فنسيته واستعير للشراب الملقى المنسى الى وقت ادراكه

والطرح اكثر ما يقال فى المبسوط وما يجرى مجراه والالقاء يقال فيما
يعبر فيه ملاقات بين الشيئين او بين الشئ ومكانه ومعنى الاية
انه لما بين تعالى انه قد انزل ما لا يكفر به الا كل فاسق بين لفظ الانكار
ان عادة بعض اليهود المذمومين تضييع العهد الملتزم واطراحه ثم بين ان عادة
اكثرهم لا يؤمنون تنبيها ان اكثرهم وان لم ينبذوا العهد جهارا لم يحصل
منهم الايمان الذى هو معرفة ما يجب معرفته وفعل ما يجب فعله بل
اقتصروا على ظاهر القبول الذى لا يعتد به على الحقيقة قوله عز وجل
ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقا لما معهم نبذ فريق من الذين
اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون الرسول ههنا
ان جعلته الرسالة او جعلته النبى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم او جعلته
المسيح عليه السلام فالكل صحيح ومراد وكذا ان جعلت الكتاب ههنا التورية
او جعلته القران فصحيح لان المنكر لاحدهما فى حكم المنكر للاخر وقد بين الله
تعالى انه لما جاءهم بعد موسى رسول مطابق له صار فريق مما اختصوا بعلم
الكتاب نبذوا احكام كتاب الله وراء ظهورهم فصاروا كالجهلة وهذا الفريق
غير الفريق الاول ولهذا لم يدخل فيه الالف واللام وقد دل تعالى بالايتين
ان جل اليهود ثلث فرق فريق جاهروا انبذ العهد وفريق لم يجاهروا بذلك
بل لم يؤمنوا به وهم اكثرهم وفريق اخرطرحوا حكم الكتاب عنادا فصاروا
فى حكم الجهلة وهذه القسمة عجيبة الشان فان دافعى الحق ثلثة اقسام
جاهل غير عالم بجهله وهو الشرير الذى لا مداواة له واياه عنى بقوله اوكلما
عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم وجاهل عالم بجهله وهو الشاك واياه عنى
بقوله بل اكثرهم لا يؤمنون ومعاند غير جاهل واياه عنى بقوله نبذ فريق
من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون ووصف
هذا الفريق بان حكمهم حكم الجاهلين الذين هم فوق الموصوفين بانهم لا يؤمنون
وكل من دافع الحق لا ينفك من الاقسام الثلثة التى ذكرناها والله اعلم
قوله عز وجل واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر

سليمان

سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على
الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا
انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه
وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم
ولقد علموا لمن اشتريه ما له فى الاخرة من خلاق تلا يقال تارة
فى اتباع الغير اما بالجسم واما بالحكم ومصدره تلو وتلو وتارة فى اتباع
الكلام اما بالقراءة واما بالتدبر لمعناه ومصدره تلاوة وعلى الاول قوله
والقمر اذا تليها وعلى الثانى قوله يتلونه حق تلاوته وتلا عليه كذب نحو
روى عليه وقال عليه ويقولون على الله الكذب واما السحر فقد اختلف فى
مائيته على ثلثة اوجه ولا بد من تبيينه ليبنى الكلام عليه فى هذه الاية
وفى غيرها من الايات فى ذكر السحر فالاول ما ذهب اليه اكثر الجدليين
وهو انه اسم خداع وتخييلات لا حقيقة له وانما اعتماد الساحر
على شغل القلوب بشعبذة صارفة للابصار ونميمة مزخرفة عايقة
للاسماع ولصرف الابصار قال تعالى سحروا اعين الناس واسترهبوهم
ولشغل الاسماع بالنميمة قال فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء
وزوجه قالوا ولهذا سمى البيان الرائق سحرا والثانى ما ذهب اليه
الاغتام من العوام وجماعة من الاشرار وهو انه اسم لفعل من قوته
تغيير الطبايع ونقل الصور كجعل الانسان حيوانا وذكروا من ذلك
خرافات توصلت بها الملحدة والبراهمة الى ابطال النبوات والمعجزات
والثالث ما ذهب اليه محصلة اهل الاثر وعامة المتوسمين بالحكمة
وهو انه عمل يتقرب الى الشيطان بمعونة منه وذلك ان توقع
الساحر وهمه على امر يريد فعله بالغير لا فظا بكلمات من الشرك
ومادحا للشيطان مستعينا به والذى يحتاج اليه فى معرفة ذلك
مقدمة وهى ان الجواهر المطلقة ضربان جسمانى محسوس وروحانى
معقول فكما ان الجسمانى بالقول المجمل ثلثة اقسام خير وشرير

وسط كذلك الروحانى فالخير من الروحانى الارواح المقدسة
وهى الملائكة والشرير شياطين الجن والمتوسط مؤمنوا الجن كمن نزل
فيهم سورة الجن ولما كانت الملائكة لا تواصل ولا تعاون الا خيار
الناس كل متاله تقى وكل ناسك نقى متشبه بهم فى المواظبة على العبادة
والتقرب الى الله عز وجل بالفعل والقول كذلك الشياطين لا تواصل
ولا تعاون الا الاشرار من الناس كل مشرك خبيث عابد للشيطان
معاند للرحمن ولهذا قال هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم
وقال ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين
وقال شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف
القول غرورا ان قيل لو امكن الانسان من جهة الشيطان
الوقوف على الاخبار الغائبة والافعال الخارجة عن عادة
البشر لكان يشتبه طريق النبوة بطريق السحر ولكان يجوز استغواء
الساحر بسحره متصورا بصورة نبى وذلك يودى الى ما ادعاه
مانى الزنديق على كثير من الانبياء فى انهم كانوا سحرة معاونين
من قبل الشيطان لا من قبل الرحمن عز وجل قيل الفرق بين
ما يكون من فعل السحرة وبين ما يكون من الانبياء لا يخفى على متنبه
فى المعرفة ومتدرج فى ادنى منزلة من الحكمة فان ما فى السحرة لا
يكون الا فى فساد جزئى من كل مشرك خبيث فى نفسه شرير فى طبعه
متدنس فى بدنه ولذلك اكثر ما يقع فى حيض النسا وعبدة الاصنام
وضعاف العقول وفى الامكنة القذرة واكثر تاثيرهم فى مجالسهم
ثم لا يكون فى الندرة ومتى قوبل بالاستعاذة بالله تعالى
وبذكره بطل سلطانه فاما ما كان من الانبياء عليهم السلام
فلا يحصل الا من كل مؤمن محض الايمان مقدس فى نفسه خير فى
طبعه طاهر فى بدنه فى اولى العقول الراجحة والافهام البارعة
ويزداد بازدياد التقرب الى الله تعالى وذلك ظاهر لمن الحق .

تاثيره

السبع

السبع وهو شهيد ولو لم يكن للسحر حقيقة لما اعظم الله امره فى قوله
وجاؤا بسحر عظيم ولما امروا بالتعوذ من شر النفاثات فى العقد ولو
كان كما قال الجدليون لما ورد الشرايع بقتل السحرة ونفيهم عن
بلاد الاسلام ولما اجرى مجرى الشرك حتى قال بعض الفقهاء لا
يقبل توبتهم كالمستتر بالكفر فالنميمة والخديعة لا تستحق لهما هذه
العقوبة فان قالوا فالذى هو كفر هو ما تقول العامة ان الساحر
يطير بلا جناح ويركب البيضة والمكنسة فيبلغ فى اقصر مدة الى
الى بلد بعيد قيل مدعى ذلك ومصدقه سخيفان يضحك منهما
ولا خلاف ان بذلك لا يستحقان الارتداد والقتل وانما يستحق
القتل اذا ادعى قتل الانسان بسحره على شرائط مخصوصة
على قول بعض الفقهاء او ادعى ما ينبئ عن صريح كفر وقد انكر الجدليون
ما روى فى ذلك من الاخبار الصحيحة والاثار الواضحة كنحو
ما روى ان اليهود سحرت رسول الله عليه السلام فقال عليه
السلام اتانى ملكان فقعد احدهما عند راسى والاخر عند رجلى
فقال احدهما ما بال حل فقال الاخر مطبوب قال ومن طبيه
قال بنات لبيد بن اعصم اليهود فيماذا قال فى مشط ومشاطه
وجف طلعه ذكر فى بئر ذى اروان فبعث من اخرجه وحل عقده
فكلما حل عقده وجد لذلك خفة كانما انشط من عقال قالوا ان ذلك ان قلنا بصحته لكان يقدح فى نبوته
ولبس الامر على ما ظنوه لما تقدم ولان تاثير السحر لم يكن فى النبى
عليه السلام من حيث ما هو نبى وانما كان فى بدنه من حيث
هو انسان وبشر كما كان ياكل ويشرب ويمشى ويقعد ويسهو
ويمرض ويصح من حيث هو بشر لا من حيث هو نبى وانما كان ذلك
قادحا فى النبوة لو وجد للسحر تاثير فى امر يرجع الى النبوة ثم كون
النبى عليه السلام معصوما من الشيطان لا يقتضى ان لا يؤثر
فى بدنه ذلك تاثيرا صغيرا لا يقدح فيه من حيث نبى فقد كان

تاثير ذلك في جزء من بدنه تاثيرا محسوسا لم يتعداه الى زوال عقله
ولا الى افساد نفسه كما ان جرحه وكسر ثناياه يوم احد لم يقدح فيما ضمن الله
من عصمته حيث قال والله يعصمك من الناس وكما لا يقدح في الاعتداد بما
يقع في الاسلام من ارتداد اهل بلد وغلبة المشركين على بعض النواحي
فيما ذكر من كمال الاسلام بقوله اليوم اكملت لكم دينكم ومن اثبت
كليات الحقايق باثبات جزئياتها لم يسعفه في قياسه لدى التحصيل
مقدمته ولا يثبت به في المقامات قدم واما متصرفات لفظ السحر
فقد كثرت وذلك انه من حيث يتصور تارة دقته وتارة حسنه
وتارة خبثه وشرارته استعمل في كل ذلك لفظه بحسب تصور
كل واحد من ذلك فسمي الشعبذة سحرا ومنه سحروا اعين الناس
والكلام الرائق سحرا ومنه قيل ان من البيان لسحرا والعين
الفاتنة ساحرة والعالم ساحرا وعلى ذلك حمل قوله وقالوا
يا ايها الساحر ادع لنا ربك والفعل الدقيق سحرا حتى قالت الاطباء
الطبيعة ساحرة وسمي الغذا سحرا من حيث يدق تاثيره قال ونسحر
بالطعام وبالشراب والرية فيجوز انه سمي بذلك اعتبارا بدقة
تاثيره في ترويحه القلب بايصال النفس البارد واليه اخراج الحار منه
فكانه ساحر في فعله ذلك وقوله انما انت من المسحرين قيل
من المخلوقين وحقيقته في المجعول له سحر اي جزء الحيوان وقيل فيه وفي
قوله ان يتبعون الا رجلا مسحورا اي معه رأي من الجن والفتنة
اختبار بتعذيب ولما انطوى صفتاها على الامرين استعملت
في كل واحد منهما معرفة نحو قوله ذوقوا فتنتكم اي عذابكم وفتنت
الذهب اذا اختبرته بالنار وقوله ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون
يحتمل الوجهين والاية معطوفة على ما تقدم من ذكر اليهود وهي منطوية
على امرين ذم اليهود في تحري السحر وايثاره وتبرية سليمان
عليه السلام مما نسبوه اليه وذلك انه روي ان الانس
الشياطين م

او الجن

السحر

سحر

او الجن دفنوا تحت كرسي سليمان عليه السلام شيئا من السحر
فلما مات عليه السلام اخرجوا ذلك وادعوا انه كان يتحرى ما يتحراه
سحرا منه فذكر الله تعالى ان بعض اليهود اتبعوا ما تخرصه الشياطين
على ملك سليمان ونزه سليمن عن الكفر وما نسب اليه من السحر
وذكر ان الشياطين هم المستحقون لذلك واختلف في قوله وما انزل
على الملكين فقيل فيه ثلثة اقوال الاول ان ما جرى معطوف على
قوله ملك سليمان ومعناه كذبوا على ملك سليمان وعلى ما انزل
على الملكين والثاني ان ما نفي وعلى القولين قيل لم يعلم الملكان
السحر بل كانا ينهيان عنه حتى يقولان انما نحن فتنة اي مفتونون
بان نعلم السحر وذلك مستبعد من حيث اللفظ فانه انما يقال
فلان لا يفعل كذا على سبيل الاستيناف ولا يقول حتى يقول
وقال هذان القايلان معنى ويتعلمون منهما اي من السحر والكفر
وقد جرى ذكر السحر صريحا وذكر الكفر مضمنا في قوله كفروا والثالث
قول اكثر المفسرين ان ما انزل نصب معطوف على قول السحر ومعناه
علم السحر وكيفية تعاطيه وقوله منهما راجع الى الملكين وكان
تعليمهما ذلك ليحترز به لا ليتعاطى فعله ولهذا كانا يقولان انما نحن
فتنة فلا تكفر والذي انكره من يذهب الى التقديرين الاولين
هو لظنه ان علم السحر محظور كفعله وليس الامر على ما ظن وذلك
لما قد ثبت ان الحكمة معرفة الصدق من الكذب في الاقوال والخير
والشر في الامور ليتحرى الصدق والخير ويجتنب الكذب والشر
اذا واجبة كوجوب معرفة الصدق والخير بل لا يتم معرفة احدهما
الا بالاخر كما قد تبين ان المعرفة بالمتضادين واحد واذا كان
معرفتهما لازمة فتعريفهما واجب وانما المستقبح تعاطي
الكذب والقبيح واذا كان كذلك فلا ضير ان يبعث الله تعالى
من قبله في وقت يكثر فيه الاستغواء بالسحر من ينبه على وجه

انما نحن فتنة اي حتى يبلغ منهما عن ذلك
انهما كانا يقولان صح
حتى انه يقول كذا م

فمعرفة الكذب والشر

احتياله فيزول عن الناس الشبهة ثم ان شريعة تعاطى شر فهو
كالاستعانة بتعلم الفقه وتعاطى العبادات لاستغواء الناس
فما من شى من المعاون والعلوم في هذه الدار مصلح للخير الا ويمكن
استعماله فى شر ومن لم يتمسك فيما يتحراه بالطاعة وقع فى المعصية
او الكفر واما هاروت وماروت فالظاهر انهما كانا الملكين وقيل
كانا رجلين سميا ملكين اعتبارا بملكهما وقال بعض المفسرين
ان الملكين ليسا بهروت وماروت وانما هما شيطانان من الجن
والانس وجعلهما نصبا فى اللفظ بدلا من الشياطين بدل
البعض من الكل كقولك القوم قالوا كذا زيد وعمرو قال
ويكون قولهما انما نحن فتنة كقول الخليع لغيره لا تغيرني فاني
خليع فاسق ويكون قوله وما انزل على الملكين نفيا اعتراضا
بين البدل والمبدل منه وروى بعض من جعلهما ملكين انهما كانا
صيرا على صورة الادميين وركب فيهما الشهوة وانهما تعرضا
لامراة يقال لها زهره فحملتها على شرب الخمر وارتكاب المحظور ثم صعدت
الى السماء فقد استخف جماعة الجدليين قائل هذا الخبر وعدوه
خرافة ينزه العاقل سمعه عن سماعه وذكر بعض الناس ان ذلك
رمز منقول عن كلام القدماء وكان عادتهم ان يرمزوا بكثير
من العلوم قال وهذا من رموزهم وهو انه كان عادتهم اذا
ارادوا تبيين اختصاص كل نجم بفعل يختص به جعلوه بصورة
متعاطى الفعل المختص به ويقولون انه فعل كذا وقال كذا ولما
كان من شان الزهرة على ما يدعون حمل الانسان على تعاطى
الغزل واللهو واللعب والشرب كنوا عنه بذلك وعلى ذلك قالوا
الافعال الزهرية كناية عن الغزل واللهو وعلى ذلك فعلوا فى ساير
الكواكب حتى جعلوا لها صورا مصورة فى الكتب على هيات
المتعاطين للصناعات المختصة بطبعها والله اعلم بذلك وقوله

بصلاحهما ولهذا قراء بعض القراء وما انزل على الملكين اعتبارا م

تعالى

تعالى فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه قيل
عنى به الرجل وامراته وقيل عنى به الانسان وقرناءه واصدقائه
امراءة كانتا وغيرها نحو قوله احشروا الذين ظلموا وازواجهم
اشارة الى قوله تعالى انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة
والبغضاء وقوله فيتعلمون معطوف على ضمير ما تقدم كانه
قيل يعلمون فيتعلمون وقوله وما هم بضارين به من احد الا باذن الله
الاذن قد يقال في الاعلام بالرخصة ويقال للعلم ومنه
اذنته بكذا ويقال للامر الحتم وينبغى ان يعلم ان الاذن فى الشئ
من الله تعالى ضربان احدهما الاذن القاصد الفعل في مباشرته
نحو قولك اذن الله عز وجل لك ان تصل الرحم والثانى الاذن في تسخير
الشئ على وجه تسخير السم في قتله من يتناوله والترياق في تخليصه
من ذنبه فاذن الله تعالى فى وقوع التسخير وتاثيره من القبيل الثانى
وذلك هو المشار اليه بالقضاء وعلى هذا يقال الاشياء كلها
باذن الله وقضائه ولا يقال الاشيا كلها بامره ورضاه والضر
ما يعوق الانسان عن فعل الخير سواء كان ذلك مما يعرض في بدنه
او كان شيئا خارجا منه والنفع ما يسهل سبيل الانسان الى الخير
ومن قال النفع هو اللذة فانما اللذة بعض النفع فقد يكون الشئ
نافعا ولا يكون لذيذا ان قيل كيف قال ما يضرهم ولا ينفعهم
وما يضر يعلم انه لا ينفع قيل ان ذلك من وجه ووجه فقد يكون
الشئ نافعا من وجه وضارا من وجه وتعلم السحر كان نفعا
لو احترزوا بمعرفته عمن يغوى فلم ينتفعوا به من هذا الوجه واستضروا
به لاستعمالهم اياه فى غير الحق ولقد علموا لمن استبدل ما جاءت
به الشياطين من السحر بالحق ان لا حظ له فى الاخرة ولبئس ما شروا به
انفسهم لو كانوا يعلمون يصح ان يكون معطوفا على المعلوم وهو قوله
لمن اشتراه ويصح ان يكون استينافا حكما منه وجواب قوله لو كانوا

اى قد علموا

قوله عز وجل

مطلب

يعلمون محذوف فان قيل كيف اثبت لهم العلم في اول الكلام ونفى عنهم
في اخره فالجواب في ذلك من اوجه الاول ان العلم المثبت لهم هو
العقل الغريزي وما جعله لهم بصيغته والمنفي عنهم هو المكتسب
الذي هو من جمله التكليف والثاني ان المثبت لهم هو العلم بالجملة
والمنفي عنهم هو العلم بالتفصيل فقد يعلم الانسان قبح الشي ثم لا
يعلم ان فعله قبيح فكانهم علموا ان شرى النفس بالسحر مذموم لكن
لم يتفكروا في ان ما يفعلونه هو من جمله ذلك القبيح والثالث انهم
علموا عقاب الله لكن لم يعلموا حقيقه عقابه وشدته والرابع
ان معنى قوله لو كانوا يعلمون يعملون به لان من لا يعمل بما يعلم فهو في
حكم من لا يعلم ولو انهم امنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير
لو كانوا يعلمون الثوب رجوع الشي الى حالة شبيهة بالحالة الاولى
يقال ثاب الحوض اذا امتلاء بعد فراغه عقيب امتلائه والثوب
لتصوره بصورة القطن لاجتماع اجزائه بعد تفرقها بالغزل والثيب
من النساء لعودها الى الايمة والتثويب في الصوت ترديد
والثواب والمثوبة في الخير تحصيل نفع يثوب اليه باحسانه ومعنى
الاية لو امن الذين يتعلمون السحر واتقوا لاثيبوا وكان ذلك
خيرا لهم ولو علموا لظهر لهم ذلك وجواب لو ما دل عليه لمثوبة
وتقديره لاثيبوا تقول لو اتاني زيد لاكرمته اي خير له ولا تقول لو
اتاني زيد لعمرو منطلق اذ لم يدل لفظ عمرو على فعل وجواب
لو لا يكون الا فعلا او ما دل عليه ومن النحويين من اجاز ذلك اذا دل
الخبر على فعل يا ايها الذين امنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا
واسمعوا وللكافرين عذاب اليم الراعي حفظ الغير في امر يعود
بمصلحته ومنه رعي الغنم ورعي الوالي الرعية وعنه نقل
ارعيته سمعي وتشبيها برعي الغنم قيل رعيت النجوم اذا رقبتها
وكان يقال للنبي عليه السلام راعنا اي استمع الينا او احفظنا

فقالت

مثلا م

قوله عز وجل م

في الجزاء م

قوله عز وجل م

فقالت اليهود راعنا تعريضا به من الرعونة فلما عوتبوا قالوا انما
نقول مثل ما يقول المسلمون فنهوا عن ذلك وقيل لهم وقولوا
بدل ذلك انظرنا وذلك معناه معنى راعنا وقد نبه على ذلك بقوله
تعالى من الذين هادوا ويحرفون الكلم عن مواضعه الاية وقوله
واسمعوا يجوز ان يكون ذلك استينافا من الله تعالى بامتثال ما امرهم به
وقيل انما نهوا عن قولهم راعنا لكونه مفاعله عز وجل متضمنه لمعنى المساواة
بين المخاطِب والمخاطَب فامروا بتوقيره كما قال لا تجعلوا دعاء الرسول
بينكم كدعاء بعضكم بعضا وكقوله ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض
وذلك عن ابن عباس رضي الله عنه وروي عن مجاهد ان معناه
لا تقولوا خلافا ويكون من الرعن واستر ذل هذا الوجه لانه لو كان
كما قال لكان في القراءة رعنا بالتنوين ما يود الذين كفروا من اهل
الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته
من يشاء والله ذو الفضل العظيم الود محبة الشي مع تمنيه ولما كان
لهما استعمل في كل واحد منهما فقيل وددت فلانا اذا احببته
ووددت الشي اذا تمنيته واصل الاختصاص الخصاص وهو فرجة
بين الشيئين ومنه الخص لبيت من قصب لما فيه من الفرج وسمي
انثلام الحال خصاصا وخصاصة على التشبيه كما سمي انثلاما و
اختلالا وشعبا وخصصت فلانا وخصني وليته خصاصي نحو
خللته وقولهم طلعته على عجري وبجري وخصان الرجل خلانه
ثم جعل الخاص مقابلا للعام في التعارف وسبب نزول
هذه الاية ان جماعة من اليهود كانوا يظهرون مودة المسلمين
ويزعمون انهم يودون لهم الخير فاكذبهم الله تعالى في ذلك
ونفى ما ادعوه وكان المسلمون يوالونهم ويركنون اليهم فاكذبهم
الله تعالى في ذلك ونهاهم تعريضا عن موادتهم كما قال يا ايها
الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا

دينكم

من جملة ما امروا الذي يقولون في قولهم انظرنا ويجوز ان يكون صح صح

قوله عز وجل م

الكتاب من قبلكم والكفار النصب والجر جميعا ومن قوله من خير
لاستغراق الجنس وبين باخر الاية انه وان اختص برحمته بعض
الناس فليس ذلك لضيق فضله بل فضله عظيم ورحمته ضربان
احدهما يصل اليه كل من شاء الوصول اليه من العباد بتمكين الله
اياه وضرب يخص تعالى به بعض عباده لما يعرفه في ذلك

قوله عز وجل ما ننسخ من اية او ننسها نات بخير منها او مثلها الم تعلم ان الله على
كل شئ قدير قد تقدم الكلام في مائية النسخ والفرق بينه وبين
التخصيص في صدر الكتاب والنسخ في اللغة ازالة الصورة عن
الشئ واثباتها في غيره كنسخ الظل للشمس ثم يقال في ازالة
الصورة من غير اثباتها في غيره نحو قوله تعالى فينسخ الله ما يلقى
الشيطان ثم يحكم الله اياته ويقال ايضا في اثبات مثل تلك الصورة
في الغير من غير ازالتها عن الاول كنسخ الكتاب واصحاب التناسخ
زعموا ان النفوس تنتقل من هيكل الى هيكل فان كانت محسنة
انتقلت الى هيكل متنعمة فيه وان كانت مسيئة فالى هيكل معذبة
فيه والانساء الامر بالترك المودي الى النسيان وكل متروك
يقال له منسئ وقرئ ننساها من النسئ وهو تاخير الشئ عن وقته
او عن هيئته فمما هو بالوقت قولهم نساءت في ظمى الابل ونسا الله
في اجلك ونسيت المراة تاخر وقت حيضها وانساءت فلانا البيع
وقوله تعالى انما النسئ زيادة في الكفر ومما هو بالهيئة نساءت
الابل عن الحوض ونساتها في السير ومنها المنساة للعصا التي
يطرد بها وحمل المفسرون النسخ والانساء على وجهين احدهما
ان النسخ هو ازالة الحكم من غير اللفظ او الحكم مع اللفظ والانساء
مقابله وهو ان لا ينسخ بل يترك والثاني ان النسخ ازالة الحكم فقط
ثبت حكمه او لم يثبت ولهذا قال الفقهاء ان النسخ لا يكون الا في معنى
الامر والنهي لكن في الخبر معناه لا يزول وان زال اللفظ وقد يستعمل

ليس صح

دون معنى الخبر والانسا قد يكون في الاخبار دون الامر والنهي صح صح

احد

احدا للفظين مكان الاخر فمن هذا ما روت عايشه رضي الله تعالى
عنها انه نزل في قصه اهل بئر معونة قران بلغوا قومنا
ان قد لقينا ربنا فرضي عنا وارضانا ثم نسخت ففيه دلالتان
احديهما ان قوله لقينا ربنا اخبار وقد سمته نسخا والثانية
انها استعملت النسخ في رفع التلاوة دون المعنى وعلى ذلك
ما روي انه كان فيما انزل الله لو ان لابن ادم واديين من مال لابتغى
اليهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن ادم الا التراب ويتوب الله على من
تاب ثم نسخ وذلك خبر وقيل الكلام في تاويل الاية يجب ان يذكر ما يكشف
خطأ اليهود وشرذمة من المسلمين انكروا النسخ زاعمين ان ذلك
هو البدا ولا يفعله الا من يجهل العواقب ويتجدد له راي بعد
راي فيقال وبالله التوفيق ان الله تعالى امرنا مستخلفين في الارض
ومستعمرين فيها لنتوصل بذلك الى مجاورته والقرب منه بحيوة
لا موت بعدها وغنى لا حاجة معه وقدرة لا يعتورها
عجز ولا سبيل الى ذلك الا باكتساب الصحة في النفس وصحتها
امران العلم والعمل اما العلم فمعرفة الصدق والكذب والجميل من القبيح
والخير والشر واما العمل فتحري الصدق في المقال والجميل
في الفعال وتجنب ضديهما وكما لا سبيل الى استفاده صحه
البدن الا بطبيبين احدهما من داخل وهي القوة التي سخرها الله
تعالى لاستدعاء الطعام وهضمه ودفعه والثاني
من خارج وهو الذي يتفقد هذه القوة اذا اختلت كذلك لا سبيل
الى استفادة صحه النفس الا بطبيبين احدهما من داخل وهو
العقل والثاني من خارج وهو النبي وكما ان ادوية البدن
واغذيته العقاقير والاطعمة فادوية النفس الاعمال الشرعية
والاداب الخلقيه وكما ان طبيب البدن قد يغير الاغذية والادوية
التي يتوصل بها الى استفاده الصحة واستبقاها لاختلاف

الاية صح

بطبيبين صح

بطبيبين صح

الازمنة كذلك الانبياء من قبل الله قد يغير الاعمال الشرعية
التى هى مصلحة للانفس حسب ما يعرف الله من مصالحها فكما يكون
الشئ دواء للبدن فى وقت ثم يكون داء فى وقت غيره كذلك
الاعمال قد يكون مصلحة فى وقت مفسدة فى وقت ولكون
الشريعة طبة للنفوس قال المسيح انما انا طبيب المرضى وروى
العالم طبيب الدين والدنيا داء الدين فاذا جر الطبيب الداء الى نفسه
فكيف يداوى غيره ومما يبين جواز النقل من حكم الى حكم نقل الله تعالى
الاشياء من حال الى حال حتى ينتهى الى اقصى الكمال كمال الانسان
من مبدأ الى منتهى عمره وذلك من حين النطفة ثم العلقة ثم المضغة
ثم كونه جنينا ثم طفلا ثم ناشيا وشابا وكهلا وشيخا وهرما
ثم ما نبه النبى عليه السلام بقوله ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم
وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ولو كان نقل الشرع من حال
الى حال قبيحا لكان بعثة موسى ونقله اليهود عن بعض ما كانوا
عليه قبيحا واما ما حكوه عن موسى عليه السلام انه قال لبنى
اسرائيل هذه الشريعة لازمة لكم ابدا ما دامت السموات والارض
فلفظ محتمل وفى اتيانه به على وجه محتمل حكمة عظيمة قد ذكرها
الحكما وهى ان من طبايع العامة وغرزتها ان لا ينقاد كل الانقياد
لمراع او رئيس اذا علموا كونه مصروفا من بعد بل يستوهنون امره
ويضعفون حاله فاذا واجب ان لا يشعروا بان امره غير ممتد
وان لا يبين ذلك الا للاعيان الذين لا يكون منهم مفسدة
فلهذا كانت الالفاظ الواردة من الانبيا عليهم السلام محتمله
ان شريعتهم على التابيد فان قيل ان ذلك يؤدى الى ان يقال
فى نبينا عليه السلام على التابيد من قوله فقط بل علمنا
ذلك مع قوله ببرهان وهو انه دينه بالاعتبار العقلى وسط كما
وصفه تعالى بقوله جعلناكم امة وسطا وانه مصون عن الافراط

مطلب لطيف

ذلك قيل انا لم نعلم كونه دينه عليه السلام صح

عن الافراط

عن الافراط والتفريط والوسط الذى هذا صفته هو الحق الذى
قال تعالى فيه فماذا بعد الحق الا الضلال ولشرح ذلك موضع
غير هذا وبالله التوفيق واما معنى الاية فعلى قول من جعل الانشاء
مقابلا للنسخ قال لما انكرت اليهود تحليل الله الشئ فى وقت
بين الله تعالى ان جميع ما فى التورية والكتب المتقدمة ضربان اما
حكم قد نسخ فاتى بما هو خير اى انفع لكم او ترك فلم ينسخ واتى فى
القران بمثله اى جمعناه فى لفظ اخر فيكون قوله بخير منها
راجعا الى النسخ وبمثلها الى الانساء فان قيل ان الذى ترك
ولم ينسخ ليس هو مثله بل هو هو فكيف قال بمثلها قيل الحكم الذى
انزل فى القران وكان ثابتا فى الشرع الذى قبلنا يصح ان يقال
هو هو اذا اعتبر بنفسه ولم يعتبر بكسوته التى هى اللفظ ونحو ذلك
ان يقال ماء البئر هو ماء النهر اذا اعتبر جنس الماء وتارة يقال
مثل ماء النهر اذا اعتبر قرار الماء وعلى قول من جعل الانساء
ترك اللفظ حتى تنسى قال معناه اذا ازيل حكم اية او انسى
لفظها اتانا بما هو اوفق لكم واقرب الى ان يبلغوا به الى ما اريد منكم
ثم قال الم تعلم ان الله على كل شئ قدير اى لا تحسبن ان تغييرى
لحكم حالا فحالا وانى لم اتى بالثانى فى الابتداء هو العجز فان من علم قدرته
على كل شئ لا يظن ذلك لما يرجع الى مصلحة العباد وانه لا يليق
بهم فى الوقت المتقدم وفى الوقت المتاخر الحكم المتاخر وقال
بعض المحققة انه الاية مع هذا الظاهر ينبئ عن معنى لطيف وهو ان الله
تعالى خلق الانسان خلقه بدرجة من حال الى حال الى ان يصير
كاملا موصوفا بعامة صفاته ومتخصصا بالبقاء الابدى والغنى
السرمدى ومنفكا من الحاجات والنقصانات كلها فنبه الله تعالى
ان هذه الاحوال ايات له ينسخها الى مثل ما هو كالاول من وجه
ثم بين انه تعالى قادر على ذلك اذ هو على كل قدير وقد نقل الشافعى

ويصح ان يقال هو مثله اذا لم يعتبر بنفسه فقط بل اعتبر باللفظ صح

وانما تغيير ذلك صح

الحكم المتقدم صح

وخير منه من وجه صح

واصحابه في قولهم ان القران لا ينسخ الا بالقران بهذه الاية ووجه
ذلك ان قولنا هذا خير من كذا وافضل منه يرجع الى شرفه من ثلثة
اوجه اما الى فضل موجده او الى جنسه او الى تاثيره مثال الاول قولك
افعال الله افضل من افعالنا ومثال الثاني الملائكة افضل
من الحيوان ومثال الثالث السيف افضل من العصا ومثل يقال
على ثلثة معان لها ثلثة الفاظ مماثلة في الجنس ويقال لها الند و
مماثلة في الكيفية ويقال لها الشبه ومماثلة في الكمية ويقال لها
المساواة وثلثها يقال لها مثل وقد ضمن الله تعالى انه
لا ينسخ الا بخير منها او مثلها فالسنة ليس بخير من الاية ولا مثلها
في الوصفين الاخرين واما وجه قول مخالفيه فهو ان الله تعالى وان
ذكر الاية فانما اراد حكمها لان النسخ لا يكون الا في الاحكام فاذا قوله
خير منها او مثلها ليس الا في الاحكام فكانه قيل ما ننسخ من حكم
الاية الا نات بخير منه او مثله فعلى هذا مدار الكلام وتعلق اهل
الظاهر بالاية حيث ذكروا ان الناسخ لا بد ان يكون اخف من المنسوخ
وذهبوا في الخفة الى ما يستخفه النفس بالطبع وذلك بعيد فان
الشريعة مبنية على مخالفة النفس وعلى مجانبة مقتضى الطبع ولهذا
قيل هذا عن امران فاشتبه وجه الصواب فيجر اثقلها على النفس
وعلى هذا قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ان قيل
اذا لم يحمل على التخفيف فليس الثانية خيرا من الاولى في شئ من
الاحوال لان الاولى في الوقت اصلح وافضل والثانية في الوقت
اصلح وافضل فقد تساويا في عظم المصلحة وبطل ان يكون الثانية
خيرا بان يكون اثقل واكثر اعمالا ليكون اجزل في الاجر واكثر ثوابا
ومع هذا فان الثانية خير من الاولى في الوقت الثاني لان الاولى
قد بطل العمل بها وقوله بخير منها يعني في الوقت وتعلقهم بقوله
تعالى يريد الله ان يخفف عنكم وقوله يريد الله بكم اليسر فبعيد

آية صح

في الجنس اذ جنس القران يتعلق به المعجزة وان امكن ان يقال هي مثلها صح صح

خير صح

فان التخفيف

فان التخفيف واليسر في الامور الالهية في الدنيا والاخرة هما
مما يستثقله النفس اما في الاخرة فلانه لا وصول الى ذلك الا بتحمل
المشاق في الدنيا والعمل بالطاعات ومخالفة الهوى واما في الدنيا
فان التخفيف واليسر مع حصول العلم والصبر والعفة الواضعة
عن الانسان ثقل الجهل والجزع والخوف والفقر الم تعلم ان الله له
ملك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير
الولي يقال تارة لمن له موالات نسبية او خلف وتارة لمن له
ولاية سلطانية وانما ذكر الولي والنصير وهما متقاربان بالمعنى
لانه قد ينفك الولي من النصرة بان يكون ضعيفا والنصير من الولاية
بان يكون عن المنصور اجنبيا وقوله ما لكم من دون الله اذا تصور
خطابا للكفار اقتضى وعيدا اي لا ولي وناصر يحميكم عنه نحو قوله
تعالى انكم منا لا تنصرون واذا تصور خطابا للمومنين اقتضى تسكينا
لهم اي لا تعتقدوا من يواليكم وينصركم سواه كقوله ضل من يدعون
الا اياه واذا اعتبر بهما فالمعنيان فيها موجودان اي لا تعتقدوا
ان لكم وليا وناصرا اذا لم يكن الله وليكم تنبيها انه تعالى هو الذي
لا يمكن تصور ولي وناصر مع تصوار تفاعه عز وتعالى وانما
خص النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله الم تعلم وان كان
الخطاب له ولغيره لذكره العلم ولا احد من البشر اعلم بذلك
منه عليه السلام اذ قد وقف من اسرار ملكوت السموات والارض
على ما لم يطلع غيره عليه والقصد بالاية انهم لما انكروا النسخ فعرفهم
انه ينقل عباده من حكم الى حكم على ما يرى من مصالحهم وبين ان ذلك
ليس لعجزه اذ هو قادر على كل شئ وما لك له ان قيل لم كرر الم تعلم
ولم يعطف الثاني على الاول قيل انه لما جعل حكم الثاني كالعلة
للاول اخرجه مخرج الاول فكانه قيل هو على كل شئ قدير له ملك السموات
والارض واخراج الكلام على لفظ التقرير لكونه ابلغ في حكم الخطابة

قوله عز وجل صح

اذن صح

وموضع قوله وما لكم معطوف على موضع ان الله له ملك السموات
والارض ام تريدون ان تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل
ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل والطريق
يتقاربان لكن السبيل يقال على اعتبار السبل كقولهم طريق
مسنون ومنه اسبلت الازار والستر والسبلة المسترسل من الشعر
على الشفة العليا والسبل المطر ما دام بين السماء والارض والطريق
يقال على اعتبار طرقه بالارجل والسواء اصله يستعمل في المكان
الذي يستوي فيه مسافة الطرفين وفي ذلك معنى القصد والعدل
فصح ان يفسر بالوسط وبالقصد وبالعدل وليست هذه الالفاظ
في تفسيره اقوالا مختلفة كما ظنه بعض المفسرين واما ام فقيل
هو معطوف على قوله الم تعلم وتقديره الم تعلموا ذلك ام لم تعلموا
فتسئلوا رسولكم كفقيل وقيل هو لاستيناف الاستفهام المفسر بل
كقول الشاعر كذبتك عينك ام رايت بواسط وسبب نزول هذه
الاية فيما روي ان اهل الكتاب سالوه ان ينزل عليهم كتابا من
السماء وذلك ما ذكره في قوله عز وجل يسئلك اهل الكتاب الاية وقيل
هو ما ساله مشركوا العرب وهو قولهم ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل
علينا كتابا نقرءه وقيل سالوه ان يجعل الصفا ذهبا فقال
هو لكم كالمائدة لبني اسرائيل فابوا وقيل سالوه ان يجعل لهم ذات
انوط وهي شجرة تعلق عليها الاسلحة ليقتدوا بالمشركين في اتخاذها
فقال عليه السلام الله اكبر سالتم كما سال بنو اسرائيل موسى فقالوا
اجعل لنا الها كما لهم الهة ان قيل ما فائدة قوله ومن يتبدل الكفر
بالايمان فقد ضل سواء السبيل ومعلوم انه بدون الكفر يضل
الانسان سواء السبيل فكيف بالكفر قيل معنى ذلك من يتبدل الكفر
بالايمان يعلم انه قد ضل سواء السبيل وفي ذلك تنبيه ان ضلاله
سواء السبيل قاده الى الكفر بعد الايمان ومعناه لا تسئلوا

قوله عز وجل صح

اليه ح

قبل صح

رسولكم كما سئل موسى فتضلوا سواء السبيل فيؤدي بكم الى
تبديل الكفر بالايمان فمبداء ذلك الضلال عن سواء السبيل
ووجه اخر وهو انه سمى معاندة الانبياء عليهم السلام بعد ما
تسكن النفس اليه كفرا اذ هي مؤدية اليه كتسمية العصير خمرا
فقال ومن يتبدل اي يطلب تبديل الكفر اي المعاندة التي هي
مبدئ الكفر بالايمان اي بما حصل له من الدلالة المقتضية
لسكون النفس فقد ضل سواء السبيل ووجه ثالث وهو ان
ذلك نهاية التبكيت لمن ظهر له الحق فعدل عنه الى الباطل وانه
كمن كان على وضح الطريق فتاه فيه ووجه رابع وهو ان سواء
السبيل اشارة الى الفطرة التي فطر الناس عليها الاشارة الى
المكتسب من جهة الشرايع فقال ومن يتبدل الكفر بالايمان اي بالايمان
المكتسب فقد ابطله وضيع الفطرة التي فطر الناس عليها فلا
يرجى له نزوع عما هو عليه بعد ذلك ود كثير من اهل الكتاب
لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد
ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى ياتي الله بامره ان الله على
كل شيء قدير الحسد كراهية نعمة على مستحق لها وعدت
من عظايم الذنوب اذ هو معاندة الله في ارادته وهو شر من
البخل فان الحسد بخل على الغير بنعمة من لا ينفد العطايا نعمه والعفو
ترك العقوبة على المذنب والصفح ترك وقد يعفوا الانسان
ولا يصفح وصفحت عنه اي اوليته مني صفحة جميلة معرضا عن
ذنبه او لقيت صفحته متجافيا او تجاوزت الصفحة التي اثبت فيها
ذنبه الى غيرها من قولك تصفحت الكتاب وفي الاية تنبيه ان كثيرا
من اهل الكتاب يتمنون ارتدادكم بعد ايمانكم حسدا وقوله
من عند انفسهم اي من عند هواهم كقوله تعالى واتبعوا اهواءهم
وعبر عن الهوى بالنفس وهي الامارة بالسوء وبين انهم فعلوا

حصول صح

والايمان صح

قوله عز وجل صح

تبرئته صح

عنه صح

ذلك بعد وضوح الحق لهم ولكنهم يحسدهم وهواهم لا يتحرون
ولا يحبون ان يتحراه غيرهم ثم امر بالتجافي عنهم الى ان ياتي الله بامره
تسكينا لهم ووعدا بتغييره لقدرته على كل شئ وروي عن ابن
عباس رضي الله تعالى عنه ان هذه الاية منسوخة بقوله فاقتلوا
المشركين حيث وجدتموهم وقال غيره هي غير منسوخة وهذا الخلاف
يرجع الى اختلاف نظرين وذلك ان كل امر ورد مقيدا بانتهاء ما
معين او غير معين فورود الامر بخلافه يصح ان يقال هو نسخ له من حيث
انه رفع الاول ويصح ان يقال انه ليس بنسخ فان النسخ في الامر المطلق
قوله عز وجل واقيموا الصلوة واتوا الزكوة وما تقدموا لانفسكم
من خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير هذا معطوف على
قوله فاعفوا واصفحوا ومعناه اشتغلوا بالعبادات التي تعود عليكم
نفعها نحو واستعينوا بالصبر والصلوة وجعل ثواب الفعل لكونه
اياه في التقدير وبهذا النظر سمي ثوابا وهو الثائب اليه فلذلك قال
تجدوه وبين ان كل خير حصله الانسان فمدخر له بخلاف عمل الكفار
الذي قال فيه وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا و
بخلاف عمل الدنيا الذي قال فيه كسراب بقيعة وعلى ذلك قال يوم تجد
كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء وقال فمن يعمل مثقال
ذرة خيرا يره وامنهم عن ضياع ما يقدمونه بقوله ان الله بما تعملون بصير
تنبيها على نحو قوله ليجزي الذين اساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا
بالحسنى ان قيل كيف قال تجدوه ومن حبط عمله لا يجده قيل الخير المقدم
في الحقيقة هو الذي لم يحبط فاما ما احبط فقد اخرج من كونه خيرا وقد
يسمى في بعض الاحوال خيرا بنظر من يضعف نظره قوله عز وجل وقالوا
لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم
ان كنتم صادقين البرهان كل حجة لا يعتريها شبهة بوجه وهود
قال الفرا اصله يهود فحذف ياوه لكونها زائدة وقال غيره هو جمع هائد

نفس الفعل صح

ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره
صح

اي تائب نحوانا هدنا اليك وكانه كان في الاصل اسم مدح لمن تاب منه ثم
صار بعد نسخ شريعتهم لازما لجماعتهم كالعلم لهم وجعل مقالهم ذلك
اماني من حيث ان الامنية مقال منبعه عن تقدير فيستعمل تارة في التقدير
حقا كان او باطلا على ذلك حتى بين ما تمنى لك الماني وتارة في
المقال وقوله لن يدخل كلام ملفوف وتقديره قالت اليهود
لن يدخل الجنة الا من كان هودا وقالت النصارى لن يدخلها الا
النصارى فاجمل اكتفاء بعلم السامع ان يرد كلا الى ما يقتضيه ونحوه
في الاجمال قوله عز وجل جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا
من فضله ثم كذبهم بعجزهم عن اقامة البرهان على ما ادعوه قوله عز وجل
بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون بلى رد لدعواهم واثبات لضد حكمهم والاسلام
الدخول في السلم وقيل للانقياد اسلام نحو كما اسلم السلك من نظمه
لاولى متحدرات صغارا لان الانقياد للمسالم من مقتضى السلم وجعل
الاسلام في الشرع ضربين ضربا قبل الايمان ودونه وهو الاعتراف باللسان
الذي يحقن الدماء حصل معه الاعتقاد الصحيح او لم يحصل واياه عنى
بقوله عز وجل قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا
وضربا بعد الايمان وفوقه وهو ان يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب
ووفاء بالفعل واياه عنى يوسف بقوله توفني مسلما والحقني بالصالحين
وقال ان الدين عند الله الاسلام اي الطاعة هي تسليم الامر لله عز وجل
وهذا الاسلام بين مبدئه ومنتهاه بون بعيد وكان منتهاه على حسب
طاقة البشر حال ابرهيم عليه السلام حيث ابتلي فقيل له اسلم فقال اسلمت
لرب العالمين ثم وفى بما كان منه وهذا هو الاخلاص المراد من الاولياء
واصل الوجه العضو المقابل من الانسان فاستعير للمقابل من كل شئ
حتى قيل واجهته ووجهته وقيل للقصد وجه وللمقصد وجهة
وعلى ذلك اسلم وجهه ومن يسلم وجهه الى الله واسلمت وجهي لله

وعلى ذلك قوله وجهت وجهي للذي فطرني ولما جعل ذلك المقصد
اضيف تارة الى القاصد كما تقدم وتارة الى المقصود كقولك اردت
بكذا وجه الله وقد حمل على ذلك ويبقى وجه ربك وكل شيء هالك الا
وجهه وقيل الوجه في هذه المواضع اسم العضو مستعار للذات
فقوله اسلم وجهه اى نفسه والاحسان قيل هو الاتيان بعد فرض العبادة
بالنفل وبعد اقامة العدالة بالفضل ولما كذبهم الله عز وجل فيما ادعوه
من دخول الجنة بين ان من اسلم نفسه له على حد ما قال تعالى ان الله
اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم وكان قصده اياه فيما يتحراه وهو
ملتزم مع فرائضه نوافل حصل له ما ادعوه وزيادة فان له اجره وهو
الجنة ومع ذلك فلا خوف عليه في الدنيا ولا في الاخرة اما في الدنيا
فبان يجعل له يقينا وصبرا وقناعة يكفيه الخوف على شيء بفوته والجزع
لشيء قد فاته واما في الاخرة فبان يكفيه شدائد يوم لا يغني مولى عن مولى
شيئا ان قيل كيف قال فلا خوف عليهم وقد مدح المؤمنين على خوفهم
بقوله يرجون رحمته ويخافون عذابه قيل ان الذي نفى عنهم هو
ما تقدم انفا والذي منعهم به هو توفيه حق العبادة فان مخافة الله
اقامة عباداته وارتسام مرسوماته ولذلك قيل من لم يحم نفسه الدنيا
فلا تعدبه وقيل معنى اسلم وجهه لله وهو محسن اى اخلص وعمل صالحا
وما تقدم منطو على هذا **قوله** عز وجل وقالت اليهود ليست النصارى
على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب
كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيمة
فيما كانوا فيه يختلفون الكتاب يتناول كل كتاب منزل والقران
يقال في التورية وفي القران والقران يختص بالمنزل على محمد صلى الله عليه وسلم
وروى انه لما قدم نصارى نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم اتتهم
احبار يهود فتنازعوا عنده وقال كلا الفريقين للاخر لستم على شيء
فانزل الله عز وجل هذه الاية ان قيل كيف عرض تعالى بتكذيبهم فيما ادعوا

وقصدق

وقصدق الفريقان على قول المسلمين قيل ليس قول احد الفريقين
بسديد من وجه اذ قد بت الحكم وليس ذلك على البت والقطع
فكلا الفريقين في وقت وعلى وجه على حق على ان القصد بالاية
الدلالة على جهلهم وتخبطهم مع تشاركهم في قراءة التورية
الدالة على ما اختلفوا فيه فبين ان كلا الفريقين حائد عن الطريق
وانهم في الجهل والتجاهل كالمشركين الذين لا كتاب لهم في دعواهم
على الكتابيين والمسلمين انهم ليسوا على شيء ثم توعد الفريقين بحكمه
بينهم وقد ابهم حكمه فيدخل فيه كل قول قال من قول من قال
عنى انتصاف المظلوم من الظالم وقول من قال عنى تعريف المكذب
من المكذب وقول من قال مثل قوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين
قوله عز وجل ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها
اسمه وسعى في خرابها اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين
لهم في الدنيا خزي ولهم في الاخرة عذاب عظيم المنع ان يحال
من المريد ومراده ولما كان الشيء قد يمنع ضنا به صار المنيع متعارفا
في المتنافس فيه والسعي مشي بسرعة وهو دون العدو وخص
بانواع من السعي منها السعاية اى الوشاية وسعي العبد في اكتساب
ما يعتق به وللتصرف للتكسب والجباية الصدقة حتى صار الساعي
معروفا في جابي الصدقة وجعل المساعاة كناية عن الفجور بالامة
والخراب ضد العمارة وجعل الخربة لسعة خرق الاذن تشبيها
بالخراب وشبه عروة المزادة بها فقيل خربة والخارب السارق
لتخريبه او لكونه ساكنا في خراب متوحشا عن الناس فيكون
بناؤه كباد وحاضر وقيل هو مختص بسارق الابل خاصة
والاولى بالمساجد ان تكون عامة في كل مكان مرشح للصلوة
فقد قال عليه السلام جعلت لي الارض مسجدا وطهورا وعظم تعالى
ظلم من سعى في المنع من ذكر الله وتخريب الامكنة المختصة باهل

الشرايع المحقة مسجداً كان او غير مسجد وليس التخريب الهدم فقط
بل تعطيله عن عبادة الله عز وجل وقول ابن عباس ومجاهد انه عني به
الروم اذ خربوا بيت المقدس وقول غيره انه عني بخت نصر لما خربه
وقول من قال انما عني المشركين اذ صدوا النبي عليه السلام عن المسجد الحرام
فكل ذلك امثلة منهم لحكمه وسبب لنزول هذه الآية لا انه
لم يرد بها غير ذلك يبين ذلك انه قال مساجد بلفظ الجمع وقوله
ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لفظه خبر ومعناه منطو عليه
وعلى الامر فان بيوت الله عز وجل ممنوعة على الكفار دخولها الا لاسلام
الا باذن ويكونون خائفين والحكم ان لا يمكنوا الا بشرط حاجة
يقتضي ذلك ثم اثبت لهم الخزي في الدنيا وذلك تارة بالهوان
الذي يجري عليهم وتارة باخذ الجزية منهم وقتلهم والسبي منهم
ومنعهم عن كثير مما يباح للمسلم واليه نظر قتادة وجماعة وفسر به
وتارة بالهوان الذي يلحقهم في انفسهم من جبنهم وجزعهم وخوفهم
وسائر الآفات النفسية وتارة من حيائهم من عقلهم لاضطراب
نفوسهم وقلوبهم وقلة سكونهم لما اختاروه والى ذلك اشار تعالى
بقوله ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير قوله عز وجل
ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم
المشرق والمغرب تارة يقالان بلفظ الواحد اما اشارة
الى ناحيتي الارض واما الى المطلع والمغيب وتارة بلفظ التثنية
اشارة الى مشرقي ومغربي الشتاء والصيف وتارة بلفظ الجمع
اعتبارا باختلاف المغارب والمطالع كل يوم وشرقت الشمس
طلعت واشرقت اضاءت وذلك اذا كثر شروقها وشرقت اللحم
القيته على الشمس المشرق والمشرق المصلى لانه يقام فيه صلاة
العيد عند شروقها وشرقت الثوب بالصبغ تشبيها بلون الشرقة
والغروب للشمس تصور منه بعد ذهابها عن العمارة فيقال

لكل متباعد

لكل متباعد غروب ومنه الغراب لكونه مبعدا في الذهاب
وغارب السنام لبعده عن المنال وغرب السيف لبعد حده
من صفحته ثم تصور منه حدته فقيل لسان غرب وسمي الدلو
غربا لتصور بعدها في البئر ثم سمي الماء به كتسميتهم اياها بالذنوب
لكونه فيها والغرب الذهب لكونه غريبا فيما بين الجواهر والغرب
لبعده عن المثمرات من الاشجار والآية توكيد لما تقدم انه عني
بالمساجد حيث ما صلى فكانه قيل لا تعتبروا الامكنة فلله عز وجل
ملك الدنيا وحيث ما توجهتم فهو موجود يمكنكم الوصول اليه
اذ ليس هو جوهرا او عرضا فيكون بكونه في جانب يعرى جانبا
ونبه بقوله واسع على احاطته بالاشياء وبالعليم انه لا يخفى عليه خافية
وقد حمل اكثر المفسرين الآية على انها واردة في القبلة فمنهم من قال
ذلك توطئة لجواز نقلها وتقرير في نفوسهم ان ليس المعبود في حيز
دون حيز وقيل ان ذلك في زمان كان يجوز الصلوة فيه
الى كل جهة حتى امروا بقوله فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث
ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وهو قول قتادة وابن زيد وذلك
بعيد لان القبلة كانت مخصوصة وعلى ذلك دل قوله وما جعلنا
القبلة التي كنت عليها وقيل ان ذلك في النافلة وجوازها
حيث ما توجهت بنا الراحلة واليه ذهب ابن عمر وقيل
ان قوما صلوا في ظلمة خفيت عليهم جهة القبلة فلما اصبحوا
كانوا قد صلوا الى غير القبلة فانزل الله عز وجل ذلك واليه ذهب
ابن عباس وجماعة وقد تقدم معنى وجه الله قوله عز وجل
وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والارض
كل له قانتون القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع ولما كان
لهما تفسير بكل واحد منهما فقيل في قوله وقوموا لله قانتين
اي خاضعين وقيل طائعين ولما كان من تمام القنوت القيام

مطلب

والسكوت ما لم يكن امر بخلافه واستعمل فيهما فقيل في قول النبي
صلى الله عليه وسلم لما قيل له اي الصلوة افضل فقال طول القنوت
اي القيام ولما ادعى النصارى في المسيح واليهود في عزير انهما
ابنا الله ومشركوا العرب في الملائكة انهم بنات الله تقدس وتعالى
عن ذلك نبه على اقوى حجة على نفي ذلك وبيانها هو ان لكل
موجود في العالم مخلوقا طبيعيا او معمولا صناعيا غرضا وكمالا
اوجد لاجله وان كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض كاليد
للبطش والرجل للمشي والسكين للقطع مخصوص والمنشار للنشر
وان كان اليد قد يصلح للمشي في حال والرجل للبناء ولكن ليس
على التمام والغرض في الولد للانسان انما هو لان يبقى به نوعه
وجزء منه لما لم يجعل الله اليه سبيلا الى بقائه بشخصه فجعل له بذلك
لحفظ نوعه ويقوي ذلك انه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الاجرام
السماوية بذرا وتخلفا لما لم يجعل لها فناء النبات والحيوان
ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم بلا ابتداء ولا انتهاء لم يكن
لاتخاذه الولد لنفسه معنى ولهذا قال سبحانه ان يكون له ولد
اي هو منزه عن السبب المقتضي للولد ثم لما كان اقتناء الولد لفقرها
وذلك لما تقدم ان الانسان افتقر الى نسل يخلفه لكونه غير كامل
في نفسه بين تعالى بقوله له ما في السموات والارض انه لا يتوهم له
نقص فيحتاج الى اتخاذ ما هو سد لفقره فصار في قوله له ما في
السموات وما في الارض دلالة ثانية ثم زاد حجة بقوله قانتين
وهو انه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الاب ومظاهرته كما قال
وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة بين ان كل ما في السموات و
في الارض مع كونه ملكا له قانت ايضا اما طايعا واما كارها واما
مسخرا كقوله ليسجد له ما في السموات والارض طوعا وكرها وقوله وان من شيء
الا يسبح بحمده وهذا ابلغ حجة لمن هو على المحجة ان قيل من اين

سع

وقع لهم الشبهة في نسبة الولد الى الله تعالى قيل قد ذكر في الشرايع
المتقدمة كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الاب وعلى الكبير منهم
اسم الاله حتى انهم قالوا ان الاب هو الرب الاصغر وان الله هو الرب
الاكبر وكانوا يريدون بذلك انه تعالى هو السبب الاول في وجود الانسان
وان الاب هو السبب الاخير في وجوده وان الاب هو معبود الابن
من وجه اي مخدومه وكانوا يقولون للملائكة الهة كما قالت العرب
للشمس الاهة وكانوا يقصدون معنى صحيحا كما يقصد علماؤنا بقولهم
الله محب ومحبوب ومريد ومراد ونحو ذلك من الالفاظ وكما يقال
للسلطان الملك وقول الناس رب الارباب واله الالهة وملك الملوك
مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف ويقوي ذلك ما يروى ان يعقوب
كان يقال له بكر الله وان عيسى كان يقول انا ذاهب الى ابي ونحو ذلك
من الالفاظ ثم تصور الجهلة منهم بافرع معنى الولادة الطبيعية
فصار ذلك منهيا عن التفوه به في شرعنا تنزها عن هذا الاعتقاد
حتى صار التلفظ به وان قصد به ما قصد هؤلاء قرين الكفر وقد استدل
بعض الفقهاء بهذه الاية على ان الملك لا يقارن الولادة وان من
ملك والده او مولوده عتق عليه لانه تعالى نفى عن نفسه الولد
باثبات الملك له وهو بعيد عما قصد في الاية بالمقال وان كان
فيه مجال للجدال قوله عز وجل بديع السموات والارض واذا قضى
امرا فانما يقول له كن فيكون البديع يقال للمبدع والمبدع جميعا
والابداع ايجاد فعل ابتداء لا احتذاء ولهذا قيل فلان بدع في كذا
وجعل البدعة اسما لكل مخترع لم يؤثر على ارباب الشرع والقضاء اتمام
الشيء قولا وفعلا فمن القول قوله تعالى وقضى ربك الا تعبدوا
الا اياه وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب ومن الفعل
قوله فقضيهن سبع سموات في يومين وقضى فلان دينه
وقضى نحبه وانقضى الامر وتقضى بلغ اخره وذكر تعالى بهذه

مطلب

الآية حجة رابعة شرحها ان الأب هو عنصر للابن منه
تكون والله مبدع الأشياء كلها فلا يكون عنصرا للولد فمن المحال
ان يكون المنفعل فاعلا وخص لفظ الابداع لكونه ابلغ لفظا
وابعد عن الاحتمال وذلك ان افعال الله تعالى على ثلثة اوجه
ابداع وهو اختراع الشيء لا عن شيء ولا في زمان ويستعمل ذلك
في ايجاده تعالى المبادى وصنع وهو تركيب صورة مع العنصر
ويستعمل في ايجاده الاجسام وتسخير وهو سوق الشيء الى غرضه
المقصود منه طوعا او قهرا ويستعمل في القوى التي اوجدها
في السحاب والامطار والاغذية والادوية وكل هذه
الثلثة يقال له الخلق واشرفها الابداع ونبه بقوله واذا قضى
امرا على حجة خامسة وهو ان الولد يكون بنشو وتركيب
حالا بعد حال وهو اذا اراد شيئا فحصل فعل بلا مهلة ولم يرد
بازاء حقيقة الزمان اذ كان ذلك اشارة الى ما قبل وجود الزمان
ولم يرد ايضا بكن حقيقة اللفظ ولا بالفاء التعقيب
الزماني بل استعير كل ذلك لانه اقرب ما يتراءى لنا به سرعة
الفعل وتمامه وذكر لفظ القضاء اذ هو لاتمام الفعل والامر
لكونه منطويا على اللفظ والفعل والقول اذ هو اخف موجد
منا واسرعه ايجادا ولفظ كن لعموم معناه واختصار لفظه
ثم قال فيكون تنبيها لانه لا يمتنع عليه شيء يريد ايجاده وكن
فيكون وان كان مخرجها مخرج شيئين احدهما مبني على الاخر
فهو في الحقيقة شيء واحد ونحو قولنا فلان اذا اراد شيئا
فقد كان ما اراد واختلف في تفسير هذه الاية من حيث ان كن لفظ
امر والامر لا يكون الا لموجود فبعض قال لفظ الشيء مخصوص
ههنا للموجودين الذين قال لهم كونوا قردة خاسئين وبعض
قال هو خطاب لمن يحييهم من الموتى وبعض قال هو امر للشيء

حال

في حال تكونه لا قبله ولا بعده وبعض قال هو امر للمعلوم له وذلك
في حكم الموجود وان كان معدوم الذات وبعض قال هو امر للمعدوم
قال ويصح امر المعدوم كما يصح امر الموجود وبعض قال انه جعل كن
دلالة للملائكة على ما يقتضيه من الافعال واكثر هذه الاقوال
يتبين وهنه بتصور ما تقدم قوله عز وجل وقال الذين لا يعلمون
لولا يكلمنا الله او تأتينا اية كذلك قال الذين من قبلهم
مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الايات لقوم يوقنون
اليقين ابلغ علم واوكده وهو ان يكون عالما بالشيء وعالما بانك
تعلمه غير شاك ولا متهيئ للشك ولذلك قيل هو المعلوم الذي
زالت عنه المعارضة على مر الاوقات وانما لا يوصف الباري
تعالى به من حيث انه لا يستعمل الا في العلم المكتسب ولهذا قال
تعالى في صفة ابرهيم عليه السلام وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات
والارض وليكون من الموقنين ويعني بالذين لا يعلمون الكافرين
على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول ابن عباس هم اليهود
وقول مجاهد النصارى وقول الحسن وقتادة هم مشركوا
العرب كله محتمل ويصح ان يكونوا جميعا مرادين فقد قال
يسئلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد
سألوا موسى اكبر من ذلك ومشركوا العرب قالوا لن نؤمن لك
حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا وعنى بالذين قبلهم من سبق
من كافري الامم فقد قال اصحاب موسى ارنا الله جهرة واصحاب عيسى
قالوا انزل علينا مائدة من السماء ثم بين انهم متشابهون
في العمى والجهالة لا في تواصيهم على رسلهم كقوله اتواصوا به بل هم
قوم طاغون ان قيل انهم وان اخطؤا في قولهم لولا يكلمنا الله
فانهم لم يخطئوا في سؤال الاية اذ لا يلزم الانسان ان يؤمن

الا لمن يأتي باية تدل على صدقه قيل انما انكر عليهم جحودهم
الآيات التي اتاهم ولذلك قال قد بينا الآيات كما قال
ولولا انزل عليه اية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير
مبين اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم وقوله
لقوم يوقنون فيه معنيان احدهما انهم يطلبون اليقين وليس
بهم المعاندة والثاني ان من حصل له اليقين بالحق المحض وليس
يعتريه شبهة فله في القرآن لا آية بل آيات كما قال هو للذين
امنوا هدى وشفاء وقرأ بعضهم تشابهت بتشديد الشين كانه
نظر الى قوله تشابه فحمل عليه وذلك خطأ لان تشابه اصله يتشابه
فادغم وليس في تشابهت ذلك ومن قال هلا اجابهم الى سؤالهم
في اثناء الآية فسؤال جاهل بحكمة الله تعالى فيما فيه انزاح جاهل وتشهيه
لا يجوز للحكيم ان يفعل ما ليس في مقتضى الحكمة وقد ازاح العلة بغير
سؤالهم والى ذلك اشار بقوله ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت
السموات والارض ومن فيهن قوله عز وجل انا ارسلناك بالحق
بشيرا ونذيرا ولا تسئل عن اصحاب الجحيم الجحيم المتاجج من النار
يقال جحمت النار وشبه حمرة عين الاسد به فقيل لها جحمة وجاحم
الحرب تشبيها فبين تعالى ان عليك البشارة والانذار ولا يلزمك
عقابهم تسلية له كقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقوله
ليس عليك هداهم وقوله ما على الرسول الا البلاغ وقوله عليك
البلاغ وعلينا الحساب وقوله لا تسئل حال معطوف
على قوله بشيرا ونذيرا وقرأ نافع ولا تسئل بالجزم فقيل ذلك
تفخيم لشأنهم وقيل نهي عن تتبع ما اغناه الله عنه من اخبار
من مضى وقد روي انه عليه السلام كان يستغفر لابيه فنهاه الله تعالى
عن ذلك كقوله ما كان للنبي والذين امنوا ان يستغفروا
للمشركين ولو كانوا اولي قربى قوله عز وجل ولن ترضى

عنك

عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله
هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك
من الله من ولي ولا نصير الملة من املت الكتاب وهي اسم لما
شرعه الله تعالى لعباده على لسان انبيائه ليتوصلوا به الى آجل ثوابه
والدين مثله لكن الملة يقال باعتبار دعا الله وانزال كتبه والدين
باعتبار طاعة العباد له باجابة دعائه والانقياد لامره والشيء
الواحد قد يسمى باسمين على اعتبارين ثم يقال الملة والدين
لما لم يكن من قبل الله على التقييد كقولك ملة مزدك وغيره
والهوى رأي عن شهوة داع الى الضلال وسمي بذلك لانه يهوي
بصاحبه في الدنيا الى كل داهية وفي الآخرة الى الهاوية ولهذا سميت
النار هاوية ولشدة سلطانه وصفه الله بانه اله الكفار فقال
افرأيت من اتخذ الهه هواه ومعنى الآية ان من خالفك لا يرضون
عنك الا بمتابعة ملتهم تنبيها انه لا يرضيهم الا ما لا يجوز وقوعه
منك ثم بين ان اتباعهم ليس بهدى وان الهدى هو هدى الله
اي ارشاده كقوله من يهد الله فهو المهتدي ثم حذره فقال ولئن
اتبعت اهواءهم وذلك تحذير له ولامته ولكن خص بالذكر لانه نبي الله
بل اولياء بادنى ميل الى الضال يكونون في حكم تابعي هواهم وربما بعد ذلك
في جرائمهم الكبيرة ويؤخذون بما لا يؤخذ غيرهم به وذلك معلوم
في التعارف فان من حصل له زلفة متناهية من السلطان لا يتجافى
عما يقع منه من ادنى مخالفة كالتجافي عن الاجانب ولهذا قيل كبائر
الاولياء صغائر العوام وقيل فاحشة الاولياء التواني في تعهد النفس
وفاحشة العوام فيما فيه المحدود وانما قال اهواءهم بلفظ الجمع
تنبيها على ان لكل هوى غير هوى الآخر ثم هوى كل واحد منهم
لا يتناهى ونحو ذلك قوله ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون
وقوله قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين

وقوله للمؤمنين ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل وقال
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وذلك تحذير من الهوى
جملة وقد تعلق بهذه الآية من يجعل الكفر كله ملة واحدة لانه
جمع بين اليهود والنصارى وسمى طريقتهما ملة واحدة قوله عز وجل
الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به
ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون قد تقدم الكلام في التلاوة
وانها تكون بالقراءة وبتتبع المعنى تارة وباستعمال مقتضاه تارة
وهو المعنى بقوله حق تلاوته وعليه دل قول ابن عباس وابن مسعود
يتبعونه حق اتباعه وقول مجاهد يعملون به حق عمله وقول غيرهم
حق تلاوته اذا ذكر الجنة سأل الله الجنة واذا ذكر النار تعوذ منها
وذلك عام في كتاب الله تعالى وفي ادبابها فقول قتادة هم اصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم وقول ابن زيد انهم اليهود والنصارى وقول
غيرهما هم الذين اسلموا من مشركي العرب كلها داخل فيه وعموم اللفظ
يقتضيه وقوله الذين مبتدأ ويتلونه حال لهم واولئك خبره والمعنى
هم الذين يحصل لهم الايمان به دون الذين يكفرون به وليس لهم الا الخسران
المبين ونحو ذلك قوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وهذه الآية كالتحقيق لما تقدم
من قوله وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله او تأتينا اية قوله عز وجل
يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين
واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها
شفاعة ولا هم ينصرون قد تقدم الكلام في مضمون الآيتين وسئل
عن فائدة تكريرها وانه قال في هذه الآية ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها
شفاعة وفي الآية المتقدمة قال لا تقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها
عدل والجواب اما التكرير فعلى سبيل الانذار فالواعظ اذا وعظ
لامر ما قد تكرر الذي يعظ لاجله تعظيما للامر واما تغيير النظم

تارة صح

فلما

فلما كان قبول العدل واخذه وقبول الشفاعة ونفعها متلازمة
لم يكن بين اتفاق هذه العبارات واختلافها فرق في المعنى
قوله عز وجل واذ ابتلى ابرهيم ربه بكلمات فاتمهن قال اني
جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين
الابتلاء الاختبار لكن الابتلاء طلب اظهار الفعل والاختبار
طلب الخبر وهما متلازمان والتام والكامل والوافي والوافر متقاربة
لكن التام يقال للمعدود والممسوح جميعا نحو عدد تام وليل تام
ورجل تام الخلقة والكمال اكثر ما يقال في الممسوح والمشبه به
وقوله تلك عشرة كاملة فالمراد كمال الحكم لا كمال العدد كما قدره
بعض الملحدة فاعترض عليه بالاذراء والوافي ما اشرف على الشيء
ومنه وفاء العهد واوفى على كذا اي اشرف عليه والوافر ما لم ينقص
منه شيء ومنه الوفر وسقاء اوفر لم ينقص من اديمه شيء والذرية
الاولاد الصغار والكبار وقيل هي للصغار وقيل اصله من الذر وقال
الفراء اصله من ذريت وذروت وقال ابو عبيدة اصله الهمز من ذرأ
الله الخلق فترك همزه على غير قياس والامام في الاصل المؤتم به
محقا كان او مبطلا ومنه قوله تعالى يوم ندعوا كل اناس بامامهم
وقوله وجعلناهم ائمة يدعون الى النار وفي اطلاق الشرع اسم للمقتدى به

مطلب

المقتدى بالشرع وهو اعم من النبي والخليفة اذ كل نبي وخليفة امام وليس
كل امام نبيا وخليفة والكلمات قد يقع عن الالفاظ المنظومة
وعلى المعاني التي تحتها فقوله وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا اي قضية
وحكمة وقال قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي اي للمعاني التي ترد
بالكلمات ولم يرد اللفظ فان ما يحصره اللفظ يحصره الخط والكلمات
التي ابتلى بها مبهمة محتملة وذكر المفسرون لها وجوها يصح ان يكون
كلها مرادا فقيل هي عشر سنن خمس في الرأس المضمضة والاستنشاق
والفرق وقص الشارب والسواك وخمس في الجسد تقليم الاظفار

ونتف الابط والختان وحلق العانة والاستنجاء وقيل هي
خصال محمودة ذكر بعضها في سورة التوبة وبعضها في سورة المؤمنين
وبعضها في سورة سأل سائل وقد تقدم ذكرها في قوله فتلقى آدم من ربه
كلمات فتاب عليه وقيل هي مناسك الحج المذكورة في قوله واذ بوأنا
لابرهيم مكان البيت الآية وكل ذلك عن ابن عباس وقيل هو
ابتلاؤه بالكوكب وبالقمر والشمس وقيل امتحانه بانفاق ماله
وهجر اوطانه وذبح ولده والقائه في النار فلما لم يؤثر على اختيار الله
في شيء من ذلك قال فيه فاتمهن واتمامه هو الوفاء بها المذكور
في قوله وابرهيم الذي وفى وسماه حنيفا مسلما وقال اني جاعلك
للناس اماما وجعل امامته للناس كافة على التابيد فانه لم يبعث
بعده نبي الا من ذريته كما قال تعالى وجعلنا في ذريته النبوة
والكتاب وقال وجعلها كلمة باقية في عقبه حتى قال
للنبي عليه السلام ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابرهيم حنيفا
وقال ملة ابيكم ابرهيم هو سماكم المسلمين من قبل وامر عليه السلام
بذكر ابرهيم في الصلوة فقال اللهم صل على محمد وال محمد كما صليت
على ابرهيم ولم ترد بالامامة ههنا النبوة كما ظنه بعض المفسرين
فانه عليه السلام امام للناس على العموم في كل زمان على الاطلاق
وليس بنبي لهم على العموم بالاطلاق ولما قيل له ذلك قال
ومن ذريتي فاجيب الى ملتمسه بقوله لا ينال عهدي الظالمين
لكن تعالى بين انه قد يكون من ذريته ظالم وبين ان الامام
يتحمل للعهد والظالم لا عهد له فاذا لا امامة له ولهذا روي
في الخبر ان الله تعالى يقول يوم القيمة لوالي السوء يا راعي السوء
اكلت اللحم وشربت اللبن ولبست الصوف ولم تؤد الكسير
ولم ترعها في مرعاها واستدل بالاية بعض الناس فزعم ان
الظالم اذا عوهد لم يلزم الوفاء بعهده وقال الحسن

انما لم يجعل الله لهم عهدا **قوله** عز وجل واذ جعلنا البيت مثابة
للناس وامنا واتخذوا من مقام ابرهيم مصلى وعهدنا الى ابرهيم
واسمعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود البيت
سمي اعتبارا بالمبيت فيه ومنه قيل بيتهم وما بيوت بات ليلة في اناء
ثم ترك اعتبار المبيت وروعي صورته وبه شبه بيت الشعر اعتبارا
بانه مبني من اوتاد واسباب بناء بيت الشعر والوبر من نحوها
وبيت الله سمي لوجود صورة البيت فيه والمثابة اما لثوب الناس
اليه واما لاستحقاقهم الثواب بقصده ان قيل كيف جعل مثابا
وعامة قصاده لا يثوبون اليه قيل ذلك باعتبار جنس الناس
لا باحادهم واعتبر بعض الناس مسالته واستدل بالاية في وجوب
العمرة فقال لا يكون مثابة لاحاد قصاده الا على هذا الوجه ومقام
ابرهيم الحرم عن ابن عباس والمزدلفة عن عطا والحجر عن السدي
والاولى انه الحرم كله فما من موضع ذكروه الا وهو مصلى او مدعى
او موضع صلوة والطوف المشي حول الشيء ومنه الطائف يدور
حول البيوت حافظا وطائف من الجن والخيال وجعل الطوافون
عبارة عن الحرم والعكوف الاقامة مع الملازمة بين تعالى انه جعل
البيت من حيث الحكم مثابة للناس وامنا ومصلى ولم يعن انهم
ملجؤون الى ان لا تخيفوا احدا كما لم يعن انهم ملجؤون الى ان يجعلوه
مصلى ومثابة ان قيل فقد قال فيه ايات بينات مقام ابرهيم
ومن دخله كان امنا قيل هو ايضا على معنى الاول ولو عنى ما قلت
لقال وان من دخله حتى كان يتعلق بالاول وعلى ذلك حكم قوله
اولم يروا انا جعلنا حرما امنا ويتخطف الناس من حولهم على ان
حكم الله في ذلك مما فيه اية منه لانه قيض الناس على استعظام
البيت حتى لا يجسر احد منهم على تعظيم حرمته ومن ضيقها كان
ممقوتا في متوجهاته غير منفك من عقوبة اما متجلية للناظر

اوظاهر لاولى البصائر وقرى واتخذوا على الامر وروى فيه ان النبى
صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما انتهى الى المقام هذا مقام ابينا ابرهيم
فقال الا نتخذه مصلى فانزل الله عز وجل واتخذوا من مقام
ابرهيم مصلى فعلى هذا امر فصل به بين الجملتين من الخبر المعطوف
والمعطوف عليها وعهدنا الى امرناهما امرا موثقا عليهما بان
يطهرا البيت من الانجاس الشرك وكل ما ينافى موضع الطهارة
للطائفين اى القصاد وقيل الاولى للطواف وكلاهما مراد والركع
السجود المصلين وقيل قد دخل فى الامر بتطهيره ان بنيانه
على تقوى كما قال افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان
خير الاية **قوله** عز وجل واذ قال ابرهيم رب اجعل هذا بلدا
امنا وارزق اهله من الثمرات من امن منهم بالله واليوم الاخر
قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس
المصير البلد الاثر الباقى وسمى المدينة وكركرة البعير والمفازة
بلدا للاثار الظاهرة بها وقيل للاثار فى الجلد ابلاد والبليد
المقيم على بلده اى مكانه ثم جعل عبارة عمن لا نفاذ له فى الامر
حتى صار املك له والمصير المنتهى اليه فى الامر ومنه المصير لمنتهى
الطعام وصير البقر مأواها كالزريبة للغنم وصير الباب حيث
مصيره وانما قيل شق الباب اعتبارا بصورته لا بحقيقة مقتضى
اللفظ والاضطرار حمل الانسان على الامر بكره وذلك على وجهين
احدهما بسبب خارج وهو اما ان يضرب او يهدد بالضرب حتى
يفعله منقادا واما ان يؤخذ بيده فيفعل ذلك به والثانى
بسبب من داخل وذلك اما بقهر قوة له لا يناله بدفعها الهلاك
كمن غلب عليه شهوة خمر او قمار واما بقهر قوة يناله بدفعها
الهلاك كمن اشتد به الجوع فاضطر الى اكل الميتة او تناول
مال الغير ولما بنى ابرهيم عليه السلام البيت فى قفر

وكركرة نح

ومن شرط

ومن شرط المدن ان يتحرى فى بنائها موضع يمكن ان يجرى فيه
نهرا ويشق فيه قناة ويتخذ فيه مزرعة تفى بمطاعم قطانها
وعلم ان لا قوام لهم الا بان تجبى اليهم الثمرات ولا يمكن
جبى الثمرات اليهم الا بامنه سأل الله عز وجل ان يجعله بلدا
آمنا بسياسة الهيبة وان يرزق اهله بتسخير الناس لجبى الثمرات
اليه ولما سأله لهم الرزق وكان قد سمع فى جواب سؤاله الامامة
لذريته ما سمع تدارك سؤاله فقيده وقال من امن بالله واليوم
الاخر فقال تعالى ومن كفر تنبيها ان رحمته فى الدنيا وسعت
كل شىء وان نعمه فيها مباحة للكل ليجعلوها ذريعة الى ادراك
ثوابه ثم من كفر وضيع النعم فسوقه الى عذابه ان قيل ان قوله
فامتعه يقتضى ثبات الفعل وقوله قليلا ينافيه فكيف
جمع بينهما قيل ذلك على وجهين ونبطريه فان نعمة فى الدنيا
وان كانت كثيرة باضافة بعضها الى بعض فقليلة باضافتها
الى نعمة الاخرة وعلى هذا قل متاع الدنيا قليل وكيف لا يقل
ما يتناهى بالاضافة الى ما لا يتناهى وانتصاب قليل اما لكونه
وصفا لمصدر محذوف او لكونه ظرفا ويكون فى العبارة
به عن الزمان كقوله عما قليل ليصبحن نادمين **قوله** عز وجل
واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل
منا انك انت السميع العليم الرفع والوضع يتقابلان
ويقال فى الاجسام وفى الشرف والذلة على التشبيه وكذلك
يقال فى الاعراب على التشبيه والقعود المقابل للقيام ثم
جعل للثبات فقيل لاساس البيت قواعد عن طلب الشرف
والقعدة للفرس المقتعد فى اكثر الاحوال والقعود من البعير
المدرك اقتعاده وقيل ان ابرهيم عليه السلام كان يبنى واسمعيل
يرفع اليه الاحجار ويناوله وذلك لا يمتنع من ان يكون الفعل

والقعيدة كناية عن الزوجة
اعتبارا بقعودها فى المنزل
صح

منسوبا اليها وقول من قال يجب ان يكون ابرهيم يتولى بناه مرة
واسمعيل مرة حتى يصح نسبة الفعل اليهما فبعيد التصور
لسعة مجال الالفاظ ومما اختلف فيه انه هل كان للبيت
بناء قبل ابرهيم عليه السلام فاعاده او هو الذى انشاه واحدثه
فليس مما يفتقر معنى الاية اليه وقيل ليس معنى برفعهما
قواعد البناء فقط بل تحريهما تشريفه بدعاء الناس اليه ودعا
الله بحفظه وصح نسبة ذلك اليهما وان كان الله تعالى
فى الحقيقة شرفه من حيث انهما من الاسباب المتأخرة لتشريفه
قوله عز وجل ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة
مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب
الرحيم النسك غاية العبادة والناسك الاخذ نفسه
ببلوغ اقاصيها حسب طاقته وسمى اعمال الحج المناسك
ثم خص الذبيحة بالنسك وتعورف فيه حتى قيل نسك
فلان اى ذبح وقيل للذبيحة نسيكة ولم يعن بالمسلم
ههنا من حقن دمه بالشهادتين كما ظنه بعضهم وقال
هذا دعاء بما علم كونه لهما لا محالة وانما عنى من ليس
فى قلبه تعظيم الله معه وهو المعنى بالمضروب له المثل
فى قوله ورجلا سالما لرجل وبقوله الا من اتى الله بقلب
سليم وقوله توفنى مسلما وهذه اقاصية الايمان ونبه
تعالى بالاية ان من حق الانسان ان يكون مع تحرى الحق
لا ينفك من التضرع الى الله عز وجل بارشاده وتوفيقه
ومن طلب ان يتوب عليه من ذنب عسى ان كان منه وهو
غافل عنه فان قيل لم قيد فقال ومن ذريتنا امة
مسلمة لك ولم يعمم قيل ان هذه منزلة شريفة لا يكاد
يتخصص بها الا الواحد بعد الواحد فى برهة بعد برهة

واعلم

واعلم ان الحكمة الالهية لا يقتضى ذلك فانه لو جعل الناس كلهم
كذلك لما تمشى امر العالم اذ كان العالم يفتقر الى كون افاضل
منهم واوساط واراذل لتتولى عمارته والقيام بتمشية اموره
فقد قيل عمارة الدنيا بثلثة اشياء احدها الزراعة والغرس
والثانى فى الحماية والحرب والثالث جلب الاشياء من مصر الى مصر
وانبياء الله لا يصلحون لذلك اذ كانوا بغرض آخر اشرف
من ذلك ولهذا قيل لولا الحمقى لخربت الدنيا وانما عنى بالحمقى
المعنيون بامر الدنيا باضافته الى المعنيين بامر الاخرة ولذلك
قال واستعمركم فيها قوله عز وجل ربنا وابعث فيهم رسولا
منهم يتلوا عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك
انت العزيز الحكيم العزيز الذى يقهر ولا يقهر وتعزز فلان
بفلان والعزاز من الارض ما فيه صلابة بازاء الذلول وعز
الشئ اذا قل اعتبارا بان كل موجود مملول وكل مفقود
مطلوب والحكمة حدت بحدود على اعتبارات مختلفة اما
اعتبارا بمبدئها فقد قيل هى معرفة حقائق الاشياء وقيل
معرفة الاشياء الانسية والاشياء الالهية وهذا هو كالاول
الا انه ابين واما اعتبارا بمنتهاها فقد قيل هى اماتة الشهوة وقلة
الاكترات بالموت المحمود وقيل التشبه بالعلم والعمل لادراك
ثواب الله عز وجل فاما الرسول الذى طلبه ابرهيم عليه السلام
فقد روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال انا دعوة ابى ابرهيم
وبشارة عيسى بن مريم يعنى بالاول قوله وابعث فيهم رسولا
منهم وبالاخر قوله ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه احمد ان قيل
كيف قال يتلوا عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة وليس الكتاب
الا الايات وما وجه هذا الترتيب قيل اما الايات فهى الايات
الدالة على معجز النبى صلى الله عليه وسلم وذكرا للتلاوة لما كان

اعظم دلالة بنبوته متعلقا بالقران واما الترتيب فلان
اول منزلة النبي صلى الله عليه وسلم بعد ادعاء النبوة الاتيان
بالايات الدالة على نبوته ثم بعد تعليمهم الكتاب اى
تعريفهم حقايقه لا الفاظه فقط ثم بتعليمهم الكتاب يوصلهم
الى افادة الحكمة وهى اشرف منزلة العلم ولهذا قال ومن يؤت
الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ثم بالتدرج في الحكمة يصير الانسان
مزكى اى مطهرا مستصلحا لمجاورة الله عز وجل قوله عز وجل
ومن يرغب عن ملة ابرهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه
في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين الرغبة سعة الارادة
ومنه بطن رغيب اى نهم والرغيب الشيء المرغوب فيه ومتى
عدى بعن اقتضى صرف الارادة عن ذلك الشيء وذلك بالزهد
فيه والاصطفا تناول صفوة الشيء كما ان الاختيار تناول
خيره والاجتبا تناول جابته اى وسطه وهو المختار وسفه نفسه
قيل تقديره سفه وقيل اصله سفه نفسه فصرف الفعل عنه
نحو بطر معيشته وسفه نفسه ابلغ من جهلها وذلك ان الجهل
ضربان جهل بسيط وهو ان لا يكون للانسان اعتقاد في الشيء وجهل
مركب وهو ان يعتقد في الحق انه باطل وفي الباطل انه حق والسفه
ان يعتقد ذلك ويتحرى بالفعل مقتضى ما اعتقده فبين تعالى
ان من رغب عن ملة ابرهيم فان ذلك لسفهه نفسه وذلك اعظم منه
فهو مبدأ كل نقيصة وذلك ان من جهل نفسه جهل انه مصنوع واذا
جهل كونه مصنوعا جهل صانعه واذا لم يعلم ان له صانعا فكيف يعرف
امره ونهيه وما حسنه وقبحه ولكون معرفتها ذريعة الى معرفة الخالق
جل ثناؤه قال وفي انفسكم افلا تبصرون وقال ولا تكونوا كالذين
نسوا الله فانسيهم انفسهم ان قيل كيف وصفه بالاصطفاء في الدنيا
وبالصلاح في الاخرة والنظر يقتضي عكس ذلك فان الصلاح وصف يرجع

الى الفضل وذلك يكون في الدنيا والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه
صالحا فحقه ان يكون في الاخرة قيل الاصطفاء ضربان احدهما كما قلت والاخر
في الدنيا وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته بخصوصية فيه
وهو المعنى بقوله شاكرا لانعمه اجتباه والصلاح واذا اعتبر باحوال الدنيا
فمجازى به في الاخرة فبين تعالى انه مجتبى في الدنيا لما عرف الله من حكمته
فيه ومحكوم له في الاخرة بصلاحه في الدنيا تنبيها ان الثواب في الاخرة
لم يستحقه باصطفائه في الدنيا وانما استحقه بصلاح حديثها ويجوز
ان يكون قوله في الاخرة اى في افعال الاخرة لمن الصالحين ويجوز
ان عنى بقوله في الدنيا حال بقائه وفي الاخرة اى حال وفاته ويكون
الاشارة بصلاحه الى الثناء الحسن عليه الذى رغب الى الله تعالى
فيه بقوله واجعل لى لسان صدق في الاخرين ويجوز انه لما كان
الناس ثلثة اضرب ظالم ومقتصد وسابق عبر عن السابق
بالصالح فكل سابق الى طاعة الله ورحمته صالح وفي الجملة فان الصالح
هو الخارج عن حد الرذيلة وليس في الدنيا على الاطلاق بكل نظر صالح
بل عامة ما فيه يمكن ان يوصف بفاسد اما في حالة ما او بنظر ما فاذن
الصلاح المطلق في الاخرة فلهذا خصه بها قوله عز وجل اذ قال له
ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين لما سال الله تعالى بقوله اجعلنا
مسلمين لك اجابه بقوله تعالى اسلم اى اخلص سرك فانه موضع الاطلاع
والى ذلك اشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله اخلص يكفك القليل
من العمل وبقوله الاعمال بالنيات وقوله وما امروا الا ليعبدوا الله
مخلصين له الدين وقيل معنى اسلم اى استسلم كقولك للاسير
استسلم وقيل معناه اجعل نفسك مسلمة عن اسر الشيطان حيث
قال لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين وهذان القولان
واحد في الحقيقة فان من اسره الرحمن واستاسره فهو الحر المطلق
عن عبادة غيره وقد قيل لن تكون عبد الله حقا حتى لا تكون لما دونه

مستترقا والى ذلك اشار بقوله ولا يشرك بعبادة ربه احداً
وروى ان ابرهيم عليه السلام لما طلب الخلة من الله اوحى اليه فقال
من طلبنى ابليته فقال اذا نلت الخلة لم ابال بالبلية فلما اتى عليه
حول قال من احبنى قتلته فقال اذا انتهيت فى الخلة لم ابال
بقتل الدنيا وقوله اسلمت مبنى فى المعنى على الاول وكانه موعد منه
انه متاهب لما يراد منه وقد حثنا الله تعالى على الاقتداء به فى
الاستسلام له والاستفادة منه الشرف الكبير جزاء بذلك قوله عز وجل
ووصى بها ابرهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم
الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون الوصية التقدم الى الغير بما
يعمل به مقترنا بوعظ واشتقاقه من وصاه اى وصله ونصاده
فصاه اى فصله وقوله بها اى بالملة وقيل بالكلمة التى دل عليها
قوله اسلمت وكلاهما غير منفك من الاخر اذ كانت هذه الكلمة
من جملة الملة والملة مقتضية لهذه الكلمة فبين تعالى ان ابرهيم
وصى بنيه ووصى يعقوب بنيه ايضا بها كما وصى ابرهيم وقال
ان الله اصطفى لكم الدين اى دين ابرهيم فحذف القول المتضمن
الوصية لذلك وحث على الاسلام اى اسلموا قبل ان تموتوا وليس
ذلك نهيا عن الموت وانما هو حث على الاسلام المتقدم ذكره
فهو الذى يفيد الحيوة الابدية المذكورة فى قوله ولا تحسبن
الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون
قوله عز وجل ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال
لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله ابائك ابرهيم
واسمعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون الشهود حضور
بالذات او بالعناية او بالمقال والحضور اكثر ما يقال بالذات
وقد يقال لحاضرت فلانا اذا باحثته بالمقال واحضر الفرس صار
ذا حضور والفرق بين الاحضار والعدو ان الاحضار يقال اعتبارا

بالمنتهى

بالمنتهى والعدو اعتبارا بالمبدأ المتجاوز لانه من عدوه اذا تجاوزه
وجعل الحضارة بازاء البداوة فى التعارف والمحتضر لمن حضره
الاجل ولما ذكر ابرهيم وان دينه الاسلام وان يعقوب اقتدى به
ودعا بنيه اليه وقادهم على ذلك واخذ اعترافهم بين ان من وصيته
لاولاده كان على جملة اعترافه معهم ولم يعن بقوله ما تعبدون
من بعدى العبادة المشروعة فقط وانما عنى جميع الاعمال وكانه
دعاهم ان لا يتحروا فى اعمالهم غير وجه الله عز وجل ولم يخف عليهم
الاشتغال بعبادة الاصنام وانما خاف ان يشغلهم دنياهم
ولهذا قيل ما قطعك عن الله فهو طاغوت ولهذا قال واجنبنى
وبنى ان نعبد الاصنام اى نخدم ما دون الله وهذا المعنى تحراه الشاعر
بالعبادة فى قوله • فتى ملك اللذات ان تعبدنه • وما كل ذى ملك
لهن بمالك • فان قيل لم قال نعبد الهك واله ابائك وتكرير
اللفظ يقتضى تكرير المعنى الا ترى انه اذا قال دار زيد ودار
عمرو يقتضى دارين فالجواب عن ذلك من وجهين احدهما من حيث
اللفظ وهو ان المضاف الى المضمر متى عطف على المضاف اليه
لا بد من اعادة المضمر اذ كان الضمير المجرور لا يصح العطف عليه
والثانى من حيث المعنى وهو ان المعبود لما لم يكن سبيل الى الوصول
اليه الا بالنظر وكان لكل واحد نظر بينوا ان معبودنا هو الواحد
الذى اثبته واثبته اباؤك ثم بين بقوله ونحن له انه واحد
وقد استدل بالاية من منع من مقاسمة الجد بالاخوة واسقط
الاخوة مع الجد كما يسقطون مع الاب واستدل بها ايضا فى
ان العم يجرى مجرى الاب فى الولاية على مال الصغيرة
وتزويجها وفى الجملة ان تسميتها بالاب ليس بمنكر
بل قد يسمى كل كبير من الاجانب ابا على ان الاعمام و
الاجداد اذ كانوا مع الاب فتسميتهم بالاباء اقرب

كتسمية الشمس مع القمر قمرين وتسمية آل المهلب معه
مهالبة **قوله** عز وجل تلك امة قد خلت لها ما كسبت
ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون الامة
في الاصل المقصود كالعمدة والعدة في كونهما معمودا ومعدا
وتسمى الجماعة امة من حيث تؤمها الفرق وقيل للحين
لكونه متضمنا لامة ما وتسمى الدين امة لكون الجماعة عليه
وقوله ان ابرهيم كان امة اى جمع في نفسه من الفضيلة ما
لا يجتمع الا في امة وبهذا المعنى الم الشاعر في نحو وليس لله
بمستنكر ان يجمع العالم في واحد والكسب اجتلاب
النفع بالعمل واذا قيل في المضرة فعلى طريق التشبيه ولما
بين الحجة عليهم وانهم لم يخالفوا في الاقتداء بابرهيم بين
من بعد ان اعمالهم واعمالكم متباينة لا يثاب ولا يعاقب
احد بما كان من الاخر كقوله لا تزر وازرة وزر اخرى وليس
يعني بقوله ولا تسئلون عما كانوا يعملون السؤال المجرد فقد
اخبر انه يقول لعيسى بن مريم ءانت قلت للناس اتخذوني
وامي الهين من دون الله انما يعني المؤاخذة بها **قوله** عز وجل
وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابرهيم
حنيفا وما كان من المشركين يعني ان اليهود قالوا كونوا يهودا
تهتدوا وقالت النصارى مثل ذلك فانزل الله تعالى على نبيه وقال
قل بل ملة ابرهيم اى نتبع ملة المجمع على كونها هدى وبينه بقوله
وما كان من المشركين ان كلتي الطائفتين قد اشركت وان ابرهيم كان
حنيفا وكان يقال في الجاهلية لمن كان على دين ابرهيم حنيف لميلهم
عن طريقتهم الى طريقة غيرها ثم سمي من اختتن او حج البيت
لمن كان ذلك من سنته **قوله** عز وجل قولوا امنا بالله وما انزل
الى ابرهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى

وعيسى

وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن
له مسلمون السبط ولد الولد واصله من سبط اى امتد كانه امتداد
للفروع ومنه سبط الكفين والساباط البناء الممتد بين الدارين
والسباطة ما مد من الكناسة وما امتد من الشعر وسباط الحمى اعتبارا
بتمدد المحموم وتمطيه ان قيل كيف ابتدا بما انزل الينا مع كونه
متاخرا عن كل ما انزل الله وقال وما انزل الى ابرهيم واسمعيل واسحق
ولم ينزل الى اسمعيل واسحق كتاب ولم قال وما اوتي موسى وعيسى
فخصهما بالايتاء دون الانزال وذكر النبيين وقد تقدم ذكر
بعضهم قيل اما الابتداء بما انزل الينا فلانه اول بالاضافة
الينا فالناس بعد نبي محمد صلى الله عليه وسلم مدعوون الى الايمان
بما انزل عليه اولا جملة وتفصيلا ولا يجب الايمان بما انزل
من قبل الا على سبيل الجملة دون التفصيل واما المنزل الى
اسمعيل ومن ذكر بعده فهو المنزل على ابرهيم اذ هم داخلون تحت
شريعته وذلك كقولك ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين
واما قوله وما اوتي موسى فهو على الاستيناف وقوله وما اوتي
النبيون معطوف عليه وقوله من ربهم جزء فكانه لما اختلف
فيما انزل عليهما وادعى بعض اتباعهما عليهما ما لم ينزل اليهما
بين تعالى ان ما اوتيا اى ما خصا به لا ما ادعي عليهما وما اوتي
الانبياء جملة المذكورون وغير المذكورين من ربهم اى منزل من
ربهم ثم قال لا نفرق بين احد اى لا نكون بمنزلة اليهود
الذين امنوا ببعض وكفروا ببعض ان قيل لم قال بين احد منهم
ولفظ احد وان كان قد يعم به في النفي فهو متناول للواحد
ولو قال بينهم لكان اوجز قيل لما كان القصد الى ان نبين
ان لا نفرق بين واحد واحد ذكر لفظ احد فكانه قال لا نفرق
بين احد وجماعتهم اى لا يخرج واحدا من حكمهم فكان لفظ احد

ادل على المعنى المقصود ثم بينه بقوله ونحن له مسلمون انا مسلمون
له اسلام ابرهيم عليه السلام قوله عز وجل فان آمنوا بمثل ما امنتم
به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله
وهو السميع العليم الشقاق المنازعة يقال شق العصا اى فارق
الجمع وشاق القوم صار كل نفر فى شق وشاقوا الله اى صاروا فى شق
غير شق اوليائه وعلى ذلك يحادون الله اى صاروا فى حد غير حده
ان قيل كيف قال فان امنوا بمثل ما امنتم ولم يقل بمثل ما امنتم
وذلك يقتضى اثبات مثل لله عز وجل وقد روى عن ابن عباس
انه قال لا يقولوا فان امنوا بمثل ما امنتم به وان لم يكن هذا السؤال
لوزما لما كان وجه الانكار منه قيل ان الباء ههنا ليس
للتعدية كما هو فى قولك مررت بزيد وامنت بالله وانما هو
للالة ومعناه ان تحروا الايمان بالسبيل الذى تحريتم به والاشارة
بقوله بمثل ما امنتم به الى السبيل المذكورة فى قوله قل هذه
سبيلى ادعوا الى الله وسبيل الله المتوصل به اليه ثلث منازل
على القول المجمل مرتب بعضها على بعض الاول معرفة الاحكام الظاهرة
والعمل بها والثانى معرفة علم الزهادة من عيوب النفس وقمع الشهوة
واخذ النفس به والثالث علم المعاملات وهى معرفة الخواطر
ومراعاتها وذلك اقصى السبيل اليه ولا سبيل تحصيل الايمان الحقيقى
الذى وصف به المؤمنين فى قوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله
وجلت قلوبهم الاية وهذه المنازل الثلث هى المعينة بقوله عليه السلام
سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فبين تعالى ان من اسلك
سالكا هذا السبيل فقد اهتدى ومن جنح فقد شاق ثم قال فسيكفيكهم الله
وهو السميع العليم تسكينا للمؤمنين وامنا من معرتهم قوله عز وجل
صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون الصبغة
اشارة من الله عز وجل الى ما اوجده فى الناس من بداية العقول التى

الى م

ميزنا

ميزنا بها من البهائم ووشحنا بها المعرفة ومعرفة حسن العدالة وطلب
الحق وهو المشار بالفطرة فى قوله فطرة الله التى فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله الاية والمعنى بقوله عليه السلام كل مولود يولد على
الفطرة الخبر وتسمية ذلك بالصبغة من حيث ان قوى الانسان التى
ركب عليها اذا اعتبرت بذاته يجرى مجرى الصبغة التى زينة المصبوغ
ولما كانت اليهود والنصارى اذا لقنوا اولادهم اليهودية والنصرانية
يقولون قد صبغناه بين تعالى ان الايمان بمثل ما امنتم به هو صبغة الله
وفطرته التى ركزها فى الخلق ولا احد احسن صبغة منه وقوله ونحن
له عابدون تعريض بهم اى لا نشرك به كشرككم وقول الحسن وقتادة
ومجاهد ان الصبغة هى الدين وقول غيرهم انها الشريعة وقول من قال
هو الختان اشارة الى معنى واحد وقد قيل صبغة الله على مراتب
اولها ما ركب فينا من الهداية وهى الفطرة والثانية الهداية
ببعثة الرسل والرابع الهداية فى الترقى توليه الى الدرجة العليا
والسعادة القصوى قوله عز وجل قل اتحاجوننا فى الله وهو
ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون
المحاجة المقاومة فى اظهار الحجة المبنية المحجة اى المقصد وقد
الزمهم بهذه الاية الحجة المذكورة فى قوله والزمهم كلمة
التقوى ولما كانت الشرايع مبنية بالقول المجمل على ثلثة اشياء
الاقرار بالبارى عز وجل والعمل له والاخلاص فى ذلك قال
قل لهم انا قد تشاركنا فى الاقرار بالله عز وجل وفى العمل له
ونحن قد حصل لنا الاخلاص فى ذلك من دونكم فان قيل ومن
اين ان الاخلاص حصل للمسلمين دونهم وهل هذا الا مجرد
الدعوى قيل قد احالهم على التامل وذلك ظاهر بالاستقراء
والتدبر فان الاصول الاعتقادية هى ما ذكره الله عز وجل
فقد اخلص المسلمون فيما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى

الهداية بالتوفيق والثالث م

من التثليث وما ادعوا على جبرئيل انه عدوهم وما ادعاه اليهود
على ابرهيم حيث زعموا انه لم يكن نبيا وانما كان رجلا صالحا ونسبوا
اليه لوطا من الفجور ببنيه في حال سكره وادعى النصارى في نبوة
عيسى عليه السلام وانكارهم بعض ما في التورية والانجيل وما ذكروه
من البعث حيث قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة وادعت
النصارى انه لا بعث وانما ينال الثواب والعقاب الارواح
فاذن قول المسلمين ونحن له مخلصون ظاهر قوله عز وجل
ام يقولون ان ابرهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط
كانوا هودا او نصارى قل انتم اعلم ام الله ومن اظلم ممن
كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون قوله
ام يقولون معطوف على قوله اتحاجوننا ام تدعون ان الانبياء
كانوا على دينكم تبنيها انه من المحال ان يكون المتقدم مقتديا
بالمتاخر ومستنا بسنته ومن قرا بالياء فوجه العدول فيه
من الخطاب الى الاخبار استجهالا لهم بما كان منهم من هذه
الدعوى كما يفعل العالم من الاعراض عمن يخاطبه بعد ارتكابه
جهالة شنعة الى غيره واحتج عليهم بمقتضى فقال
انتم اعلم ام الله اي قد ثبت ان الله اعلم منكم وثبت انه
ليس بغافل عما تعملون وقد كتمتم الشهادة عنه ومن كتم
من الله شهادة عنده مع كون الله تعالى بهذا الوصف فهو
اظلم الخلايق فهذا تبكيت لهم في كتمانهم احوال النبي صلى الله عليه وسلم
وسائر الانبياء واحتجاج عليهم بما ادى انفصالهم عنه وقوله من الله
على هذا متعلق بقوله كتم وقيل انه متعلق بقوله شهادة اي من كتم
عن الناس شهادة مصدرها عن الله عز وجل وقيل في الاية قول اخر
وهو ان قوله من الله يتعلق بقوله اظلم وقوله ممن كتم من جملة الذين
كتموا وتقدير هذا التاويل قد ثبت ان الله عز وجل اعلم منكم وقد كتم

ان الشهادة كتمانها عصيان بقوله ومن يكتمها فانه آثم قلبه
فكانه قيل من اظلم من الله من الذين كتموا الشهادة ان كان
الامر على ما ذكرتم ولم يخبركم وهذا كقولك من اظلم ممن يجود
على الفقير من السلطان اي لا احد اظلم منه اذ اظلمه وعلى هذا
يكون قوله وما الله بغافل عما تعملون على سبيل التهديد
قوله عز وجل تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم
ولا تسئلون عما كانوا يعملون اعادة هذه الاية من اجل ان
العادة مستحكمة في الناس صالحهم وطالحهم ان يفتخروا باباءهم
ويقتدوا بهم في متحرياتهم سيما في امور دينهم ولهذا حكى عن
الكفار قولهم انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مهتدون
فاكد الله تعالى القول في انزالهم عن هذه الطريقة وذكر في اثر
ما حكى من وصية ابرهيم ويعقوب بنيه بذلك تبنيها ان الامر
سواء على ما قلت او لم يكن فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم
عقابه وفي الثاني لما ذكر ادعاهم اليهودية والنصرانية لاباءهم
اعاد ايضا تاكيدا عليهم تبنيها على نحو ما قال وكل انسان
الزمناه طائره في عنقه وقوله لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت
وقوله ولا تزر وازرة وزر اخرى ولما جرت به عادتهم
وتفردت به معرفتهم كل شاة تناط برجليها قوله عز وجل
سيقول السفهاء من الناس ما وليهم عن قبلتهم التي
كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء
الى صراط مستقيم السفيه كل معتقد باطلا يسرع الى
اظهار معتقده ولا يكون له ثبات والقبلة وان كانت
في الاصل اسما للحال التي عليها الانسان من الاستقبال
كالجلسة والقعدة فقد صار في التعارف للمكان المتوجه
نحوه للصلوة وهؤلاء السفهاء المنكرون كتغيير القبلة اليهود

على ما روى عن ابن عباس ومشركوا العرب عن الحسن والمنافقون
عن السدى ولا تنافى بين اقوالهم فكل قد عابوا وكل سفهاء
وقد روى ان بعضهم قال لا يثبت محمد على دين وبعضا قال
رجع الى قبلة قومه وسيرجع الى دينهم وروى ان قوما من اليهود
اتوه وقالوا ما ولاك عن قبلتنا ارجع اليها نتبعك فانزل
الله تعالى ذلك مبينا ان الامكنة متساوية عند الله فلله
المشرق والمغرب وهو الهادى الى الطريق المستقيم فاى وجه
يتوجه اليه فهو تعالى موجود كما قال فاينما تولوا فثم وجه الله
وكقوله وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله فالاعتبار
به والاقسام لاوامره لا بالامكنة والجهات المختلفة

قوله عز وجل وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء
على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة
التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على
عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله
ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم الوسط فى الاصل
اسم للمكان الذى يستوى اليه المساحة من الجوانب فى المدور
ومن الطرفين فى المطول كالنقطة من الدائرة ولسان الميزان
من العمود وجعل عبارة عن العدل وكذلك السوا والنصف وشبه به
كل ما وقع بين طرفين افراط وتفريط كالجود بين السرف والبخل
والشجاعة بين التهور والجبن ثم جعل عبارة عن المختار من كل
شئ حتى قيل فلان من اوسطهم نسبا وكما جعلهم وسطا جعلهم خيرا
فى قوله كنتم خير امة اخرجت للناس والعقب مؤخر القدم فقصور مكانه
من الحيوان تارة فاعتبرت فى قولهم يعقبه واعتقبه نحو استدبره
وقفاه وعاقب الليل والنهار وقيل المعقبات للملائكة التى يتعاقب
فى الليل والنهار والعقوبة منه والعقبة الجبل اعتبارا بالصاعد

الذى

الذى يميل نحو عقبه فى ممره ولما كان يوخذ العقب من بعض الحيوانات
فيشد به قالوا عقبته اى شددته بالعقب نحو رسته وانقلب
على عقبيه اذا رجع عائدا نحو ارتدا على اثارهما ورجع عوده على
بدئه ان قيل كيف جعلهم وسطا الخلق ام نحلق خصهم به
ام تعلم ذكره فيهم ام بتشريع شرعه لهم قيل قد خصهم بكل ذلك
والظاهر من ذلك هى الشريعة التى اذا اعتبرت بسائر الشرايع
وجدها حد الاعتدال وهو ان بنى اسرائيل لما عتوا كما حكى الله عنهم
فى غير موضع شدد عليهم اشياء صارت عليهم اصرا واغلالا
نحو ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت
ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ولذلك امرنا تعالى فيما
يدعونه ان يقول ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين
من قبلنا ثم خفف عنهم على لسان عيسى بعض التخفيف وهذا
حكى عنهم ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم وتمم ذلك لمحمد
صلى الله عليه وسلم فقال الذين يتبعون الرسول النبى الامى
الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل الى قوله
ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث وقال ما يريد الله ليجعل
عليكم من حرج وقال عليه السلام بعثت بالحنيفية السمحة
فصارت شريعته متوسطة بين الافراط الذى هو الاصر والاغلال
وبين التفريط الذى هو الاضاعة والاهمال وعلى ذلك قال
كنتم خير امة اخرجت للناس ولكون هذه الشريعة وسطا سمى
مقتضاها كلمة سواء اى عدلا باتفاق العقول فقال يا اهل الكتاب
تعالوا الى كلمة سواء الاية ان قيل هل ذلك للامة كلهم ام للبعض
دون البعض قيل الخطاب لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم
خاصة على وجه وهو خطاب للكافة عامة على وجه وذلك ان
اصحابه فى الحقيقة صاروا موجودين خير الناس وسائر امته ممكنون

ان يصيروا اخيارا وذلك بقبولهم الفيض الذى اباحه الله لهم بعقولهم ولسان نبيهم وتدرجهم الى بلوغ اقاصيه ان قيل على اى وجه شهادة النبى صلى الله عليه وسلم على الامة وشهادة الامة على الناس قيل الشاهد هو العالم بالشئ المخبر عنه مثبتا حكمه واعظم شاهد من ثبت شهادته بحجة ولما خص الله تعالى الانسان بالعقل والتمييز بين الخير والشر وكمله ببعثة الانبياء وخص هذه الامة باتم كتاب كما وصفه بقوله ما فرطنا فى الكتاب من شئ وقوله ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ فافادناه عليه السلام وبينه لنا هدى ورحمة وشاهدا ان يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير وجعل امته المخصصة بمعرفته شهودا على سائر الناس ان قيل هل امته شهود كلهم ام بعضهم قيل كلهم ممكنون من ان يكونوا شهداء وذلك بشرطه ان يزكوا انفسهم بالعلم والعمل الصالح فمن لم يزك نفسه لم يكن شاهدا مقبولا ولذلك قال تعالى قد افلح من زكيها وعلى هذا قال يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم فالقيام بالقسط مراعاة العدالة وهى بالقول المجمل ثلث عدالة بين الانسان ونفسه وعدالة بينه وبين الناس وعدالة بينه وبين الله عز وجل فمن رعى ذلك فقد صار عدلا شاهدا لله عز وجل ان قيل فهل هو شهود على بعض الامة ام على الناس كافة قيل بل كل شاهد على نفسه وعلى امته وعلى الناس كافة فان من عرف حكمة الله تعالى وجوده وعدله ورأفته علم انه لم يغفل تعالى عنه ولا عن احد من الناس ولا يحمل عليهم ولا ظلمهم ومن علم ذلك فهو شاهد لله على من فى زمانه وعلى من قبله ومن بعده وعلى هذا الوجه ما روى فى الخبر ان هذه الامة تشهد للانبياء على الامم ان قيل ما المشبه وما المشبه به فى قوله كذلك قيل لما قال ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم بين ان نعمته بهذا التشريف كنعمته بالهداية الى صراط مستقيم

قوله عز وجل

اى لنعلم صح

قوله عز وجل وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الاية يعنى ما امرناك بالتوجه الى بيت المقدس الا لنعلم الان من يتبع الرسول ممن يتبعه وقيل معناه الا لنعلم حينئذ من ينقاد لك من العرب فى اتباعك على الصلوة الى بيت المقدس وقيل معناه ما غيرنا حكم القبلة التى كنت عليها والقبلة على هذا كله بيت المقدس وقيل معناه ما جعلنا هذه القبلة التى انت عليها اى ما امرناك به يعنى الكعبة وانما استعمل منه كان اشارة الى ان حكم الله تعالى بذلك قد تقدم فى سابق علمه وقيل تمنى الكعبة حتى توجه اليها قبل وروده المدينة وهذا اظهر فالاية التى بعدها هى الناسخة لما لم يصح بقوله ثم ان قيل ما وجه قوله الا لنعلم وذلك يقتضى استفادة علم وقد علم الله تعالى لم يزل عالما بما كان وبما يكون قبل ان ذلك من الالفاظ التى لولا السمع لما تجاسرنا على اطلاقها عليه وبجاز ذلك على اوجه الاول ان اللام فى مثل ذلك يقتضى شيئين حدوث الفعل فى نفسه وحدوث العلم به ولما كان علم الله لم يزل ولا يزال صار اللام فيه مقتضا حدوث الفعل لا حدوث العلم والثانى ان العلم يتعلق بالشئ على ما هو به والله تعالى علمهم قبل ان تبعوه غير تابعين وبعد ان تبعوه علمهم تابعين وهذا الجواب هو فى الحقيقة الاول لان التغير داخل فى المعلوم لا فى العلم والثالث معناه لنعلم غيرنا بنا فنسب ذلك الى نفسه كقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها وفى موضع اخر قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم وقال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم وانما علمه بلا تكلف والرابع معناه لنجازى وذلك متعارف نحو قولك سأعلم حسن بلائك اى سأجزيك على حسب مقتضى علمى قبل فعبر عن الجزاء بالعلم لما كان هو سببه والخامس ان عادة الحليم اذا افاده غيره علما ان يقول له حتى نعلم كذا وانما يريد اعلام المخاطب لكن يجعل نفسه محل المشارك المتعلم على سبيل اللطف ان قيل كيف يتصور انقلاب الانسان على عقبيه قيل ذلك على وجهين احدهما اعتبار لحال الانسان ومعارفه وهو ان الانسان شرع فى الفضيلة واكتساب المعرفة درجة فدرجة الى الحسن الكمال بان حكمه فى نطفته حكم النبات ثم يصير بعد الولادة فى حيز الانسان باكتساب الفضائل اولا اولا

ثم لا يزال يترقى بالعلم والعمل حتى ربما يصير قريبا من الملائكة علما وفضلا
ومتى اخل بمرتبة وصل اليها فرجع عنها فقد رجع على عقبيه والوجه الثاني
ان يعتبر بالاديان وفضائلها وذلك ان الله تعالى انشأ الاديان فما زال يتممها
شيئا فشيئا الى ان كملها بالنبي صلى الله عليه وسلم كما قال اليوم اكملت لكم دينكم
وقال عليه السلام في الخبر الذي قال فيه فكنت في موضع اللبنة فمن انعم عليه بان
اخرج بعد بعثته عليه السلام فرغب عن شريعته مائلا الى غيرها من الشرائع المنسوخة
فقد انقلب على عقبيه وبين بقوله وان كانت لكبيرة ان الانتقال عن المالوف في القبلة
مستصعب على الطبع فالانسان الوف لما يتعوده سيما الشرعية فان ذلك
انما لا يثقل على من انعم الله عليه وهداه وعرف حكمته وعلم انه يأمر عباده بما هو
اصلح لهم كاهل منا الذين لما اتاهم الخبر بنسخ القبلة تولوا وجوههم وكانوا
في الصلوة نحو القبلة من غير ان سمعوا وقوله وما كان الله ليضيع ايمانكم
هو تسكين لمن صلى الى بيت المقدس من المسلمين ومن اهل الكتاب قبل النسخ
وبين انهم يثابون على ذلك فقد روي ان قوما قالوا كيف لمن مات من اخواننا
وقد صلوا الى بيت المقدس فانزل الله تعالى ذلك ان قيل لم قال ليضيع ايمانكم
ولم يقل صلوتكم قيل عدل الى لفظ الايمان الذي عام في الصلوة وغيرها ليعلمهم
انه لم يضع شيء مما عملوا به ثم يصح عنهم فان قيل ولم لم يقل ايمانهم قيل
ذكر بلفظ الخطاب لنبينا وللماضين والباقين تغليبا لحكم المخاطب على الغائب
في اللفظ ثم بين بقوله ان الله بالناس لرؤف رحيم انه لا يضيع احسانكم
وهو رؤف بكم فان رأفته بالناس واضاعته ثوابا فيان لا يجتمعان قوله عز وجل
قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضيها فول وجهك شطر
المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون
انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون فطر وشطر وشطن الفاظ متقاربة
المعاني بتقارب الفاظها ففطر معناه انفصل عن فطره اي جانبه ومنه الفطرة
للقليل المنفصل من المانع وشطر انفصل وتباعد ودار شطور منفصلة عن الدور
وشطون بعيد وقد يستعمل الشطور موضع الشطون ولكن الشطون لما هو ابعد

ورجل شاطر منفصل عن الجماعة بالخلاعة وشاطرته احدث شطرا ونزلت الشطر
وشاة شطور لها ضرع واحد وتوجهت شطره اي نحوه اعتبارا بالشطر المقابل
من شطريه وتقلب ابلغ من تقلب لعيس على ان الوجه يريد به التوجه كقولك وجهي
الى فلان ان قيل هل كان تسخط عليه السلام بوجهه الى بيت المقدس حتى قيل فلنولينك
قبلة ترضاها قيل لم يقصد بذلك انك كنت ساخطا وانما كان عليه السلام لحركة
السر يعلم لما يلقى في روعه ان الله تعالى يريد تغييرا في القبلة وكان يتشوقه ويحبه
وقيل معنى ترضاها اي ترضاها لكن سرعى بهذا القول ان مرادك لم يخالف مرادي
ومعنى تقلب وجهك في السماء اي تطلعك للوحي المنزل وقيل ان في ذلك
تنبيها على حسن ادبه حيث انتظر ولم يسأل فالمولى الذي حصلت له القربة
سعفص عن المسئلة اتكالا على ما يسره له كما روي عنه عليه السلام انه قال ان الله
تعالى يقول من شغله ذكري عن مسئلتي اعطيته افضل ما اعطي السائلين وبين تعالى
بهذه الاية رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في التوجه الى الكعبة والحاجة وبين لاهل
الكتاب بان ذلك حق من الله تعالى ونبه بقوله وما الله بغافل عما يعملون
على وعيدهم ووعد للمؤمنين في الحاحهم وامتناعهم ان قيل من اين علم اهل الكتاب
ان ذلك حق قيل لما تضمن كتبهم من ذكر النبي وعلمهم ان عبادة الله تعالى ان يخص
كل رسول من اولي العزم بصلة غير من تقدمه ان قيل كيف خاطبه اولا بقوله
فول وجهك ثم عم بقوله فولوا قيل اما خطابه الخاص اولا فتشريفا له والجابا
لرغبته واما خطابه العام بعد فلانه كان يجوز ان يعتقد ان هذا امر قد خص
عليه السلام به كما خص في قوله قم الليل ولانه لما كان تحويل القبلة امرا له خطر
خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك ابلغ فمعلوم من عادة السلطان اذا خاطب
واليا من قبله بامر ذي بال نعم ورغبته ان يخصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك
اوقع عندهم وادعى لهم الى قبولهم وليكون لهم في ذلك تشريف ولان في الخطاب
العام تعليق حكم اخر به وهو انه لا فرق بين القرب والبعد في وجوب التوجه
الى الكعبة والضمير في قوله انه الحق من ربك قيل هو التحويل وقيل هو التوجه
والقولان في التحقيق واحد قوله عز وجل ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب

بكل آية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض
ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين ان قيل
كيف علم بانهم لا يتبعون قبلتك وقد آمن منهم فريق قيل قال بعضهم ان هذا
حكم على الكل دون الابعاض وهذا صحيح بدلالة انك لو قلت ما آمنوا ولكن
آمن بعضهم لم يكن منافيا وقيل عنى به اقوام مخصوصون وقيل ما تبعوا قبلتك
بقلوبهم وقوله وما انت بتابع قبلتهم اي لا يكون ذلك منك فمحال ان من عرف الله
حق معرفته يرتد وقيل ما رجع من رجع الا من الطريق اي ما اخل بالايمان الا من لم يصل
اليه حق الوصول ان قيل فقد توجد من يحصل له معرفة الله ثم يرتد قيل ان الذي
يعتقد انه معرفة هو ظن منصور بصورة العلم فاما ان يحصل العلم الحقيقي
ثم يعقبه الارتداد فبعيد ولم يعن بهذه المعرفة ما جعله الله تعالى للانسان
بالفطنة فان تلك كشررة تخمد اذا لم تتوقد وبين ان بعضهم لا يتبع
قبلة بعض وذلك لارتكابهم الهوى وتباينهم عن تامل الهدى وحذر نبيه
عن اتباع اهوائهم ونبه ان اتباع الهوى بعد التحقق بالعلم مدخل متحريه في جملة
الظلمة وقد اكثر الله تحذيره من الجنوح الى الهوى حتى كرر ذلك في عدة مواضع
وقول من قال الخطاب للنبي عليه السلام والمعنى به الامة فلا معنى لتخصيصه فان الله تعالى
يحذر نبيه من اتباع الهوى اكثر مما يحذر غيره فذو المنزلة الرفيعة الى التحذير والانذار
عليه احوج حفظا لمنزلته وصيانة لمكانته فقد قيل حق المراة المجلوة ان يكون
بعدها اكثر اذ كان القليل من الصدى عليها اظهر ان قيل كيف اجاب فقال
ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ولا يقال ان جئتني ما فعلت
وانما يقال لم افعل قيل قد قال سيبويه ان ذلك تضمن معنى القسم لما دخل على ان اللام
صار جوابه كجواب القسم وعلى ذلك قوله تعالى ولئن ارسلنا ريحا فرأوه مصفرا
لظلوا وقال الاخفش لما كان ان ولو متضمنان الشرط حمل ان على لو فعلى
هذا يصح ان يقال ان اتيتني ما اكرمتك وعلى سيبويه لا يصح ما لم يكن مع ان
اللام نحو لئن قوله عز وجل الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم
وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون آتيناهم ابلغ من قوله اوتوا فان

اوتوا قد يستعمل فيمن لم يكن له قبول وآتيناهم اكثر ما جاء فيمن له قبول نحو قوله
آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة وعلى ذلك كل ما جاء من نحو هذا فيما يختص
باكرام نحو هدينا واجتبينا وقوله يعرفونه اي العلم الذي هو النبوة المتقدم
ذكرها في قوله من بعد ما جاءك من العلم وقيل عنى النبي يجدونه مكتوبا عندهم وقيل
يعرفونه ان التوجه الى الكعبة حق واختلاف اقاويلهم باختلاف نظراتهم الى الالفاظ
من حيث المعنى بان معرفة الرسول ومعرفة صدق قوله وصحة ما يامر به من امر القبلة
متلازمة وانما قال كما يعرفون ابناءهم ولم يقل انفسهم لان الانسان لا يعرف نفسه
الا بعد انقضاء برهة من دهره ويعرف ولده من حيث وجوده ثم في ذكر الابن
ما ليس في ذكر النفس فان الابن عصارة ذاته ونسخة صورته وانما قال ليكتمون
الحق ولم يقل يكتمونه لان في كتمان امره كتمان الحق جملة وزاد في ذمهم بقوله تعالى وهم يعلمون
فليس المرتكب دينا عن جهل كمن يرتكبه عن علم قوله عز وجل الحق من ربك فلا تكونن
من الممترين الامتراء من مري الناقة اي مسح ضرعها وبه سمي مري الريح السحاب
ومري الفارس فرسه بالعدو واستعير الممتري للمتردد في الحكم ولهذا استعمل
فيه التمري وهو من مار اذا رجع وبين تعالى ان كل حق هو من الله تعالى اما بابداعه
وايجاده واما بتوقيفه وقوله ولا تكونن من الممترين ليس بنهي عن الشك اذ كان
ذلك ليس بقصد من الشاك بل هو حث على اكتساب المعارف المزيلة للشك
واستعمالها وعلى ذلك قوله اني اعظك ان تكون من الجاهلين قوله عز وجل
ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات اينما تكونوا يأت بكم الله جميعا
ان الله على كل شيء قدير اي لكل امة وقيل لكل نبي ووجهة قيل قبلة وقيل شرعة
وذلك في المعنى واحد وهو ضمير الله تعالى ان الله هو موليها اياه وقيل ضمير الكل
اي كل مولي جهته وقرئ هو مولاها فيكون هو ضمير الكل ولا يحتاج الى التقدير
وقيل معنى ولكل وجهة اي للناس كلهم الا ان وجهة وهي الاسلام تنبيها على ان
الاديان تنسخ نحو ان الدين عند الله الاسلام وقوله ومن يبتغ غير الاسلام دينا
وفي الآية قول آخر وهو ان الله عز وجل فضل الناس في امور دنياهم واخراهم
لاحوال متفاوتة وجعل بعضهم اعوانا لبعض فيها فواحد يزرع وآخر يطحن

بقوله

مطلب

وآخر يحج وكذلك في امر الدين واحد يجمع الحديث وواحد يطلب الفقه وآخر
يطلب الاصول وهم في الظاهر مختارون وفي الباطن مسخرون واليه اشار
النبي بقوله كل ميسر لما خلق له وجعل لكل سبيلا للوصول اليه تعالى اذ دعى
ما هو بصلاة وادى الامانة فيه ولهذا سئل بعض الصالحين عن تفاوت الناس
في افعالهم فقال كل ذلك طريق الى الله اراد ان يعمرها بعباده فبين تعالى
ان لكل طريقا اذا تحرى فيه وجه الله تعالى وصل اليه وعلى هذا حمل قوله تعالى
لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله فاستبقوا الخيرات كقوله سارعوا
الى مغفرة من ربكم وقوله ابتغ فيما آتيك الله الدار وقوله اينما تكونوا يأت
بكم الله جميعا يعني اي شغل تحريتم وحيث ما تصرفتم واي معبود اتخذتم فانتم
مجموعون ومحاسبون عليها قوله عز وجل ومن حيث خرجت فول وجهك شطر
المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ان قيل ما وجه
تكرير فول وجهك قيل اعادة ذلك لحكمة لطيفة وهو انه ذكر لتغيير القبلة
ثلث آيات من قوله سيقول السفهاء من الناس الى قوله لعلكم تهتدون
الاولى اكرامه تعالى نبيه اذ ولاه قبلة ابيه ابرهيم ابتغاء مرضاته وهو
قوله قد نرى تقلب وجهك والثانية اخباره ان لكل صاحب دعوة
قبلة وهو قوله ولكل وجهة والثالثة قطع حجة معانديه فهو قوله
لئلا يكون للناس على الله حجة ففرق بذكر كل علة معلولها الذي هو الحكم
وذكر قوله فول وجهك كقولك ان هذا فرض لعلة كتب وفرض لعلة
كتب فتعيد الحكم مع العلة وهذا ابلغ من قول من قال لما طال القصة
واعترض فيما بينهما ما فيه زيادة بيان اعاد الحكم نحو ولما جاءهم رسول
من عند الله مصدق الى قوله فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله تعالى على
قوله واشار بقوله انه للحق من ربك الى تحقيق ما تقدم فبين انه اذا كانت
الحكمة يقتضي ان يكون لكل صاحب شرع قبلة يختص بها وانت صاحب شرع
فتغيير القبلة لك حق من ربك ان قيل لم خص الاول بلفظ الرب
والثاني بلفظ الله قيل لان في الاول لما نبهه على الاستدلال على حكمته

بالنظر

بالنظر الى افعال ذكر الرب المقتضي للنعم المسطر فيها الى المنعم ويستدل بها
عليه ولما انتهى الى ذكر الوعد ذكر الله تعالى المقتضي للعبادة التي من اخل
بها عليه استحق اليم العقاب قوله عز وجل ومن حيث خرجت فول وجهك
شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس
عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولاتم نعمتي عليكم
ولعلكم تهتدون ان قيل لم كرر قوله وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره
قيل حث باحدهما على التوجه نحو القبلة بالقلب والبدن في اي مكان حصل
الانسان نائيا كان عنها او دانيا منها وذلك حال الاختيار والتمكن وحث
بالآخر على التمكين بالقلب وحده عند اشتباه القبلة في حال المسايفة
وفي النافلة في حال المسير على الراحلة والسفر ان قيل كيف استثنى الذين
ظلموا وذلك يقتضي ان يكون لهم حجة قيل الحجة ههنا موضوعة موضع
الاحتجاج نحو حجتهم داحضة ومعناه لئلا يحتج عليكم احد الا وهو
ظالم وقوله لئلا اما ان عنى العوض والعاقل لا يقصد الا عوضا يصح ان يصيبه
فالمؤمن لا يقصد بذكر الحجة ان يكف الناس بها عن الاحتجاج لعلمه ان منهم
معاندا لا يبالي بالتجاب الباطل والله تعالى لا يأمر بذلك لكونه غير مستطاع
فكانه قال اقصدوا بالحجة دفع الناس الا الظالمين وقيل الظالمون
اشارة الى مشركي العرب حيث قالوا ان محمدا عاد الى قبلتنا وقد استدل
بعضهم على الناس ههنا معني به مشركوا قريش بما روي في الخبر ان كل ما في
القرآن من قوله يا ايها الناس فخاطبه لاهل مكة وما فيه من يا ايها الذين آمنوا
فخطاب لاهل المدينة وقول من قال تقديره لئلا يكون للناس عليكم حجة
الا حجة الذين ظلموا قال والظالم لا حجة له في الحقيقة فصار كقول الشاعر
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول • راجع الى الاول واما قول
ابي عبيدة تقديره ولا الذين ظلموا فان اراد ان معناه هذا على تقدير ما تقدم
صحيح وان اراد ان الا بمعنى الواو فبعيد وقول الشاعر الذي احتج به وهو قوله
• ما بالمدينة دار غير واحدة • دار الخليفة الا دار مروان • فتقديرها بالمدينة

دارا الا دار مروان غير واحدة وهي دار الخليفة فقد اثبت دارين فصار من حيث
المعنى كما قال ليس معنى الا معنى الواو وان قيل اى حجة لهم على الكفار اذا فعلوا
ذلك واى حجة يسقط عنهم قيل لما ذكر تعالى قوله اينما تولوا فثم وجه الله
ومن ان التوجه الى الجوانب سواء المعقول ابان انه انما قصدهم على جانب واحد
لئلا يختلف بوجههم فيحتج عليهم الكفار بالاختلاف ويقولون ما بالكم
تصلون اليها تارة والى غيرها اخرى وقوله فلا تخشوهم لا تراقبوهم ولا
تستحيوا منهم وذلك لما علم انه مكادهم عباد العقيدة عند ظهور الحجة
عن التزامها فقال لهم ذلك والخشية قيل توهم المراقبة والاستحيا
كقوله والله احق ان تخشاه وقوله ولاتم نعمتي معطوف على لئلا يكون للناس
عليكم حجة واتمام نعمته هو ان نعم الله تعالى ضربان احدهما موهوب والاخر
مكتسب فالموهوب صحة البدن وجودة الحفظ والجاه فكل ذلك لا يستحق
بحصوله الحمد ولا بفواته الذم والمكتسب كالعلم والعمل الصالح المتوصل بهما
الى الثواب وهو الايمان وبه يستحق المدح والذم فنبه تعالى انكم اذا اتممتم
في امر القبلة ووصلتم الى حقيقة خشية الله المشار اليها بقوله انما يخشى الله
من عباده العلماء فقد اتممت نعمتي عليكم قوله جل وعز كما ارسلنا فيكم رسولا منكم
يتلوا عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون
ما مع ما بعده مصدر اى كارسالنا والكاف فيه راجع الى قوله لاتم نعمتي
اى اذا اتممتم في امر القبلة وخشيتم الله دون الناس اتم عليكم نعمتي كنعمته
بارسال رسول هكذا تنبيها ان النعمة في نفسه ودعائه العالم الى دين يخالف
لدينهم ووعدكم انه سيظهر دينه على الاديان كان اعظم من تغيير القبلة
وقد وفى بذلك وقيل يتعلق الكاف بقوله اذكروني وهو بعيد ان قيل
كيف اخر فيما حكى عن ابراهيم عليه السلام قوله ربنا وابعث فيهم رسولا ذكر
التزكية عن علم الكتاب والحكمة وقدمها هاهنا قيل التزكية من الله ضربان
احدهما الشهادة بطهارة الانسان وذلك يكون بتزكية الانسان نفسه وذلك
موخر عن تحصيل الانسان الكتاب والحكمة والعمل بهما واياها عنى ابراهيم عليه السلام

في دعائه فلذلك اخر والثانية من الله تبيين احكام الشريعة ومن العبد العمل
وذلك متقدم على معرفة حقائق الكتاب والحكمة وهي المعنية هاهنا فلهذا قدم
ان قيل ما معنى ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون وهل ذلك الا الكتاب والحكمة
قيل عنى بقوله ما لم تكونوا تعلمون العلوم التي لا طريق الى تحصيلها الا من جهة
الوحي على السنة الانبياء ولا سبيل الى ادراك جزئياتها ولا كلياتها
الا به وعنى بالحكمة والكتاب ما للعقل مدخل في معرفة شيء منه ولما ذكر يعلمكم
مع قوله ما لم تكونوا تعلمون تنبيها على انه علم مفرد عن العلم المتقدم ذكره قوله جل وعز
فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون الذكر حضور الشيء بالقلب او القول
فلهذا قيل الذكر ذكران ذكر باللسان وذكر بالقلب وقد يكون ذلك الحضور
لا عن نسيان وقد يكون عن نسيان ولهذا قيل الذكر ذكران ذكر عن نسيان
وذكر لا عن نسيان والى الثاني ذهب الشاعر في قوله • وكيف اذكر من لست انساه •
وقال بعض العلماء لما خص الله هذه الامة بفضل قوة زائدة على ما في بني اسرائيل
قال لبني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم فامرهم بتذكر نعمته المنبهة عن الغفلة
لينظروا منها الى المنعم وقال لهذه الامة فاذكروني فامرهم ان يذكروه بلا واسطة
ان قيل ما الفرق بين شكرت لزيد وشكرت زيدا قيل شكرت له هو ان يعتبر احسانه
الصادر عنه فيثني عليه بذلك وشكرته اذا لم يلتفت الى فعله بل يجاوز الى ذاته
دون اعتبار افعاله فهو ابلغ من شكرت له اذ قد يكون للانسان فعل ظاهر
محمود ثم لا يكون ذلك الانسان على الاطلاق محمودا وانما قال واشكروا لي ولم يقل
واشكروني علما بقصورهم عن ادراكه عن ادراك الائه كما قال وان تعدوا نعمة الله
لا تحصوها فامرهم ان يعتبروا بعض افعاله بالشكر له وشكر الله تعالى اصعب عبادة
واشرفها ولهذا قيل غاية شكر الله الاعتراف والعجز عنه فكل نعمة يمكن شكرها
الا نعمة الله فان شكره نعمة منه وذلك بتوفيقه فان العبد محتاج ان يشكر
نعمته الثانية لشكره الاولى وهذا يؤدي الى ما لا نهاية له فلهذا قيل لا يقدر
عليه ولصعوبة ذلك قال وقليل من عبادي الشكور ولم يثن على انبيائه
واوليائه بالشكر الا على اثنين على نوح حيث قال انه كان عبدا شكورا

وعلى ابرهيم حيث قال شاكرا لانعمه فذكر ذلك بلفظ الذى العبد تنبيها
لعباده على شرف هذه المنزلة وعلوها وصعوبتها على طلوبها ان قيل علام
عطف قوله فاذكرونى اذكركم قيل على قوله فولوا وجوهكم وذلك انه لما امرنا
باستقبال القبلة وبين العلة وانه يريد ان يتم نعمته عليكم كما انعم ببعثه
رسوله اعاد النظم الذى هو الامر بالذكر الواجب بعضه فى الصلوة
وبعضه فى غيرها وان قيل ولم قال بعده ولا يكفرون ولم يقتصر على احد اللفظين
قيل لما كان الانسان قد يكون شاكرا فى شئ ما وكافرا فى غيره فيصح ان يوصف بهما
على حسب النظر الذى تولاه فلو اقتصر على قوله ولا يكفرون لكان يجوز ان يتوهم
ان ذلك نهى عن تعاطى قبيح دون حث على الفعل الجميل فجمع بينهما لازالة هذه
الشبهة ولان فى قوله ولا تكفرون نهيا عن الكفر المطلق وذلك بمعنى اخر
وقدم قوله واشكرونى واخر قوله ولا تكفرون تنبيها على ان ترك الشكر كفران
ان قيل فلم قال ولا تكفرون ولم يقل ولا تكفرونى قيل لانه لا يقتصر من العبد
على شكر نعمه ولا يقتصر منه على ان لا يكفر نعمه بل عن الكفر به فهى جملة اكثر
مما نهى عن كفر نعمه اذ قد يعفوا عن كفر بعض النعم ولا يعفوا عن الكفر المطلق

قوله عز وجل يا ايها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلوة ان الله مع الصابرين
قد تقدم الكلام فى الصبر وانواعها بحث الله تعالى على الصبر اذ هو ذريعة الى فعل
كل خير ومبدأ كل فضل فان اول التوبة الصبر عن المعاصى واول الزهد
الصبر عن مناجات الدنيا واول الارادة الصبر عن طلب ما سوى الله تعالى الحب
ولهذا قال عليه السلام الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد وقال الصبر خير كله
والصلوة هى المقتضية للخشوع والداعية الى ترك الفحشاء كما قال تعالى ان الصلوة
تنهى عن الفحشاء والمنكر ولما اراد بالذكر والشكر على الاستعانة بالصبر انه بها
يتوصل اليه وان الصبر مبدأ الايمان والشكر منتهاه ولهذا قال عليه السلام
الصبر نصف الايمان ثم قال ان الله مع الصابرين فضمن صحبته اياهم تنبيها
على رفيضه وتوفيقه كما قال واصبر لحكم ربك فانك باعيننا تنبيها انه
راعيهم بالعناية ان قيل لم قال ان الله مع الصابرين ولم يقل مع المصلين وقال

كل ه

فى اخرى

فى اخرى واستعينوا بالصبر والصلوة وانها لكبيرة فاعتبر الصلوة دون الصبر
قيل لما كان فعل الصلوة اشرف واعلى من الصبر اذ قد ينفك الصبر من الصلوة
ولا ينفك الصلوة من الصبر ذكرههنا الصابرين فمعلوم انه تعالى اذا كان
مع الصابرين كان لا محالة مع المصلى الكن فقد شرك توفيقه من الصلوة من يصبر
فى كثير من الاحوال قوله عز وجل ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات
بل احياء ولكن لا تشعرون قد تقدم ان الحيوة على اوجه وكل واحد فانه
يقابلها موت الاولى هى القوة النامية التى بها الغذا والشهوة اليها
وذلك موجود فى النبات والحيوان والانسان ولذلك يقال نبات حى
والثانية فى القوة الحاسة التى بها الحركة المكانية وهى فى الحيوان دون النبات
والثالثة القوة العاملة العاقلة وهى فى الانسان دون الحيوان والنبات
وبها يتعلق التكليف وقد يقال للعلم المستفاد المسمى والعمل الصالح حيوة
وعلى ذلك قوله تعالى استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم وقيل
المحسن حى وان كان فى دار الاموات والمسئ ميت وان كان فى دار الاحياء
ولنعود الى معنى الاية فنقول ان بعض المعتزلة لم يعتبر فى ذلك تفصيلا وقال
باثبات الحيوة ونفى الموت عن الشهداء يوم الحساب لا فى الحال قال ولا اختصاص
لهم بل انما علق الحكم بهم لانه فى ذكرهم ولو ذكر معهم غيرهم لذكرهم بحكمهم
واستجهل من قال انهم احياء وقال قد علم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والشهداء
فى قبورهم وهم لا يشربون ولا ياكلون واستجهاله لمن خالفه هو لانه فرع
الى الحيوة التى قد نفى الله تعالى بقوله ولكن لا يشعرون اى لا يحسون ولا يدركون
ذلك بالمشاعر تنبيها ان ذلك بما سبيل معرفة العقل والاعتبار الصحيحة
دون الحواس واما على طريقة غيره فمعلوم وقد اجمعوا على انه لا يثبت لهم
الحيوة التى بها النمو والغذا ولا الحيوة التى بها الحس فان فقدانهما عن الميت
محسوس ومعقول فبعض المفسرين اعتبر المعنى الاخر الذى هو العلم المستفاد
والعمل الصالح فقال ان الله تعالى نهى ان يسمى الشهداء امواتا فى حكم الدين فقال
لا يقولوا لهم ما قال المشركون ولكن تولوهم احياء فى الدين وهذا صحيح وبعضهم

مطلب

اعتبر الحيوة المختصة بالانسان وقال ان هذه الحيوة مختصة بالقوة المسماة
تارة الروح وتارة النفس وتارة النسمة قال والموت المشاهد هو مفارقة
هذه القوة التي الروح البدن فمتى كان الانسان محسنا كان منعما بروحه
مسرورا لمكانه الى يوم القيامة وان كان مسيا كان به معذبا وان المحسن
يعلم بذلك بعد موته والى هذا ذهب الحكماء ودلوا عليه بالبراهين والادلة
وهو مذهب اصحاب الحديث ويدل على صحته الاخبار والايات المروية عن النبي
صلى الله عليه وسلم بل اليه ذهب اصحاب الملل كلها ولم يخالف الا جماعة من المعتزلة
حيث جعلوا الارواح اعراضا لا قوام لها الا بالاجسام وانها مهما فارقت الاجسام
تبطل ومما دلت على صحته قوله عليه السلام الارواح جنود مجندة فما تعارف منها
ائتلف وما تناكر منها اختلف وما روى امير المؤمنين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ان الله خلق الارواح قبل الاجساد بالفي عام وما روى عنه عليه السلام
لترد على جماعة الاموات فلا يزالون يسالونه عن معارفهم وجيرانهم وهو يخبرهم
ويصفهم حتى يجرى ذكر الرجل فيقول قد مات قبلي بمدة فيقولون انا لله سلك
وان كانوا من الصالحين يقولون على به ومعلوم انه لم يرد عليهم بالاشباح وانما اراد
الالتقاء بالارواح وروى انه لما قتل من قتل من صناديد قريش يوم بدر فجمع
جثثهم في قليب اقبل النبي صلى الله عليه وسلم فخاطبهم بقوله هل وجدتم ما وعد ربكم
حقا فاني وجدت ما وعدني ربي حقا قيل يا رسول الله اتخاطب جيفا فقال ما انتم
باسمع منهم ولو قدروا لاجابوا وما روى انه قال رايت نسمة آدم الى غير ذلك
من الاخبار وعلى ذلك قوله واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وقال
في آل فرعون النار يعرضون عليها غدوا وعشيا وهذا يعني به قبل يوم القيمة لانه قال
في اخر الاية ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب والى هذا المعنى
ذهب جماعة الصحابة والتابعين قال مجاهد يرزقون من ثمر الجنة يجدون ريحها
وليس فيها وقال ابن عباس والربيع وغيرهما ارواح الشهداء في اجواف طير خضر ترد انهار
الجنة وتاكل من ثمارها قوله عز وجل ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال
والانفس والثمرات وبشر الصابرين البلاء المبالغة في الاختبار كان البلية

وحلقته

واحلقته من كثرة ما جربته ولذلك يقال بليت فلانا اي اختبرته والكلام في نسبة
الابتلاء الى الله قد تقدم في قوله ولنبلونكم حتى نعلم وانما اراد ظهور الفعل دون حصول
العلم بما هو له الله ونقص الانفس افتقاد الانسان بعض ما يعمه من ذاته كبعض
جوارحه او سمعه وبصره او بعض اثاره وذاته وبعض الثمرات نقد المتوقع من الدخل
والربح وهذه الجملة مشتملة على محن الدنيا كلها ان قيل هل ابتلاء الله الناس بهذه
النوائب عام لهم ام خاص لبعضهم وهل هو ذلك في زمان دون زمان قيل اما بالنظر
الخاصي فعام لهم وفي كل زمان ودال ان الناس لا ينفكون في الدنيا في حال فراغ الاحوال
عن محنها من المحن بل في حال اليسار يساقون الى محنة فاذا هم في محنة وان كانوا
في صحة ولهذا روي كفى بالسلامة داء وقال الشاعر ⁂ اذا كان الشباب يعود سقما
وهما فالحيوة هي الحمام ⁂ والعاقل متفكر يعلم ان ماله وبدنه ونعمه عارية مستردة
فاذا عرضت له نائبة كان له من الصبر مطية لا تكبو ومن الرضا بقضاء الله سيف لا ينبو
واما بنظر اعم من ذلك فان الله تعالى اجرى عادة الدنيا ان لا ينفك من هذه الافات
المذكورة وانها قد ينال الاخيار كما ينال الاشرار جعلها لاوليائه لكي اذا لقوها
بالصبر حظوا بها ووزرهم واذا اساهم حط به اجرهم وخص بعض المفسرين هذه
الاية فقال اراد بالخوف ما ينال في مشاهدة العدو وبالجوع شهر رمضان
وبنقص الاموال ما يخرج من الزكوات وبنقص الانفس الامراض وببعض
الثمرات الصدقات وجعل بعضهم هذه الاشياء المحن الظاهرة العامة لكن
خص المخاطبين بانهم اصحاب النبي خاصة فقال ان الله تعالى ابتلاهم بهذه الاشياء
الظاهرة للحواس المسلمة للكل ليعلم من بعدهم انهم لم يحروا في اتباع النبي
طلب عرض بل سعوا ليحققهم معرفة الحق وظهور الحجج وجعل بعض المعتزلة
المخاطبين والمحن المذكورة جميعا مخصوصين وقال ذلك في اصحاب النبي عليه السلام
وعنى بالخوف خوفهم من الاعداء وبالجوع فقرهم بسبب اشتغالهم بالجهاد ونقص
الاموال لانقطاعهم بالجهاد عن عمارة بساتينهم والانفس بالقتل في سبيل الله
وكل ذلك فعل من الله تعالى او من الكفار وجعل ذلك مخصوصا بهادنا من ان يكون منهم
ناسبا الى الله تعالى فعلا قبيحا ولو اتسع نظره لامن ما يحذره وعلى هذا النحو قوله

ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين والصابرين ونبلوا اخباركم وقوله الم احسب الناس
ان يتركوا وقوله ونبلوكم بالخير والشر فتنة ان قيل لم وصل بقوله ولا تقولوا
لمن يقتل في سبيل الله بين هذه الاية والتي قبلها بقوله واستعينوا بالصبر وهي
بمعزل عنها قيل بل هي متصلة بهما لانه لما حث على الصبر واكثر الصبر انما الطلب
الحيوة ولما نعرض على الحيوة بين بسلك الاية ان ذلك الصبر موصل الى حيوة باقية
كما قال وان الدار الاخرة لهي الحيوان كما قال عليه السلام لا عيش الا عيش الاخرة
لا رغبا في الصبر ثم لما قرر ذلك اسماعنا بحملنا من هذه المحن كي يخف علينا
تحملها ثم ختمه بقوله وبشر الصابرين **قوله** عز وجل الذين اذا اصابتهم مصيبة
قالوا انا لله وانا اليه راجعون المصيبة من اصاب السهم اذا بلغ على صوب
وهي في الاصل صنب وليس يريد بالقول اللفظ فقط فان التلفظ بذلك
مع الجزع القبيح والتسخط القضا ليس بعين بشا وانما يريد تصور ما خلق الانسان
لاجله والقصد له والاستهانة بما يعرض في طريق الوصول اليه فامر تعالى ببشارة
من اكتسب العلوم الحقيقية وتصورها وقصد هذا المقصد ووطن نفسه عليه
ان قيل ولم قلت ان الامر بالصبر يقتضي العلم وما الصبر عن العلم قيل الصبر
في الحقيقة انما يكون لمن عرف فضيلة مطلوبه ولهذا قال خضر لموسى لما علم ان ليس
يعرف مقصده في فعله انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر مالى ان حقيقة
تحمل الصبر لا بد فيه من معرفة المقصود به قال عليه السلام اعطف امتي
ما لم يعطه احد قال يعقوب عند المصيبة يا اسفى وامر امتي ان يقولوا
عندها انا لله وانا اليه راجعون وقال عليه السلام من استرجع عند المصيبة
جبر الله مصيبته واحسن عقباه وجعل له خلفا يرضاه وقال عمر في ذلك
نعم العدلان ونعم العلاوه وحقيقة الرجوع تبين في قوله كما بداكم تعودون
فهو ادق قولا مما قدم من قال انا راجعون الى ان لا يملك امورنا غيره كما
كنا في الابتداء فجعل ذلك رجوعا لهم **قوله** عز وجل اولئك عليهم صلوات
من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون الصلوة وان كانت في الاصل الدعاء
فهي من الله البركة على وجه والمغفرة على وجه وهي الرحمة وان كانتا مثلا زمتين

فهما

فهما مفترقتان في الحقيقة وانما قال الصلوات على الجمع تنبيها على كثرتها منه وانها
حاصلة في الدنيا توفيقا وارشادا وفي الاخرة ثوابا ومغفرة ثم بين ان من كان كذلك
فهو المهتدي تنبيها على ملازمة هذه المعاني الصبر **قوله** عز وجل ان الصفا والمروة من
شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا
فان الله شاكر عليم الصفا الحجارة الصافية من الطين والمروة ما كان صلبا
شديدا والشعائر جمع شعيرة اي علامة محسوسة ومعالم الحج مشاعر وشعائر وسمي
الهدي للعلم بذلك والحج القصد بمعرفة ومنه الحجة والعمرة في الاصل الزيارة المقتضية
لعمارة المودة في الاصل مكان الحج هو الزيارة والعمرة عمارتها ولهذا يتاخر ذكره في القران
ويجب الدم على من قدمها في اشهر الحج ولا فرق به لتقديم ما من حقه ان يوخر وهذا ينبه
ان الافراد افضل من التمتع والقران فان قيل ندب النبي عليه السلام اصحابه الى فسخ الحج
والانتقال الى العمرة على هذا قيل اراد ان يرهم عن اعتقاد ان الاعتمار في اشهر
الحج من اكبر الكبائر والجناح الميل الى الاثم واصله من الجناح وجنح الطائر حرك
جناحه وبه شبه سير الابل فقيل جنحت الابل في السير كقولهم طارت وجنوح
السفينة تشبيه للسابح بالطائر ولهذا قيل السابح طائر في الماء والطائر سابح
في الهواء وجنح الظلام الفي جناحه الوزي انه يقال القى الظليم رداءه كما يقال القى
الظلام رداءه والتطوع تكلف طوع اي انقياد وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم
وانما قال لا جناح وذلك واجب لان العرب كانت يكره السعي في الجاهلية وقيل
كرهت لنصنمين كانا قبل عليها ويعتقدون انهما السعي منا عوا فانزل الله تعالى هذه الاية
واما الوجوب فمستفاد من الخبر وهو قوله اسعوا فان الله كتب عليكم السعي وروى
ان عروة قال لعايشة رضي الله عنها ما ارى جناحا ان لا يطوف بين الصفا والمروة
فقالت بئسما قلت لو كان كذلك لقال ان لا يطوف وقد قيل ان قوله لا جناح كلام تام
وان قوله عليه ان يطوف استيناف يقتضي الوجوب وقرئ يطوع على تطوع وبين
بقوله فمن تطوع اي من زاد على ذلك فان عز وجل نعسه شكر اليه للعبد الاحسان
اليه وقد تقدم ان الشكر كما يكون بالقول يكون بالفعل وعلى ذلك قوله اعملوا آل داود
شكرا الرفيع للوضيع الا الافضال عليه وسول حسنه **قوله** عز وجل ان الذين يكتمون

وليس شكرهم

ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله
ويلعنهم اللاعنون اللعن الابعاد على وجه الطرد وصار في التعارف دعاء اذا قيل
لعنه الله والبينة والهدى وان كانا متلازمين فانهما مختلفان والبينات
مشار بها الى الايات المنزلة والهدى الى ما يستدل به من الامارات وقيل نزلت
الاية في اهل الكتاب الكاتمين امر النبي عليه السلام وقيل هي عام وسببه خصت الاية
او لم يخصص فحكم الله تعالى عام في ان من كتم علما عن مستحق له استحق العقوبة
وعلى هذا قال عليه السلام من سئل عن علم يعلمه فكتمه الجمه الله بلجام من النار وليس
ذلك بمناف ما قيل من منع حقائق الحكمة عمن لا يستحقها فان ذلك دعا له ان يبيح
بقولها وحسن استماعها وحفظها للاستعانة بها في طريق الشر فليس العلم باهون
عند الله من المال الذي هو عرض ياكل منه البر والفاجر وقد منع ان يمكن
منه السفيه الذي لا يحسن مراعاته ولا تؤتوا السفهاء اموالكم واللاعنون
قيل هو عام في الملائكة والناس ودواب الارض وما روي انه يلعنهم الهوام
فيقول منع القطر بمعاصي بني آدم فذلك على معنى ان احوالها تشهد على استحقاقهم
من الله اللعن فكانها ناطقة بذلك كقولك لمن رايت اثرا قبيحا على فرسه ان فرسك
يسبه ويلعنه واما ما يتصوره بعض الناس من ان يكون للهوام [illegible] ولعن
بالقول فذلك ممتنع بوجه مخصوص ليس هذا موضع ذكره قوله عز وجل الا الذين
تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم لما كانت
التوبة استدراك ما ارتكب من المآثم بما يعمه من افعال الخير على ما تقدم ممن
يكتم البينات والهدى عن الناس فانه مع جناياته في نفسه افسد الناس
ومنعهم حقهم فاذا لا يكفيه من التوبة ان يعترف به والعزم على ان لا يعاود
مثله حتى يصلح ما افسده بقدر طاقته ويظهر ما كتمه كما ان من غصب مالا
لا يكون موفيا حق التوبة حتى يرد ما غصبه وضمن تعالى له ان يتوب عليه اذا فعل
ذلك وبين بقوله وانا التواب الرحيم انه ليس يفعل ذلك بهم فقط بل يتوب
على كل تائب وفي حق توبته ورحم بلا مسئلة قوله عز وجل ان الذين كفروا
وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين خالدين

فيها

فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون لما بين في الاول من تاب
من ذنبه تاب الله عليه ورحمه بين في هذا ان من مات على كفر فالعقوبة لازمة
له ان قيل قد قال في الاول اولئك يلعنهم الله فلم اعاد هاهنا قيل لامرين
احدهما انه عم هاهنا وخص في الاولى الذين يكتمون الحق والثاني انه في الاولى
ذكر ان اللعنة تتوجه عليهم وهم يستحقونها وفي الثانية ذكر ان اللعنة
لازمة عليهم ولهذا قال عليهم ان قيل هل الناس عام حتى اكده باجمعين قيل نعم
وذلك ان المؤمنين وصالحي العباد يلعنونهم وهم يلعن بعضهم بعضا كما قال ويوم
القيمة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا وكل ظالم يلعن نفسه ويلعن
بعض جوارحه بعضا كما يشهد عليه وقوله خالدين فيها قيل في اللعنة وقيل
في النار وهما في المعنى واحد وكل من عليه اللعنة فهو في النار وقرئ والملائكة
والناس اجمعون ويكون ذلك عطفا على المعنى دون اللفظ قوله عز وجل والهكم
اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم قد تقدم الكلام في الواحد اذا وصف به الباري
وقوله والهكم اله واحد يجوز ان يكون خطابا على العموم اي المستحق منكم العبادة
هو اله واحد لا اكثر ويجوز ان يكون خطابا للمؤمنين والمعنى الذي يعبدونه
اله واحد تنبيها انكم لستم كالكفار الذين يعبدون اصناما الهة والشيطان
والهوى وغير ذلك ان قيل ما فائدة الجمع بين الهكم اله واحد وبين لا اله الا هو
وكلاهما يبنى على الاخر قيل لما بين بقوله والهكم اله واحد انه المقصود بالعبادة
والمستحق لها وكان يجوز ان يتوهم ان يوجد اله غيره ولكن لا يعبد ولا يستحق
العبادة اكده بقوله لا اله الا هو وحق لهذا المعنى ان يكون مؤكدا ويكرر عليه
الالفاظ اذ هو مبدأ مقصود العبادة ومنتهاه قوله عز وجل ان في خلق السموات
والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس
وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل
دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون
اختلاف الليل والنهار ان يخلف كل واحد منهما الاخر كقوله وهو الذي
جعل الليل والنهار خلفة وقوله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل

وقوله يقلب الليل والنهار والفلك السفينة المدورة وبه شبه فلك السماء
فلذلك استعمل فيه المساحة وفلكة المغزل وفلكت الجارية صار لثديها
فلكة وفلك الجدي وضعت فلكة على لسانه يمنعه عن الرضاع والفلك
يقال للواحد والجمع وذلك انه يقال للواحد فلك وفلك نحو حل وحل
وعرب وعرب وعجم وعجم ومن قال فلك يجمعه على فلك نحو اسد واسد
فتداخل الواحد والجمع من الفتين والبث اظهار ما كان خفيا عن الحاسة هما كان
او غيره والدبيب اصله حكاية صوت حركة الماشي ثم يقال دب اذا مشى
ويقال لكل ما يمشي دابة ثم خص بالفرس والدب خص ببعض السباع ولما
الدبة والدبية فاعتبارا بصوتهما والتصريف صرف الشيء من وجه الى وجه
وصريف الباب منه لكن اعتبر فيه الصوت فبني بناء الاصوات كالنهيق والشهيق
وغير صارف تصريف العجل الى نفسها ما ظهر سعيا والطرف والصريف المصروف
عن الكدورة لكن خص الصريف باللبن والصرف بسائر الاشربة وقوله وتصريف
الرياح يجوز ان يكون تقديره تصريف الله الرياح فاضيف الى المفعول وتصريف
الرياح والسحاب فيكون مضافا الى الفاعل والسحب جر الثوب والسحاب
لانه يجره الريح والسخر القهر على الفعل وهو ابلغ من الاكراه فانه حمل الغير
على الفعل بلا ارادة منه على وجه كحمل الرحا على الطحن ان قيل لم جمع السماء
للسماء دون الارض في كل القرآن قيل لان السموات لما كانت في الحقيقة وطبايعها
مختلفة على ما ذكر اصحاب هذه الصناعة فكل واحد مستمدة للقوة مما فوقها منفعلة
ما دونها والارض وان كانت سبعا فليس على ذلك الوجه لانها بالاقاليم لا بالطبقات
المركبة كالسماء وطبعها واحد من جنس الارض ولهذا قال ومن الارض مثلهن
سبل اللفظ مفردا ونبه بمثلهن على العدد الذي يعبر بالاقاليم وانما ذكرها
هي لفظ الخلق لانه مشتمل على الابداع والصنع والسحر وخص فعل الله بذلك
لكونه موضوعا للتقدير المقتضي للاحكام وهو تعالى احكم الحاكمين ونبه تعالى على حاجتهم
بالتفكر في الموجودات وذكر من اياته ما لا يخفى ار صنعته على ذوي الحواس والعقول
ليستدل به كل على قدر فهمه ويقف منه على معارف بمبلغ علمه ان قيل كان الوجه

ان يعطف

ان يعطف ذكر السموات والارض واختلاف الليل والنهار بتصريف الرياح والسحاب
التي هي من اثار الجو ومختصة بفعل الله تعالى ثم نوع على ذكر الفلك التي هي
في الارض وفيها ارادة للبشر حتى يكون على اللبس قيل ان ايجاد البحر
متقدم على ايجاد الامطار والرياح والسحاب وكل ذلك انما يكون من البخار
الساطع من رطوبة البحار ويبوسة الارض وذلك مبين في كتب المفسرين
بهذه الصنعة ولما لم يكن فرق بين ان يقال والفلك التي تجري في البحر وبين
ان يقال والبحر الذي يجري فيه الفلك في ان المقصد الاول بالاية ان يعرف منفعة
البحر وان اخر في اللفظ وقدم ذكر الفلك الذي هو من صنعتنا ولما كان سبيلنا
الى معرفتها اقرب منه الى معرفة صنعه قدم ذكر الفلك لينظر منها الى اثار خلق الله تعالى
وقال بعض الناس لم يعن بالفلك والبحر المحسوسين بل عنى كالبحر كل سهو وجرم
ومسعه وبالفلك ما فيه النجاة للبشر من فائض النور والعقل امدهم به وغير ذلك
من المعادن المعقولات والمحسوسات وقد تقدم ان من الناس من قال الاشارة بالماء
في هذا الموضع الى العلوم وبالارض الى النفوس التي بها يحيى الحيوة الابدية ولما
ذكر الله تعالى في الاية الاولى والهكم اله واحد وجعل هذه الاية دالة عليها تنبيها
ان كل موجود لا ينفك من كونه مكونا غير مكون او مكونا من وجه مكونا غير مكون
ومحال ان يكون كل مكون مكونا لان ذلك يؤدي الى ما لا نهاية فاذن لا بد ان ينتهي
الموجودات الى مكون غير مكون وذلك هو الباري تعالى ونبه ان اثار الصنعة
موجودة في هذه الاشياء فلا بد وان يكون مكونه وهذا هو الدلالة على وحدانيته
على طريق الجملة قوله عز وجل ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله
والذين امنوا اشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله
جميعا وان الله شديد العذاب الند المثيل في الجوهر وقد تقدم والحب اصله
من الحب وبه شبه حبة القلب وحببته يقال على وجهين احدهما اصبت حبة
قلبه نحو كبدته وفأدته والثاني اصبته احببته بحب قلبي نحو عنيته اصبته
بالعين فقولك حببته واحببته هو في اللفظ فعل وفي الحقيقة قد يكون
انفعالا لان المحب قد يكون مفعولا للمحبوب واذا استعمل في الله تعالى فقيل

احب الله تعالى فلانا فليس الا على سبيل الفضل والمعنى اصاب الله حبة قلبه
فجعلها لنفسه مصونة عن الهوى والشيطان وسائر اعداء الله والمحبة اراده
ما يراه او نظنه خيرا وهي اربعة اضرب بحسب اغراض الناس في امورهم اللذة
والنفع والخير المحض والمركب من اللذة والنفع والخير وكل محبة تنقطع
سببها انقطعت بانقطاعها ولما كانت الشهوات البدنية والمنافع
الدنياوية منقطعة فالمحبة التي بحسبها منقطعة لا محالة بانقطاعها
ولما كان الخير المحض باقيا كان الحب الذي بحسبه باقيا ببقائه ولما بين
تعالى توحيده والدلالة عليه ذكر من بعد ذلك ان بين الناس مع ظهور
الآيات المنبئة عنها من يحد لنفسه بحبه ويراعيه مراعاته لله تعالى
ثم نبه بقوله والذين امنوا اشد حبا لله اي محبتهم لانداهم منقطعة فان
اسبابها المقتضية لها منقطعة ومحبة المؤمن له دائمة اذ هو دائم ولكن
المنادليه سواء كان صنما معبودا او رئيسا مخدوما او مالا معتقدا او انسانا
معشوقا فان كل ذلك محبوب لمن يرعه من وجه ومعبود له من وجه ثم بين
بقوله ولو ترى ما اعدلهم من العذاب الاليم فاذا قرئ بالياء فان ما بعده هو
مفعول يرى وجواب لو محذوف وقيل ان القوة مفعول الفعل المحذوف الذي
هو جوابه كأنه قال لرأوا ان القوة لله جميعا واذا قرئ بالتاء فخطاب النبي
على طريق التعظيم ومعناه انك مع علمكم باحوال القيمة لو رأيت لتعجبت
وقوله ان القوة لله جميعا قيل هو بدل من الذين وقيل هو مفعول الفعل المقدم
للجواب وقيل تقديره لان وقد قرئ ان مكسورة ولا يكون عليه المفعول
محذوف **قوله** عز وجل اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب
وتقطعت بهم الاسباب السبب اصله الحبل الذي يمد به ويرتقى به الشجر ثم
جعل عبارة عن كل ذريعة من مواصله ودمه والسبب والسببه السعه
من الساب تشبيها به في الهيئة وبعض الصنعه وسببيته في الاصل كناية
معناه اصب سببه وعنه سمي الاصبع سبابة لكونها مشيرة بالسب
كما قيل لها مسبحة لاشاراتها بالتسبيح وتقدير الاية ان الله شديد العذاب

اذ تبرا المسرعون عن التابعين كقوله لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم
وقوله يوم القيمة يكفر بعضكم ويلعن بعضكم بعضا وقوله الاخلاء يومئذ
الاية وقوله وقال الشيطان لما قضي الامر الى قوله ما انا بمصرخكم وما انتم
بمصرخي وقوله لا ينفع مال ولا بنون **قوله** عز وجل وقال الذين اتبعوا لو ان
لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات
عليهم وما هم بخارجين من النار الكر هو العطف على الشي بالذات
او بالفعل ويعبر به عن الحول المعقول والكرير تكرر الحسرة في الصدر والحسرة
اصلها من حسر الصاع فكانها كشف ما عطى النصرع من الهوى وعلى ذلك
قال يحلى غطا الرأس عنى ولم يكن • غطاء فوادي يحلى لتشريح • ولما كان
عند ذلك تعرض الندم والغم بما كان من الانسان عبر به عنهما فقال اصابته
حسرة وقوله كذلك اي كتبرؤ بعضهم من بعض يريهم الله اعمالهم حسرات
عليهم وبين الله تعالى ما يظهرونه من الندم باتباع ما لا يغنى عنهم من الله شيئا
ويمسهم ما لا يجزى نفعا وقوله اعمالهم دخل فيها فعلوا ولم يريدوا وجه الله
بها فضلت عنهم كقوله تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله الاية وقوله
وقدمنا الى ما عملوا من عمل وقوله والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة ودخل فيها
الاعمال التي فرضت عليهم ما اخلوا بها وعلى ذلك روى ان الجنة يرفع لهم فينظرون
اليها فيقال تلك مساكنكم لو اطعتم الله ويرفع النار لاهل الجنة فيقال لهم
تلك مساكنكم لو عصيتم الله **قوله** عز وجل يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالا
طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين الحلال من حللت
العقدة وهو الذي حل عنه عقدة الحظر وحل بالمكان اي حل عقد احماله كفوهم حط
رحلهم والقى ادواته وحل الدين اي حل عقدة المطالبة وحل من احرام اي عقدة
على نفسه بالاحرام ويحلة اليمين ما اعقده اليمين والاحليل مخرج اللبن
والبول لا يحلل لعقدته والطيب ما يستطيبه الشهوة المستقيمة والعقول الصحيحة
اما بالاضافة الى الشهوة المستقيمة فهو ما يشتهى لا لاوطار كالجرذ والفار والحية
والدم او لعادة شبيه كاكل الضب ولهذا قال الشاعر • انك لو ذقت الكشي

بالاكساد، لما تركب الضب بعده بالواد، وكعادة المحب والمائل عن الاناث
الى الذكور واما بالاضافة الى العقول السليمة الصحيحة فلا يكون مسا ولا من حيث
ما هو مستطاب الى ما خلق لاجله وان تقصد شرك كما يدخ على القصب والحسد
على العكس والحلال اعم من الطيب والحرام اعم من الخبيث فقد يكون حراما ما لا يكون
خبيثا في نفسه بالعقل كتحريم ما يقسم بالازلام واستعمال الذهب والفضة والتحلى بالحرير
على الذكران وجمع بين الحلال والطيب في الاية ليفيد باستطابة الطبع واباحة الشرع
ولما ذكر اباحة الطيب وكان كثيرا ما يزين الشيطان لبعض الناس ما ليس بالطبع الصحيح
طيبا كعادة المحب اتبعه بقوله ولا تتبعوا خطوات الشيطان لقوله ولا تتبع الهوى
فيضلك وقد تقدم انه لا فرق بين ان يقال اتبع الهوى وبين اتبع الشهوة او الشيطان
او الدنيا فان المقصد يجمع ذلك مما نعم ما يصده عن سبيل الله ونبه بقوله انه لكم
عدو مبين ان عداوته لا يخفى على ذى بصيرة وهذا المعنى الذى اداه الشاعر وان عدل اللفظ
الى الدنيا حيث قال، اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق، وقول آخر
عمرى لقد نصح الزمان وانه، لمن العجائب ناصح لا يشفق، **قوله** عز وجل انما يامركم بالسوء
والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون السوء والفحشاء كل قبيح من نحو الزنا والسرقة
والقتل والجناية وكل ما يقال له فحشا لكن بنظرين مختلفين فانه سمى سوء لاغتمام العاقل به
والفحشاء باستعظامه اياه ونبه تعالى ان الشيطان داع الى اتيان الشر والسوء والفحشاء
والقول على الله ان قيل اذ كان القول على الله بما لا يعلم من عمل الشيطان فكيف يصح
الحكم بغالب الظن في كثير من الاحكام فان عامة فروع الفقه مبنية على غلبة
الظن قيل اما اولا فليس ذلك تقولا على الله تعالى وانما ذاك تقول على احكام وقد
فرق العلماء بين الحكم العلمية وبين الحكم العملية وقالوا كل ما كان من الحكمة العلمية
وهو الذى لا عمل معه كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله فانه لا يحكم فيه
الا بالعلم المصون عن الشوائب وما كان من الحكمة العملية فاصولها كذلك واما فروعها
فيجوز ان يحكم فيها بغلبة الظن لفسح صاحب الشرع لنا في ذلك فصار حكمنا فيه
من هذا الوجه حكمنا بالعلم لانه لما قال اذا غلب في ظنك ان القبلة من جانب فصل
اليه واذا شهد عندك نفسان مركيان فاحكم لشهادتهما صرنا عالمين بان هذا

الحكم

الحكم واجب علينا في الظاهر قد احكمت هذه المسئلة في اصول الفقه واما السؤال
من المتكلمين في هذه الاية بانه كيف يامرنا الشيطان ونحن لا نسمع قوله ولا نرى
شخصه وما الحكمة في ايصال الله تعالى امر الشيطان الى نفوسنا فهذا وما يجرى
مجراه من الاسولة من سؤال من لم يحط من المحسوسات والموهومات الى المعقولات
ومحال الاسمال معه بهذه الحروبات **قوله** عز وجل واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله
قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا اولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون
ذمهم الله بانهم ابطلوا ما خص الله به الانسان من الفكر والروية ورتب
فيه من المعارف وذلك ان الله تعالى ميز الانسان بالفكر ليعرف به الحق من الباطل
في الاعتقاد والصدق والجميل ويتجنب اضدادها وجعل له من نور العقل
ما يستغنى به فيدله على معرفة مطلوبه فلما حث الناس على تناول الحلال الطيب
ونهاهم عن متابعة الشيطان بين حال الكفار في تركهم الرشاد واتباعهم الاباء
والاجداد لحذوا الاقتداء بهم تاركين استعمال الفكر الذى هو صورة الانسان
وحقيقته ثم قال اولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا اى اتتبعوهم وان كانوا
جهلة تنبيها انه محال اتباع من لا عقل له ولا اهتداء ان قيل ما فائدة الجمع
بين قوله يعقلون ويهتدون واحدهما يغنى عن الاخر قيل قد تقدم ان العاقل
يقال على ضربين احدهما لمن يحصل له القوة التى بها يصح التكليف والثانى
لمن يحصل العلوم المكتسبة وهو المقصود ههنا والمهتدى قد يقال لمن اقتدى
في افعاله بالعالم وان لم يكن مثله في العلم فبين انهم لا يعقلون ولا يهتدون
ووجه آخر وهو ان يعقل ويهتدى وان كان كثيرا ما يتلازمان فان العقل يقال
بالاضافة الى المعرفة والاهتداء بالاضافة الى العمل فكانه قيل لا علم لهم
صحيح ولا عمل مستقيم **قوله** عز وجل ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا
يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون النداء من توهم من
الصوت اى عصل الصوت واصله من الندى فناداه اى دعاه بندى صوته ولما
حكى الله عنهم ما زعموا انهم يتبعون اباءهم دل على جهلهم بانهم كاغنام
ينعق بهم فلا يعرفون مغزى الصوت ولا قصد المنادى وقد تقدم الكلام في قوله

من الكذب في الاقوال والجميل من القبيح
في الفعل لم يحرى الحق والصدق صح

صم بكم عمي ان قيل كيف يكون مثلهم مثل الناعق والذين كفروا بالمنعوق به اشبه والذي ينعق بالمنادي والداعي اشبه قيل التشبيه ضربان مفرد ومؤلف وحقه ان يحمل احدهما على الاخر ولا يراعي فيه مقابلة الالفاظ المفردة فلما شبه قصة الكافرين في اعراضهم عن الداعي لهم الى الحق بقصة الناعق ليس عليه ما يكون منه ومن المنعوق به وهذا مثل قوله مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة وقوله مثل ما ينفقون في هذه الحيوة الدنيا كمثل ريح الاية وقيل عنى بالذين كفروا المتبوعين او التابعين ومعناه مثل الذين كفروا في دعائهم اتباعهم كمثل الناعق بالغنم

قوله عز وجل يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون ان قيل ما فائدة اعادة هذا المعنى وقد تقدم وما الفرق بين هذا الخطاب والخطاب الاول قيل في ذلك لطيفة واشارة عجيبة وذلك انه حيث خاطب الناس كافة قال كلوا مما في الارض فاباح لهم ذلك ونبه انه لم يحظر عليهم الا تناول المحرم وعقبه بالنهي عن اتباع الشيطان وجعل الخطاب في هذه الاية خطابا بالمؤمنين وامرهم ان يتوسعوا في تناول ما رزقهم بل يتحروا من الطيب بحيث الناس مما في الارض وامر في الاول بالتحرز عن خطوات الشيطان وهو الادون ثم الذي يحظى به عن المباح وامرهنا بالشكر لله تعالى الذي هو ارفع منزلة في العبادة على ما تقدم ذكره ونبه بقوله ان كنتم اياه تعبدون ان عبادته لا يتم الا بشكره **قوله** عز وجل انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم الاهلال اصله وجه الهلال ولما جرت العادة ان يكبروا عند رؤيته سمي التكبير اهلالا بل قيل لرفع الصوت ايضا اهلال تشبيها بذلك حتى قيل اهل الصبي واما التهلل فظهور الهلال فتارة يتصور لمعانه فيقال تهلل السحاب وتهلل وجهه وتارة يتصور تشكله فيقال تهلل الشعر اذا تعوس ان قيل لم ذكر تعالى بعض المحرمات في ترك بعضه قيل في ذلك جوابان احدهما ان المسؤل عنه هو تفصيل الميتة وقد ذكرهنا الميتة المشتملة على كلها مات وجه من غير ذكره

الثاني

الثاني لما كان القصد في هذه الاية حكم تناول المضطر دون اسباب المحرمات ذكر بعضها وترك البعض والباغي في الاصل الطالب لما ليس له طلب والعادي المتجاوز لما رسم له بالشرع وقال الحسن وقتادة والربيع وابن زيد عني بقوله غير باغ غير متناول ولا عاد للحد في سد الجوعة وقال مجاهد غير باغ على مسلم ولا عادي في المعصية طريق المحقين ونحوه ذهب الشافعي رحمة الله عليه والظاهر يشهد له لان قوله غير باغ ولا عاد متعلق بحال الاضطرار كانه قال من حصل له اضطرار لا على احد هذين الوجهين وعلى الاول تقديره فمن اضطر فاكل غير باغ ولا عاد فيكون غير متعلق بمقدر محذوف ومن انكر ذلك وقال انكم مأمورون بقتل نفسه اذا حظر ذلك عليه وقتل النفس محرم عليه عاصيا كان او مطيعا فجوابه انا لم نأمره بذلك بل اوجبنا عليه ان يخرج عن الحالة التي يكون الميتة محرمة عليه وذلك بان يتوب وينزع عما هو عليه والا كان متمنيا ولا محظورا كما ان سفره محظور فان قيل ليس من سفره طاعة انما احل له الاضطرار لا للطاعة فاذن العلة هي الضرورة فيجب ان يكون مطردة قيل بل العلة هي الضرورة مع كونه على الطاعة نص قال الحكماء وهو الصحيح ان الله جعل للانسان طيبات الرزق بشرط الايمان ولهذا قال قل هي للذين امنوا في الحيوة الدنيا فما اخذه الكفار من نعيم الدنيا فانما ياخذه غصبا في الحقيقة ولذلك يستقيم اموال المحاربين منهم اذا غلبهم والاية تقتضي ان المضطر في تناول اشياء بدر وهو الصحيح لان علته العادة بجهة ما راه اقرب الى العادة فهو اولى بتناوله واختلف اذا اضطر الى ذلك في دواء لا يسد غيره والصحيح انه يجوز له تناوله للعلة المذكورة التي اجيز تناوله للجوع وكذا الخمر اذا اضطر اليه في دواء بحكم الاطباء انه لا يسد غيره مسده وانه يفوت روحه ان لم يتناولها قوله عليه السلام ان الله عز وجل ما جعل شفاكم فيما حرم عليكم فمعناه ان قدر ما فيه الشفاء غير محرم عليه وعلى هذا نبه بالرخصة في شرب بول الابل **قوله** عز وجل ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا اولئك ما ياكلون في بطونهم الا النار

ولا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم البطن يسمى به
بطن الادم وبطن الوادى والبطن من العرب اعتبارا بانهم كشخص واحد
وان كان قبيلة منهم كعضو بطن وفخذ وكاهل وعلى هذا الاعتبار قول
الشاعر ❊ الناس جسم وامام الهدى • راس وانت العين فى الراس • وقيل
بطن اذا عظم بطنه وجسم وسمى ما يشد عليه بطانا على بناء حزام وزمام
والبطن عرف كنى بالبطن عن سائر الاكل واعاد الله وعيد كاتمى احكامه
اثر ما ذكر من الاحكام وبالم يقل ذلك من اهل الكتاب … لهذه الامة
ان يسلكوا سبيلهم واكل النار تناول ما يؤدى اليها وذكر الاكل لكون
المقصود الاول تحصيل المال وسماه بالمال الذى هو النار وذكر فى بطونهم
تنبيها على شرههم وتقبيحا لتضييع اعظم النعم لاجل المطعم الذى هو اخس
متناول من الدنيا وعلى ذلك قوله تعالى ان الذين ياكلون اموال اليتامى
وقوله ولا يكلمهم لم يعن نفى الكلام راسا فقد قال فلنسئلن الذين ارسل
اليهم وقال ويوم يقول نادوا شركائى وانما اراد كلاما يقتضى جدوى
ولهذا قال الحسن معناه يغضب عليهم تنبيها انهم بخلاف من قال
فيهم تحيتهم يوم يلقونه وقيل حقيقة كلمته جملة على الكلام نحو جرحته
وجرحه الا من كلمته فقد استدعت كلامه فكانما قيل لا يستدعى كلامهم
نحو قوله ولا يؤذن لهم وقد تقدم الكلام فى الاشتراء والقليل والتزكية
قوله عز وجل اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة
فما اصبرهم على النار الضلالة والعذاب يتلازمان وكذلك الهدى
والمغفرة لكن الضلال والهدى يقالان على الاعتبار بالدنيا والعذاب والمغفرة
على الاعتبار بالاخرة وجعل تعاطيهم لما ادى بهم الى النار بمنزلة الصبر على النار
وهذا معنى قول الحسن ليس لهم صبر على النار ولكن اراد ما اجراهم على النار
وقول ابى عبيد ان ذلك لغة يمانية بمعنى الجراة واحتجاجه بقول الاعرابى
الذى قال لخصمه ما اصبرك على الله فتصور المجاز بصورة الحقيقة لان ذلك
معناه ما اصبرك على عذاب الله والى هذا يعود قول من قال معناه ما اعملهم

بعمل

بعمل اهل النار وما ابقاهم على النار وقد يوصف بالصبر من لا صبر له
اعتبارا بالناظر اليه وتصور انه صابر واستعماله لفظ التعجب فى ذلك
اعتبارا بالخلق لا بالخالق قوله عز وجل ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق
وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ذلك اشارة الى كل
ما تقدم من العذاب والحكم والضلال اى ذلك بسبب تنزيله الكتاب واختلافهم
فيه ويصح ان يكون نصبا اى فعلنا ذلك بان الله واصل الاختلاف التخلف
عن المنهج وقيل اختلفوا اتوا بخلاف ما انزل الله وقيل اختلفوا بمعنى
خلفوا نحو اكتسبوا وكسبوا وعملوا واعتملوا اى صاروا خلفا فيه نحو فخلف من بعدهم
خلف والشقاق قد تقدم ذكره ووصفه ببعيد تنبيها على بعدهم من الحق
قوله عز وجل ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من امن
بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوى القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب واقام الصلوة
واتى الزكوة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء
وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون الرقبة اصل
العنق ويعبر بها عن الجملة كما يعبر عنها بالراس والظهر والرجل واليد ويعبر بها
عن المملوك وقيل رقبته اذا اصبت رقبته اما بالسلاح واما بالعين ناظرا
اليه ثم لمن المراعى للعدو رقيبا والخطاب فى هذه الاية للكفار والمنافقين
الذين انكروا تغيير القبلة وقيل بل لهم وللمؤمنين حيث قدروا انهم
بالولى كله بالتوجه اليها ولما كانت القبلة احد اركان الصلوة والصلوة
احدى فضائل البر نبه تعالى ان ليس البر مقصودا على هذا الذى تعاطاه بل هو
جملتها والقبلة ذكر من ان كان واحدة منها ثم عدها وذكر جملها ومن اصولها
وتوابعها وبيان ذلك ان جميع البر ضربان احدهما ما ياخذ الانسان به
نفسه فى معاشرة الناس من الاقارب والاباعد من المعروف والمواساة
والتحبب اليهم بالبر والقول الحسن والثانى ما يختص به فى نفسه من ابرام
العادات واستعمال الصدق والوفاء والتواضع والصبر وقد نبه الله تعالى على جميع

ذلك بهذه الآية اما على الاعتقاد فبقوله من آمن بالله الى قوله تعالى والنبيين
واما على ما يتحراه الانسان نفسه في معاشرة الناس فبقوله وآتى المال على حبه
ذوي القربى الى قوله وفي الرقاب فانه ذكر الجود الذي هو من وجه افضل
هذه الافعال ومن وجه مجمع هذه الافعال بان الجواد كما يسمح بمال نفسه
يسمح عن المعيشة وكما يجود بماله يجود بجاهه وبذل وجهه وعند الحقيقة
بنفسه ودل على ما يختص به في نفسه بقوله واقام الصلوة الى اخر الآية
وكل ما سكت عنه فداخل تحت ما ذكره او منبه عليه ونبه ان الاتيان بذلك
وبه هو المؤدي الى النعيم المدلول عليه بقوله تعالى ان الابرار لفي نعيم وبين تعالى
بقوله اولئك الذين صدقوا ذلك ادعاءهم باقوالهم واعتقاداتهم فهم الذين
صدقوا واذا اعتبرت احوالهم وافعالهم فهم المتقون والصدق والتقوى وان
اختلفت حقيقتاهما فهما متلازمان ان قيل ما وجه قوله عليه السلام لما ساله ابو ذر
عن البر وتلا عليه الآية فقال ما اطمان اليه القلب وما اطمانت اليه النفس
المجيب قيل ان ابا ذر ساله عن ذات البر فبينه بصفاته ان قيل لم يقل
ولكن البر بر من آمن والبار من آمن ليطابق قيل قد ذكر النحويون في هذا
وامثاله انه على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ولكن وجه فائدته
انه اذا قيل زيد بار فانت تصور في قولك بار معنى الذات والصورة
المختص بها من معنى البر واذا قيل زيد هو البر ففيه مبالغة فانه صار لاختصاصه
بهذا المعنى بحيث لا يرى منه الا هذه الصورة مجردة عن العنصر الذي يجوز
ان يتصور بغيره من الصور وعلى هذا كل في معناه نحو زيد اقبال وادبار
واكل وشرب وقوله على حبه اي حب المؤمن فيكون مضافا الى الفاعل
وقيل على حب المال فيكون مضافا الى المفعول به بذلك انه بذله مع فرط
الحاجة اليه نحو قوله تعالى ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة
وقوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وسئل النبي اي الصدقة افضل
قال ان تصدق وانت صحيح شحيح تامل العيش وتخشى الفقر وقيل تقديره
على حب الاعطا وذلك ان المحمدة التامة لمن يلذ اعطا المال ويحب ذلك

كامل

كما قال الشاعر: ليس يعطيك للرجاء وللخوف ولكن يلذ طعم العطاء
وقيل على حب الله اي يقصد به القربة لا طلب ذما ولا ثواب كما قال
عز وجل انما نطعمكم لوجه الله ان قيل لم قال والموفون بعهدهم
ولم يقل ووفى كما قال واقام الصلوة وآتى الزكوة ليكون الكلام على نسق
واحد قيل ذلك لامرين احدهما اللفظ وهو ان الصلة متى طالت
كان الاحسن ان يعطف على الموصول دون الصلة لئلا يطول فيقبح والثاني
انه ذكر في الاول ما هو داخل في حيز الشرع وغير مستفاد الا منها فالحكمة
العقلية تقتضي العدالة دون الجود ولما ذكر الوفاء بالعهد وهو مما تقتضي
العقول المجردة صار عطفه على الاول احسن ان قيل ولم نصب الصابرين
قيل قد ذكر النحويون ان الصفات للمدح والذم اذا توالت فقد يخالف بين
اعرابها وانشدوا في ذلك النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الازار
الى ابيات اخر وفائدة ذلك انهم اذا ارادوا ان كل واحد من تلك الاوصاف
يستقل بمدح او ذم عظيم لو تجرد عما يضادها خالفوا بين اعرابها تنبيها على
هذا المعنى ولما كان الصبر من وجه مبدأ الفضائل اذ لا فضيلة الا وللصبر
فيها اثر بليغ لا يتم حسنها الا به حتى روي في الخبر الصبر خير كله وقوله
الصبر من الايمان كالرأس من الجسد غاير اعرابه تنبيها على هذا المقصد ثم عد
بقوله تعالى والصابرين في البأساء والضراء انواع الضر لانه اما ان يحتاج اليه
في معيشة يعوز الانسان او يريد ولا يناله وهو البأساء وبما ما يلحق جسمه
من الم وسقم وهو الضراء او مدافعة مؤذية وهو البأس ان قيل كيف قدم ههنا
ذكر الآخرة واخر في قوله ومن يكفر بالله وملائكته قيل يجوز ان يكون ذلك
مع الواو ولا يقتضي الترتيب من اجل ان الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعنى بها
وهو ابعد الاشياء عن الحقائق عنده اخر ذكره وفي قوله ومن يكفر بالله لم اذكر
حال المؤمنين والمؤمن اقرب الاشياء اليه امر الآخرة وكل ما يفعله ويتحراه
يقصد به وجه الله ثم امر الآخرة فقدم ذكرها تنبيها ان البر مراعاة الله عز وجل
ومراعاة الآخرة ثم مراعاة غيرها ان قيل كيف اعتبر الترتيب المذكور في قوله

وانى المال على حبه قيل لما كان اولى من تسعفه الانسان بمعروفه قاربه ولهذا
قال عليه السلام لا يقبل الله صدقة وذو رحم محتاج كان تقديمها اولى ثم عقبه باليتامى
فالناس فى المكاسب ثلثة معيل غير معول ومعول غير معيل ومعول معيل واليتيم
غير معيل فمواساته بعد القارب اولى ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضرا
ولا غائبا ثم ذكر ابن السبيل الذى قد يكون له مال غائب ثم ذكر السائلين الذين
منهم صادق وكاذب ثم ذكر الرقاب الذين لهم ارباب يعولونهم بكل واحد
ممن اخر ذكره اقل فقرا ممن قدم ذكرها **قوله** عز وجل يا ايها الذين امنوا كتب
عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى
له من اخيه شئ فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم
ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم القص قطع الشئ على سبيل
الاحتذا ومنه قص شعره وقص الحديث اقتطع كلاما حادثا حد وغيره
والقصة اسم منه وحقيقة القصاص ان يفعل بالقاتل والجارح مثل ما فعل
واعتبر الشافعى ومالك صورة الفعل حتى ان من رضخ راس غيره بالحجر كان
القصاص مثله لكن مالكا يقول انه يفعل به ذلك الفعل حتى يموت والشافعى
يقول ان لم يمت من ذلك الفعل قتل بالسيف ومن الفقهاء يعتبر المماثلة فى القاتل
والمقتول فلا يقتل القاتل الحر بالعبد والمسلم بالذمى والاختلاف انه يعتبر
فى بعضهم كالمستأمن والكتابة يعبر بها عن الايجاب واصل ذلك ان الشئ
يراد ثم يقال ثم يكتب فيعبر عن المراد الذى هو المبدأ بالكتابة التى هى المنتهى
ان قيل على من يتوجه هذا الوجوب قيل على الناس كافة فمنهم من يلزمه استيفاء
وهو الامام اذا طلبه الولى ومنهم من يلزمه تسليم النفس وهو القاتل ومنهم
من يلزمه المعاونة والرضا به ومنهم من يلزمه ان لا يتعدى بل يقتص او يأخذ
الدية والقصد بالاية منع التعدى بان اهل الجاهلية كانوا يتعدون فى القتل
ومهما لا يرضى احدهم اذا قتل عبد غيره لا بقتل حر وقوله فمن عفى له من اخيه
شئ من القاتل واخوه ولى المقتول ومعناه من بذل له اخوه الذى هو ولى
الدم شيئا من القصاص فليسمح بالمطالبة بالدية المعروف وليؤد اليه

القاتل باحسان ان قيل لم قال فمن عفى له من اخيه شئ ولم يقل فمن عفى له اخوه شيئا
قيل العدول الى ذلك للطيفة وهى انه لا فرق بين ان يكون صاحب الدم فعفا
او جماعة فعفا احدهم ان القصاص يبطل ويعدل حينئذ الى الدية قال فمن عفى له
من اخيه شئ ليدل على هذا المعنى وقيل فاتباع فذا من العافى بحسن المطالبة والهاء
فى قوله اخيه يجوز ان يكون للمقتول ويكون لولى المقتول وجعله اخا لولى الدم لمسه
ولا لمولاة دينه ولكن للاحسان الذى ندبه اليه واجرى مجرى الخطا فى الرضا
بالدية قوله ذلك تخفيف اى خفف عنكم اذ اجل لكم الجواز فى الحالين وقال بعضهم
لم يكن العفو فى امة قبل هذه الامة قوله فمن اعتدى اى من تجاوز الشرع فاما قوله كان
او وليا المقتول فانه معاقب **قوله** عز وجل ولكم فى القصاص حيوة يا اولى الالباب
لعلكم تتقون فى القصاص حيوة كقول العرب القتل انفى للقتل وذلك انه
يصير سببا للارتداع وقال الجاحظ تاويله ان العرب كانت تمنع من تسليم
القاتل الى ولى المقتول حسبا ان يقل عددهم فقال الله تعالى فى القصاص حيوة
اى اداء وتسليم كثر عددكم لان الله تعالى ينمى كل قوم كثر فيهم القتل ولهذا كثرت
العلوية وقل العباسية ولهذا قيل السيف منماة فما يسلط على قبيلة الا كثر
عددهم وقيل ان فى ذلك حيوة القاتل فى الاخرة لما يرجى له من الغفران قال
وعلى هذا ما روى الحدود كفارات لاهلها وذلك يشترط ان يكون توبة فالتوبة
حق الله والقصاص حق الادمى فاذا تاب واقتص منه فقد خرج من الذنوب
ورجى له الغفران فقوله لعلكم تتقون على التفسير الاول اى لعلكم ترتدعون
عن القتل وعلى الثانى لعلكم لا تتحاشون من بذل القاتل والاهدار للقصاص
قوله عز وجل كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين
والاقربين بالمعروف حقا على المتقين الخير ههنا المال قليلا كان او كثيرا
وقال بعض الناس الخير لا يتناول الا الكثير مستدلا بان عليا دخل على مولى
له فى مرضه فقال الا اوصى وله سبعمائة او ستمائة فقال لا انما قال عز وجل
ان ترك خيرا وليس لك مال كثير ان قيل كيف سمى المال خيرا مطلقا وقد قيل
ان المال ليس خيرا مطلقا حتى يراعى حال صاحبه فربما كان شرا وعلى هذا

ذم الله تعالى في عامة القرآن وسماه تارة فتنة وتارة عدوا قيل ان المال
كما يكون خيرا قد يكون شرا لكن جعل الله تعالى ههنا خيرا تنبيها على ان الوصية
يستحب في المال الطيب دون الخبيث والمغصوب فان ذلك يجب رده
الى اربابه وبما لم بالوصية فيه وقيل عن الآية منسوخة فالايجاب نسخ
مما حمله والوصية للوارث ايجابا وندبا والناسخ لها عند الشافعية اية
الميراث وعند بعضهم قوله عم لا وصية لوارث وقال بعض الناس لا نسخ
منها لان كتب وان كثر استعماله في الايجاب فقد يقال في الندب لان معنى
كتب كقوله اريد وشرع وذلك قد يكون ندبا وقد يكون حتما وقوله الوصية
للوالدين والاقربين وان اقتضى عموما فانه مخصوص لذاته في هولاء بتخصيصها
فيما فوق الثلث بقوله الثلث والثلث كثير وقال طاوس اذا اوصى لغير ذي قرابة
لا يجوز احتجاجا بالاية والظاهر لا يقتضي ما ذكره **قوله** عز وجل فمن بدله بعد
ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم اي من بدل ذلك
ولم يقل بدلها وان ما تقدم ذكر الوصية لكن يتناولها وغيرها من متعلقاتها
والهاء في اثمه للتبديل ومن عام في الوصي والموصي والشاهد والحاكم وكل من
مدخل في ذلك اذا غير شيئا بعد ما سمعه اي علمه فان لهم ما يجري في ذلك عائدا
اليه تنبيها على نحو قوله من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها
واعظم ذلك ما لا يعرف المسمى حور السان لها لكن ادعى على صاحب الشرع
خبرا يتعلق به حكم فيعمه عليه الناس بعده وانما قال على الذين يبدلونه
ولم يقل عليه ليبين ان اثمه للمبدل لا لغيره ونبه بقوله ان الله سميع عليم
ان ذلك وان خفي على الناس فالله تعالى عالم اذ كان يعلم خائنة الاعين
وما تخفي الصدور **قوله** عز وجل فمن خاف من موص جنفا او اثما فاصلح بينهم
فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم جنف وجنف يتقاربان لكن جنف
استعمل للميل الى الخير وحيف في الميل الى الجور وحاف تقاربه الا ان
استعماله يكثر في الحاكم وجنف ان يوصي لانسان والمراد لغيره كما قال طاوس
الجنف التولج بحور ان يوصي الرجل لابن الابن ليوصل المال الى ابنه او لزوج

ابنه

ابنه ليوصله اليها وخص جنف بحث العموم واثم جنف بحث الخصوص وقوله
بينهم اي بين القوم الذين لهم مدخل في ذلك من الورثة والموصى لهم وجاء
اضمارهم لدلالة الكلام على ذكرهم ان قيل كيف قال جنفا او اثما والجنف
هو الاثم قيل قد قال الربيع الجنف في الخطأ والاثم في العمد وقيل الاثم
ما يكون معصية والجنف ما دون ذلك ووجه هو ان يطعن اماده بعضهم حصول
ذلك ولا فرق بين ان يخاف منه ذلك قبل موت الموصي فيرشده او بعد
موت الموصي فيصلحه وليس الاصلاح بمقصور على ايقاع الصلح دون استعمال
الصلاح بل يتناولها وانما قال ولا اثم عليه لانه لما خوف في الاية الاولى
من تغيير الوصية بين ان النهي عن تغييرها فيما لا جنف فيه ولا اثم على صاحبه
فاما اذا كان فيه شيء من ذلك فلا اثم في تغييره وبين بقوله تعالى ان الله
غفور رحيم انه سماه وعدا عسى ان يسقط من الصلح ما لم يجز **قوله** عز وجل
يا ايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم
تتقون الصوم في اللغة امساك عما تنازع اليه النفس ويقال ذلك
في الطعام والشراب والنكاح نحو اني نذرت للرحمن صوما وفي الصوم
خيل صيام وخيل غير صائمة وصامت الريح اذا ركدت والشمس اذا استوت
في منتصف النهار كان لها وقفة وفي الشرع امساك المكلف بنية من الخيط
الابيض الى الخيط الاسود عن المأكل والمشرب والمنكح والاستقاء والاستمناء
والسعوط واما الاكل على سبيل السهو لا يخرجه عن ان يكون امساكا حكما
ثم النية هل يجب ان يتقدم او يجوز ان تقرن به راجع الى اختلاف المذاهب
واعلم ان الامساك عن الطعام هو المقصود بالصوم وما عداه فلانه يسهل
او يؤدي اليه وللصوم فائدتان احديهما رتبه وهي ان يروض به نفسه عما تدعوه
اليه من الشهوات القبيحة ويعودها الصبر عنها كما وصفها بقوله ان النفس
لامارة بالسوء ومتى حصلت في حجر الشرع سعودا لا تعلاج فالنفس راغبة
اذا رغبتها واذا ردت الى قليل تقنع ولكونه معودا للصبر قال عليه السلام
هذا شهر الصبر قال تعالى استعينوا بالصبر والصلوة اي بالصوم والفائدة الثانية

وهي ان فيه الاقتداء بالملأ الاعلى قدر الوسع والسرو عن مشاكلة البهايم التي
عاية همها شبع البطن والفرج ووجه ذلك ان الانسان مركب من بدن
سوسه سوس الحيوان وغذا المطاعم ومن الروح ذي عقل غذاوه العلم والفضل
ومتى اكثر غذاء احدهما قوي على انقص غذاوه ولهذا قال عليه السلام راس الدين
الورع وافضل الورع قلة الطعم ومن شبع ونام هجم على قلب الشيطان وقيل
الجوع سحاب يمطر الحكم فان قيل فهلا ادم فرض الصوم اذا كان مشتملا على
الفضيلة العظيمة قيل ان الله تعالى لم يخل ما في الارض وسهاه السالمرمام
ولكن لسبع بعدد ما يحس في وقت ما يحس والزمنا في بعض الاوقات التحرج
عنه ليكون مرعاه الى التعفف عن تناول ما لا يجوز تناوله وجعل معالم وضعه
على الاهله لبنادراته فشاته في كل وقت من اوقات السنة كما يدور الشهر فيه
من الصيف والشتاء والربيع ان قيل على ما ذا وقع التشبيه في قوله كما كتب
على الذين من قبلكم قيل قد قال بعضهم ان ذلك على الصوم في كيفيته لان صوم
من قبلها لم يكن يحل لهم الاكل بعد الرقاد وكان على هذا في بدء الاسلام الى
ان نسخ بقوله احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم والى هذا ذهب معاذ
وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنه وقيل يصوم من قبلكم في كونه اياما معدودات
وذلك في كل شهر ثلثة ايام ثم نسخ بقوله شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
وهو قول عطا وقتادة وروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ان للصيام ثلثة
احوال وذلك ان النبي عليه السلام قدم المدينة فكان يصوم كل شهر ثلثة ايام
وصوم عاشورا ثم فرض بعد تسعة عشر شهرا شهر رمضان على المعسر ثم
فرض على التضيق لمن كان مقيما صحيحا وقيل قد كان اوجب شهر رمضان
على من قبلنا من الامم فغيروا وزادوا ونقصوا وهذا قول عصبة على جائله وقيل
السبه وقع لوجوب الصوم فقط وقد تقدم ان اصول العبادات لم يزل واجبة
على العباد وان النسخ على السنة الانبيا في فروعها وكيفياتها وقدرها وازمانها
ونبه بقوله تعالى لعلكم تتقون على العلة التي لاجلها اوجب وهو قمع
الشهوة وما لاجلها لا يجوز ان يكون الصوم مرفوعا عن امة من الامم فانه

ذكر

ذكر انه سبب للتقوى وتقوى الله واجبة على كل مكلف في كل حال وفي كل زمان
ولهذا قال ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم الاية قوله عز وجل
اياما معدودات فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر وعلى
الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا
خير لكم ان كنتم تعلمون السفر كشف الغطا يقال سفر القناع عن وجهه
والريح السحاب او الورق ويقال له السفير ومنه السفرة وسافر والسفر الكتاب
الكاشف عن الاغراض والسفار للبعير كالحكمة للفرس وهو ما اسفر عنه جماعة
تطوع تفعل من الطاعة يقال طاع وطوع ومنه تطوعت له نفسه والقدرة
والاستطاعة والوسع والجهد والطاقة يتقارب وبينها فرق فالقدرة
ما يظهر من القوة بقدر العمل لا زائدا عليه ولا ناقصا والاستطاعة منها
ما يصير به الفعل طايعا له بسهولة والوسع منها ما يسع له فعله بلا مشقة
والجهد ما يتعاطا به الفعل بمشقة والطاقة منها بلوغ غاية المشقة
وقول الشاعر ⁂ كل امرى مقاتل عن طوقه • اي عن غاية قدرة لان القاتل
ما يدع غاية من القدرة لا يبذلها قبل الاستسلام للموت وقوله اياما يتعلق
بكتب عليكم او بما كتب او بالصيام وقوله فمن كان منكم مريضا او على سفر
طائفة يقتضي ان المريض والمسافر عليهما عدة من ايام افطرا او لم يفطرا
واليه ذهب اهل الظاهر وعند عامة الفقها على اصحاب الافطار بدلالة
اضماره في قوله وعلى الذين يطيقونه وبدلالة الاخبار المروية في ذلك
والظاهر يقتضي ايضا ان السفر القليل والكثير سواء وعند عامتهم يعتبر فيه
قدرا فبعضهم حده بمسيرة ثلثة ايام وبعض بمسير يومين وبعض بمسيرة
يوم ولا خلاف في ان من خرج الى نزهة في ظاهر بلده لا يفطر ويقتضي
ظاهره ايضا ان لا فرق بين ان يقضيها متتابعة او غير متتابعة وقد
حكى الشافعي ذلك عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما وقوله من ايام اخر
عام الا في الفطر والاضحى وايام التشريق وقوله وعلى الذين يطيقونه ظاهره
يقتضي ان المطيق له يلزمه فدية افطر او لم يفطر لكن اجمعوا انه لا يلزمه

ذلك الا مع شرط اخر فذهب الاصم الى ان ذلك للمريض والمسافر وان الذي
يطيق الفدية منهما فافطر فعليه الفدية لمكان ما خفف عنه ولا ما دل عليه
والثاني ان المريض والمسافر قد وجب عليهم عدة من ايام اخر فذهب الشعبي
وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنه الى ان الناس كانوا مخيرين في الابتداء
بين ان يصوموا من غير فدية وروي عن ابن عباس رضي الله عنه في اصح الروايتين
ان ذلك في الشيخ والعجوز الهم والحامل والمرضع اذا خافت على ولدها فلفظ
الطاقة ههنا ينبي عن ذلك فان الطاقة هي التي تبلغ غاية المستنفد ولا يخرج
عن القدرة والعجز ولا فذكران هولاء الذين يبلوهم الصوم غاية المشقة
يجوز لهم الافطار بلا فدية وقرى يطوقونه اي يتكلفونه بجهد وقرى يطوقونه
اي يجعلون على ان يطوقوا وقرى مساكين اعتبارا بكل واحد كقوله فاجلدوهم
ثمانين جلدة وانما يلزم كل واحد هذا القدر مساكين اعتبارا بجماعتهم
وقوله وان تصوموا خير لكم فقد قيل مبني على ما تقدم اي الصوم خير من الافطار
والكفارة ومن قال الذين يطيقونه المراد المرضى والمسافرون وقال هذا
خطاب لهم وكذلك من قال هو الشيخ الهم وعندي ان يكون خير فصل وانما المعنى
الخير في الصوم تنبيها على عظم ثوابه وذلك ان المراد من العبادة والاخلاص
والنية ولهذا قال عليه السلام اخلص يكفك القليل من العمل ولما كانت الافعال
البدنية كثيرا ما تخللها الرياء الا الصوم فانه لا يقف عليه ما لم يخبر الانسان عنه
بلسانه ولا عبادة فيدخل فيها الانسان بالنية المجردة الا الصوم قال عليه السلام
يقول الله تعالى الصوم لي وانا اجزي به ثم قال ان كنتم تعلمون اي ان عرفتم ما فيه
من المنفعة وتحققتم ما يترتب لكم لم تتركوها ونوا تحمله قوله عز وجل شهر رمضان
الذي انزل فيه القران هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد
منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر يريد الله
بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم
تشكرون شهرة الشيء ظهوره للكافة وشهرته وسيفه اذا جرده والشهر
مرة مشهورة والمشاهرة المعاملة كالمسانهة والمياومة والرمض شدة وقع

الشمس

الشمس سمي رمضان لمطابقته في ابتدا موضوعه لشدة الحر لان الشهور
سميت في الاصل بمطابقة ما عرض فيها من الاحوال في موضوعها ولا ارادة
اصلها من راد يرود اذا سعى في مهل الطلب ومنه الرائد والمرود والمحمل
ولمعنى المهل قيل رويدا وقد تقدم حقيقة الارادة والقران اصله من القري
وهو ضم ما كان متفرقا ومنه ما قرات الناقة سلا قط اي لم تضمه الى نفسها
ولم تجمعه في رحمها ولا يتناول الا المنزل على محمد عليه السلام والكتاب عام
والفرقان قيل انه يتناول القران والتورية ان قيل فلم سمي بذلك اما
بالنظر العام فلانه جامع للسعر والابيات واما باعتبار من ذلك فلانه جامع
لكل ما يحتاج اليه الناس من امر معاشهم ومعادهم مما يسلكون به الى الاخرة
ولهذا قال تعالى ما فرطنا في الكتاب من شيء وقال وتفصيل كل شيء والعسر
صعوبة الشيء وعسر صام وعسرا وعسر يحمل بشماله وذلك اما بصورة
الصعوبة ما يتعاطى بها واما لاعتقاد الغير سوابها واليسر ضده والسير
الضاد بين بين القداح على الجزور لنسادهم وقوله شهر رمضان يعتقد خبره
الذي ولم يجعل الاول منسوخا قال الغرض هو شهر رمضان او يكون بدلا من الصيام
وقوله هدى اي هاديا وقال عطية بن الاسود لابن عباس في نفسي شيء وهو
انه قال شهر رمضان الذي انزل فيه القران وقال انا انزلناه في ليلة القدر
وقال انا انزلناه في ليلة مباركة وقد انزل الله القران في جميع الشهور فقال
الليلة المباركة ليلة القدر وليلة القدر في شهر رمضان قد انزل الله القران
جملة الى بيت المعمور ثم انزل على محمد صلى الله عليه وسلم رسلا وعلى هذا قال وقرانا
فرقناه لتقراه على الناس على مكث وقيل في تفصيله وتخصيصه بذلك وان شاركه
فيه غيره فعلى سبيل التعظيم وعلى هذا قوله في ليلة القدر اي في تفصيله واليه
ذهب الضحاك ان قيل اذا كان الهدى مقتضيا للبينات فما فائدة قوله وبينات
قيل القران يهدي على ضربين احدهما ان يدل على سبيل الجمل والاخر على سبيل
التفصيل فبين ان فيه هدى على الجملة وبينات اي ما يوضح ويكشف على سبيل
التفصيل فرق بين الحق والباطل فصار ذكر البينات والفرقان بعد الهدى

ذكر الخاص بعد العام وجواب اخر وهو انه قد تقدم ان الهدى على ضربين
هداية الى سبيل الله المعنى بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وهداية الى الله المعنية بقوله قل هذه سبيلى فالاشارة بقوله هدى
الى الاولى وبقوله وبينات الى الثانية والفرقان مصدر فى الاصل كالغفران
والكفران وسمى به القران لكونه بين الحق والباطل فى الاعتقاد والصدق
والكذب فى المقال والجميل والقبيح فى الافعال وقوله فمن شهد منكم الشهر
عام فى كل مكلف حاضرا كان او مسافرا لكن اخرج منه المسافر والمريض بالاستثناء
ولم يدخل فيه الحائض باجماع فمنهم من اعتبر الشهود فى تضاعيفه واليه ذهب
عامة الفقهاء وقال ابو حنيفة رحمه الله من كان صحيح العقل فى بعضها
فعليه صوم كله لانه شهد الشهر وعند الشافعى رحمه الله ما لم يكن فيه صحيح
العقل لا يلزمه صوم ولا خلاف ان الصبى اذا بلغ فى اثناء الشهر لم يلزمه
قضاء ما تقدم من الشهر ان قيل لم اعاد ذكر الشهر ولم يقل فمن شهده قيل
لامرين احدهما تعظيما لذكره لان ما يعظم قدره يعاد ذكره مع كل حكم يحدث له
والثانى ليس يجب الصوم على من كان شهد الشهر الذى انزل فيه القران
فقط فلذلك اعاد ذكره ان قيل لم قال فليصمه ولم يقل فليصم فيه قيل
قال بعض النحويين اليوم ضربته زيدا انما يقال اذا استوعب اليوم بضربته
واذا قيل ضربته فيه فهو ان يضربه فى بعض وقاته فنبه بقوله فليصمه على
الاستيعاب ان قيل لم اعتبر ذكر المريض والمسافر قيل اما على قول من يجعل
الاية منسوخة فليس ان حكمها مراعى فى الناسخ كما هو مراعى فى المنسوخ
وان ذلك لم يرتفع بارتفاع منسوخه وعلى قول غيره للتاكيد اولا وليتعلق
ما علق به من الحكم ثانيا وهو قوله يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر
وذكر الفقهاء ان ارادة اليسر مما خص المسافر والمريض وذهب غيرهم
الى ان ارادة الله اليسر بما اوجب الصوم عليهم كما هى للمفطر والصوم جميعا
ففى الصوم اعظم اليسر وعلى هذا قال اعرابى اقصد لليل المبارك لا صوم
هذا الشهر المبارك فقيل له فى هذا الحر فقال من الحر اى وقيل لا خر امكد

نفسك

نفسك فى العباد فقال ارحها اريد فادى فى انحاف الله تعالى الصوم اعظم البر
قيل على اى وجه تعليله بما علل به من قوله ولتكملوا العدة ولتكبروا الله
قيل بين تعالى ان ما اوجبه من الصوم عينا وقضا ارادة لتكميل العدة
المقتضية التقوى المذكورة فى قوله لعلكم تتقون ولتكبروا الله على ما هداكم
لم يرد به التفوه بلفظة التكبير فقط بل اراد معرفة كبريائه وعظمته وان كان
فيه دلالة على التكبير مسنون فى ليلة الفطر ان قيل لم قال ولتكملوا العدة
فادخل الواو فيه قيل يجوز ان يتعلق اللام بفعل مضمر كانه قيل ولتكملوا
العدة امرنا امر ويجوز ان يكون معطوفا على قوله اليسر كانه قال يريد بكم اليسر
وتكميل العدة فادخل فيه اللام كما ادخل فى قوله يريد الله ليبين لكم ويهديكم

قوله عز وجل واذا سالك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا
دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ان قيل كيف فصل بين
الاية الاولى وبين هذه وهما فى حكم رمضان بهذه الاية وهى اجنبية منهما
قيل بل هى من تمام الاية الاولى لانه لما حث على تكبيره وشكره على ما يسره
لهم من اتمام الصوم بين ان الذين يذكرونه ويشكرونه قريب منكم مجيب لكم
اذا دعوتموه ثم تمم ما بقى من احكام الصوم ولم يرد بالقرب ههنا القرب المكانى
وانما ذلك قربة تقتضيه افضاله ووجود اثاره المشار اليها بقوله
ونحن اقرب اليه من حبل الوريد وروى ان موسى قال اقريب انت
فاناجيك ام بعيد فاناديك فقال لو حددت لك البعد لما انتهيت اليه
ولو حددت لك القرب لما اقتدرت عليه وقد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم
سال عن ذلك فنزلت الاية فنبه تعالى افضاله على عباده وضمن انهم اذا دعوه
اجابهم وعليه نبه بقوله تعالى ادعونى استجب لكم ان قيل قد ضمن فى الاية
ان من دعاه اجابه وكم رأينا من داع له لم يجبه قيل انه ضمن الاجابة لعباده
ولم يرد بالعباد من ذكرهم بقوله ان كل من فى السموات والارض الا اتى
الرحمن عبدا وانما عنى به الموصوفين بقوله ان عبادى الاية وقوله وعباد
الرحمن الاية وللدعاء المجاب شرايط وهى ان تدعوا باحسن الاسماء

مطلب

كما قال الله تعالى ولله الأسماء الحسنى وبخلوص النية وتطهيرها لا يسأل ولا يرغب
إلا ما يستعين به على عباداته وأن يعلم أن نعمه
فيما يمنعه من دنياه كنعمته فيما خوله وأعطاه ومعلوم أن من هذه حاله فمجاب
الدعوة وأنه من جملة من وصفه النبي عليه السلام بقوله ذي طمرين لا يؤبه به
لو أقسم على الله لأبر قسمه ثم قال فليستجيبوا لي أي إذا كنت لهم بهذه المنزلة
فحري أن يستجيبوا لي إذا دعوتهم وأن يؤمنوا بي لعلهم يرشدون وإنما قال
فليستجيبوا ولم يقل ليجيبوا للطيفة وهي أن حقيقة الاستجابة طلب الإجابة
وإن كان قد يستعمل في معنى الإجابة فبين أن العباد متى تحروا إجابته
بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم إن قيل كيف جمع بين الاستجابة والإيمان
وأحدهما يغني عن الآخر فإنه لا يكون مستجيبا لله من لا يكون مؤمنا
فإن الاستجابة امتثال أوامره ونواهيه التي يتولاه الجوارح والإيمان
هو الذي يقتضيه القلوب وأيضا فإن الإيمان المعني ههنا هو الإيمان
المذكور في قوله تعالى إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله الآية وقد تقدم ذكر
ساول قوله عز وجل أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس
لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم
وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى
يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى
الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها
كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون الرفث كلام يتضمن ذكر الجماع
وجعل كناية عنه وعدي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء والخيانة نقض العهد
ولهذا قوبل بالوفاء الدال على التمام والحد ما يمنع اختلاط أحد الشيئين
بالآخر فتارة يتصور منه المنع نحو قوله تعالى إن الذين يحادون الله
وقيل للبواب حداد وتارة يتصور الفصل فقيل حد الزاني به شبه الحد
في الكلام وقيل حد الزنا للزاني لما ناله وليمنع من الدخول في مثله وحد السيف
ما يفصل بينه وبين الجانب ثم تصور منه الدفع فقيل أحد السيف وسمي الحديد

لكثرة

لكثرة وجود هذه الصورة فيه والعكوف الإقامة على الشيء والحبس
فتارة يعتبر الإقامة منه فلا يعدى نحو قوله سواء العاكف فيه والبادي وتارة
يراعى الحبس والوقف فيعدى نحو قوله والهدي معكوفا وقوله هن لباس لكم
جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه سترا لنفسه ولزوجه أن يظهر منهما
سوء كما أن اللباس ستر يمنع أن يبدو منه السوءة وعلى ذلك كني عن المرأة
بالإزار وسمي النكاح حصنا لكونه حصنا لذويه عن تعاطي القبيح وقال الأصم
معنى قوله هن لباس لكم أي يعطي كل واحد على الآخر ما يتعاطاه من الأخيار
من قولهم لبست عليه رحلي وقيل سبب نزول هذه الآية المناجاة كان يحظر
على الصائم بعد الرقاد فقيل إن عمر راود امرأته عن نفسها فقالت وعسى
وظن أنها اعتلت عليه فواقعها فذكر ذلك للنبي عليه السلام وقيل كان شيخ
من الأنصار يقال له صرمة فقعد ينتظر امرأته لتصنع له طعاما فنام وترك
الطعام فرآه النبي عليه السلام في اليوم الثاني شاحبا فسأله فأخبره فأنزل الله
هذه الآية والاختيان مراودة الخيانة وخصصه من دون قوله تخونون
لفائدة وهي أن المخاطبين لم يكونوا كلهم خانوا وكلهم أو جلهم قد اختانوا
لأن الاختيان هو أن تتحرك الشهوة وتدعوه لذلك خص ذلك بالنفس
المعنية لقوله تعالى إن النفس لأمارة بالسوء وكفى بالتنبيه على اختيان النفس
شهادة من جعلها بذلك علما بقوله تعالى علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم
فاختيان النفس محا وعنها ومرافقتها إما بمساعدة أو بمخالفة وابتغوا ما كتب
الله لكم إشارة في تحري النكاح إلى لطيفة وهي أن الله تعالى جعل لنا شهوة
النكاح لبقاء نوع الإنسان إلى غاية كما جعل لنا شهوة الطعام لبقاء أشخاصنا
إلى غاية فحق الإنسان أن يتحرى بالنكاح ما جعل الله له على حسب ما يقتضيه
العقل والديانة فمتى تحرى به حفظ النفس وحصن النفس على الوجه المشروع
فقد ابتغى ما كتب الله له وإلى هذا أشار من قال عنى الولد والخيط الأبيض
بياض النهار والخيط الأسود سواد الليل وروي أن عدي بن حاتم عمد إلى عقالين
أبيض وأسود ثم جعل ينظر إليهما ويأكل إلى أن يتبين أحدهما من الآخر فأخبر النبي عليه السلام

بالذي فعل فقال ويل لعريض القفا انما ذلك بياض النهار عن سواد الليل
وقوله ثم اتموا الصيام الى الليل تنبيه على ابتداء التحريم الى انتهائه وكما نهى
عن المباشرة في حال الصوم نهى عنها في حال الاعتكاف وظاهره كون المساجد
تقتضي جواز الاعتكاف في كل مسجد **قوله** عز وجل ولا تاكلوا اموالكم
بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس
بالاثم وانتم تعلمون الادلاء ارسال الدلو في البئر واستعير للتوصل
الى الشيء وعلى هذا قول الشاعر وليس الرزق عن طلب حثيث
وعلى هذا النحو سمي الوسيلة المائح والاكل عبارة عن انفاق اذ هو اهم
ما تصرف فيه المال واكل المال بالباطل صرفه الى ما ينافيه الحق وهو التبذير
والاسراف قليلا كان او كثيرا ولهذا ذم انفاق قليل في اسراف وكثير في
اقتصاد وقوله وتدلوا اي لا تدلوا وكما نهى عن تبذير المال نهى ان تدلى بها
الى الحكام على سبيل الرشوة وتوصلا الى اقتطاع اموال الناس وقيل معناه
لا ياكل بعضكم مال بعض غصبا او خيانة فلجحوهم الى المدافعة الى الحكام
فلا يحكم عليكم لعدم البينة فتتوسلوا الى ان تاكلوا فريقا من اموال الناس
بالاثم وقيل من يتولى اموال الايتام فياكل بعضا ويرفع الى الحكام بعضا
والوجه الاول اجود لانه قال ولا تاكلوا اموالكم ثم قال لتاكلوا فيفصل
بين الامرين والوجهان الاخران داخلان مع عمومه وقوله وانتم تعلمون
اي ان خفي ظلمكم على الناس فانه لا يخفى عليكم تنبيها ان الاعتبار بما عليه
الامر في نفسه وما علمتم منه لا بما يظهر ونبه عليه السلام على ذلك بقوله
انكم تختصمون الي ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض فمن حكمت له بشيء
من حق اخيه فلا ياخذن منه قليلا ولا كثيرا فانما اقطع له قطعة من النار
وقال اكثر ما اطمانت النفس اليه **قوله** عز وجل يسالونك عن الاهلة قل هي
مواقيت للناس والحج وليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر
من اتقى واتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون المواقيت
جمع ميقات وهو مفعال من الوقت والوقت والمدة والزمان تتقارب

لكن

لكن المدة المطلقة اوسع هذه الالفاظ فانها امتداد حركة الفلك اي ١٥
اتصالها من مبداها الى غايتها والزمان مدة مقسومة من المدة المطلقة
والوقت الزمان المفروض للعمل ومعنى مواقيت للناس اي لما يتعلق به من امور
معاملاتهم ومصالحهم كقوله تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره
منازل الاية ونبه بذكر الحج على ما يتعلق به من فروض العبادات التي اعتبر
في قضائها وقت معين والباب معروف وعنه استعير لمدخلة المتوصل بها
اليه وقيل في العلم باب كذا وقول النبي صلى الله عليه وسلم انا مدينة العلم وعلي
بابها اي به يتوصل الى حقائق العلوم وعلي وان شاركه فيه غيره فتخصيصه
لكونه ارفع منزلة في باب العلم وقد كان سئل عليه السلام عن فائدة القمر ونقصانه
فانزل الله هذه الاية تنبيها على اظهر فائدة للحس وابينها له ثم قال وليس
البر بان تاتوا البيوت من ظهورها اي بان يطلبوا من غير وجهه وذلك
انه يقال اتى فلان البيت من بابه اذا طلب الشيء من وجهه وقال الشاعر
اتيت المروة من بابها وابى السبب من ظهره اذا طلب الامر من غير
وجهه وجعل ذلك مثلا لسؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم عما هو ليس من العلم
المختص بالنبوة وان ذلك عدول عن المنهج وذلك ان العلوم ضربان دنيوي
يتعلق بامر المعاش كمعرفة الصنايع ومعرفة حركات النجوم ومعرفة المعادن
والنبات وطبايع الحيوانات وقد جعل لنا سبيلا الى معرفته على غير لسان
نبيه عليه وشريعته وهو البر ولا سبيل الى اخذه الا من جهته وهو احكام
التقوى فلما جاؤا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما امكنهم معرفته من غير
جهته اجابهم لم يصح لهم ان ليس البر ترك المنهج في السؤال عن النبي ما ليس
مختصا العلم بنبوته ولكن البر هو تحري التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل
المختص بالدين وقال بعض المفسرين اتيان البيوت من ظهورها هو
ان العرب من لم يكن من الحمس اذا احرم لم يدخل البيت من بابه بل كان
ياتيه من ظهوره فاتى رجل من باب بيته فانكر عليه فانزل الله تعالى هذه الاية
هذا عن ابن عباس وغيره وقيل اتيان البيوت من ظهورها مخالفة الواجب

ولكن ذكرها اعظم امرا فان الحج مراعى
في قضائه وادائه الوقت المعلوم
بخلاف سائر العبادات صح

في الحج وشهوره وبتحويل الشهر الحرام وتحليل الحلال معناه المعنى بقوله تعالى
انما النسيء زيادة في الكفر وكل ذلك يمنع ان يتناوله الآية لكن الأليق
بأول الآية ما تقدم ذكره قوله وأتوا البيوت من ابوابها اي تحروا في كل
عمل اتيان الشيء من وجهه فمنها ان ما يطلب من غير وجهه صعب مناله
ثم قال واتقوا الله حثا لنا ان نجعل تقوى الله شعارها في كل ما نتحراه
ويبين ان ذلك الذريعة الى تحصيل العلوم **قوله** عز وجل وقاتلوا في سبيل الله
الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين اختلف في حكم
هذه الآية فقيل هي ناسخة لحكم العفو منسوخة بقوله تعالى وقاتلوا
المشركين كافة وقيل ليست بمنسوخة ولا ناسخة وبيان ذلك وهو ان
من شرط الداعي الى الحق ان ينبه ويدل عليه ويرفق فان اهتدى المدعو والا
ادخله فان نجع ذلك والا عدل بعده الى المخاشنة والمحاربة على ما يقتضيه
السياسة وعلى هذا قال بعضهم لا استعمل سوطي ما كفاني لساني ولا سيفي
ما كفاني سوطي قال الشاعر ؎ اناة فان لم تغن اعقب بعدها ؎ وعيدا
فان لم يغن اغنت عزائمه ؎ وكان النبي عليه السلام امر في اول الامر بالرفق والاناة
وان يقتصر على الوعظ والمجادلة الحسنة كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن وكان يستمر على ذلك حتى عاتبه
بعض اصحابه فقال يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا اذلة فقال
عليه السلام امرت بالعفو فلا تقاتلوا اليوم فلما ظهرت آياته وانتشرت بيناته
وابى من ابى الاصغاء الى الحق واستمر على الضلالة والاضلال اذن له في القتال
وهذا دل قوله تعالى الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم الى قوله كخشية الله او اشد
ثم امر بقتل من يأبى الرجوع الى الحق بالحرب وكان هذا امرا بعد امر حسب
مقتضى السياسة الالهية قوله الذين يقاتلونكم منهم من يتصور منه تولي القتال
وتعاطيه في الحال فقال هو منسوخ بقوله وقاتلوا المشركين كافة ومنهم يتصور
منه المعاداة كقولك فلان يحارب ويناصب اذا كان معاديا وان لم يكن للحرب
متعاطيا في الحال فيكون مثل قوله وقاتلوا المشركين كافة وقوله ولا تعتدوا

مطلب

نهي عام في مجاوزة كل حد حرم الله تعالى كالنهي عن قتل الولدان والنساء
وقتل من اعطي الامان وتحري القتال ابتغاء عرض الدنيا وطلب الرياسة ونبه
بقوله ان الله لا يحب المعتدين ان اعتداء رسوم الله وتجاوز حكمه في كل امر
يوجب عداوة الله **قوله** عز وجل واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث
اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى
يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين الثقف
الحذق في ادراك الشيء علما كان او عملا ومنه قيل رجل ثقف لقف
اذا كان له حذق في ادراك الشيء ومنه قيل ثقفت الرمح واصل الفتنة
ادخال الذهب النار للتصفية يقال فتنته اي اختبرته بالنار ثم استعير
لكل اختبار بامر ممض على ذلك قوله تعالى احسب الناس الى قوله يفتنون وجعل
الفتنة لكل امر مكروه والمحتمل فتارة استعير للشرك وتارة للعذاب
وتارة للاختبار ولما كان لفظ الفتنة والقتل ههنا مبهمين قال بعضهم
معناه ان يفتن الانسان في دينه فيشرك اشد اي ادهى عاقبة من ان يقتل
بان له اذية التي ينال المقتول محدودة والاذية التي ينال المشرك بشركه
غير محدودة وقال بعضهم ان معناه ان يوقع الانسان الفتنة اشد
على الناس اي اعظم ضررا من ان يقتل في الحرم من يستحق القتل وقال ذلك
رد على من استعظم قتل المسلمين كافرا في الحرم ولهذا قال وقاتلوهم حتى
لا تكون فتنة وقوله واخرجوهم امر باخراج الكفار من مكة بدلالة قوله وكاين
من قرية هي اشد قوة الآية وقوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا
من ديارهم واموالهم وقوله ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام استثناء من قوله واقتلوهم
حيث ثقفتموهم وهذا حكم عند اكثر الفقهاء بانه لا يقاتل في الحرم الا من
قاتل ويؤيد ذلك قوله عليه السلام يوم فتح مكة ان مكة حرام حرمها الله عز وجل
يوم خلق السموات والارض وانما احلت لي ساعة من نهار ثم عادت حراما
الى يوم القيمة فهذا يدل على انه غير منسوخ كما ظنه بعض الناس وقال الاصم
ان ثبت جواز القتل هذا في الحرم فليس في ذلك نسخ بل هو زيادة في فرض القتال فان هذا

مطلب

امر بان تقاتلوا في الحرم اذا قوتلوا وذلك امر بالقتل قوتلوا او لم تقاتلوا
فاذن للثاني زيادة في الامر ثم قال فان قاتلوكم اي حاربوكم فاقتلوهم
وبيّن ان هذا حكم بكل كافر يحارب المؤمنين قوله عز وجل فان انتهوا فان الله
غفور رحيم . الانتهاء الانزجار والنهي الزجر والنهي المعدي للمنتهى
من سلامته على ما النقص ونهاية الشيء غايته التي ينتهي اليها لان لكل
شيء في هذا العالم غاية اذا انتهى اليه انصرف راجعا عنها في الكون والفساد
والنهي والعقل لكونه ناهيا عن القبيح والنهي في موضع النحو من صيغة
لا تفعل حثا على الشيء كان او زجرا عنه وفي موضع اهل البرهان ما يقتضي
الزجر عن الشيء سواء كان بلفظ افعل او لا تفعل وهذا الخلاف من اجل
ان النحوي يعتبر اللفظ قبل المعنى وصاحب البرهان يعتبر المعنى قبل اللفظ ونبّه
بالآية ان المنتهي عن الذنب يغفر له ما تقدم من ذنبه وذلك عام في امور الدنيا
والآخرة الا ما دلت الدلالة على الاخذ به من حقوق الآدميين وعلى هذا قوله عز وجل
قل للذين كفروا يغفر لهم ما قد سلف وقوله عليه الصلاة والسلام يجب ما قبله
قوله عز وجل وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا
فلا عدوان الا على الظالمين امر تعالى بالقتال لدفع الفتنة بعد ان بيّن
انها اعظم ضررا من القتل نحو قوله فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب
الى قوله حتى تضع الحرب اوزارها فقوله حتى لا تكون فتنة كقوله حتى تضع الحرب
اوزارها وذلك اما بقتلهم او باسلامهم او بانقيادهم وبذل الجزية بحسب
ما بينه الشرع ويكون الدين لله قال ابن عباس حتى يخلص التوحيد وحمل ذلك
على مشركي العرب لانهم لا يقارون على الجزية كما يقار غيرهم وحمل بعضهم
على الانقياد بحكم الدين في كل مكان فقال يجب ان يكون الحكم للاسلام في كل
مكان وعلى هذا ما روي الاسلام يعلو ولا يعلى ثم اعاد ذكر الانتهاء فقال
وان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين اي لا يتجاوز عن الحظر الا من يتجاوز
بحسب فعله قوله عز وجل الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين

بالقتل

مطلب

بيّن تعالى ان مراعاة حرمة الشهر واجبة لمن راعى حرمته وانّ من هتكها
اقتص منه وسبب نزول هذه الآية ان العرب حاربت فصرفت النبي عليه السلام
عام الحديبية عن الحرام وكان ذلك في ذي القعدة فمكّنه الله تعالى من دخول
مكة في العام القابل في ذي القعدة وشرح معنى قوله لا عدوان بقوله
فمن اعتدى عليكم ان قيل كيف رخص في الاعتداء وهو ظلم وقد منع منه
بقوله ولا تعتدوا قيل الاعتداء مجاوزة الحد ومنه قيل عدا فلان
طوره ولا تعد طورك ثم استعير الاعتداء في الظلم من حيث انه يجاوز
الحد الذي حده العقل والشرع والذي منع تجاوز ذلك ابتداء فقد اباح
لمن اعتدي عليه جزاء فاذن الاعتداء ضربان اعتداء على سبيل الابتداء
وهو ظلم واياه عنى ههنا ثم المجاوزات ايضا ضرب لا يجوز ان يتجاوز وانما
عنى بقوله فمن اعتدى بعد ذلك ان قيل هل كان يجوز لو قيل من ظلمكم
فاظلموه قيل لا يجوز ذلك لان الظلم انما هو وضع الشيء في غير موضعه
الذي يحق ان يوضع فيه وهذا في كل حال مذموم والاعتداء مجاوزة
الحد المحدود وذلك لا يكون مذموما ومن قال من العرب من ظلمك فاظلمه
فذلك تجوّز منه ورخص في الظلم على عادتهم وكذا قول من قال
الا لا يجهلن احد علينا . فنجهل فوق جهل الجاهلينا . فان الجهل
مذموم على كل حال ولا يكاد يرد لفظ الامر به من حكيم فان قيل فقد قال
ومكروا ومكر الله قيل حقيقة المكر اظهار امر يعتقد فيه الناظر اليه
الجاهل بحقيقته اعتقاد ما يضاد ما هو كذلك الاحتيال والخديعة والسخرية
ومن قصد بشيء من ذلك امرا قبيحا فهو مذموم وان قصد به فعلا جميلا
فهو محمود فانه يصح ان يمدح بذلك من يتحرى مقصدا حسنا ولهذا قال
بعض العلماء ان الله تعالى يخدعنا عن النار كما يخدع الصبي ابوه وفي الآية
دلالة ان من استهلك شيئا لغيره استهلك عليه مثله لكن مثل المستهلك
قد يكون تارة حسية مكيلا كان او موزونا او معدودا وتارة قيمة
وقوله واعلموا ان الله مع المتقين تنبيه ان توفيق الله يصحب المتقي وقد تقدم

حقيقة مع الصحة اذا استعمل في الباري عز وجل قوله عز وجل وانفقوا
في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين
الهلاك انتهاء الشيء الى الفساد ولهذا سمي الموت هلاكا وقيل للعذاب
والخوف والفقر والبخل وما يجري مجراها مما قد يؤدي الى الهلاك هلاكا
والمفازة مهلكة والتهلكة ما يؤدي الى الهلاك وامرأة هلوك كانها تتهالك
في مشيها اشارة الى قول الشاعر ۵ مريضات وبات الهدى كانما تخاف
على احشائها ان تقطعا ۵ وكني بالهلوك عن الفاجرة لتمايلها والهالكي
كان رجلا حدادا من قبيلة هالك فسمت العرب كل حداد باسمه كما كل
ما هاجريا فقوله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة قيل معناه ولا تلقوا
انفسكم بايديكم الى الهلاك نحو قوله ولا تقتلوا انفسكم وذلك بالتعرض
لما تستوخم عاقبته جهلا به كقول الشاعر ۵ مثل الفراشة تاتي اذا دنا لها
من السراج فتلقي نفسها فيه ۵ وللاية تاويلات على وجهين مختلفين
احدهما انه نهي عن الاسراف في الانفاق وعن التهور في الاقدام والثاني
انه نهي عن البخل بالمال وعن القعود عن الجهاد وكلا المعنيين يراد بها
فالانسان كما انه منهي عن الاسراف في الانفاق والتهور في الاقدام فهو
منهي عن البخل والاحجام عن الجهاد ولهذا قال تعالى والذين اذا انفقوا
لم يسرفوا ولم يقتروا الاية قال ولا تجعل يدك مغلولة الاية وقال بعضهم
ان هذه الاية ينظر اليها على نحوين نظر المجاهد في سبيل الله بالمال والثاني
نظر الفقيه عن المجاهد وكلاهما صحيح بوجه ووجه ذلك ان الفقيه من حيث
انه يحكم بالظاهر على الكافة يراعي احوالهم والمجاهد من حيث انه موفر على
مراعاة الحق ويذهل عن مراعاة نفسه الا ترى الالقاء بيده الى التهلكة الا
لو حاول ترك وظايف الحق والى هذه الحالة اشار تعالى ان الله اشترى من المؤمنين
انفسهم واموالهم وقوله واحسنوا ان الله يحب المحسنين اي تحروا افضل الاحوال
وقد تقدم ان الاحسان هو تحري العدالة والزيادة عليها لما دون فيها
ولهذا قال تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان ثم نبه باظهار المحبة للمحسنين

على شرف

على شرف منزلتهم وفضيلة افعالهم قوله عز وجل واتموا الحج والعمرة لله
فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي
محله فمن كان منكم مريضا او به اذى من راسه ففدية من طعام او صدقة
او نسك فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي
فمن لم يجد فصيام ثلثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة
ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد
العقاب اتموا قيل انه خطاب لمن خرج حاجا او معتمرا فالامر
ان لا ينصرف وجهه حتى يقضيها واليه ذهب ابو حنيفة رحمه الله واحتج به
في وجوب اتمام كل عبادة دخل فيها الانسان متنفلا وانه متى افسدها
وجب قضاؤها وقيل انه خطاب لهم ولمن لم يتلبس بالعبادة وذكر لفظ
الاتمام تنبيه على توفية حقها واكمال شرايطها ولذلك قال امير المؤمنين
اتمامها ان تحرم بها من دويرة اهلك وعلى هذا قوله ثم اتموا الصيام
الى الليل والى هذا ذهب الشافعي رحمه الله واحتج به في وجوب العمرة وانما
قال في الحج والعمرة لله ولم يقل ذلك في الصلوة والزكوة من اجل انهم كانوا
يتقربون ببعض افعال الحج والعمرة الى اصنامهم فخصهما بالذكر لله تعالى
حثا على الاخلاص فيها ومجانبة ذلك الاعتقاد والمحظور وظاهر قوله
فان احصرتم لا فرق فيه بين ان يحصر بمكة او بغيرها وبعد عرفة او قبلها
خلافا لما قال ابو حنيفة رح ان من احصر بمكة او بعد الوقوف لا يكون محصرا
في الحكم وكذلك لا فرق في الظاهر بين ان يحصره عدو مسلم او كما قال الشافعي
رحمه الله خلافا لمن فرق بينهما وظاهره يقتضي ان لا فصل بين احصار
العدو واحصار المرض كما قال ابو حنيفة دون الشافعي رحمة الله عليهما لولا
ان الاية نزلت في سبب العدو فلا يجوز ان يتعدى الا بدلالة ولان
قوله فاذا امنتم يدل على ان المراد بالاحصار هو بالعدو وذلك قول ابن
عباس رضي الله عنه ويقتضي الظاهر ان لا قضاء عليه لانه قال فما استيسر
من الهدي واقتصر عليه والهدي بقرة او بدنة او شاة او اكثر لانه قال

فما استيسر ونهى حلق الراس الا بعد بلوغ الهدى محله عند ابي حنيفة رحمه الله الحرم واستدل بان ناجية بن جندب قال عطب من الهدي قلت يا رسول الله كيف اصنع بما عطب من البدن قال انحره ثم الق نعله في دمه ثم خل بينه وبين الناس. وقيل بعض هذه الادوية واسوق هذه البدن الى الحرم فانحرها فقال عليه السلام افعل فساقها الى الحرم فنحرها وعند الشافعي رحمه الله ان محل هدي المحصر زمان التحلل ونحر الهدى حيث يحصر من الحل والحرم وقوله من كان منكم مريضا ليس هو مقصورا على المحصر فقط بل عام كل حاج ومعتمر والمريض الذي يضر اللبس والحلق ويقتضي الفدية هو الذي يحتاج الى تغطية البدن وحلق الشعر والدم الفدية للمحصر ولم يبين وصفها فشرح النبي ذلك بقوله لكعب بن عجرة فقد جربه وهو محرم الا يؤذيك هوام راسك قال نعم فقال احلق راسك وادع لنسكه او صم ثلثة ايام او اطعم ستة مساكين كل مسكين صاعا وظاهر الاية يقتضي ان لا فرق بين قليل الشعر وكثيره بخلاف ما قال ابو حنيفة رحمه الله حين لم يلزم الا بحلق الثلث وغيره حين لم يلزم الا بحلق الربع واما التمتع بالعمرة الى الحج فقد قيل هو المحصر اذا دخل مكة بعد ما يفوت الحج وقيل هو الناسخ الحج بالعمرة وقيل هو التمتع المعروف في الحج عند الفقهاء وهو الاصح ولا يجب الدم فيه الا باربع شرايط ايقاع العمرة في اشهر الحج والتحلل منها فيه والثاني ان يحج من سنته والثالث ان لا يرجع الى الميقات لانشاء الحج والرابع ان لا يكون من حاضري المسجد الحرام وان احرم في رمضان واخر الطواف الى شوال فهل يلزمه الدم فيه قولان الشافعي رحمه الله وذلك ظاهر ايجاب الهدى يقتضي ان يكون ذلك بعد الفراغ من العمرة والاحرام بالحج وكذلك الصوم الذي هو بدله وعند ابي حنيفة يجوز الصوم اذا دخل في العمرة ناويا للتمتع ان قيل كيف قال في الحج ومتى احرم يوم عرفة لا يمكنه صيام ثلثة ايام في الحج لانه منهي في يوم النحر وايام التشريق قيل الواجب على المتمتع ان يحرم بالحج على وجه يمكنه الاتيان بالصيام لثلثة ايام وذلك بتقديم الاحرام قبل يوم وقد قال ابن عمر وعايشة لصوم ايام التشريق ويحملان النهي عن صوم ايام منا على غير المتمتع قوله اذا رجعتم قيل

معناه

معناه اذا اخذتم في الرجوع بعد الفراغ وقيل معناه اذا رجعتم الى اهليكم والاولى اللفظ يحتمل الامرين جميعا فيصح حمله عليهما وحاضروا المسجد الحرام قال عطا هم اهل الحرم لا غير وقال ابو حنيفة هم اهل المواقيت ومادونها وقوله ذلك لمن لم يكن يعني الكفارة هو والهدى والصوم ومعناه ان هذا الوجوب لمن لم يكن حاضر المسجد الحرام وقيل معنى ذلك اي التمتع على الوجه الذي يجب به الفدية وانه ليس لحاضري المسجد الحرام ان يتمتعوا ان قيل ما الحاجة الى ذكر تلك عشرة كاملة عقيب قوله تسعة وثلثة ولا شك ان ذلك عشرة ولا ان ذلك يتنوع فيكون مرة كاملة ومرة غير كاملة لانها اذا لم يكن كاملة لم يكن عشرة قيل قد اجيب عن ذلك باجوبة الاول انه لما قال ثلثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم كان يحتمل التخيير وان كل واحد منهما على الانفراد بدل على الهدى فبين ان مجموعهما بدل على الهدى يقوم مقامه والثاني انه لما قصد بيان كمال الحكم وان ذلك يحصل في صوم العشرة ذكر لفظ العشرة بالبدل فان كان لو قال تلك كاملة كانت مفهومة وذاك ان الخطاب العامي اعني ما يفهم به الخاص والعام الذي هم اهل الطبع واهل الارتياض بالتعلم لا يكون الا بتكريرات الكلام وزيادات البيان ليحسن افهام الكافة ولهذا جاء في القران عامة ما يتعلق حكمه بالكافة في غاية الظهور وما هو مختص علمه بالراسخين في العلم جاء على ضرب من الايجاز والغموض اذ كانوا بمعرفتهم يمكنهم ان يتوصلوا الى حقايقه وما هو مراد منه العامة والخاصة اراد التوحيد والسمع ذكر تارة بلفظ مبسوط لنظر العامة ما يقنعهم وتارة بلفظ وجيز يستخرج منه الخاصة لما يتعمقه ولهذا قال فيما يخص ولو ردوه الى الرسول الاية الثالث قوله تلك عشرة كاملة استطراد في الكلام وتنبيه على فضيلة علم العدد

مطلب

والدال قد قيل العدد اول المعلوم واشرفها اما انه اول فلان ما عداه معدول منه وبه تفصل وتميز واما كونه اشرف فلانه لا اختلاف فيه ولا تغيير بل هو لا ذم طريقة واحدة فذكر العشرة ووصفها بالكاملة

اذ هي عدد كمل فيه خواص الاعداد فان الواحد مبدأ العدد والاثنين
اول العدد والثلثة اول عدد فرد والاربعة اول عدد زوج مجذور
اي يجتمع من ضرب عدد في نفسه والخمسة اول عدد دائر والستة
اول عدد تام اي اذا اخذ جميع اجزائه لم يزد عليه ولم ينقص منه والسبعة
اول عدد اول اي لا ينقسم عدد بعدد والثمانية اول عدد زوج الزوج
والتسعة اول عدد مثلث والعشرة اول عدد ينتهي اليه العدد لان ما بعده
يكون مكررا بما قبله فاذا العشرة هي العدد الكامل قوله عز وجل الحج اشهر
معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج
وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون
يا اولي الالباب جدل الحبل فتله وبه سمي الزمام جديلا وعنه استعير
جادلت فلانا ولذلك قيل نا قضته تشبيها بنقض الحبل وفتل فلان
يفتل حبلا في ذروة فلان اذا احتال عليه والجدول النهر الممتد كالحبل
المفتول والمجدل القصير المحكم والجدالة كالارض صلبة والزاد فضل
الطعام الزائد عما يكتفى به في الوقت وقد بين الله تعالى فيما تقدم احكام
الحج وما يقع فيه من الاحصار واستباحة الحلق والتمتع وبين في هذه الاية
وقته الذي يصح فيه ذلك ومن قال اشهر الحج شوال وذي القعدة وتسع
من ذي الحجة عنى ان فعل يقع في هذه المدة لان لفظ الاشهر يقع على
الاثنين وبعض الثالث فالفعل قد ينسب الى مدة ممتدة ويكون واقعا
في بعضها ولما كان فعل الحج في هذه الاشهر الهن ملتبس ودلت الاية
ان الاحرام في غيرها بالحج لا يصح لتخصيص الاشهر وهو داود في العدد ولقوله
فمن فرض فيهن والضمير على هذا الوجه لا يقال في التاريخ الا لادنى العدد
كقوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ثم قال منها اربعة
حرم ثم قال فلا تظلموا فيهن يعني في الاربعة الحرم ويقال الثلاث خلون
وثلث عشرة خلت وقول مالك ان الاحرام بالحج يصح يوم العاشر بالحج
مستدلا بظاهر الاية قوي ويعاضده ما روي عنه عليه السلام اشهر الحج

شوال وذو القعدة وذو الحجة وقوله فمن فرض فيهن الحج اي الزم حكمه وذلك
عند الشافعي رح بالنية فقط وبها يصير محرما وعند ابي حنيفة رحمه الله بالنية
ومع سوق الهدي او التلبية والتزام الحكم واصله من قطع الحكم ماخوذ من فرض
القوس اذا حزه وقيل لمعظم البحر لم جعل الفرض لما هو اوكد والنية لما هو
اخف قال لان الفرض لما يؤثر كفرض الزند والقوس والسن للقصب
فتاثير الفرض في الشيء ابلغ من تاثير المس فجعل لما هو اوكد والرفث
ههنا قيل هو الجماع وقيل هو حديث الجماع وروي عن ابن عباس رضي الله عنه
انه كان ينشد في الطواف ⁘ انه يصدق الطير ننك لميسا ⁘ فقيل له
ارفثت فقال ليس هذا الرفث انما الرفث مراجعة النساء بحديث
يذكر الجماع ان قيل الفسوق محظور في كل حال فكيف خص به الحج قيل
الفسوق هي الاشياء المحظور تعاطيها في حال كالخلوق والطيب واللبس
وان لم يكن فسقا في غير الحج قيل تخصيص الحج به تنبيه على شرفه وعظم موقعه
كقوله فلا تظلموا فيهن انفسكم وان كان ظلم النفس في كل حال مكروها
وكما قال اذا صام احدكم فلا يجهل ولا يرفث فان جهل عليه فليقل اني صائم
وقوله لا جدال اي لا يجوز المماراة وقيل معناه لا شك ان قصد مفروض في الحج
بخلاف ما فعله النساء وقيل قوله لا رفث ولا فسوق اشارة الى ان منع اليوم
هذا الفرض ونحوه فان يمنعه عن الرفث والفسوق كانه نبه على علة ما اوجب
لاجله الحج وهو تهذيب اللسان بالكف عن الخنا او اصلاح البدن بالمنع من تعاطي
الفسق كما جعل الصلوة علة لترك الخنا والمنكر والصوم علة التقوى
في قوله لعلكم تتقون والزكوة علة لتزكية النفس كقوله وتزكيهم بها وقوله
لا جدال فهي على ما تقدم ولهذا فصل بين اعرابهما بعض القراء ونبه بقوله
وما تفعلوا من خير يعلمه الله على مجازاته اياهم كما نبه على ذلك في عامة القرآن
بنحو قوله سميع عليم والله يعلم المفسد من المصلح وما يجري مجرى ذلك وقوله
فان خير الزاد التقوى حث على تقوى الله واقتناء الاعمال الصالحة والاعراض
عن الدنيا سوى ما يتوصل به الى الاخرة وقال ابو المطيع البلخي لحاتم الاصم بلغني انك

مطلب

يخوت البادية بلا زاد ملجا يويها باربعة اشيا ارى الدنيا بحذافيرها
ملكا لله وارى الخلق كلهم عبيد الله وارى الاشيا كلها بيده وارى قضاه
نافذا في كل ارض فقال نعم الزاد زادك يا حاتم تخوت به مفاوز الاخرة
وقول من قال انزلت الاية في قوم يحجون بلا زاد ويتكففون فنهوا
عن ذلك فلا يمتنع ان يكون مراد بالاية مما تقدم فالتكفف قد يكون
منافيا للتقوى وقوله واتقون يا اولي الالباب لما امر بالتقوى امر
ان يكون تعالى هو المقصود بها وقيل مراده حفظ اللسان ان سالها عقابا
او سخطاها نواه وذلك يمنعه عن متابعة الهوى وحملها على طريق الهوى
وذلك على ثلث منازل الاول ترك الكفر والكبائر والثاني ترك المحارم
واداء الفرائض الذين يقتضيهما التزام الشرايع والثالث حفظ القلوب
عن التلعب الى الذنوب وهو المعنى بقول من قال التقوى هو التبري من كل
شي سوى الله تعالى ولا يحصل الثالث الا بحصول الثاني وعني ههنا الغاية
ولهذا خص اولوا الالباب بالخطاب فاللب اشرف اصناف العقل
وهو اسم الجزء الذي باضافته الى سائر اجزاء الانسان كلب الشي
الى القشور وباعتبار اللب قيل لضعيف العقل يراعه ومجوف وهوا
الصدر وقال عز وجل وافئدتهم هوا وقال تعالى واصبح فؤاد ام موسى فارغا

قوله عز وجل ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم
من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هديكم وان كنتم
من قبله لمن الضالين فاض الانا انصب عن امتلاء ومنه فاض صدره
بسره ورجل فياض سخي تشبيها بنهر فياض ودرع مفاضة انصب
على لابسها كقولهم منسوبه وعنه استعير افاض من عرفة وافاض بالقداح
وافاض البعير بجرته وحديث مستفيض كقولهم سائر وشائع وكانت العرب
تتحاشى من التجارة في الحج حتى انهم كانوا يسمون المبايعة اذا دخل العشر الاواخر
وحتى سموا من تولى متجرا في الحج الداج دون الحاج فاباح الله ذلك وعلى اباحة
ذلك دل قوله واذن في الناس بالحج الى قوله ليشهدوا منافع لهم وقوله

واخرون

واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وامر الله بذكر الله تعالى
عند المشعر الحرام اي المزدلفة وقيل عني بذكره عند الجمع بين المغرب والعشاء فهذا
مدخل في عموم الذكر فقد سمى الصلوة ذكرا في قوله فاسعوا الى ذكر الله وقيل
لبعض العلماء لم امر الناس بالمقام عند المشعر الحرام وبالذكر فقال لان الكعبة
بيت الله والحرم حجابه والمشعر بابه والوافد اذا قصد الباب اقام وتضرع
فاذا وصل الى الحجاب قدم قربانا ووصى التعب وتطهر يؤذن له في الدخول
واعاد الامر بالذكر ثانيا واوجب ان يكون ذكره لهداية الله اي هداه الله
لنا ثم قال وان كنتم اي وانكم كنتم من قبل الضالين وان مخففة من الثقيلة
بدخول اللام معها والضال ههنا الجهل بالمعارف الحقيقية نحو قوله ووجدك
ضالا فهدى **قوله** عز وجل ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله
ان الله غفور رحيم روي ان قريشا لم يكونوا مع الناس بعرفة يقفون وانما يقفون
بالمزدلفة ويقولون نحن اهل حرم الله وكانوا يقفون دون عرفة فامرهم الله تعالى
ان يفيضوا مع سائر الناس قاله ابن عباس وعايشة ومجاهد والحسن
وقيل انه جميع الناس ان يفيضوا من حيث افاض الناس اي ابرهيم وسماه الناس
والناس يستعمل على ضربين احدهما للنوع من غير اعتبار مدح وذم والثاني المدح
اعتبارا بوجود تمام الصور المختصة بالانسانية وليس ذلك في هذه اللفظة
بل في اسم كل جنس ونوع نحو هذا فرس وفلان رجل وليس هذا بفرس ولا فلان
رجل اي ليس فيه معناه المختص بنوعه وبهذا النظر نفي السمع والبصر عن الكفار
فعلى هذا سمي ابرهيم الناس على سبيل المدح وهو ان الواحد يسمى باسم الجماعة تنبيها
انه يقوم مقامهم في الحكم وعلى هذا قول الشاعر ٥ ورب صحبه القبيل فيتراه
وقال كانما الخلق في تمثال انسان ٥ وقال وليس من الله بمستنكر ٥ ان يجمع العالم
في واحد ٥ وعلى هذا قال تعالى ان ابرهيم كان امة وقوله من حيث اي من عرفة
وقيل من المزدلفة وهو اقرب لانه بعده فاذا افضتم من عرفات والاستغفار
والتوبة والانابة والاوبة تتقارب لكن الاستغفار طلب غفر الذنب والتوبة
تركه والانابة الرجوع من الضلال الى الهدى والاوبة رجوع القلب الى الله تعالى

وهذه المعاني وان كانت متلازمة فالفاظها اختلفت لاختلاف النظرات
فامر تعالى بالاستغفار له عن الاستغفار ولغيره من امور الدنيا وبين ان الله
غفور للمطيعين رحيم بالعاصين يدعوهم برحمته الى بابه ويرغبهم في
جزيل ثوابه **قوله** عز وجل فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم
اباءكم او اشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا اتنا في الدنيا وما له
في الاخرة من خلاق القضاء فصل الامر والنسك اخذ اليقين ببلوغ
غاية العبادة واختص في تعارف اهل الفقه بعمل الحج وبالذبيحة حتى
سميت نسيكة كما سميت قربانا وقولهم اذا فعلت كذا فافعل كذا يقال على ثلثة
اوجه الاول ان يكون الفعل امرا ما تقدم فعله نحو اذا قمتم الى الصلوة فاغسلوا
الثاني ان يكون الاخر شيء هو من ابعاض ذلك الفعل وفي اثنائه نحو اذا صليت
فاركع واسجد والثالث ان يكون بعده نحو فاذا قضيتم الصلوة فانتشروا
والاية محمولة على انتهاء ذكره وهو شكر الله عز وجل وذكره عند طواف
الوداع ولما كان الذكر ذكرين ذكر بالقلب وذكر باللسان بينا انهما الاية
ولما كان الانسان لا يسكت في ان اباه احد اسباب وجوده وانه منه اوجد
ولا ينسى ذكره في شيء من احواله وكانوا يتحججون بمكانه ويفتخرون بكونهم عنه
امروا ان يذكروا الله كذكرهم اباهم وان يتحققوا انه تعالى سبب وجودهم
بل سبب وجود اباءهم وان يفتخروا به كافتخارهم باباءهم وقد روي انهم كانوا
يفتخرون باباءهم بعد فراغهم من حجهم فابطل الله ذلك وعليه نبه النبي
صلى الله عليه وسلم بقوله ان الله تعالى اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء
فالناس من ادم وادم من تراب لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ثم تلا
يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل الاية
وقوله او اشد ذكرا نصبه انه اذا كان الاب يذكر لانه سبب ما لوجودكم
فالباري تعالى اولى بان يذكر واكثر من الوالد ان قيل كيف حرص ان
يذكر كذكر الاباء قيل لفظا وان كان للتخيير فمقتضى الكلام على تحري
ان يكون ذكره اشد لانه كما نبه على موضع نعمتها اعني نعمة الادمي ونعمة الله تعالى
وشكر المنعم بقدر عظم نعمته وقد علم فضل نعمته تعالى على فضل نعمة الاب صار

ذلك

ذلك تنبيها ان ذكر الله اوجب وقوله من يقول ربنا اشارة الى الذين
انهم كانوا يقولون اللهم اكثر مالنا وانزل الغيث علينا وانبت مرعانا
ولا يسئلون شيئا من امور اخرتهم وانما سالوا الدنيا دون الاخرة لانهم
عرفوها ولم يعرفوا الاخرة وكيف يسال الاخرة من لا يعرفها وكيف يعرفها
من لم يتحقق كونها وكيف يتحقق كونها من لم يبصرها اي لم يدركها ببصيرته
وليس يعني بقوله الذم بذلك فقط بل صرف العناية اليها والاهتمام بها
والخلاق نصيب الانسان من افعاله المحمودة التي يكون خلقا له وذلك ان
الفعل قد يحصل من الانسان تخلقا وقد يحصل منه خلقا وهو المحمود فنفى قوله
وما له في الاخرة من خلاق تنبيه انه لا رحمة صادرة صادرة عن اخلاقهم
قوله عز وجل ومنهم من يقول ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة
وقنا عذاب النار كما اجرى الله العادة ان لا بد للانسان اصادهم وسدادهم
من بلغه في الدنيا صار المؤمن يطلبها كما يطلبها الكافر لكن طلب المؤمن
لها على سبيل العرض قدر ما يحس ولاجل الحاجة اليها قال بعض الصالحين
اللهم وسع الدنيا علي وزهدني فيها ولا تضعها علي وترغبني منها فقوله
في الدنيا اي ما نتمتع عاجلا واجلا ويكون ذريعة الى المقصد في الاخرة
حسنة اي ثوابا ورحمة وعلى هذا قال الحسن الحسنة في الدنيا العلم والعبادة
وفي الاخرة الجنة وقنا عذاب النار اي احفظنا من الشهوات والذنوب
المؤدية الى النار **قوله** عز وجل اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب
النصيب في الاصل المنصوب وبه سمي النصب ونصاب الحدود ونصاب السكين
وفلان في نصاب صدق تشبيها بنصاب السكين ونصب الحرف في الاعراب
ونصب الستر على التشبيه والحساب عند استعمال الحسبان المقارب بمعنى
الظن وحسب الذي هو بمعنى الكفاية بين تعالى ان من جمع بين طلب دنياه
واخراه ولم يقتصر على طلب الدنيا الموصوفة بقوله انما مثل الحيوة الدنيا الاية
فقد بنا والنصيبه المامور في قوله ولا تنس نصيبك ولم يكن لمن قال منهم
وقد بنا الى ما عملوا ولما كان الحساب يكشف عن جمل الشيء وتفصيله نبه بذلك

او في وقت ما يحس صح

على احاطته بافعال عباده ووقوفه على حقايقها وذكر السريع تنبيها ان ذلك
منه لا في زمان ولا بفكره وذلك ابلغ ما يمكن ان يتصور بالكافة سرعة فعل الله

قوله عز وجل واذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه
ومن تاخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون الايام
المعدودات عند الشافعي رحمه الله ثلثة ايام بعد النحر والمعلومات عشر ذي الحجه
وقال مالك وابو حنيفه رحمهما الله في احد الروايتين المعدودات يوم النحر ويومان
بعده فيوم النحر عندهما من المعلومات ومن المعدودات جميعا وفائدة الخلاف
ان عند مالك لا يجوز النحر في الثالث من ايام التشريق والحشر ضم المتفرق
وسوقه يقال حشرتهم السنة اي ضمتهم من النواحي الى الحضر واختص حشرات الارض
بصغار الدواب وسهم حشر مضموم القذذ وكذلك اذن حشرة ودفع الاثم عن
المتعجل والمتاخر على وجه الاباحة وقيل دفع الاثم انه حط ذنوبهما باقامتهما
الحج تعجلا وتاخرا بشرط ان يكون مقياسها ان الاعتداد بالتقوى فقط وعلى
ذلك دل قوله من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته امه ثم قال واتقوا الله
فتحققوا انكم اليه راجعون وعلى اعمالكم تحاسبون قوله عز وجل ومن الناس
من يعجبك قوله في الحيوة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام
التعجب حيرة تعرض للانسان عند الجهل بسبب شيء وليس هو شيئا له في ذاته
حالة بل هو بسبب الاضافات الى من يعرف السبب والى من لا يعرفه ولهذا
قال قوم كل شيء عجب وقال قوم لا شيء عجب وحقيقة اعجبني كذا اي ظهر لي ظهورا
لم اعرف سببه والالد المائل اللديد اي صفحة العنق ثم يعبر عن الميل كما يتصلف
اي المسلي صلعه والوصف النصير الذي به الصد ولهذا قال الشاعر
نعم سالفة الصد والوصيد . وقال . ان الكريم من تلفت حوله
وان اللئيم دائم الطرف اقود . واستعير الالد للمجادل الذي لا يمكنه صرف
راسه عما عرض عليه ولما كانت الدنيا والآخرة كالمتضادين كما قال امير المؤمنين
لا يرجح احدهما الا بنقصان الاخرى وقال كالضرتين اذا رضيت احدهما
اسخطت الاخرى فمن حرف في احدهما حرف في اخرى ولهذا قال في عباره

باهل الدنيا اكثر اهل الجنة البله وقال في عباره باهل الآخرة الكيس
من دان نفسه نبه ان من الناس من اذا صادفته وجدته معجبا لك في مورد بيانه
وقوله واذا رايتهم تعجبك اجسامهم الاية ويحلف بان قلبه مطمئن بالايمان
ومطابق للسانه وهو يجادل في ذلك ويخاصم ويشهد الله على ما في قلبه اشارة
الى نحو ما وصف به المنافقين حيث قالوا نشهد انك لرسول الله قوله عز وجل
واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب
الفساد السعي مشي سريع ومنه قيل السعي بين الصفا والمروة فجعل مستعارا
للتصرف والجد قيل لعامل الصدقة ساع وقيل للوقيعة في الغير سعاية وذلك
كاستعارة المشي لهما في قوله هماز مشاء بنميم والنسل مصدر نسل اذا خرج
منفصلا ومنه نسل الوبر والريش والنسالة للساقط منه ونسل اذا اسرع
قال تعالى الى ربهم ينسلون وسمي الولد نسلا لكونه ناسلا عن ابويه بين تعالى
حال هذا المعجب في الدنيا المرائي المجادل بانه اذا تولى عمل اي سعى في الافساد
واهلاك الحرث والنسل وذلك معاندة لله فيما حث عليه في قوله واستعمركم
فيها وما دل عليه قول النبي لما خلق الله المعيشة جعل البركة في الحرث والنسل
وبين انه من فعل ذلك فانه لا يحبه اي لا يرضى فعله ان قيل كيف حكم تعالى
بانه لا يحب الفساد وهو مفسد للاشياء قيل الافساد في الحقيقة اخراج
الشيء عن حالة محمودة لا لغرض صحيح وذلك غير موجود في فعل الله تعالى ولا هو
آمر به ولا محب له وما نراه من فعله ويظهر بظاهره فسادا فهو بالاضافة الينا
واعتبارنا له كذلك فاما بالنظر الالهي فكله صلاح ولهذا قال بعض الحكماء
يا من افساده اصلاح اي ما نظنه افسادا لقصور نظرنا ومعرفتنا فهو في الحقيقة
اصلاح وجملة الامر ان الانسان هو زبدة هذا العالم وما سواه مخلوق
لاجله ولهذا قال تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض والمقصد من الانسان
سوقه الى كماله الذي رشح له فاذن اهلاك ما امر باهلاكه لاصلاح الانسان
والامانة احد اسباب حيوة الابدية ولشرح هذه الجملة موضع آخر قوله عز وجل
واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد

مطلب

المهد موصوف وتصور منه التوطئة فقيل لكل وطيء مهد والمهاد ويجعل تارة
جمعا للمهد وتارة للواحد نحو فراش وجعل جهنم مهادا لهم كما جعل العذاب
مبشرا به في قوله فبشرهم بعذاب اليم وقوله بالاثم اي بسبب الاثم فقيل وعنه
العزة الى ان يأثم كقوله اخذني بفعل كذا اي بان افعله كذا اي بان افعله وبين ان
جهنم نصبه الكافي وجزاؤه الوافي ثم دل على حال جهنم بقوله ولبئس المهاد

قوله عز وجل ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد
يشري يبيع ويشتري وقد تقدم حقيقته وحقيقة البيع والناس على ضربين
ضرب باع نفسه من الشيطان بالشهوات فصار عبدا له سبيل له الى الانفكاك
منه وهم المعنيون بقوله وزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم وقوله
ارأيت من اتخذ وضرب وقع اسر الشيطان عليه فاجتهد في تخليص نفسه
منه وهو المعنى بقوله عليه السلام الناس غاديان فبايع نفسه ومبتاع نفسه
فمعتقها وضرب لم يقع عليه اسر الشيطان وقد باع نفسه من الله تعالى حيث قال
ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وبين تعالى كيف اشترى انفسهم بقوله
يقاتلون في سبيل الله فقوله يشري يعنيه ولا ضربين المخلص نفسه من اسر الشيطان
ومن باع نفسه من الله فاذا اشترى نفسه لامرين والشرى والبيع في مثل هذا
الموضع كالامر والروم وحقيقتها وقوام الانسان نفسه على مرضات الله تعالى
والتحري في مصالح عباده وقيل انها نزلت في صهيب بن سنان وكان قد اخذه
المشركون وقتلوا بعض من كان معه فقال صهيب انا شيخ لا انفعكم ان كنت
معكم ولا اضركم ان كنت عليكم فخذوا مالي وخلوا سبيلي ففعلوا فلما ورد المدينة
قال له المسلمون ربح بيعك فانزل الله تعالى هذه الآية ونبه بقوله والله رؤوف
بالعباد اي الانسان في بيع نفسه من الله يحصل في ذلك من هو رؤوف بمن نفسه
اولى من ذاته **قوله** عز وجل يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا
خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين عنى بالسلم سلم الله عز وجل وذلك ان
الانسان في كفره وكفران نعمة الله كالمحارب له ولهذا يسمي الكافر المحارب
في نحو قوله الذين يحاربون الله ورسوله وسلم العباد لله على ثلاثة اضرب ضرب

يتقدمه

يتقدمه الى الايمان وهو الاسلام الذي سلم به من الله ان اراده ويسلب ماله
اباحه الله تعالى وهو المعنى بقوله عليه السلام امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا
لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم والثاني بعد الايمان
احدهما ان يسلم من سخطه بالاقسام والامر والزواجر طوعا او كرها والثاني
ان يكون سليما من الشيطان واوليائه وسليما فيما يجري من قضائه وبه يحصل
كل السلم وهذه غاية ما ينتهي اليه العبد من المنازل الثلث وان كان
لكل منزلة منها درجات وهذا السلم هو المعنى بقوله يا ايها الذين آمنوا
اتقوا الله حق تقاته وبقوله ان الدين عند الله الاسلام وهو الذي تمناه يوسف
بقوله توفني مسلما وقوله كافة حال للمخاطبين وقد تقدم الكلام في قوله
ولا تتبعوا خطوات الشيطان ونبه ان اتباع الشيطان خروج عن السلم
ونبه على معاداة الشيطان وان عداوته لا يخفى وهذا المعنى قصده الشاعر في وصف
الدنيا ٭ ان الليالي والايام لو كشفت ٭ عن عيب نفسها لم يلم الحر ٭

قوله عز وجل فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم
زل وزال يتقاربان ولكن زال ابلغ ولفظ البينات عام فيما هو طريق المعارف
العقلية والسمعية والنهي عن الزلة والقصد بالنهي الى الفعل الذي يحصل
عنه الزلة اذ الانسان لا يقصد ان يزل وعلى هذا اذا قيل لا تصلوا
ونبه بقوله بعد ما جاءتكم البينات ان اعظم الذنب ما كان بعد المعرفة
والسنة وفي هذا تحذير لمن يصر على ركوب ذنب فكانه قيل اذا اذنبتم
ذنبا فاذكروا عز الله وحكمته وفي العلم بعزه علم بقدرته على عقاب المذنب
وفي العلم بحكمته علم بانه لا يظلم في معاقبته احد وفي العلم بهذين انزجار
عن ارتكاب الذنب **قوله** عز وجل هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل
من الغمام والملائكة وقضي الامر والى الله ترجع الامور قد تصور بعض
الناس ما لا يليق بصفات الله تعالى في لفظ المجيء والاتيان الذي جاء
في وصف الله تعالى في هذه الآية وامثاله وفي قوله هل ينظرون الا ان يأتيهم الملائكة
او يأتي ربك وقوله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقوله فاتى الله بنيانهم

وقوله وجاء ربك وذلك لامرين احدهما قصورهم عن معرفة الله تعالى والثاني
لضيق مجالهم في مجاري الالفاظ ومعاريها وليس يقال الاتيان والمجي لانتقال
الحي المتحرك من مكان الى مكان فقط بل قد يقال للقصد القاصد بعناية امر
المصلحة كقولهم اتيت المروة من بابها ويقال ايضا لاستيفاء فعل يتولاه
كقولك اتيت على ما في الكتاب وقد يقال ايضا لفعل يفعله على يد من يستكفيه
كقولك اتى الامير بلد كذا بجند عظيم ومنه قوله تعالى فلنأتينهم بجنود
لا قبل لهم ولما جرت العادة ان الرئيس يتولى الامر بمن يستكفيه تارة
وبنفسه تارة وان لا يتولى بنفسه الا ما كان اكبر واعظم فلما اراد الله تعالى
ان يبين العذاب الذي لا غاية وراءه من الصعوبة جعله منسوبا الى نفسه
باتيانه له وعلى هذا النحو جعل كل ما يستعظم فعلا له نحو خلق ادم بيده
وقوله وقدمنا الى ما عملوا ووجه اخر قد اشير اليه في صدر الكتاب وهو ان الفعل
كما ينسب الى المباشر له ينسب الى ما هو سببه ومسهله نحو ان يقال الرحمن
علمنا القران والنبي علمنا الكتاب وانما علمنا من علم النبي والنبي علمه جبريل
والله تعالى علم جبريل فصح ان ينسب فعل واحد تارة الى الله تعالى وتارة الى غيره
نحو قوله قل يتوفاكم ملك الموت وفي موضع اخر الله يتوفى الانفس فان قيل
هل يجوز على هذا القياس مسمى لله اذا سمي ببعض عبيده قيل انما جوزنا ضرب
استعمال ما استعمل فيه تعالى لورود السمع به ولولا ذلك لذهبنا عن كل
وصف يطلق على البشر مما يقتضي تشبيها تفاديا من وهم فاسد فيه وقوله
في ظلل جمع ظلة يقال ظلة وظلل وظلال كما يقال حلة وحلل وحلال
والاشارة بها الى امطار عذاب كما اهلك به قوم عاد المذكور في قوله
هذا عارض ممطرنا او الى عذاب الاخرة كما قال هل ينظرون الا صيحة واحدة
ونبه بقوله هل ينظرون على وعيد شديد وقوله وقضي الامر اي فصل بينها
انه حينئذ لا يبقى ما في العارض واكد ذلك بقوله والى الله ترجع الامور
اي ما الله ملكه عباده في الدنيا من الملك والملك والتصرف مسترد منهم يوم القيمة
وراجع اليه يقال رجع الامر الى الامير اي استرد ما كان فوضه اليهم قبل

عنى

١٦٠

عنى بالامور الارواح والنفوس دون الاجسام وسماها امورا من حيث انها
ابداعات منشأ اليها بقوله الا له الخلق والامر قال ولهذا لما سئل عن الروح
قال قل الروح من امر ربي اي هو من الابداع الذي لا يمكن من البشر تصوره
فنبه ان الارواح كلها مرجوعة اليه وراجعة كما قال تعالى يتوفى الانفس على
نحو ذلك قال كما بدأكم تعودون ويكون رجوعها اما بريح وغبطة واما
بندامة وحيرة اي مساعها النشأة الاخرة على ما قصاه قوله عز وجل سل بني
اسرائيل كم اتيناهم من اية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته
فان الله شديد العقاب نبه بلفظة كم على ما اتيتهم من البينات
ودل بقوله ومن يبدل نعمة الله على اصحاب بدلوا وعلى ان هذا الحكم ليس
مقصورا عليهم بل هو عام فيهم وفي غيرهم ودل بقوله نعمة الله ان الايات
من جملة نعمه بل هي من اعظم النعم وبقوله من بعد ما جاءته على نحو ما دل عليه
قوله من بعد ما جاءتكم البينات وقد تقدم الكلام اساهم امان نعم فقد رعاها
ومن يبدل نعمة الله بعد اختصاصه بها عاقبه الله عقابا شديدا وانه شديد
العقاب فاذن بعقاب بني اسرائيل ومن فعل فعلهم فانه يعاقبهم كما عاقبهم
قوله عز وجل زين للذين كفروا الحيوة الدنيا ويسخرون من الذين امنوا والذين
اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب التزيين
الحقيقي المدرك بالحس دون المدرك بالعقل فهذا جاء في اوصاف
الدنيا دون اوصاف الاخرة نحو زين للناس حب الشهوات واختلف في هل
التزيين فمنهم من قال نبه بقوله ان الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا ومنهم
من قال الشيطان زين لهم لقوله وزين لهم الشيطان وروي عن الحسن الشيطان
زينها ولا يعلم احد اذم لها من خالقها او صفها بانها متاع قليل وانها
متاع الغرور وجمع بعض الملحدة بين هذه الاية واخواتها وزعم ان ذلك
من الايات المتناقضة في القران لانه قال اخرى وزين لهم الشيطان فقال الشيطان
سول لهم وقال في اية اخرى زينا لكل امة عملهم فنسبه الى نفسه وتارة
ذكر انه قيض لهم من زينها لهم وذلك قوله وقيضنا لهم وما ادعاه لا يخفى

على ذى بصيرة لكن بيانه يحتاج الى مقدمة فنقول ان الله عز وجل خلق
الانسان وجعل له سبيلا الى بقائه بشخصه زمانا ما وبنوعه مدة ما وركب
فيه شهوة تسوقه الى الغذاء والجماع الذين بهما بقاء الناس فهذا زين الله
عز وجل وامره باستعماله بحسب ما امر الشريعة فيما يؤدى به الى سعادته فى
الاخرة على ما سعى وبقدر ما سعى ومن عسفها بامراط البحود الشيطان عليه
ما عاره عن قبح المستقبح منه وذلك قوله تعالى فزين لهم الشيطان اعمالهم
واما قوله زينا لكل امة عملهم وقوله وزينا لهم اعمالهم فالتزيين فى الاية
يحتمل وجهين احدهما ان الذى زينه هو المشروع لهم والثانى ان الذى
زينه هو الشهوة لكن على ان ياخذ بقدر ما يجب لا ان يجعلها مقصد
ووجه اخر فى الاية وهو ان الحيوة حياتان حيوة ذاتية وهى الحيوة الدنيا
ودنائتها لما وصفها الله تعالى بقوله اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة
الى قوله ثم يكون حطاما وحيوة ثانية حيوة سنية وهى الموصوفة بقوله تعالى
وان الدار الاخرة لهى الحيوان والثانية لا يعرفها الا الذين اتقوا فاما الذين كفروا
فلا يعرفون الا الحيوة الدنيا ويجحدون الاخرة ويسخرون من الذين امنوا
فبين تعالى انهم وان سخروا من الذين امنوا فالذين امنوا فوقهم ومعنى
فوقهم قيل هو كقوله اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وذلك يحتمل وجهين
احدهما ان حال المؤمنين فى الاخرة اعلى من حال الكفار فى الدنيا والثانى ان
المؤمنين فى الاخرة هم فى الغرفات والكفار فى الدرك الاسفل من النار
وقوله والله يرزق من يشاء بغير حساب اى يعطى ما يستحق بلا افراط والتفريط
واعطاه بغير حساب اذا اعطاه اكثر مما يستحق او اقل مما يستحق والاول هو المقصود
وهو المشار اليه بالاحسان وقد فسر ذلك على اوجه لاحتمال اللفظ واياها
الاول يعطيه عطاء لا يحق بحصر العباد كقول الشاعر ◦ عطاياه يحصى
قبل احصائها القطر ◦ الثانى يعطيه اكثر مما يستحقها الثالث يعطيه ولا منة
الرابع يعطيه بلا مضايقة من قولهم حاسبه الخامس يعطيه اكثر مما يحسبه
اى يكفيه وكل هذه الوجوه يحتمل ان يكون فى الدنيا ويحتمل ان يكون فى الاخرة

السادس

السادس ان ذلك اشارة الى توسيعه على الكفار والفساق الذين قال فيهم
ولولا ان يكون الناس امة واحدة الاية تنبيها ان لا فضيلة فى المال وان الزام لمن
توسع عليه ما لم يستعن به فى الوصول الى المطلوب منه ولهذا قال الحسن
انما تدهم الاية ولهذا قال امير المؤمنين من وسع عليه ولم يعلم انه يلزمه ذلك
فقد خدع عن عقله السابع يعطى اولياءه بلا تبعة ولا حساب عليهم فيما يعطيهم
وذلك ان المؤمن لا ياخذ من عرض الدنيا الا ما يجب من حيث يجب على الوجه
الذى يجب ولا ينفقه الا على ذلك فهو يحاسب نفسه فلا يحاسب ولهذا
روى من حاسب نفسه فى الدنيا امن الحساب فى الاخرة وعلى هذا قال تعالى
لسليمن هذا عطاؤنا فامنن الاية الثامن ان الله عز وجل يعامل فى العقبى
المؤمنين لا بقدر استحقاقهم بل باكثر منه كما قال من ذا الذى يقرض الله الاية
التاسع وهو يقارب ذلك ان ذلك اشارة الى ما يوفى اهل الجنة اجرا عليهم
وعلى ذلك قوله تعالى فيها ما تشتهى الانفس الاية وقوله يدخلون الجنة يرزقون
الاية واما تعلقه بما تقدم فعلى بعض هذه التفاسير يتعلق بالذين كفروا وعلى بعضه
يتعلق بالذين امنوا قوله عز وجل كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين
مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا
فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم
فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط
مستقيم ابن عباس وابى والسدى كانوا امة واحدة فى الاديان وقال غيرهم
هم فى الكفر وهذا الاختلاف لاختلاف نظرين لا بد فيهما من مقدمة ينكشف
بها وجه الخلاف وتحقيق التاويل وهى ان الله عز وجل فطر الناس فطرة وركبهم
روية يعرف بها بعض الاشياء اضطرارا وامكنه ان يعرف البعض اكتسابا
وحث اليه ما لم يفسد الحق من الاعتقاد دون الباطل والجميل من الفعال دون
القبيح والصدق من المقال دون الكذب والى ذلك اشار بقوله تعالى فطرة الله
التى فطر الناس عليها وبقوله صبغة الله وبقوله واذ اخذ ربك من بنى ادم
الاية وبقول النبى كل مولود يولد على الفطرة ولم يحلم فى وقت من بنى

يستخرج عقولهم ويعرفهم ما لا سبيل لهم الى معرفته من دونه وكان كلما اختل
احوالهم بعد خروج نبيهم من بينهم اما ان يقيض لهم من يجدد عليهم سنن نبيهم
السالفة او يبعث اليهم نبيا يأتيهم بشرعه مستأنفا بعد وهذا كان قوله
الى ان انتهى الامر الى ما شاكله الآن فمن قال كانوا امة في الايمان فنظر منه الى المبدأ
وحال الفطرة وما كانوا عليه قبل ان افسدوا ومن قال كانوا امة واحدة في الكفر
فنظر منه الى حين فسادهم كما بين بعثة نوح وبعثة ابرهيم وكل واحد من القولين
صحيح بنظر ونظر فقد كانوا امة واحدة في الايمان طورا وامة واحدة في الكفر طورا
وقد قيل لا يخلو الارض من حجة الله قيل ان من كان حجة الله في مثل ذلك الزمان
في حكم الاعتداد به من كونهم امر لعلة الاصغاء اليه وبين تعالى انه بعث انبياء
مبشرين للمحسنين ومنذرين للمسيئين ولم يخل احدا من انبيائه من كتاب
يرشدهم ويسددهم ان قيل اليس قد علم لم ينزل الكتاب من النبيين الا على جماعة
منهم قيل ان الله تعالى لم يخل احدا من الانبياء من كتاب اما كتاب خص به هو
واما كتاب من كان قبله امر بالاعتماد اليه كالاسباط الذين كانوا انبياء
وكتابهم كان التورية وعطف قوله فهدى الله الذين امنوا على قوله وانزل
معهم وفصل بينهما بذكر اختلافهم وانهم لم يختلفوا الا من بعد ما جاءتهم البينات
ذما للمختلفين فان من شأن البينات ان ترفع الخلاف وعلى هذا قوله ولقد بوأنا
بني اسرائيل مبوأ صدق الاية وبين سبب اختلافهم بقوله بغيا بينهم تنبيها
ان ذلك كان لطلبهم زخرف الدنيا ومنازلها في المعتبرين من جعل قوله للذين
اوتوا الكتاب مخصوصا في بني اسرائيل والذين امنوا في هذه الاية كقوله ولا تكونوا
كالذين تفرقوا وقوله عليه السلام هدانا الله لما اختلفوا فيه منهم من جملة ما في جميع
الامم وقوله بالحق اي بما يستحق من الثواب والعقاب وقيل بالامر والنهي وكلاهما
مرادان فالكتاب يشتمل على ذلك كله وقوله باذنه اي بعلمه وقيل بامره وقيل باللطف
والاذن لما يسمع ويعبر به عن العلم اذ هو مبدأ العلم فينا ان قيل كيف قال تعالى
والله يهدي من يشاء وذلك يقتضي انه يهدي بعضهم دون بعض وجوده وكرمه
يقتضي ان يعم بالهداية قيل انه عمهم به من حيث اباحتهم وتبصره لكن لم يهتد به الكل

بان

بان هدايته لا يدركها من لا يحدق ببصيرته ويشحذ فهمه ليعرفه فيهتدي به
وقد قال بعض الصالحين ما اكثر الهدى واقل من يرى الا ترى نجوم السماء ما اكثرها
ولا يهتدي بها الا العلماء بها **قوله** عز وجل ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما
يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى
يقول الرسول والذين امنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب الزلزلة
شدة الحركة واصلها زل وزيادة المعنى زيد لفظه وعلى هذا دك ودكدك
وما اشبهه من المضاعف مع الحرف المكرر وبين تعالى انه لا سبيل للناس
كافة الى الجنة الا بتحمل المشاق ولهذا قال عليه السلام حفت الجنة بالمكاره
وحفت النار بالشهوات فخاطب هذه الامة بانه محال ان يرجو تحصيل
الجنة الا بما جرى به حكم الله في الذين سلفوا وهو ان ينالكم البأساء اي الفقر
والضراء اي المصائب والزلزلة اي المخاوف وبذلك اثنى على المؤمنين فقال
والصابرين في البأساء والضراء الاية وليس في الامور الالهية فقط بل في عامة
الملاذ ولا سبيل الى منحة الا بمحنة ولا الى لذة الا بمشقة ولهذا قيل
ولا بد دون الشهد من ابر النحل وقوله وزلزلوا حتى يقول الرسول قيل
معناه حتى يقول الرسول والمؤمنون متى نصر الله على سبيل الاستبطاء ثم
تداركوا وعادوا الى معرفتهم فقالوا الا ان نصر الله قريب وليس ذلك
على سبيل التضجر بل على سبيل الدعاء والتضرع فيكون قوله الا ان نصر الله قريب
جمع من قولهم كقولك قال زيد وعمرو كذا وكذا الشيئين احدهما قاله زيد
والاخر قاله عمرو وقرئ حتى يقول بالرفع والنصب ولكل واحد وجهان
فاحد وجهي النصب معناه احاد والثاني معناه كي يقول واحد
وجهي الرفع ان يكون الفعلان ماضيين نحو مشيت حتى ادخل البصرة
اي مشيت فدخلت والثاني ان يكون ما بعد حتى لم يمض نحو مرض حتى
لا يرجونه **قوله** عز وجل يسئلونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير
فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا
من خير فان الله به عليم لما اثنى عز وجل في غير موضع على المنفقين وحث

على الانفاق نحو قوله وممارزقناهم ينفقون وقوله وانفقوا مما رزقناكم
سألوا عنه ههنا ان قيل ليس جوابهم طبقا لسؤالهم فان سؤالهم عما ينفق
والجواب عمن ينفق عليه قيل في ذلك جوابان احدهما انهم سألوا عنهما
وقالوا ما ينفق وعلى من ينفق ولكن حذف في حكاية السؤال احدهما ايجازا
ودل عليه بالجواب بقوله ما انفقتم من خير كانه قيل المنفق والخير والمنفق
عليهم هؤلاء فلفف احد الجوابين في الآخر وهذا طريق معروف في البلاغة
والجواب الثاني ان السؤال ضربان سؤال جدل وحقه ان يطابقه جوابه
لا زائدا عليه ولا ناقصا عنه وسؤال تعلم وحق المعلم ان يصير فيه كالطبيب
رفيق يتحرى شفاء سقيم فيطلب ما يشفيه طلبه المريض او لم يطلبه فلما كان
حاجتهم الى ما ينفق عليه المال كحاجتهم الى ما ينفق من المال بين لهم الامرين
جميعا ان قيل كيف خص هؤلاء النفر دون غيرهم قيل انما ذكر من ذكر
على سبيل المثال لمن ينفق عليهم لا على سبيل الحصر والاستيعاب اذ اصناف
المنفق عليهم على ما قد ذكر في غير هذا الموضع ولما كان المندوب الى الانفاق
عليهم صنفين صنف لهم فرض معين في مال الاغنياء وصنف لا فرض لهم
معينا ذكر الابوين والاقربين تنبيها ان حقهم واجب وقوله من خير
اي من مال فسمى المال خيرا ههنا تنبيها ان الذي يجوز انفاقه هو المال الذي
يقتنا وله اسم الخير كما قال ان ترك خيرا ثم بين تعالى ان كل ما يفعلونه
لا يخفى عليه على الوجه الذي يفعلونه نحو قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا
يره الآية **قوله** عز وجل كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا
شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون
الكره في الانسان يستعمل على ضربين احدهما ما يعاف من حيث الطبع
والثاني ما يعاف من حيث العقل وان مال اليه الطبع ولهذا يصح ان يوصف
الشيء بانه مراد مكروه والكره والكره قيل هما واحد في معنى الضعف
وقيل بل الكره المشقة التي يحمل عليها الانسان باكراه والكره ما يتحمله
بلا اكراه من غيره وقيل للحرب كريهة وعسى طمع واشفاق وقد يجرى

يجرى

مجرى لعل ويقال هو عسى بكذا اي جدير واعسى به وسمي الابل التي لا لبن لها
وفيها طمع المعساب من حيث انه يقال عسى ان يكون بها لبن والقتال
المكتوب من حيث الظاهر مجاهدة الكفار وقيل عني بذلك مجاهدة النفس
الى الشهوة وهي التي سماها النبي الجهاد الاكبر ونبه بقوله عسى ان تكرهوا
شيئا باللطف وجه على ما كتب عليهم من القتال خير لهم بأوضح الادلة وبين
انه اذا جاز ان يكون منهم كراهية لامر وفيه الخير فيجوز ان يكون اكراههم
لما كتب عليكم من القتال كذلك واذا جاز ان يحبوا شيئا وهو شر لكم فيجوز
ان يكون محبتكم لما اجتنبتم شرا ثم نبه ان هذا الجائز كونه عندكم هو واجب
كونه في نفسه بقوله والله يعلم وانتم لا تعلمون اي اذا كان الله عز وجل يعلم وانتم
لا تعلمون وقد قضى بان ذلك خير وانما قضى به لانه خير واذا كان خيرا فيجب
ان تحبوه ولا تكرهوه فالخير يجب ارادته والشر يجب كراهته على نحو
ذلك قوله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا واياه قصد
الشاعر • نضى الله في بعض المكاره للفتى • برشد وفي بعض الهوى ما يحاذر
قوله عز وجل يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله
وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد
منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة
واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون الصد ناحية الشعب والوادي
المانع للسالك وصده عن كذا كانما جعل بينه وبينه صدا يمنعه
والصديد ما حال بين الجلد واللحم من القيح والدم وقد تقدم ان زال
وزال يتقاربان لكن كان لزوال معناه للنفي ضم اليه ما النافية فصارا
معا للاثبات ولهذا لا يصح ان يقال ما زال زيد الا خارجا كما يقال ما كان
الا خارجا والحبط فساد يلحق الماشية في بطونها من اكل الكلأ واستعير
لفساد العمل والسائل عن ذلك قيل اهل الشرك قصدا الى تعيير المسلمين لما تجاوزوا
من القتل في الشهر الحرام وقيل هم اهل الاسلام ان قيل ما فائدة ذكر الشهر

ثم ابدال القتال منه ولم لم يقل يسألونك عن قتال الشهر لكان يصح ان تعود
الفرض السوال عن القتال لا لتعظيم الشهر بل لشئ اخر وعلى هذا اذا قيل سرق
زيد ثوبه منه ان المقصد ان يذكر حال زيد لا ان يخبر بسرقة ثوب ما ان قيل
لم لم يقل القتال فيه كبير وشرط النكرة المذكورة اذا اعيد ذكرها ان يعاد معرفا
نحو سألتني عن رجل والرجل كذا وكذا قيل في ذكره منكرا تنبيه ان ليس كل القتال
في الشهر الحرام هذا حكمه فان قتال النبي لاهل مكة لم يكن هذا حكمه فقد قال
احلت لي ساعة من النهار ولم يحل لاحد قبلي وقوله والمسجد الحرام معطوف
على قوله عن الشهر الحرام فاعلم تعالى ان بعض القتل فيه كبير وصد عن سبيل الله
تنبيها انه على الوجه الذي يفعله الكفار وصد عن سبيل الله اي عن دينه
وعن نبيه واكبر منه عند الله اعظم اخراج اهل المسجد يعني النبي والمؤمنين
الذين هم اولياؤه وعلى ذلك دل بقوله لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون
الآية ثم بين ان النبي وامته هم اولياؤه بقوله الا المتقون وفي ذلك
تنبيه ان قتال المسلمين وقتلهم فيه ليس بكبير ولا صد عن سبيل الله
وبين ان الفتنة اكبر من القتل وقد تقدم الكلام فيه وانذرهم انهم لا
اعداؤكم وانهم يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ونبه
بقوله ان استطاعوا انهم لا يردونكم عن دينكم لانهم لا يستطيعون وذلك
نحو قوله ولن ترضى عنك اليهود الآية وعقب ذلك بوعيد من يرتد
فيموت على حالته وان اعماله المتقدمة المعمولة في سبب الدنيا والاخرة يبطل
ويضمحل كما قال وقدمنا الى ما عملوا قوله عز وجل ان الذين امنوا والذين
هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم
الهجر مفارقة الانسان غيره اما بالبدن واللسان واما بالقلب والهاجرة
الساعة التي تمنع عن السير كانها هجرت الناس بحرها والهجار حبل يشد
به الفحل فيصير سببا لهجرانه وجعل بناؤه على بناء الادوات كالعقال والزمام
والهجر الكلام المهجور لقبحه وقيل هجر فلان اذا هذى على قصد واهجر المريض
اذا هذى عن غير قصد والجهد تحمل المشقة ومجاهدة العدو مقاومته

ببذل

ببذل الجهد وجهدت اي واجتهدته ما يعسه بالفكر والنظر والرجا الوقوف
على رجا الامل اي ناحيته ما يرد بين الامل والناس لما بين تعالى وجوب
المقابلة ونهى عن صنع الشهر الحرام والمسجد الحرام وعن تهييج
الفتنة فيهما نبه على فضل من هاجر وجاهد في سبيل الله محافظة على
ذلك فمن المفسرين من حمل المهاجرة على مهاجرة الاهل والوطن
لهجرة النبي عليه السلام واصحابه والمجاهدة على الغزو ومنهم
من قال عني مع ذلك هجران الشهوات ومجاهدة الهوى كما روي
عنه جاهدوا اهواءكم كما تجاهدون اعداءكم وقوله رجعتم من الجهاد
الاصغر الى الجهاد الاكبر وقال في حجة الوداع المجاهد من جاهد نفسه
في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا وهذه المنازل الثلاث التي هي
الايمان والمهاجرة والجهاد هي المعنية بقوله يا ايها الذين امنوا اتقوا الله
وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا ولا سبيل الى المهاجرة الا بعد الايمان ولا الى
الجهاد في سبيله الا بعد هجران الشهوات ومن يوصل الى ذلك يحق ان
يرجو رحمته ان قيل الانسان راج لرحمة الله وان لم يبلغ هذه المنازل
قيل ان الذي سميته رجا لم يبلغ هذه المنازل فهو تمني على الله المعنى
بقوله عليه السلام العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الاماني
او رجا التفصيل غير مستحق وما ذكره الله ههنا هو الرجاء المستحق الذي
وصف به المؤمن في نحو قوله ويرجون رحمته ان قيل لم ذكر المؤمنين
رجا الرحمة وهي لهم لا محالة قيل المؤمن وان بذل الجهد في طاعة الله
تعالى فواجب ان يكون بين النظر نظرا الى سعة رحمة الله ونظرا الى ما عسى
ان يقع او وقع قوله عز وجل يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما
اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما ويسألونك ماذا
ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون
في الدنيا والاخرة الخمر ستر الشئ ويقال لما يستتر به خمار لكن
صار في التعارف لما تغطي به المراة رأسها واختمرت المراة وتخمرت

وخمرت الاناء غطيته وكذلك خمرت العجين وسميت الخميرة لكونها
مخمورة ودخل في خمار الناس اى جماعتهم يسترونه والخمار المورث
من الخمر جعل ساوه ما الادواء ونحو الكساد والصداع وحامر الحرب
اذا استوى عليه سرمهمه وذكره ونحوه سمى غما واصله من الستر
ومن الناس من جعل الخمر اسما لكل مسكر ومنهم من جعله اسما للمتخذ
من التمر والعنب لقوله الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والكرمة
ومنهم من جعله اسما لغير المطبوخ ثم كمية الطبخ الذى يسقط
اسم الخمر منه مختلف فيها والميسر الة اليسر اى الضرب بالقداح ويقال
للضارب به ياسر وسمى الجازر ولذلك الجزور ياسرا واشار الله بقوله تنبيها
واصله من اليسر وهو ضد العسر وسمى الغنى يسرا وسمى ذلك يسرا لاعتقادهم
انه غنى للفقير واشار الله بقوله اثمهما اكبر من نفعهما الى تحريمه اشارة
لطيفة يحتاج في كشفهما الى مقدمة وهى ان النفع ضربان
دينى ودنيوى والدنيوى ضربان نفع ضرورى فالضرورى كالاكل
والجماع الذين لو توهما هما تعفين لارتفع بارتفاع الجماع نوع الحيوان
وبارتفاع الاكل اشخاص الحيوان ونفع غير ضرورى كالتبقل بعد الاكل
وترك التخلل والخمر نفعها دنيوى غير ان نفعها تقوية الابدان
المسنة وهضم طعام ومعاونة على الباه وزيادة في الرطوبة والحرارة
الغريزتين وليس ذلك بضرورى ولا متحقق النفع وفيهما اثم متحقق
او مظنون والعقل يقتضى ان يتحاشى من التزام الاثم المظنون
للنفع المتحقق الذى ليس بضرورى فكيف من المظنون ومن هذا الوجه
صار الخمر فيما بين الامم المتقدمة مترددة بين حمد وذم واباحة وحظر
وتركها عامة ذوى العقول الراجحة ولما اراد الله تحريم الخمر على الناس
لما راى في ذلك من المصلحة وعلم من غرتهم عليها ان تحريمها منهم اذا ردع
عما الفوه واستحسنوه لايكاد يرتدع ابتداء بصح الشك في نفوسهم ولكونه
منافيا لذكر الله وعبادته فقال ولا تقربوا الصلوة وانتم سكارى

ونفع غير ضرورى صح

التى غرتهم صح

الاية

الاية فالا رسخ ذلك في نفوسهم انزل قوله قل فيهما اثم كبير وكان
في هذا اشارة لايعرفها الاذوى العقول الراجحة فلما قوى ذلك في
نفوسهم قال انما الخمر والميسر الى قوله فهل انتم منتهون وعلى قريب
من هذا الكلام في الميسر لكن كان امره اخف ومن الناس من جعل
كل ما فيه حظر ومقارعة ميسرا ومنهم من قاس عليه وقد روى من لعب
بالنرد فقد عصى الله ورسوله وقرئ اثم كبير وكثير فكبير بقوله
ان تجتنبوا كبائر وبقوله ان الشرك لظلم عظيم وكثير بتلاد زمان
ولان حلهم قرا اكبر من نفعهما ومن قرا اكثر فنظر منه الى ماروى عن النبى
عليه السلم في صفة الخمر ومشتريها وبايعها لعن الله عشرة شارب
الخمر وعاصرها والمعتصر وحاملها والمحمول اليه وساقيها وشاربها واكل
ثمنها وقوله ويسئلونك ماذا ينفقون ان قيل كيف اعيد السوال
عما ينفقون وجواب بين الجوابين قيل اما الاول فسوال عن الشئ
الذى ينفق وعن من ينفق عليه فبين لهم القدر واما السوال ههنا
فعن القدر المنفق فبين ان الذى ينفق والعفو وقال ابن عباس
هو الفضل عن الغنى وهو الذى قال النبى عم اذا انت اعطيت
الغنى ثم لم تجد بفضل الغنى العسب مالك حامد قال الحسن وعطا
هو الفضل الذى لا اسرف فيه ولا اقتار وقال مجاهد هو الصدقة
المفروضة وكل مراد بان اهل ما نطب نفس المسلم هو الصدقة الواجبة
ومن لم نطب نفسه فليس بتمام الايمان ثم فيهم من نطب نفسه بكل
ماله مثل ابى بكر فاذن العفو مساو لما هو واجب ولما هو متبرع
وقرئ العفو بالرفع والنصب وذلك التقدير مختلفين فاذا اما يع
يقدر تقدير اسم واحد فيكون مفعول ينفقون حتى انه المطابع
له بالنصب وتارة يقدر تقدير اسمين مبتدا وخبر فيكون حق انه
المطابق له رفعا اى هو العفو وقوله كذلك يبين الله لكم الايات
فيه حث على تجنب الخمر والميسر وتنبيه على تحريمهما فان في السكر في الدنيا

مطلب

والاخرة معرفتهما ومعرفة منافعهما وان النفع القليل في الدنيا لاحد
ان لسرى بكثير الاثم في الاخرة قوله عز وجل ويسئلونك عن اليتامى
قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من
المصلح ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم الخلط الجمع بين اجزا الشيئين
سوا كانا مائعين او غير مائعين فهو اعم من المزج ويقال للصديق
الخليط وهو دون الخليل والخلاط والخالط الجوف وانه يعرى
الصل والتخليط ان تخلط بالامر ما يفسده والاعنات من عنت
العظم عنتا اصابه وهي اوكسر وقد اعنته وكل ما لو يهم او يشق عنت ولما
اكثر الله تعالى التحذير من مال اليتيم في نحو قوله ولا تقربوا مال اليتيم وقوله
ان الذين يأكلون اموال اليتامى وقوله واتوا اليتامى تحرجوا عن تناول
ماله ومخالطته فبين تعالى ان حق الانسان ان يتحرى الصلاح له
وان لا حرج في مخالطته اي مجاهرته وسائر انواع المخالطة وبين انه اخوهم
وذلك اشارة الى نحو قوله انما المؤمنون اخوة وقوله بعضكم من بعض ونبه
وبقوله والله يعلم المفسد من المصلح ان الله تعالى لا يخفى عليه مقاصد
الانسان فيما يفعله معهم وبين بقوله ولو شاء الله لاعنتكم انه لم يقصد اعناتنا
فيما اوصاهم به في هذه الايات المختلفة قوله عز وجل ولا تنكحوا المشركات
حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين
حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم اولئك يدعون
الى النار والله يدعوا الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين اياته للناس
لعلهم يتذكرون النكاح اسم للعقد واسم للجماع بدلالة ان عامة
اسما الجماع كنايات وانهم يتحاشون من التصريح بذكر الجماع والالة
كما يتحاشون من اظهاره حتى سموا ذلك العضو السوءة ولم يستعيروا
اسم الجماع والالة فيما يقصدون به سبعة نحو سوء اذا احله وجعل تحت
كانه ابدى سوءان والسوار مع ذلك كناية الفرج ولهذا يعلم ان النكاح
في اللغة مستعار للجماع والنهي عن نكاح المشركات عام فيمن ليس من اهل

الكتاب ولم يدخل في ذلك اهل الكتاب لقوله والمحصنات من الذين
اوتوا الكتاب فان قيل فقد قال تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله
الاية والنكاح يجلب المودة لقوله خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا
الاية فعدها باعن مودتهم فيجب ان لا يواصلهن قيل المودة المنهي
عنها هي الدينية لا المودة النفعية الشهوية فانا اذا اوددناهم لنفع ما
فانما نود النفع كمودتنا الذي يعيننا على مدافعة المشركين وقوله يوادون
من حاد الله عني به المودة الدينية فان قيل ما قلت ما المقتضي ان يجوز
نكاح المشركات قيل المشرك ما دام مشركا فنفسه مباحة والمشركة
غير مالكة لنفسها وفي قوله ولعبد مؤمن خير اشارة مجملة الى فضل
العبد المؤمن على الحر المشرك وبيان قصا تحتاج الى مقدمة وهو ان
الشيئين اذا كل الا انما اقصد احدث كل واحد منهما مع ضد الاخر انما هو
المؤثر تحكمت له مثالا ان من شك في الغنى والعلم انهما افضل لقول انظر بل
الغنى مع الجهل افضل ام الفقر مع العلم فاذا علمت ان الفقر مع العلم افضل
من الجهل مع الغنى علمت ان العلم افضل من الغنى فاذا ثبت ذلك فالعبد
هو الذي ملكت منافعه مدة وتعاقب واما فاذا علمنا ان الاول خير علمنا
ان العبد المؤمن خير من الحر المشرك ونبه بقوله ولو اعجبكم ان الاعتبار
باعجابكم ونبه عز وجل على تحريم من مواصلة المشركين بقوله اولئك يدعون
الى النار اي الافعال الموجبة للنار ووجب اجتناب الداعي الى النار الحامل
عليها فوجب مجانبتهم اذن وعلى هذا قال عليه السلام لا ترا اي نارا اسما
انتم قال والله يدعوا الى الجنة والداعي الى الجنة واجب اتباعه وعلى
هذا دل قوله حكاية عمن اخبر قال ادعوكم الى النجاه وتدعونني الى وباذنه
اي بعلمه وامره وايام حجج ودلائله العقلية والشرعية وبين انكم اذا فعلتم
ذلك فانتم اهل الرجا وحقيقة التذكر الاستدراك عن نسيان او غفلة
لما اشتبه القلب ان قيل الى اي شيء اشار بهذا التذكر قيل ان الله عز وجل
ذكر فيما بالفطرة معرفة الاية والانسان باسعاده العلم يتذكر ما ذكر فيه
ومعرفته

فهذا معنى التذكر وقال قدم معرفة الله عزوجل ومعرفة الالاء بذكر
من رفع عن قلبه الاعتبه بذكر ما قال الله او دل عليه بقوله واذ اخذ
ربك من بني ادم من ظهورهم قالوا وقد عرفنا الطريق الذي يتوصل
الى هذا التذكر بقوله ان الله يامر بالعدل لعلكم تذكرون فبين انكم
اذا فعلتم ذلك رجوتم بذكر هذا الحالة وقد قيل الرجاء من الله واجب
بمعنى انه اذا رجانا حقق رجانا وهذا مسئلة لا يمكن تصورها ان لم يبلغها
بتعاطي هذه الافعال التي شرطها الله فلذلك لعلها صعب دركها لنا

قوله عزوجل ويسئلونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء
في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث
امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين المحيض وقت
الحيض وموضعه فقد قيل تعالى للحيض محيض على ان المصدر في هذا الباب
يجيء على مفعل نحو معاش ومعاد وقول الشاعر لا يستطيع بها القراد
مقيلا فالاظهر انه مكان وان كان قيل هو مصدر وقيل ما في بر لا مكان
ولا مكل اي كيله وهو ايضا محتمل والحيض هو الدم الخارج من الرحم على وجه
مخصوص في وقت مخصوص ويتعلق به منع الصلوة والصوم وحظر الجماع
وانقضاء العدة واجتناب دخول المسجد ومس المصحف وقراءة القران والاعتبار
المراة به في الاستبراء واشكل بعده والاعتزال العدول عن الشيء واصله من العزل
وهو صرف العامل عن عمله ومنه قيل لا عزل العازل عن الحرب لعدم
السلاح وللدابة المائل والغزل فانيث الاعزل وسمي الماء اذا فتح من
فتح سلاحه والسماك الاعزل سمي بذلك لاستعارة الكوكب الذي تصوره
تصوره الرمح والاذى اسم لما ينال النفس من مكروه ولهذا سمي تعالى
الكلام المكروه اذى فقال ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب الاية
وما ينال الانسان من مكروه المطر اذى في قوله ان كان بكم اذى
من مطر ولما كان الناس في مجامعة المراة في حال الحيض من افراط
وتفريط فان اليهود كانوا اذا حاضت المراة لم يؤاكلوها ولم يجامعوها

دبها هه

للسماك الرامح صه

معها في البيوت وبعض النصارى لم يتحاش من مجامعتها فسئل
عليه السلام فقال هو اذى بينها ان العقل يقتضي تجنبه كانه
قيل الحيض اذى وكل اذى متحاش منه ولما كان الانسان
قد يحتمل الاذى ولا يراه محرما صرح بتحريمه بقوله فاعتزلوا النساء
ان قيل فاي اذى هو قيل اما باعتبار مجرد الشرع فاثم واما
بالاعتبار الطبي فان الدم الذي يخرجه يفسد البدن الذي منه
الحيوان ويكون له بخار ان مرضة لا بدان ان مسها ولما كان
الاعتزال قولا مشتركا ويكنى به عن العدول عنها عند الفراغ وعن
مجانبة ذلك الموضع وعن مجانستها راسا قال ولا تقربوهن ابدل
باللفظين الكنايتين على مجانسة مباضعتها وعلى جواز التمتع بها فيما دون
الفرج المدلول عليه بقوله اصنعوا كل شيء الا الجماع ولما كان لفظ
يطهرن يقال فيما كان طاهرا بنفسه وفيما كان يتطهر به بقوله فاذا
تطهرن انه لم يرد الا الطهارة عن تطهر ويؤكد ذلك قراءة من قرأ
حتى يطهرن فدل بذلك على ان لا يصح وطيها ما لم تغتسل وقوله فاذا
تطهرن دل على ان ذلك شرط في اباحتها وان لا يصح وطئها بانقطاع
دمها وقوله فاتوهن من حيث امركم الله اشارة الى مراعاة كل ما
امر به من احكام النكاح ومجانبة المحارمين وغير ذلك من الامور التي
امر بها ثم قال ان الله يحب التوابين تنبيها ان من كان منه شيء من ذلك
نحو عليه ان يتوب ويتطهر من بعد والتطهر عام في استعمال الماء وتطهر
القلوب من الذنوب والتوبة اجتناب الذنب والتطهر عمل الصالحات
وجعل التوبة مقدما على التطهر تنبيها ان اجتناب القاذورات
مدرج الى فعل الخيرات وعظم امر المتطهرين حيث جعلهم محبوبة
وروى ان عويم بن ساعدة قال يا رسول الله من الذين قال الله
عزوجل فيهم رجال يحبون ان يتطهروا فقال نعم رجل منهم عويم
ويدل على ارادة هذا المعنى بالتطهر قوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل

اهل البيت الآية **قوله** عز وجل نساوكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم
وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين الفرق
بين الحرث والزرع ان الحرث القا البذر وتهيئة للارض والزرع مراعاته
وانباته ولهذا قال افرءيتم ما تحرثون انتم تزرعونه فاثبت لهم
الحرث ونفى عنهم الزرع وقد جعل الله النساء محرما للرجل وجعل قوة
النكاح حفظا للنسل ولولا طلب النسل لما رخص العقل في الجماع لما يجلب من ذبول
البدن واضعاف البصر مع انه ليس بضروري للانسان كالجوع والعطش
لكن استحسن ما استحسن منه لطلب النسل المدعو اليه بقوله تناكحوا تكثروا
ولهذا قيل في الحكمة خير النساء الولود وشرها العقيم وحرم اتيان الرجال
على كل حال والنساء في محاشهن اذا لم يكن محرما ما سماه عليه السلم اللواطة
الصغرى وقيل لامير المؤمنين كيف النساء ان يؤتين في ادبارهن فقال
سفل الله بك ثم تلا اتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد وقوله فاتوا حرثكم
انى شئتم اى كيف واين بعد ان لا يتجاوز الحرث واعاد لفظ الحرث ولم
يقل فاتوه ليراعي المعنى المقصود بذلك لئلا يتوهم ما يتصوره قوم لم يتعمقوا
النظر وانما قال انى تنبيها على كذب اليهود حيث زعموا ان المراة اذا لم
تؤت مستقلبة يأتي الولد ذا حيل اى احول وقوله عقيب ذلك وقدموا لانفسكم
هو ان الله اذا اطلق امرا من الشهوات الدنيوية لا يخلي ذكره من الحث على
مراعاة العقبى والتقوى لئلا يلحق غفلة عما خلق لاجله وقول عطاء هو التسمية
عند الجماع وقول ابن عباس هو الطلب للولد على سبيل المثال

الودود